دراسات
فـى
تاريخ العصور الوسطى

الأستاذ الدكتور

أسـامـة زكـى زيـد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

والعميد الأسبق لكلية الآداب- جامعة طنطا

٢٠٠٦

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

مقدمة الكتاب



ظلت العصور الوسطى بقرونها العشر مليئة بالأحداث والتطورات السياسية الساخنة التى كان لها أثر كبير على مجريات الأحداث والتطورات فى بقاع عديدة من العالم الإسلامى والمسيحى على حد سواء. ومن هذا المنطلق عكفت سنين طويلة على دراسة كثير من تلك الأحداث فى الشرق الإسلامى تارة والغرب الأوروبى تارة أخرى حتى أصبح هذا الكتاب بين أيدى قرائه. فجاءت بعض البحوث لتبين أن اليقظة الإسلامية فى مواجهة الخطر الصليبى إنما نبعت من مصر ونجحت خلال مدة ليست بطويلة لا تتعدى الخمس سنوات فى أن تثبت لصليبى المملكة اللاتينية الموجودين بالأراضى المقدسة أن القوة الحقيقية إنما تكمن فى أعماق العقيدة الإسلامية. فكان ذلك فى بحث بعنوان:

"حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل (١١٠١-١١٠٥م/٤٩٥-٤٩٩هـ).

واستمراراً لهذا الجانب من الدراسات التاريخية المتعلقة بالشرق الأدنى الإسلامى جاء بحثنا الثانى بعنوان:

"كفر طاب وحصنها بين المسلمين والصليبيين (٤٩٢-٥٣٢هـ/١٠٩٩-١١٣٨م).

وقد أكدنا من خلاله أن موازين القوى بين المسلمين والصليبيين عندما أصبحت متعادلة كانت الحصون والقلاع الصليبية تتأرجح تارة بين المسلمين وتارة أخرى بين الصليبيين مما سهل على المسلمين استعادة كفر طاب أيام عماد الدين زنكى عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ لتنضم إلى بقية المعاقل الإسلامية فى المنطقة التى تصدت للكيان الصليبى إلى أن

انتهى الأمر بالقضاء عليه.

وقد حاولنا كذلك ان نؤكد فى بحث آخر بعنوان:

"الخوارزمية ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب (١٢٢٥-١٢٤٦م/٦٢٢-٦٤٤هـ).

أنه إذا كانت موقعة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ تمثل الضربة الأولى القاضية التى تلقاها الصليبيون على أيدى المسلمين، فهناك ضربة أخرى أشد منها مراره راح ضحيتها آلاف من الصليبيين وفقدوا فيها للأبد سيطرتهم على بيت المقدس. ونعنى بها هزيمتهم على أيدى الخوارزمية فى يوليو ١٢٤٤م/صفر ٦٤٢هـ. ثم هزيمتهم للمرة الثانية فى أكتوبر من نفس العام فى معركة غزة أمام جيوش الخوارزمية المتحالفة مع الجيش المصرى. فكان ذلك بداية لهزائم أخرى عديدة أدت فى النهاية إلى طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة على التوالى فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ.

أما البحث الرابع وهو "ملكات بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى/ القرن السادس الهجرى" يوضح إلى أى مدى كانت قوانين مملكة بين المقدس تحافظ على مشاعر المرأة وسمحت لها فى نفس الوقت بأن تقوم من خلال النظام الاقطاعى المطلق بدور هام فى تاريخ الإمارات والمدن الصليبية. وقد وجدت أن الحديث عن ملكات بيت المقدس يعتبر أحسن توثيق لدور المرأة فى الشرق اللاتينى فى عصر الحروب الصليبية ونقطة بداية واضحة لدراسة دور المرأة المنتمية إلى الطبقات الشريفة هناك.

أما بالنسبة للبحوث المتعلقة بالغرب الأوروبى فكان أولها يتعلق بترجمة وتعليق وتحليل لإحدى المقالات التى كتبها المؤرخ نورمان بينز بعنوان "الأفكار السياسية للقديس أوغسطين عن مدينة الله".

وقد قمنا بدراسة تحليلية تاريخية تساعد القارئ على فهم الموضوع من كافة جوانبه، فتحدثنا عن الأثر الذى تركته الديانة المسيحية فى نفوس الناس، ثم نبذه عن حياة القديس أوغسطين وأحوال العالم الرومانى عندما سقطت روما عام ٤١٠م وأخيراً أشرنا إلى أهم الجوانب التى تناولها القديس أوغسطين فى مؤلفه.

وهناك كذلك بحث سادس بعنوان:

"اللومبارديون وعلاقاتهم السياسية بالقوى المجاورة فى ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس".

وقد رأينا قبل الخوض فى تفاصيل احداث موضوع البحث أن نتحدث عن بولس الشماس وسيرته الذاتية بصفته شاهد عيان لكل ما كتبه عن تاريخ اللومباردين وكان يعتمد على الكتابات الأصلية المسجلة والمدونة دون الاعتماد على غيرها من الروايات الشفهية المتناقلة بين الأفراد ومن هنا اتسمت كتاباته بالصدق والأمانة.

أما عن البحث السابع فكانت وجهته حضارية بحثه بعنوان:

"المرأة اللومباردية فى ضوء قوانين اللومبارد (٦٤٣-٧٥٥م).

وترجع أهمية هذا البحث انه يوضح إلى أى حد كان وضع المرأة فى المجتمع اللومباردى متدنياً فلم تكن تتمتع بأى حق من الحقوق فمهما بلغت من العمر فهى قاصر ولابد أن تكون تحت وصاية الرجل. ومع ذلك

فقد حفظ المشرع اللومباردى حق المرأة فى رغبتها بالزواج ممن ترضاه حفاظاً عليها وعلى كيان المجتمع من التفكك والانهيار.

أما البحث الثامن والأخير كان بعنوان:

"الغزو الدانى للجزيرة البريطانية فيما بين عامى ٩٧٨-١٠١٦م.

"فى ضوء الوثائق الإنجليزية"

ويمثل هذا البحث جانباً هاماً فى تاريخ الجزيرة البريطانية ويوضح أن الهزائم المتكررة التى منيت بها الممالك الإنجليزية طوال فترة البحث إنما ترجع إلى تمزق تلك الممالك وافتقارها للقيادة الحكيمة. هذا بجانب روح الخيانة التى كانت ظاهرة منتشرة بين صفوف القادة الإنجليز والثقة الكبيرة التى كان يمنحها أولوا الأمر لهؤلاء الخونة دون التأكد من أهليتهم للثقة.

وفى النهاية لا يسعنى فى هذا المجال إلا أن أشكر الله عز وجل وأن ينال هذا العمل المتواضع الرضا والقبول وأن يكون له مكاناً فى المكتبة المصرية لينتفع به القارئ المتخصص والقارئ المثقف.

والله ولى التوفيق

الإسكندرية يناير ٢٠٠٦ **د. أسامة زكى زيد**

البحث الأول

حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين
فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل
(١١٠١-١١٠٥م/٤٩٥-٤٩٩هـ)

حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين
فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل
(١١٠١-١١٠٥م/٤٩٥-٤٩٩هـ)

اكتنفت العصور الوسطى التى اقتطعت من تاريخ البشرية عشرة قرون من الزمان، كثيراً من الظواهر والحركات التى تركت أبلغ الأثر على مجريات الأحداث فى كثير من أنحاء العالمين الإسلامى والمسيحى. ولعل من أهم هذه الحركات ما يطلق عليه المؤرخين اسم "عصر التوسع الصليبى" الذى شغل قرابة قرنين من الزمان، وعلى وجه التحديد الفترة الممتدة من أواخر القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد (من أواخر القرن الخامس حتى أواخر القرن السابع من الهجرة).

ولاشك أن هذه الحروب بما تضمنته من أحداث متشابكة ومتداخلة فيما بينها، إنما تمثل فصلاً هاماً من فصول العلاقات بين الشرق والغرب فكان نجاح الصليبيين واستيلاؤهم على بيت المقدس عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ بمثابة الضربة القاصمة التى وجهت إلى المسلمين بصفة عامة، وإلى الخلافة الفاطمية فى مصر بصفة خاصة. فإذا كان أولو الأمر فى مصر قد أبدوا ارتياحاً كبيراً للوجود الصليبى فى المنطقة منذ بداية الحركة الصليبية – قبل الاستيلاء على بيت المقدس – اعتقاداً منهم أن قيام ممالك للصليبيين فى بلاد الشام يعتبر حاجزاً يحول دون زحف السلاجقة إلى مصر وضمها إلى ممتلكاتهم، فالأمر اختلف بعد أن ازدادت أطماع الصليبيين وسيطروا على منطقة يعتبرها المسلمون ضمن أقدس

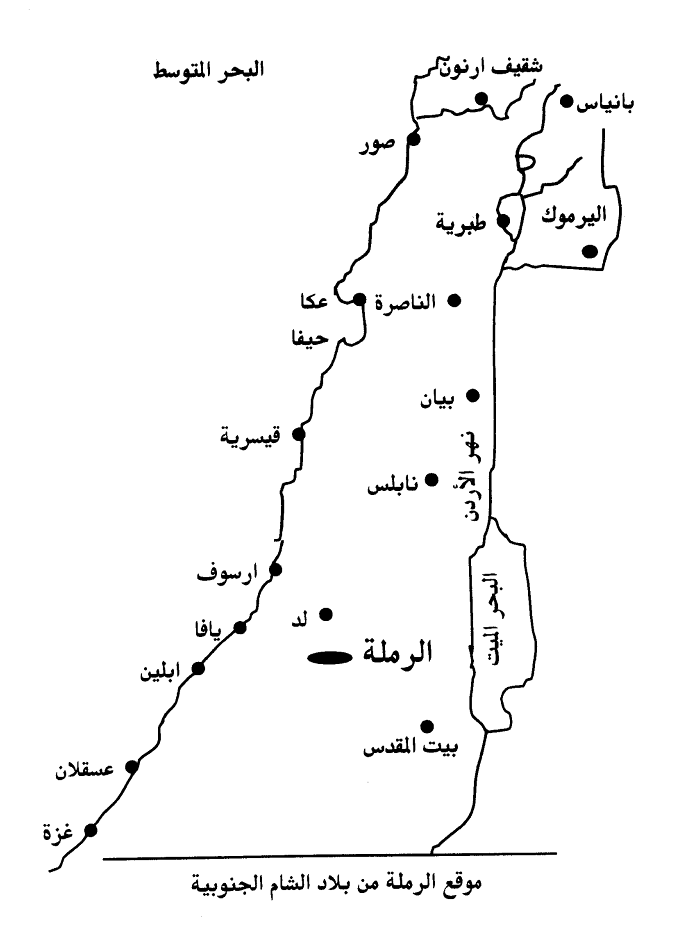
البقاع الإسلامية، وهى بيت المقدس التى كانت آنذاك فى حوزة الفاطميين. فكان من الطبيعى أن يفيق المسلمون من كبوتهم محاولين قمع هذه الحركة وإعادة الأمور إلى طبيعتها الأولى. فوقعت المسئولية على عاتق وزير مصر الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى. فأخرج من مصر ثلاث حملات حربية فى الفترة الممتدة بين عامى ١١٠١م، ١١٠٥م (٤٩٥-٤٩٩هـ)، موجهة ضد القوات الصليبية الموجودة فى فلسطين ليثبت للصليبيين مدى يقظة المسلمين وغيرتهم على كل شبر من الأراضى المقدسة. ورغم بعض الانتصارات التى حققتها الجيوش الإسلامية فى هذه المحاولات الثلاث، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق الهدف المنشود لها وهو استعادة بيت المقدس مرة أخرى للمسلمين فى هذا الوقت المبكر من الحركة الصليبية. ومن هذا المنطلق جاء اختيارنا لموضوع البحث وهو:

حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل

(١١٠١-١١٠٥م/٤٩٥-٤٩٩هـ)

وذلك بهدف توضيح الجهود الكبيرة التى بذلتها مصر فى مواجهة التدخل الصليبى ودفعه وهو لا يزال فى بدايته.

وقبل الدخول فى تفاصيل الموضوع يستحسن إلقاء نظرة سريعة على جغرافية مدينة الرملة وطبوغرافيتها باعتبارها مسرحاً للحملات الثلاث موضوع هذه الدراسة. وكذلك التعرف على الظروف التى ساعدت الصليبيين على الاستيلاء على مدينة الرملة، ثم استعراض أحوال العالمين الإسلامى والمسيحى آنذاك بتركيز. وكان اعتمادنا فى المرتبة



موقع الرملة من بلاد الشام الجنوبية

الأولى على الأصول والمصادر القديمة من أجنبية وعربية. وجانب من الأصول الأجنبية لا يزال بلغاته الأصلية التى دون بها كاللاتينية والفرنسية القديمة. كما أن بعض المنابع العربية لا يزال خطياً لم ينشر بعد والمسالك هذا إلى جانب كتب المسالك والممالك والمراجع الحديثة المتخصصة.

كانت مدينة الرملة إحدى المدن الرئيسية الكبرى التابعة لفلسطين، وهى فى نفس الوقت عاصمة لإقليم فلسطين الجنوبى حتى قبل استيلاء الصليبيين عليها عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ[١] وكان أهل كل من الشام والمغرب يطلقون عليها اسم فلسطين[٢]. وهى تقع شمال غربى القدس، تبعد عنها بثمانية عشر ميلاً تقريباً، وتبعد عن عكا بعشرين كيلو متراً، وعن صور بثمان وعشرين كيلو متراً[٣]. كما تقع على بعد أربعة كيلو مترات من اللد[٤]. وتبعد المدينة عن الشاطئ بحوالى أربعة كيلو مترات[٥]،

---

(١) الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ٦٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٨١
راجع أيضا:
Stanly, Sinai and Palestine, p. 224; Benven siti, The Crusades in the holy land, p. 167.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامة، ص ١٩.

(٣) رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة عزرا حداد، ص ١٠٨؛ مؤلف مجهول: مراصد الإطلاع، جـ١، ص٤٨٣؛ الأنصارى الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٠١؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٢٤١؛ ناصر خسرو: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) Sanuto, Descritption of the holy land, p. 18; Smith, The Historical Geography of the holy land, p. 165.

(٥) ناصر خسرو: نفس المصدر والصفحة.

ولهذه المدينة أهميــة استراتيجية كـبرى باعتبارهـا فـى مفـترق الطـرق المؤدية إلى بيت المقدس(١). وهى تقع فى أحد السهول المنبسطة على ربـوة قليلة الارتفاع(٢). وكلما زاد الاقتراب من المدينة زادت كثرة الرمال وزاد عمقها لدرجة تغرس فيها الأقدام. ومن هنا كان اسم المدينـة مشـتق مـن الكلمة العربية "الرملة" أى المكان الرملى(٣). وكان لهـذا أثـر كبـير علـى طبيعة الجو هناك، حيث أتسم بالقسوة خاصة إذا ما هبت رياح سـاخنة محملة بالأتربة مما يجعل حياة الناس وسط هذه الظروف صعبة قاسـية. ولذلك كان كثير من أهل لمدينة يتجنبوا الاسـتقرار عنـد الطـرق المرتفعـة الموجودة فى المدينة، لتفادى ما قد يصيبهم من أضرار ناتجة عـن هبـوب العواصف والرياح(٤).

ويرجع تاريخ بناء هذه المدينة إلى عهد الخليفـة الأمـوى سـليمان بن عبد الملـك (٧١٥-٧١٨م/٩٦-٩٩هـ). فعندمـا اعتلـى عـرش الخلافـة الأموية عام ٧١٥م/٩٦هـ أعرب عن استيائه الشديد من اتخاذ مدينة اللـد المسيحية عاصمة للإقليم الجنوبى من فلسطين. فشرع عام ٧١٧م/٩٨هـ فى وضع أساس مدينة جديدة، هى مدينة الرملة. وعند الانتهاء مـن بنائـها هاجر إليها معظم سكان مدينة اللد. وأصبحـت منذ ذلك الوقـت مركـزاً هاماً فى المنطقة ومصدراً للقوى المحيطة بها(٥).

---

(١) Benvenisiti, op. cit., p. 168.

(٢) Ibid., Hand Book for travellers in Sinai and Palestine, p. 262.

(٣) Lamb, The Crusades, p. 189.

(٤) Stanly, op. Cit., p. 224.

(٥) أبو الفدا: المصدر السـابق، ص ٢٤١؛ الأنصـارى الدمشـقى: المصدر السـابق، ص٢٠١، أنظر كذلك من المراجع الأجنبية: =

ولعل من أهم المعالم المعمارية الرئيسية فى مدينة الرملة ذلك البرج الضخم الذى يقف على ربوة عالية تبعد مسافة ربع ميل من المدينة نفسها[1] وقد اختلف المؤرخون الحديثون حول تاريخ بناء هذا البرج وانتهى الرأى إلى أنه ينتسب إلى الإمبراطورة هيلانه[2]. وظل على نفس حالته حتى الغزو الصليبى للمنطقة والاستيلاء على المدينة عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ. فأدخل الصليبيون عليه بعض التعديلات والإضافات، وأنشأوا بجواره ديراً للرهبان ومكاناً خاصاً لجماعة الفرسان الداوية. وقد استخدمت قمة هذا البرج لتكون قبة لجرس الدير[3].

وكان يوجد أيضاً بالرملة حصن كبير مزود بأبراج عالية يرجع تاريخ بنائة إلى الملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية[4] (١١٠٠-١١١٨م/٤٩٤-٥١١هـ) وكانت المدينة تضم كثيراً من العناصر الإسلامية والمسيحية. أما بالنسبة للعنصر اليهودى المتواجد هناك فكان فى بداية الأمر قلة بالنسبة للعنصر من الآخرين. ولكن سرعان ما زاد عدد اليهود بشكل ملحوظ فى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل

Benvenisiti op. cit., 167; Hand Book for travellers in Sinai and= Palestine, p.263; Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p.198.

(١) Alphonso de la Martine, Travelles in the East, p. 137; Franklin, Palestine, Depicated and Described, p. 18.

(٢) المقصود بها أم الإمبراطور الرومانى قسطنطين (٣٠٥-٣٣٧م).

(٣) Hand Book for travellers in Sinai and palestine, p. 262.

(٤) Fabri, cf. Palestine Pilgrim's Text Society, 11, pp. 403-404.

القرن الخامس الهجرى)[1].

وتعرضت مدينة الرملة خلال هذا القرن لعديد من الكوارث التى حلت بها. ففى عام ١٠٢٥م-٤١٧هـ أصابها الخراب على يد غزو بعض قبائل البدو لها[2]. وفى شهر ديسمبر عام ١٠٣٣م-المحرم ٤٢٥هـ دمر أحد الزلازل معظم مبانيها، ولكن دون أن يصاب أحد من سكانها بسوء[3]. ورغم كل هذا فقد تحمل الأهالى كثيراً من أجل إعادة بناء المدينة من جديد، وتجميلها فى صورة أحسن مما كانت عليه. إذ يتضح من كتابات الرحالة ناصر خسرو فى كتابه "سفر نامة" أثناء زيارته للمدينة عام ١٠٤٧م-٤٤٠هـ بأنها مدينة جميلة بها سور حصين من الحجر والجص وعليه أبواب حديدية. كما أشار إلى مدى اعتماد الأهالى هناك على مياه الأمطار، فاهتموا ببناء حوض فوق كل منزل لجمع مياه الأمطار لتبقى ذخيرة دائمة لهم[4].ولكن إذا كان الأهالى قد عانوا كثيراً من أجل إعادة ترميم المدينة، فلم يكد يستريحون حتى تعرضت للمرة الثانية عام ١٠٦٧م/٤٦٠هـ لزلزال آخر أشد عنفاً من الأول، وقد قضى على عدد كبير من أهالى المدينة، بلغ عددهم حسب آخر الإحصائيات ما يقرب من عشرين ألف نسمة[5].

---

(١) Benvenisiti, op. cit., p. 167.

(٢) Idem.

(٣) Idem.

(٤) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ١٩.

(٥) Ibid., p. 168.

يتضح مما سبق مناعة مدينة الرملة مما جعلها عزيزة لا ترام.

ومع ذلك لم يجد الصليبيون فى حملتهم الأولى ضد الشرق الأدنى الإسلامى، صعوبة كبيرة فى الاستيلاء عليها، وكان لهذا أيضاً أسبابه ودوافعه، فبعد أن استولوا على كل من الرها وأنطاكية فى عام ١٠٩٨م-٤٩٢هـ، وأسسوا إمارتين بهما، عقدوا العزم على السير نحو بيت المقدس. ولكن حدث انقسام فى الرأى بين الصليبيين حول أفضل الطرق التى يجب ان يسلكونها وهم فى الطريق إلى بيت المقدس. وكان الرأى الغالب يؤيد فكرة السير بحذاء الساحل حتى يتمكنوا من الحصول على كل ما يحتاجونه من تموين وإمدادات من كل من الدولة البيزنطية وقبرص، فضلاً عن إمكانية مساعدتهم بواسطة الأساطيل الغربية التى اتخذت من السويدية واللاذقية قواعد لها[1]. ولكن مما لا شك فيه أن هذا الطريق كان يتطلب تضحيات كبيرة ووقتاً طويلاً، لأنه فى هذه الحالة لابد وان يستولوا على الحصون الواقعة على الساحل. والواضح أن القوة الضاربة للجيش الصليبى كانت لا تتجاوز وقتذاك ألف فارس وخمسمائة من المشاه. وهو عدد قليل جداً لا يتناسب مع حصار هذه الحصون الكبيرة. ولذلك رأى الفريق الآخر ضرورة السير فى الطريق الداخلى المباشر إلى بيت المقدس، حتى يتجنبوا الكثير من المشاكل السابقة. ولكن كان الاعتراض على هذا الرأى قائم على أن المنطقة بين لبنان والصحراء واقعة تحت حكم دقاق أمير دمشق (١٠٩٥-١١٠٤م/٤٨٩-٤٩٨هـ) الذى يختلف عن أمراء العرب، فى كفاحه

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٢٢٨.

وغيرته على وحدة المسلمين. فلابد وأنه سيقاوم الصليبيين[1]. وبعد هذا النقاش الطويل انتهى الأمر بالسير بحذاء الساحل على ألا يضيعوا وقتاً كثيراً أثناء مرورهم أمام الموانئ الساحلية التى تقابلهم بل المرور السريع عليها، والاستيلاء على كل ما يمكنهم الحصول عليه منها لضمان توفر امداداتهم لأطول وقت، خاصة وهم يعلمون أن هذه الفترة تتفق مع موعد جنى المحصول والحصاد فى هذه المدن[2].

على أية حال، واصل الفرنج السير بحذاء الساحل حتى ارسوف، وبعدها تركوا الشاطئ وتوجهوا إلى الداخل فى طريق بيت المقدس. وكان جود فرى دوق اللورين السفلى وقائد إحدى الفرق الصليبية[3] قد أرسل إلى الأمير تانكريد ابن أخت بوهيموند النورماندى فى نابلس بخبرة بأنه متجهاً ناحية الرملة. ويطلب منه سرعة الحضور بالمؤن والإمدادات لتعزيز القوات الصليبية ضد أى معركة حربية قد تنشأ مع حامية هذه المدينة[4]. ووصلت القوات الصليبية إلى مدينة الرملة فى مايو ١٠٩٩م جمادى الآخرة ٤٩٣هـ، وعسكروا

---

(١) Runciman, A History of the Crusades, 11, p. 268.

(٢) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, CF. R.H. C , H. occ., 111, p. 507.

(٣) تولى حكم هذا الاقطاع عام ١٠٨٩م. وعندما استولى على بيت المقدس عام ١٠٩٩م وتأسست المملكة اللاتينية عين عليها حامياً للقبر المقدس. ولكن لم يستمر فى الحكم طويلاً حيث مات بعد عامين، وأصبح شقيقه بلدوين بعد موته أول ملك متوج لملكة بيت المقدس. أنظر جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، ص١٥٣.

(٤) Lamb, op. cit., p. 255.

بجوارها وكانت المدينة آنذاك خاضعة لسيطرة الخلافة الفاطمية فى مصر فى عهد الخليفة المستعلى بـالله "١٠٩٤-١١٠١م، ٤٨٧-٤٩٥هـ) [١] ومـا أن سمع أهلها بقرب وصول القوات الصليبيـة تجاهـهم حتـى دب الذعـر فى قلوبهم، وانهارت المقاومة بسبب ضعف حامية المدينة وقلـة عددهـا. ثم أن بعدها عن البحر جعل مساعدة الأسطول المصرى لها أمـراً متعـذراً. ولذلك لاذوا بالفرار من دورهم بعد أن دمروا فى شىء من التحدى كنيسة القديس جورج – الواقعة فى اللد على مقربة من مدينة الرملة[٢]. وعندما أراد الصليبيون اقتحام أسوار المدينة لاحظوا أن الطرقات مهجورة والدور

---

(١) Fulcher of charters, A history of the expedition to Jerusalem, p. 155; Baldrici, Hitoria Jerosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ., Iv. P. 95 cf. also: Conder, the Latin Kingdom, p. 157; watson, Jerusalem, p.172

انظر كذلك: ابن القلانسى: ذيـل تـاريخ دمشـق، ص ١٣٦، المقريـزى: اتعـاظ الحنفا، جـ٢، ص٢٣.

(٢) Gotfridi, Anonymo Rhenani Historia et Gesta ducis Gotfridi, cf. R.H.C.-H. occ., V, p. 492; Roberti, Historia Iherosolimitana, cf. R.H.C.-H. Occ., 111, p. 859; cf. Also: Grousset, Histoire des Croisades, 1, p. 150; Runciman, op. Cit., 1, p. 276-277; Benvenisiti, op. Cit., p. 167; Belloc, The Crusades, p. 135.

ويقال أن جثمان القديس جورج مدفون بهذه الكنيسـة وأنـه كـان أحـد القديسـين الذين نعموا بالشهادة فى هذه البقعة من الأرض من أجل إحياء ذكـرى المسـيح وتمجيده. أنظر اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمـة الدكتـور حسـن حبشى ، ص ١١٤.

سرعة فائقة، واستولوا عليها وهم متعطشين للاستمتاع بكثرة أراضيها الخصبه الصالحة للزراعة(١) وسكنوا بها أربعة وعشرين يوماً من ٢٤ مايو حتى ١٧ يونيو عام ١٠٩٩م (من ٢٣ جمادى الآخرة حتى ١٨ رجب ٤٩٣هـ) (٢) لقد فرح الصليبيون واشتدت حماستهم لمواصلة باقى العمليات الحربية بسبب احتلالهم مدينة الرملة الإسلامية الواقعة فى جوف الأراضى المقدسة. واقسموا على أن ينهضوا بعمارة كنيسة القديس جورج وأن يعمروا كلا من الرملة واللد، وأن يجعلوا منها لوردية تنتمى إلى القديس جورج، وأن يقيموا أبرشيه جديدة يتولاها أسقف اللد. وبالفعل تقرر تنصيب أحد القساوسة النورمان، واسمه روبرت روان Robert de Rouen، سيدا على اللد والرملة معاً(٣) واستمرت مدينة الرملة طوال حكم الصليبيين لها قاعدة خلفية للجيوش الصليبية فى شتى المعارك التى خاضوها ضد المسلمين(٤). ولذا أدرك الصليبيون بثاقب نظرهم أهمية المدينة، وضرورة حماية طريق البحر الموصل لبيت المقدس. ولذا عندما فكروا فى الرحيل منها للتوجه إلى يافا، تركوا بها حامية صغيرة لحراستها ضد أى محاولة غزو يقوم بها الفواطم فى مصر بهدف استعادتها مرة أخرى(٥).

---

(١) Gotfridi, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Fulcher of charters, op. cit., p. 155.

(٣) Runciman, op. cit., 1, p. 227; Grousset, op. cit., 1, p. 150.

(٤) Benvenisiti, op. cit., p. 168.

(٥) Ibid; Belloc, op. cit., 135; Grousset, op. cit., p. 150.

وجدير بالذكر فى هذا المقام، أن هذا النجاح الذى أحرزه الصليبيون فى استيلائهم على مدينة الرملة وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى،وتأسيس الإمارات اللاتينية الأربع وهى الرها فى أعالى الفرات، وانطاكية فى أعالى الشام، وطرابلس على الساحل الشامى وأخيراً بيت المقدس فى قلب فلسطين، لا يرجع إلى قوتهم أو كثرة عددهم، ولا يعزى إلى المساعدات التى كانوا يتلقونها من الغرب، وإنما يرجع أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين وقتها، لأن القوات الصليبية عندما تقدمت إلى الشرق الأدنى لم تصادف قوات إسلامية متحدة، بل صادفت قوى متفرقة متنازعة، بسبب سوء الحالة السياسية فى العالم الإسلامى آنذاك[1].

فكانت الخلافة العباسية تعانى كثيراً من الضعف والانحلال بسبب كثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة، مما أدى إلى تقلص نفوذ الخليفة العباسى ولم يعد له أى ظل من السلطان آنذاك. خاصة وأن الخلافة العباسية كانت منصرفة إلى محاولة التشكيك فى نسب الفاطميين والشيعة وإعادة المذهب السنى إلى مكانته الأولى[2].

أما بالنسبة للخلافة الفاطمية، فلم تكن بأحسن حالاً من الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تنخر فى كيانها منذ أواخر حكم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م). فبلغت

---

(١) محمد الشيخ: الجهاد المقدس، ص٩.

(٢) الاربلى: خلاصة الذهب المسبوك، مختصر من سير الملوك، تحقيق مكى جاسم، ص ٢٢١، ٢٢٢. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥٦.

درجة كبيرة من التدهور، مما أدى إلى انسلاخ كثير من أملاكها فى بلاد الشام عنها. كما كانت فى هذا الوقت مشغولة فى محاولة انتزاع زعامة العالم الإسلامى من الخلافة العباسية وتقويض دعائمها وإحلال المذهب الشيعى بدلاً من المذهب السنى[1].

هذا فيما يتعلق بكل من الفواطم وبنى العباس، أما بالنسبة للقوة الثالثة فى المشرق الإسلامى فهى الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى: فقد أصبحوا فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) فى حالة من الفوضى والاضطراب والانقسام السياسى والأسرى. وبدأ التفت يظهر على ممتلكات هذه الدولة التى انقسمت إلى وحدات سياسية صغيرة تنافس كل منها الأخرى فى بلاد الشام[2]. وقد بلغ العداء بين الفاطميين والسلاجقة أن الدول الفاطمية الشيعية فى مصر، التى كانت فى طور الاحتضار وقتذاك، كانت لا تدرك طبيعة الحركة الصليبية وهدفها، بدليل أنها رأت فى وصول القوات الصليبية فرصة ذهبية لاستعادة ممتلكاتها الضائعة بالشام، والتى كان قد استولى عليها السلاجقة وأولها بيت المقدس. ففكرت فى مشروع التحالف مع تلك القوة الجديدة ضد خصومها من أهل السنة، وهم الخلافة العباسية فى بغداد والأتراك السلاجقة فى الشام[3]، بحيث يقف الفرنج عند

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٧، جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ١، ص٢٤٣، محمد الشيخ: المرجع السابق، ص٣٦.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص١٤، محمد الشيخ: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) Chalandone, Histoire de la Premiere Croisade, p. 196.

انطاكية ويستولى الفاطميون على بيت المقــدس[1]. وكـان مـن الطبيعـى ان يوافق اللاتين على مثل هذا التحـالف ولـو مؤقتـاً، إذ سيضمنون وقـوف الفاطميين على الحياد فى الصراع بينهم وبين الســلاجقة ممـا يتيـح لهـم فرصة القضاء على مقاومتــهم فـى أعـالى الشـام. وبذلـك يتـم لهـم التفـرغ لمقاومة الفاطميين بعد ذاك. وهذا ما حدث تماماً، فاستولى الفاطميون على القدس فى أغسطس ١٠٩٨م– شعبان ٤٩١هـ. ولكن سرعان مـا تبـدد هـذا الحلم الذى عاشه الفاطميون بمجرد تقـدم الصليبيـين جنوبـاً وانتزاعـهم بيت المقدس منهم فى يوليو ١٠٩٩م، شعبان ٤٩٢هـ.

وإذا كان هذا هو حال الشرق الأدنى الإسلامى فى الفترة المعاصرة لموضوع البحث فلبس معنى هذا أن الغرب الأوروبى – الذى أمد الحركـة الصليبية بمساعدات مستمرة – لم يكن يعانى مـن الفوضـى والاضطـراب. فقـد كـانت أحوالهـم تتسـم بمظـاهر المنازعـات والحـروب، فضــلاً عــن الانشـقاقات الدينيــة بـين رأســى العــالم المسـيحى الغربـى وهمـا البابــا والإمبراطور هذا بجانب الخلافات القائمة بين الكنيستين الأرثوذكســية الشرقية والكاثوليكية الغربية[2].

على أية حال، كان انتشار نبأ سقوط بيــت المقــدس فــى أيــدى

---

(١) Stevenson, The Crusaders in the East, p. 26.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع أنظر: جوزيـف نسـيم يوسـف: العـرب والروم واللاتين ص٩٢ وما بعدها، سـعيد عاشـور: أوروبـا العصـور الوسـطى، جـ١، ص٣٣٨-٣٩٤ ومن المراجع الأجنبية أنظر:

Setton, Ahistory of the Crusades, pp. 3-31 Stanley, Europe in the Middle Ages, pp. 329-365.

الصليبيين عام ١٠٩٩م ، ٤٩٣هـ بمثابة الضربة القاصمة التى وجهت إلى العالم الإسلامى بصفة عامة، وإلى الخلافة الفاطمية فى مصر بصفة خاصة. ولكن إذا كان الفاطميون فى مصر قد اعتادوا السكوت من قبل عند استقطاع أى جزء منهم فى بلاد الشام بمعرفة الصليبيين، فلم يكن هذا حالهم عند ذاك. فأخذ الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى[1]. يفكر جدياً فى استعادة هذا الجزء العزيز لدى كل الأمة الإسلامية.

---

(١) هو أبو القاسم شاهنشاه الملك الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى، كان أبوه أرمنى الجنسية، وكان من الرجال المعدودين من ذوى الآراء والشهامة والقوة. وقد استنابه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) بمدينة صور. ولكن لما ضعفت أحوال البلاد المصرية استدعاه الخليفة عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م لتدبير أمور الدولة بمصر، فأصلح الحال بها. ولما اشتد به المرض مهد الأمور لابنه الأفضل لتوليه أمر الوزارة من بعده. وكان الأفضل حسن التدبير، وهو الذى نصر المستعلى على أخيه نزار وإقامة على حكم مصر خلفاً لأبيه المستنصر بالله وفى نفس الوقت له الفضل فى مناصرة الآمر بأحكام الله لتوليه أمور الخلافة بعد وفاة المستعلى عام ٤٩٥هـ/١١٠١م. وقيل أنه حجر على الخليفة الآمر ومنعه من ارتكاب الشهوات، فعمل هذا على قلته، فحرض عليه جماعة من الإسماعيلية فقتلوه فى رمضان عام ٥١٥هـ/ نوفمبر ١١٢١م. ولكن قيل رأى آخر فى مقتله خلاصته أنه لما اشتدت هجمات الصليبيين على مدينة صور وعجزت الدولة الفاطمية عن نجدتها، استنجد أهلها بطغتكين صاحب دمشق فأرسل إلى الوزير الفاطمى الأفضل يسأله فوافقه على احتلال المدينة وحمايتها حتى لا تسقط فى أيدى الصليبيين. ولكن أثار هذا الموقف غلاة الشيعة فى مصر والشام فتربص له البعض من رجال الفداوية الإسماعيلية أثناء ذهابه إلى مخزن السلاح وطعنوه بخناجرهم وأصابوه إصابة

فانتهز فرصة انصراف الملك الصليبي بلدوين (١١٠١-١١١٨م، ٤٩٤-٥١٢هـ) مع معظم قواته في حصار قيسارية[1]، ثم انشغاله في تقسيم الغنائم التي حصل عليها الصليبيون عقب سقوط المدينة في أيديهم في ١٧ مايو ١١٠١م، ٢٣ جمادى الآخرة ٤٩٤هـ) وأعد جيشاً كبيراً

ولكن قيل رأى آخر في مقتله خلاصته أنه لما اشتدت هجمات الصليبيين على مدينة صور وعجزت الدولة الفاطمية عن نجدتها، استنجد أهلها بطغتكين صاحب دمشق فأرسل إلى الوزير الفاطمي الأفضل يسأله فوافقه على احتلال المدينة وحمايتها حتى لا تسقط في أيدى الصليبيين. ولكن أثار هذا الموقف غلاة الشيعة في مصر والشام فتربص له البعض من رجال الفداوية الإسماعيلية أثناء ذهابه إلى مخزن السلاح وطعنوه بخناجرهم وأصابوه إصابة خطيرة عجلت بوفاته، وكان عمره حينذاك سبع وخمسين عاماً. وقيل أنه ترك ثروة طائلة تتضمن أموالاً لا تحصى وتحفاً يعجز عن وصفها. أنظر: المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٣٣١، جـ٣، ص٦١-٦٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص١١٠، ابن ايبك كنز الدرر، جـ٦، لوحة ٣٤١، العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٤، ص٤٧، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٦، لوحة ١٠٩ أنظر أيضاً:

Defremery, Nouvelles Recherches surles Ismaeliens au Bathiniens de syrie, p. 403.

(١) تقع قيسارية على ساحل البحر المتوسط، وتبعد عن يافا ناحية الشمال بحوالى ٣٠ ميلاً ومن بيت المقدس من ناحية الشمال الغربي بحوالى ٦٢ ميلاً، ومن عكا بحوالى ٣٦ ميلاً، وقيل أنها بنيت عام ٢٢ ق.م. وكانت المدينة تتمتع بأسوار حصينة وأبراج عديدة، فضلاً عن مرسى شيق لا يتسع إلا لمركب واحد. واستولى الصليبيون عليها عام ١١٠١م/٤٩٥هـ، واستردها المسلمون منهم عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ. وبعد ذلك أخذت تترنح بين الطرفين إلى أن سقطت نهائياً في أيدى المسلمين عام ١٢٦٥م/٦٦٤هـ. أنظر: رحلة بنيامين التطيلي ص٩٤، ناصر خسرو: سفر نامة، ص١٨، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٣٨، الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦٥، خليل خوري: خرابات سوريا، ص٣٣-٣٤. ومن المراجع الأجنبية راجع أيضاً:

Muller, Castles of the Crusades, P. 24; Banister, A Survey of holy Land, p. 27, Taylor, La Syrie, l'Egypte et la Palestine, p. 267.

تجاوز العشرين ألف مقاتل، خلاف الآخرين الذين كلفهم مهام أخرى غير القتال مثل حمل الأمتعة وتجهيز المؤن[١]. وأسند أمر قيادة الجيوش الغفيرة إلى الأمير سعد الدولة الطواشي الحاكم السابق لمدينة بيروت[٢].

هذا، وإن كان المؤرخ الانجليزى رانسيمان يرى أن السبب الحقيقى لخروج هذه الجيوش من مصر إنما يرجع إلى رغبة الوزير الفاطمى الأفضل فى الانتقام من الهزيمة التى منيت بها الجيوش الإسلامية أمام القوات الصليبية فى معركة عسقلان التى تمت فى أغسطس عام ١٠٩٩م، رمضان ٤٩٣هـ[٣].

ولكننا نختلف فى الرأى مع ما ذكره رانسيمان. إذ أن وجهة نظره تعبر عن نوع من أنواع المكابرة والتعصب لبنى جلدته، بل والإصرار على عدم الاعتراف بأهمية مصر ومحاولاتها فى الوقوف ضد القوات الصليبية، وبالأفاقة التى بدت عليها عندما أدرك حكامها الفواطم مدى الخطأ الذى ارتكبوه فى حق العالم الإسلامى عندما تحالفوا مع الفرنج ضد المسلمين أنفسهم من عباسيين وسلاجقة، فأتاحوا الفرصة

---

(١) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem cf. R.H.C.-H. occ III, p. 527, Gotfridi, op. Cit., p. 05.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٠، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٣٦٤؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، لوحة ٤٩٦ن ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٥٢، راجع أيضاً:

Grousset, op. Cit., I, p. 224.

(٣) Runciman, op. Cit., I, p. 73.

للتوغل الصليبى فى المنطقة. فواضح انهم أرادوا أن – يصلحوا ما نتج عن هذا الخطأ بقيام عدة حملات هدفها استعادة ما سلبه الصليبيون منهم. ولعل ما يعزز هذا القول أنه إذا كان هناك الأمر يتعلق بالانتقام فقط – وفق ما أشار رانسيمان – ما كان هناك أى داع لتصميم الوزير الفاطمى الأفضل على إرسال حملة ثانية عام ١١٠٢/٤٩٦هـ ثم ثالثة ١١٠٥م/٤٩٩هـ لتحقيق نفس الهدف. فضلاً عن المحاولات الأخرى والتى قام بها عام ١١٠٦م–٥٠٠هـ والتى حققت فيها الجيوش الإسلامية ما لم تحققه خلال الحملات الثلاث السابقة هذا. بجانب المحاولة التى تبناها الوزير الأفضل عام ١١١٠م–٥٠٤هـ والتى تمكنت خلالها الجيوش الإسلامية من الوصول إلى أسوار بيت المقدس مكتسحة أمامها المقاومة الصليبية التى اعترضت طريقها. ولكن ما لبثت أن انسحبت تلك الجيوش.

هذا فضلاً عن أن كثيراً من المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة أمثال البرت ديكس، وجوتفريدى Gotfridi، والمؤرخان المجهولان فى كتابهما "تاريخ بيت المقدس وأعمال الفرنجة"، قد ذكروا أن سبب الحملة التى شنها الوزير الفاطمى الأفضل ضد الصليبيين عام ١١٠١م–٤٩٤هـ كانت تستهدف قتال الفرنج بالشام واستعادة بيت المقدس[1].

---

(١) Gotfridi, op. Cit., p. 505; Anonymous, Gesta Francorum Expugnatium Iherusalem, cf. R.H.C. – H. occ. III, p. 527; Anonymous, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ., IV, p. 559

على أيـة حـال، تجمعـت الجيـوش المصريـة فـى مـايو ١١٠١م- شعبان ٤٩٤هـ أمام عسقلان باعتبارها مركز لانطلاق ورحيل كل الغزوات المصرية الموجهة ضد الصليبيين فى فلسطين فيما بعد[١]. وأخذت الحملـة المصرية الأولى طريقها ناحية بيت المقدس. وعندمـا اقـتربت مـن مدينـة الرملة أدرك سعد الدولة، قائد الجيـش المصـرى سـرعة تحـرك الجيـش الصليبى بقيادة الملك اللاتينى بلدوين من قيسارية فى طريقة إلى الرملـة، بعـد أن تـرك حاميـة صغيرة فـى قيسـارية لحمايتـها ضـد أى محاولـة إسلامية تهدف استعادتها. ولهذا اضطر الأمير المصرى أن يتقهقر للوراء مع قواته والعودة إلى عسقلان. واستمر بها أكثر من شهرين طلباً للراحـة وانتظاراً لوصول إمدادات جديدة. أما من ناحية بلدويـن، فبعـد أن وصـل إلى الرملة عمل على تحصينها ثم تركها متجهاً إلى يافا لمراقبة تحركـات المصريين. وظل بها طوال شهر يونيو من نفـس العـام (١١٠١م-٤٩٤هـ) وبعدها توجه إلى بيت المقدس حيث قضى هناك شهرى يوليو وأغسطـس من نفس العام بقصد جمع المال والرجال[٢].

ولكن خلال الأيام الأخيرة مـن شـهر أغسـطس عـام ١١٠١م- ذى القعدة ٤٩٤هـ نمى إلى علمه تحركات كثيرة للجيش المصـرى، علـى أثـر وصول إمدادات جديدة إليه، بهدف المسـير تجـاه بيـت المقدس. ولذلـك

---

(١) Albert d'Aix, Historia Hierosolimitana, cf. R.H.C. –H. occ, IV, p.459..

CF also Grousset, op. Cit., I, p. 224; Stevenson, op. Cit., p. 48; Besant, The History of Jerusalem, p. 244.

(٢) Gotfridi, op. Cit., p. 505; Anonymous, Historia Hierosolimitna cf. R.H.C.-H. occ., IV, p. 559. Cf. also: Grousset, op. Cit., I, P. 225.

جمع رجاله من القدس وطبرية وقيسارية وحيفا، وكان لحوحاً متعجلاً في هذا الشأن. ورغم ذلك لم يكن معه سوى مائتي وستين فارساً وتسعمائة راجل، في حين أن جيش المسلمين تجاوز العشرين ألف مقاتل[1]. وجدير بالذكر أن كل من المصادر الإسلامية والغربية لم تعلل سبب عدم إمكانية الملك بلدوين في جمع عدد كبير من المقاتلين الفرنج يتقارب مع عدد الجيش المصري رغم أن الحركة الصليبية كانت لاتزال

---

(1) Fulcher of Chartres, op. Cit., p. 156; Gotfridi, op. Cit., loc. Cit; Anonymous, op. Cit. Loc. Cit., Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C.-H.occ., III, p. 527; cf. also: Grousset, op. Cit. Loc. Cit.

وجدير بالذكر أن المؤرخين الغربيين قد اعتادوا على المبالغة في ذكر أعداد الجيوش الإسلامية والصليبية على حد سواء. ولذلك نجد اختلافات كبيرة في هذا المجال بين بعض المؤرخين المعاصرين للفترة الزمنية موضوع البحث. ولذلك نجد اختلافات كبيرة في هذا المجال بين بعض المؤرخين المعاصرين للفترة الزمنية موضوع البحث. فعلى سبيل المثال في الوقت الذى يذكر فيه ألبرت ديكس أن عدد جيش المسلمين المشترك في هذه المعركة بلغ ٢٠٠ ألف مقتل، نجد مؤرخاً آخراً مجهولاً يذكر في كتابه "أعمال الحجاج" أن عددهم ٢٠ ألف راجل و ١٥ ألف فارس. بينما يشير فولشر أوف شارتر أن عددهم كان ١١ ألف فارس وعشرين ألف راجل، وهكذا ولذا لن نهتم بذكر هذه الأعداد، والتناقضات في هذا الشأن، ولن نخوض في تفاصيل سبب هذا الاختلاف على مدى صفحات البحث، لأنه بات من الواضح أنه ليس للأرقام معنى سوى أنها تدل على مدى ضخامة الجيش لكلا الطرفين، في وقت لم توجد فيه إحصائيات يمكن الاعتماد عليها.

فى بدايتها ولعلنا نرى أن هذا يرجع إلى الغرور الكبير الـذى يكـون قـد سيطر على الملك بلدوين بسبب تلك الانتصارات الحاسمـة التـى حققتـها جيوشه من قبـل علـى المسـلمين منـذ وصـول الحملـة الصليبيـة الأولى إلى الأراضى المقدسـة واسـتيلائها علـى بيـت المقـدس عـام ١٠٩٩م-٤٩٢هـ. فربما يكون هذا قد قلل من شأن قوة المسلمين فى نظره وجعلـه واثقـاً فـى الانتصار بأقل عدد ممكن من قواته.

علـى أيـة حـال، بعـد عـدة أيـام كـانت الجيـوش الإسـلامية قـد تحركت من عسقلان إلى مدينة الرملة وعسكرت بجوارها. ولما علـم الملـك بلدوين بهذا الأمر عقد تحت أسوار مدينة يافا مجلساً للحرب قـرر فيـه سرعة التوجه لمواجهة المسلمين. وعند ذاك ألقى ارنـول مـالكون Ernol Malcon رئيس الشمامسة خطبة حماسية لإثـارة مشـاعر المقـاتلين. ثـم تبعه موريس المندوب البابوى بتلاوة نصوص الغفران. وبعد ذلك تحـرك بلدوين على رأس قواته ناحية مدينـة الرملـة، ثـم عسـكر بينـها وبـين اللد[١]. وكان الجيش الصليبى حينذاك ينقسم إلى خمس مجموعات. تولى قيـادة المجموعـة الأولى الفـارس بـيرفولد Bervlold، وقـاد المجموعـة الثانيـة جيلدمـار كـاربنل Geldemar Carpenel سـيد يافـا، أمـا المجموعة الثالثة فكانت تحت قيادة هيودى سـانت أومـر Hugue de Saint – Omer سيد طبرية. بينما كان القسمان الآخـران يتكونـان مـن فرسان بيت المقدس برئاسة الملك بلدوين نفسه[٢]. وكان الملك قد أخذ على

---

(١) Gotfriid, op. Cit., p. 505; cf. Also: Grousset: op. Cit., p, 225.

(٢) Albert d'Aix op. Cit., 549, cf. Also: Grousset, op. Cit; I, p. 226.

فى بداية الأمر مسئولية حمل الصليب المقدس لإدخال الطمأنينة فى نفوس المقاتلين[1]. وعندما لمح بلدوين وباقى أفراد جيشه من بعد مدى ضخامة الأعداد التى تتألف منها الجيش المصرى، سرعان ما دب الذعر فى قلوبهم، وانهارت مقاومتهم، وهبطت روحهم المعنوية للفارق العددى الكبير والواضح بين الطرفين. ولذا بات من الضرورى على الملك بلدوين أن يعيد التفكير أكثر من مرة قبل الاشتباك مع جيش المسلمين، ولو اضطر الأمر للانسحاب من ساحة الميدان وذلك لأن مجرد موافقة الملك على بدء الحرب ضد هذه الأعداد الغفيرة يعد جرأة كبيرة ومغامرة غير مضمونة النتائج، وقد يطيح بالقوات الصليبية بأكملها.

وجدير بالذكر، أنه عندما لاحظ الملك اللاتينى الرعب الذى سيطر على وجوه مقاتليه، ألقى عليهم خطبة دينية حماسية ليبث فيهم الشجاعة والإقدام على القتال حتى يتحقق النصر. وفيما يلى نص هذه الخطبة[2].

"أنتم يا جنود المسيح، لقد أتيتم من بلاد بعيدة عبر البحر والبر، مضحين بأرواحكم من أجل نصرة المسيحية. فكونوا شجعانا، ولا تخشوا الموت، ويجب أن تعتمدوا على الرب وتثقوا فيه، لأنه الوحيد

---

(1) Fulcher of Charters, op. Cit., p. 17.

(2) Ibid; Gotfridi, op. Cit. Loc. Cit.; Anonymous, Gesta Francorum Expuguntium Iherusalem, cf' R.H.C. – H. occ., III, p. 28; Ekkehardi Abatis, Uraugiensis, Hierosulomitana, cf. R.H.C. H. occ, V, p. 32; Anonymous, Historis Nicaenval, cf. R.H.C. – H. occ., C, p. 179.

الذى يمكنه أن ينقذكم من المحنة التى تمرون بـها. وثقوا أنـه يحـارب معكم، ومن أجلكم، ومن أجل نصرة الكنيسة وسائر المسيحيين[1]. وثقـوا تماماً أنه على الرغم من كثرة عـدد المسلمين فـأنكم أكـثر منـهم شـجاعة ومقدرة على خوض الحرب. وتذكروا دائماً تلـك الحـروب السـابقة التـى حاربناهم فيها وانتصرنا عليـهم واسـتولينا علـى أراضيـهم. فكـان ذلـك بمعاونـة وتـأييد الـرب. فرغـم اسـتخدامهم المكـر والخديعـة، وكـثرة كمائنهم، كانوا يلوذون بالفرار من أمامنا.

واعلموا تماماً أن كثرة عددهم لن تعـوق دون انتصارنـا عليهـم، خاصـة وأننـا نحمـل معنـا خشـبة الصليـب المقـدس، تلـك البركـة التـى تساعدنا فى القضاء عليهم. واعلموا أيضاً أن النصر والمـوت كلاهمـا واحـد عنـد الله. فـإذا انتصـرتم منحكـم السـعادة والمجـد الدائـم. وإذا أصـابكم مكروه فـى المعركـة، فـتأكدوا بـأنكم سـتكونون شـهداء فـى مملكـة الله. واحذروا جيداً الهرب والخيانة. فكلاهما يجلب علـى المسـيحيين العـار والهزيمة"[2].

وكان لهذه الخطبة أثـر كبـير علـى الصليبيـين فعـادت الثقـة إلى نفوسهم، وجعلتهم يقدمون على الحـرب بجـرأة وشـجاعة كبـيرة، دون

---

(١) المقصود هنا بالطبع الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية وأهل الغرب المسيحى.

(٢) ويمكن الرجوع إلى نص هذه الخطبة وتفاصيلها فى المصادر اللاتينية التالية:
Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. – H, occ., IV, p. 560; Anonymous, Gesta francorum expugnantium Iherusalem, III, p. 528. Fulcher of Charters, op. Cit., p. 157; Gotfridi, op. Cit., p. 507.

النظر إلى الفارق العددى الكبير بينهم وبين جيش المسلمين. وسرعان ما هتفوا "ساعدنا يارب.... ساعدنا يارب "Deus adjuva nos" ثم قبلوا الصليب المقدس وابتدأوا الصلاة والتفرغ إلى الله من أجل نصرتهم وتأييدهم فى هذه المعركة[1]. وقد ازدادوا قوة وشجاعة بعد تلك التعزيزات التى وصلتهم من بين صفوة فرسان ومشاة الغرب الأوربى[2].

وجدير بالذكر، فى الوقت الذى كان فيه لتلك الخطبة الحماسية أثرها فى الهاب شعور الصليبيين وحثهم على مواجهة الموقف من مركز القوة دون النظر إلى عدم تكافؤ القوتين من الناحية العددية. فضلا عن عدم تقاعس أهل الغرب فى مديد العون والمساعدة إلى الملك الصليبى من أجل نصرة المسيحية الغربية ومجد المسيحيين كلهم. فى هذا الوقت، لانرى أى خطوة إيجابية من سائر الدول الإسلامية الأخرى تجاه تلك الجيوش المصرية المتجمعة عند مدينة الرملة فى انتظار إشارة بدء المعركة. كما أننا لم نعثر فى بطون المصادر الإسلامية المعاصرة للفترة التى نحن بصددها أو المتأخرة عنها زمنيا، على أية إشارات تتضمن خطب حماسية تحث المسلمين وتشجعهم على مواصلة القتال أسوة بما كان يحدث لدى الصليبيين.

وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى أن ميزان القوى فى الصراع بين

---

(١) Gotfridi, op. Cit., p. 507, Anonymous, Gesta Francorum expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C. – H. occ., II, p. 529; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C.H. occ,, IV, p. 862.

(٢) Anonymous, Gesta Francorum, III, p. 529.

المسلمين والصليبيين آنذاك كان فـي صـالح الغـرب اللاتينـي ولذلـك كـان للخطبـة الحماسـية المشـار إليـها نتائجـها الإيجابيـة بالنسـبة للطـرف اللاتينى. وفى الجانب الآخـر كـان التقـاعس بسـبب التفكـك والانقسـام السياسـى والمذهبـى الـذى عـانى منـه المشـرق الإسـلامى. ولم تظـهر الاستجابة الفورية لنيران الجهاد إلا بعد حركة الإفاقـة الإسـلامية فـى بواكير القرن الثانى عشر الميـلادى (بدايـات القـرن السـادس الهجـرى) عندما بدأ الشرق الأدنى الإسلامى يتكتل فى جهة واحدة لمواجهة الخطر الصليبى ودفعه.

مهما كان الأمر، بدأت المعركة فى صباح السبت السابع من شهـر سبتمبر عام ١١٠١م – العاشر من ذى الحجة ٤٩٤هـ، فى السـهل الواقـع جنوب غربى مدينة الرملة. وكانت تتسم بالشراسة والعنـف، لا رحمـة فيها ولا هوادة[١]. وقد أبلى فيها المسلمون بلاءا حسنا حسبما أشار كثير من المؤرخين الغربيين، إذ اعترفوا صراحة بتلك الشجاعة النـادرة التـى أبرزها المصريون إبان المعركة[٢]. فمثلا شبه بعض المؤرخـين المجـهولين فـى كتبـهم اندفـاع الجيوش المصرية داخـل ميـدان المعركـة بـالطيور الجارحـة التـى تنقـض علـى فريسـتها دون أيـة رحمـة. كمـا أوضحـوا طريقتهم فى الحروب من إلقاء الكتل الصلبة والحجرية على شتى الفـرق

---

(١) Anonymous, Historia Herosoli mitana, cf. R.H.C. – H. occ., IV, p. 561; cf. also: Grousset, op. Cit., I. P. 226.

(٢) Fulhcer of charters, op. cit., 159.

الصليبيـة، فضـلاً عـن مهارتـهم فـى اسـتخدام السـيوف والـدروع لصـ
هجمات الفرنجة. كما أوضحوا أن الجيشين كانا متداخلان فيمـا بينـهم
بطريقة لا تمكن التمييز والتفرقة بين كل طرف على حـدة. وإن دل هـذا
على شيء، فإنما يدل على مدى شراسة وضراوة المعركة[1].

لقـد ظـهرت شـجاعة المصريـين طـوال سـير المعركـة، فعندمـا
تم الاشتباك بين الطرفين تمكـن المصريـون مـن تحطيـم القسـم الأول مـن
الأقسام الخمسة للجيش الصليبى وقتل قـائدة بـيرفولد .Bervold الـذى
شهد له المؤرخون بالبطولات وحسن التصرف فى شتى المعارك الأخرى[2].
وكذلك كان مصير أفراد القسم الثانى، فقد وجه المصريون إليهم ضربتـهم
القاصمة مما أدت إلى هزيمتهم هزيمـة شـنعاء حيـث لم ينـج منـه سـوى
جنديان. وعندما أدرك قائد هذا القسم، وهو جلدمار كارينل Geldmar
Carpenel، شدة الهزيمة التـى أحـاطت بجنـوده حـاول إنقـاذ الموقـف
بشتى الطرق، ولكنه لم ينج ومات متأثراً بجراحة من فوق أحـد الأبـراج
التى كان يشرف عليها[3].

أما بالنسبة للقسم الثالث من الجيش الصليبى فقد حـاول قائـدة
هيوسيد طبرية أن يبرز شجاعته التى اشـتهر بـها خـلال سير الحملـة

(1) Anonymous, Gcsta Francorum, Cf. R.H.C. – occ. III, p. 528; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. – H. occ., V, p. 178.

(2) Albert d'Aix, op. cit., 549; Flucher of chartres, op. cit., 157; cf. Also: Grousset, op. cit., I, p. 226.

(3) Flucher of chartes, op. cit., 159.

الصليبية الأولى. ولكن كان ضغط الجيش المصرى عليه يفوق تلك الصفات. ولذا لم يكن مصير هذا القسم أحسن حالاً من القسمين الآخرين حيث تم سحقه وتدميره، ولم ينج منه إلا قلة قليلة من ضمنها هيو Hugu، تمكنت من الفرار تجاه يافا وواصلت سيرها حتى بلغت أسوار المدينة[1].

وأمام تلك المصائب العديدة التى حلت بالجيش الصليبى، لمس الملك بلدوين مدى الانهيار الذى ظهر على بقية المقاتلين اللاتين الموجودين تحت قيادته فى القسمين الرابع والخامس، فخشى الاستمرار فى المعركة بهذه الصورة، واضطر إلى الاجتماع بمقاتليه، وخطب فيهم خطبة حماسية أخرى أسوة بما فعل من قبل حثهم فيها على ضرورة استئناف القتال بنفس الحماسة والقدرة التى كانوا عليها عند بدء المعركة، فزادهم إيماناً ورغبة فى الانتصار ثم خر الملك ساجداً أمام الصليب المقدس، الذى كان يحمله فى هذا الوقت الأسقف جيرارد فى مقدمة الصفوف، معترفاً جهراً بذنوبه أمام الأسقف.

فزاد هذا الموقف من شجاعة المقاتلين وأخذوا يهللون للنصر. ثم امتطى بلدوين صهوة جواده العربى الأصل المسمى La Gazelle" وسار من وراؤه فرسان بيت المقدس[2]. وابتدأ الهجوم العنيف من كلا الطرفين لدرجة أن صليل ضربات السيوف كان يسمع من مسافة بعيدة. وقد شعر المسلمون بالتغيير الكبير والمفاجىء الذى ظهر بوضوح على الصليبيين

---

(١) Ibid.,

(٢) Grousset, op. cit., I, p. 226.

مما أثار دهشتهم. فبعد أن كانوا في اليوم الأسبق منهارين يائسين في حربهم، والقلق بان على وجوههم متخذين من الهرب طريقاً لهم أصبحوا يقاتلون بجرأة كبيرة[1]. وقد حاول المسلمون أكثر من مرة تحطيم هذه الظاهرة التى بدت عليهم. فتقدم أحد الأمراء المصريين بسرعة فائقة من ناحية الأسقف جيرارد محاولاً قتله والاستيلاء على الصليب المقدس الذى كان يحمله. ولكن منيت هذه المحاولة بالفشل وانتهى بقتل هذا الأمير. فأقدم أمير آخر من فوق جواده بمحاولة جديدة تهدف الهجوم على الملك بلدوين واغتياله، ولكن كانت ضربات هذا الملك أسرع منه فأصابته في مقتل وسقط من فوق جواده[2].

وأمام هذا الوضع الجديد الذى طرأ على المعركة والذى رجحت فيه كفة الصليبيين، لم يتمكن المصريون من تحقيق انتصارات تذكر فاضطروا إلى الانسحاب. فاتجه البعض ناحية عسقلان تاركين كل ما يملكون من مؤن وأسلحة وذخائر[3]، خاصة بعد أن شاع الخبر بينهم بموت قائدة سعد الدولة الطواشى[4]. بينما اتجه البعض الآخر ناحية

---

(١) Gotfridi, op. cit., v. p. 506.

(٢) Albert D'Aix, op. cit., p. 551; cf. also: Grousset op. cit., I, pp. 226-227.

(٣) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ. V, P. 567; Gotfridi, op. cit., V, p. 507; Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C.- H. occ., V, p. 178.

(٤) Grousset, op. cit., I, p. 227

يافا لمحاصرتها منتهزين فرصة انشغال القوات الصليبية فى مطاردة فلول المصريين المتجهين ناحية عسقلان[1].

وجدير بالذكر، أن بعض المؤرخين المسلمين أجمعوا على أن مقتله لم يكن بسبب إحدى ضربات أعدائه، وإنما كان ناتجاً عن وقوعه من فوق جواده فبعد أن انكسرت ميمنة جيشه ثم ميسرته تبقى هـذا الأمـير فـى نفر يسير من عساكره فى القلب. وعندما كان يرمح بجواده وسط المعركة، كبا به الجواد وسقط عنه إلى الأرض فخر صريعاً[2].

ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن المنجمين كانوا قد تنبأوا بمـوت سـعد الدولة بهذه الطريقة، ولهذا السبب كن يحذر دائماً من ركـوب الخيـل، حتى أنه لما تولى أمر بيروت كانت أرضها مفروشة بالبلاط. فقام بخلعـه خوفاً من أن ينزلق به فرسه أو يعثر. ولكن الحذر لم يمنع القدر المكتوب له، فمات مما كان يحذره ويخشاه[3].

كيفما كان الأمر، أصبح ميـدان القتـال، بعـد انسـحاب المصريـين مغطى بكثير من أدوات الحرب من الدروع والتروس والخناجر والأقواس

---

(١) Flucher of Charteres, op. cit., p. 159.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٠، العينى: عقـد الجمـان، جـ٢٠، لوحة ١٢٠، المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٥٢، ومن المراجع الأجنبية أنظر ما يلى:

Mattew d'Edesse, cf. R. C.H. – H. Doc. Arm., p. 61 cf. also: Grousst, op. cit., I, p. 227

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص٣٦٤

وحقائب السهام وأنواع كثيرة من الأسلحة الأخرى. فضلاً عن كثرة جثث الموتى من كلا الجانبين الإسلامى واللاتينى، وما نجم عن ذلك من صبغ الأرض بلون الدماء. وقدر المؤرخون شهداء هذه المعركة من المصريين ما يقرب من خمسة آلاف فارس وراجل، خلاف عدد كبير من الأسرى، بينما لم يفقد الفرنج سوى ثلاثمائة من المشاه والفرسان(1).

وبعد أن اتجه المصريون ناحية عسقلان، طاردتهم القوات الصليبية حتى أسوار هذه المدينة. وهناك اشتبك الطرفان فى معركة رجحت فيها كفة الجيش المصرى حيث تلقى الصليبيون ضربة قاصمة أنستهم تلك الانتصارات التى حققوها فى معركتهم السابقة عند مدينة الرملة. ونتج عن هذه المعركة أن فقدوا عدداً كبيراً من مؤخرة جيشهم ومن أفراد الجناح الأيمن منه. فضلاً عما فقدوه من تلك الغنائم والأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها من المصريين فى المعركة السابقة(2). فأضطر الملك بلدوين أن ينسحب للوراء على رأس جيشه، واتجه ناحية يافا ولكن كان المصريون الذين اتجهوا لحصار يافا قد عملوا على ترويج الإشاعات بانتصارهم الكبير على الصليبيين وتدميرهم للجيش الصليبى واغتيال ملكهم. فما أن علم أهل مدينة يافا بهذا الأمر حتى دب الفزع

---

(1) Fulcher of Charters, op. Cit., p. 159; Anonymous Gesta Francorum, cf. R.H.C. – H. occ., III, p. 529; Gotfridi, op. Cit., p. 507.

(2) Fulcher of Chartres op. cit., pp. 159-160.

والخوف فى قلوبهم وسادهم الحزن[1]. وعقدوا اجتماعا فيما بينهم للتفكير فى الوسيلة التى تنقذهم مما هم فيه. فقرروا الكتابة إلى تنكريد صاحب أنطاكية، وأوضحوا له كل شيىء، وطلبوا منه باسم المسيح ومن أجل نصرة المسيحية ضرورة الحضور لفك حصار المسلمين لهم والانتقام لما حدث بالجيش الصليبى على أيدى المصريين. ولكن أثناء انتظارهم رد صاحب انطاكية جاءتهم الأخبار بأن الملك بلدوين قادم على رأس قواته تجاه المدينة. فعاد الفرحة إلى قلوبهم وخرجوا لاستقباله[2]. أما بالنسبة للمصريين المحاصرين لمدينة يافا، فعندما لمحوا من بعد جنود الفرنج القادمين ناحيتهم، ظنوا فى بداية الأمر أنهم باقى زملائهم الذين لم يتمكنوا من اللحاق بهم وأنهم جاءوا لمساعدتهم فى حصار المدينة. وعلى ذلك لم يعروهم أى اهتمام. ولم يتوقعوا منهم الغدر وأى مكروه[3]. وعلى العكس من ذلك كان موقف الفرنجة، فكانوا على علم بأمر حصار المصريين للمدينة. ولذا سرعان ما انقضوا عليهم فجأة فحدث الهرج والمرج فى صفوف المصريين، وتشتت قواتهم. ولم يتمكنوا من السيطرة على زمام الأمور. فلاذوا بالفرار متفرقين كل منهم فى ناحية. فلحقهم الصليبيون إلى مسافة قصيرة، وقضوا على عدد كبير منهم. ولم يواصلوا

---

(١) Ibid., p. 160; Anonymous, Historia Nicaenval, cf R.H.C. – H. occ., op. 178.

(٢) Gotfridi, op. cit., p. 507.

ويمكن الرجوع إلى نص هذا الخطاب فى كتاب فوشيه دى شارتر، ص ١٦٢.

(٣) Ibid., p. 508; Flucher of Chartrcs, op. cit., p. 167.

مطاردتهم حيث كانوا يعانون من شدة التعب وعناء المعارك السابقة[1].

وعندما دخل الملك بلدوين مدينة يافا، وعلم بأمر الرسالة التى وجهت إلى تنكريد، بعث إليه بمندوب من قبله يخبره بحقيقة الأمر[2]. وقد ظل بلدوين بالمدينة يوماً واحداً نال خلاله قسطاً من الراحة، ثم غادرها فى اليوم التالى متجهاً ناحية بيت المقدس. وهناك قابله رجال الدين وكل أهالى المدينة بالفرح والسرور، وقدموا له التهانى اللازمة. وبعد ذلك اتجه الملك الصليبى إلى القبر المقدس حيث أدى الصلاة هناك. ثم وهب كل ما جمعه من الأسلاب والغنائم التى حصل عليها من معاركة السابقة إلى مستشفى بيت المقدس للصرف منها على الفقراء والمرضى[3]. وعلى هذا النحو تكون قد انتهت الجولة الأولى من الجولات الحربية التى قامت بين الصليبيين من ناحية والجيش المصرى من ناحية أخرى عند مدينة الرملة.

ولكن كان لهزيمة المصريين فى هذه المعركة أكبر الأثر على نفس الوزير الفاطمى الأفضل. فلم يستسلم بسهولة لما حدث. وإنما أصر على خروج حملة أخرى لينتقم بها من الفرنج تعويضاً للكارثة التى أصابت جيشه، ولتحقيق ما فشلت فيه الحملة الأولى من استعادة المسلمين لمدينة بيت المقدس مرة ثانية. فأعد جيشاً كبيراً بقيادة ابنه شرف المعالى بلغ ما يقرب من عشرين ألف فارس وعشرة

---

(١) Gotfridi, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Idem.

(٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 553.

الاف راجل، فضلا عن الأعداد الغفيرة المخصصة لتوجيه كافة الدواب المحملة بالمؤن لسد حاجات المحاربين طوال فترة الحرب. هذا خلاف أولئك المسئولين عن تجهيز المؤن والأطعمة وتقديمها للمقاتلين فكان كل منهم يحمل عصا ورمحا للدفاع عن نفسه[1]. وكان هذا الجيش يتضمن كثيرا من العناصر السودانية والعربية الموجودة فى المنطقة[2]. وتجمعت القوات المحاربة فى عسقلان فى منتصف مايو من عام ١١٠٢م/ رجب ٤٩٥هـ. ومن هناك سلكت نفس الطريق الذى اتبعته فى الحملة السابقة حتى وصلت إلى الرملة فى اليوم التالى وعسكرت أمام المدينة حيث كان بوسعها تهديد كل من يافا وبيت المقدس[3].

ويشير كثير من الكتاب الغربيين المعاصرين لهذه الفترة إلى أن قوات الجيش المصرى كانت سببا فى إتلاف المحصولات الزراعية المحيط بالمنطقة عند اجتيازها الطريق الموصل من عسقلان إلى الرملة[4].

---

(١) Flucher of charters, op. cit., p. 163; Anonymous, Historia Herosolimitana, IV, p. 61.

(٢) العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، لوحة ١٢٠، ابن الأثير: الكامل جـ١٠، ص٣٦٤. أنظر أيضا: Grousset, op. cit., I, p. 229.

(٣) Flucher of charters, op. cit., Loc. Cit; Anonymous, Listoire de Jerusalem, cf. R.H.C.- H. occ., V, p. 641 Anonymous, Historia, Herosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ, IV, p. 561; cf. also: Grousset, op. cit., Loc. cit.

(٤) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. H. occ, IV, p. 561; Anonymous, Gosta Francorum Expugnantium Iherusalem, III, p. 531, Gotfridi, op. cit., 509.

ولكننا لا ندرى تماما حقيقة هذا الأمر. إذ سكتت المصادر العربية سكوتاً تاماً عن هذا الموضوع. ولذا لا يمكن القطع إن كان هذا التخريب مقصوداً ويشكل جزءاً من الخطة الحربية المرسومة من قبل المصريين من عدمه، حيث إذا تم حصار المدينة وشددت الهجمات عليها يحرم الأهالي عند نفاذ مئونتهم من الاستفادة من هذه المحصولات فيضطروا للتسليم. أو ربما يكون هذا الإتلاف قد جاء عفواً بدون قصد، لأن الطريق المتضمن تلك الرقعة الزراعية والذى تلف محصوله هو الطريق الوحيد الموصل بين عسقلان والرملة. فلم يكن أمام الجيش إلا أن يعبر من هذا الطريق. ولكن نظراً لضيق مساحته لم يتسع لكثرة الأعداد التى يتكون منها، فكان من الضرورى السير على الأرض المنزرعة مما أدى إلى إتلاف المحصولات الزراعية وفق ما حدث.

مهما كان الأمر، عندما وصل المصريون إلى مدينة الرملة لم يكن بها إلا حامية صغيرة لم تزد عن خمسين فارساً كان الملك الصليبى بلدوين قد تركهم لحمايتها. إذ لم يتوقع أية هجمات أخرى للمصريين فى فترة متقاربة بعد هزيمتهم الكبيرة فى المرة السابقة. ولذا كان الأمر سهلاً على الجيش المصرى فى حصاره للمدينة، ولم يجد مقاومة كبيرة. وكانت الخطة تعتمد على تشديد الهجمات على المدينة وتصويب الضربات الشديدة إليها. فسهل لهم هذا سرعة الاستيلاء عليها. وبعد ذلك اتجهوا إلى كنيسة القديس جورج الواقعة على مسافة كيلو متر واحد من مدينة الرملة، واستولوا على ممتلكاتها من كنوز ونفائس ثم أشعلوا فيها النيران. وكان فى ذلك الوقت روبرت مطران المدينة يؤدى شعائر الصلاة بداخلها، فلما شعر بما أصاب الكنيسة فر هارباً مما

أحدث الفزع والاضطراب بين صفوف المسيحيين(١).

وهناك رأيان مختلفان حول موقف مطران المدينة حيال الهجـــوم المصرى عليها. ففى الوقت الـذى يشـير فيـه بعـض المؤرخـين المعـاصرين لأحداث هذه الفترة الزمنية، ومنهم فوشيه دى شارتر، بأن المطران عقد اجتماعاً مع كبار الأهالى للتشاور فيما أصـاب المدينـة مـن جـراء اسـتيلاء المسلمين عليها. وانتهوا فيه إلى ضـرورة إرسـال منـدوب عنـهم إلى الملـك اللاتينى بلدويـن فـى يافـا لطلـب النجـدة(٢). هـذا، بينمـا يذكـر الـبرت ديكس، وهو أيضاً مؤرخ معاصر لأحداث هذه الفترة التى نحن بصددهـا، أن المطران تمكن من الفرار مع عدد من رفاقـه لأخبـار الملـك بمـا حـدث، ولطلب نجدة صليبية لانقاذ مدينة الرملة(٣).

وأمام هذا التعارض فى القول نقـف حـائرين، خاصـة وأن هذيـن الرأيين صادران من مؤرخين معاصرين لتلك الأحـداث. وفـى اعتقادنـا أن الرأى الأول له نصيب أكثر مـن الصحـة والصـدق. لأن الحصـار المحكـم المفروض على المدينة يحول دون التفكـير فـى الهـرب الجمـاعى وفـق مـا أوضح المؤرخ ألبرت ديكس. فهذا الهـرب سـيكون بمثابـة مخـاطرة غـير مضمونـة النتائج، ويتغلب فيه جـانب الخسـارة والفشـل. كمـا أن خـوف المسيحيين الموجودين داخل المدينة على حياة الأسقف يجعلـهم يمنعونـه

---

(١) Flucher of chartres, op. cit., p. 163; Albertd'Aix, op. cit., p. 591; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. H. occ. IV, p. 561.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit., p. 164; Anonymous, op. cit. Loc. cit.

(٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 591.

من المجازفة والخروج. ويتطوع أحدهم للفـرار لطلب النجـدة مـن الملـك الصليبى. كما أن وجود أسقف المدينة بجوار الأهالى له أهمية كـبرى فـى رفع روحهم المعنوية وحثهم على ضرورة الصمود والمقاومة لحين مجيىء النجدة الصليبية. فليس مـن المعقـول والأمـر هكـذا أن يتخلـى عـن هـذه المهمة ويفكر فى الفرار لإنجاز مهمة أخرى يمكن أن يقوم بها غيره مـن أهالى المدينة.

ومهما كان هذا الرأى أو ذاك، فكان الملك بلدوين متواجداً فى يافا أثناء تحركات المصريين وحصارهم لمدينة الرملة. فعندما علم بذلك أسـرع فى الاجتماع بكبـار قادتـه وشـاورهم فـى هـذا الأمـر[1]. وانتـهى الـرأى بإصراره على الخروج على رأس مائتين مـن فرسـانه غـير مبـال بـالحذر الذى اعتاد عليه طوال معاركـة السـابقة، أو بنصـح النـاصحين لـه بعـدم الخروج مع هذا العدد القليل من قواته والانتظار حتى تنضم إليه فرسـان الجهات المجاورة. ويبدو أن نشوة الانتصارات التى أحرزها على القوات المصرية فـى المـرة السـابقة جعلتـه يصـل إلى درجـة الغـرور معتقـداً فـى ضرورة انتصاره هذه المرة أيضاً بغض النظر عن حجم القوات التى معه[2].

وقـد أبـدى بعـض المؤرخـين اللاتـين ومـن بينـهم جوتفريـدى، دهشتهم الشديدة لتهور الملك وسـرعة اندفاعـه للخـروج إلى الرملـة ممـا

---

(١) Ekkehardi, op. cit., V, p. 33.

(٢) Flucher of Charteres, op. cit., p. 168; Guillaume de Tyr, Ahistory of Deeds Done Beyond the Sea, p. 443.

أدى إلى اغفاله لأول مرة اصطحاب الصليب المقدس معه وهو البركة التى يستمد منها سائر الجيش القوة والشجاعة والثقة فى النفس. فسادت روح التشاؤم بين سائر المسيحيين المقاتلين(١).

وجدير بالذكر، انه كان بإمكان الملك الصليبى إذا التزم الهدوء والتريث وأخذ بمشورة ونصح الآخرين، أن يخرج على رأس آلاف من المقاتلين والفرسان الفرنج، ويتجنب تلك الخسائر الفادحة التى أصابت جيشه وفق ما سيتضح فيما بعد. خاصة إذا علمنا أنه كان متواجداً فى يافا فى هذه الفترة ما يزيد عن عشرة آلاف مسيحى بينهم عدد كبير جداً من أمهر الفرسان الغربيين كانوا قد أدوا مراسم الحج وفى انتظار هدوء الجو والرياح ليتمكنوا من الإبحار والعودة إلى بلادهم. ولكن الملك رفض ضمهم إلى جيشه، واكتفى بمن معه من الفرسان. بل رفض أيضاً استدعاء أى من الفرسان الموجودين فى المدن المجاورة له، وخرج متهوراً فى اتجاه القوات المصرية(٢) ولكن رغم هذا أدرك بعض النبلاء المنتظرين بمدينة يافا هدوء الجو لرحيلهم إلى بلادهم، ضرورة تأييدهم ومؤازرتهم للجيش الصليبى المتجه ناحية الرملة فقرروا اللحاق به. وفى الحال كرسوا جهودهم من أجل الحصول على كثير من الخيول والأسلحة من الأصدقاء والمعارف فى المناطق المجاورة(٣).

---

(١) Gotfridi, op. Cit., p. 510.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit; p. 164; Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C. – H. occ., V, p. 641, Cf also: Campbel, The Crusades, p. 165.

(٣) Fulcher of Chartres, op. cit., p. 168; Guillaume deTyr, op. cit., I, p. 443.

وعندما وصل الصليبيون إلى سهل الرملة أصابهم الذهول لكثرة عدد القوات المصرية الموجودة فى ميدان القتال. وأدركوا تماماً عدم إتاحة الفرصة لهم للتراجع والانسحاب، وأن المعركة بين الطرفين ستكون غير متكافئة وسينتهى بهم الأمر بالفناء والدمار وجلب العار والفضيحة على سائر المسيحيين وشعروا عند ذاك باليأس الشديد، كما أدركوا تماماً أن النصر بعيد عنهم ما لم تصلهم نجدة صليبية سريعة. ولم يكن هناك فى الأفق ما يشير . ولم يكن هناك فى الأفق ما يشير إلى تحقيق هذا الحلم. فالقوات المصرية تحاصر المكان تماماً وتقف حاجزاً دون وصول أى امدادات فرنجية إلى ميدان القتال[1].

وأمام هذا الوضع، حاول الملك بلدوين أى يهدىء من روع الصليبيين وأن يعمل على رفع روحهم المعنوية وحثهم على القتال. فتحدث إليهم فى كلمات موجزو قائلاً:

أنتم يا جنود المسيح، يا أصدقائى، أننا أمام الأمر الواقع إذ ليس بوسعنا التراجع ولابد من الاشتباك مع عدونا. وعليكم أن تحاربوا بكل حماسة وشجاعة وقوة، حتى لا تظهروا بمظهر الخونة الذين تقاعسوا عن خدمة المسيح ونصرته ونصرة المسيحية. وثقوا أن الرب سوف يؤيدكم بقوته. ويجب ألا يفكر أحدكم فى الهرب لأنه لا جدوى من ورائه،

---

(1) Ibid., Anony mous Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ., IV, p. 561. Cf also: Setton, op. cit., I, p. 364. Grousset, op. cit., I, p. 230.

ولابد ون نعيش بكرامتنا مرفوعى الرأس أو نموت جميعاً من أجل نصرة المسيحية[1].

ولاشك أن هذه الكلمات الموجزة التى تعبر بوضوح عن مدى سيطرة الكنيسة اللاتينية على مصائر الناس ومقدراتهم فى الغرب آنذاك، كان لها صدى كبير فى نفوس المقاتلين الفرنج مما زادهم ثقة وشجاعة. ولكن لم يكن لها أى أثر يذكر أمام تلك الأعداد الغفيرة من أفراد الجيش المصرى هذا فضلاً عما تميز به القادة المصريون من الذكاء والفطنة والخبرة فى فن الحرب والقتال مما جعلهم يدركون تماماً حالة الفزع والارتباك التى سيطرت على الجيش اللاتينى. كما لاحظوا عدم تنظيم صفوفهم وعدم اكتمال فرق المشاه والفرسان كعادتهم فى المعارك السابقة التى خاضوها ضدهم. كل هذا أوحى للمصريين بتأكيد انتصارهم والانتقام من الهزيمة السابقة التى لحقت بهم فى العام الأسبق[2].

بدأت المعركة بين الطرفين فى ١٧ مايو ١١٠٢م/١٨ رجب ٤٩٥هـ وكانت شديدة الضراوة. وفى بداية الأمر نجح الفرنجة، رغم قلة عددهم فى توجيه الضربات العنيفة للقوات المصرية وفى تشتيت صفوفها. ولكن هذا لم يؤثر على تلك الأعداد الغفيرة التى تكون منها الجيش المصرى، حتى أن اليأس استبد بالملك الصليبى وسائر المقاتلين معه، وأدركوا أنهم

(١) Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ, IV, p. 562.

(٢) Ibid., Guillaume de Tyr, op. cit., I, pp. 443-444.

لن يحققوا أى تقدم ملحوظ خاصة وأنه لم يتبق منهم سوى ما يقــرب مـن خمسين مقاتلاً[1] فأضطر الملك بلدوين ومن معه إلى التقهقر ناحيــة حصـن الرملة، الذى كان مازال تحت أيدى الصليبيين ونجحوا فى الدخول فيـه والاحتماء بأسواره. وقد فطن المسلمون لهذا، وكـان باسـتطاعتهم اقتحـام الحصن والاستيلاء عليه بدون عناء والقبض علـى غريمـهم الملـك بلدويـن وباقى أفراد جيشه. ولكن حال غروب الشمس دون تنفيذ مهمتــهم التـى أرجأوا تنفيذها إلى صبـاح اليـوم التـالى. واكتفـوا بتشـديد الحصـار حـول المدينة، الأمر الذى جعل الملك الصليبى وباقى أفـراد قواتـه يفقـدون كـل أمل فى إنقاذهم ممـا هـم فيـه، وأخـذوا ينتظـرون مصـيرهم التعـس فـى القبض عليهم عند حلول الصباح[2] ولكن عز على الملك أن يكـون فـى هـذا الموقف الصعب، مؤثراً الموت فى أى مكان آخر عن الاستسلام للمســلمين. فاتجه تفكيره للهرب مختفياً فى أحضان الليل[3]. وكان الحظ حليفه فـى تحقيق هذا. ففى أثناء دراسته لفكرة الهرب أتاه أحد شـيوخ العـرب إلى باب الحصن طالباً مقابلته شخصياً. وعندما تم ذلك اخـبره بـأن المصريـين سـوف يبـدأون الهجـوم علـى الحصـن عنـد بـزوغ الفجـر وعـرض عليــه مساعدته على الهرب، فاستجاب الملك له. ورغم ما أبداه من أسف لفراق

---

(١) Albert d'Aix, op. Cit., p. 591.

(٢) Ibid, Flucher of Chartres, op. cit., p. 168; Guillaume de tyr, op. cit., I, p. 445; Anonymous, Historia dc Nicaenval, cf. R.H.C. – H. occ., v, p. 179.

(٣) Flucher of chartres, op. cit., p. 169.

رفاقه، إلا أنه رأى أن بقاء المملكة متوقف على بقائه علـى قيـد الحيـاة. وقد أدرك بلدوين أن الموت والأسر طريقهما واحـد، ففـى كلتـا الحـالتين سوف يجلبان الخراب على المملكـة. ولـذا فلابـد وأن يقـدم علـى مغـامرة الهرب ففيها أمل كبير للنجاح[1] فتسلل هو وسائسه وثلاثـة مـن أتباعـه واجتازوا بخيولهم خطوط المسلمين. وكان يصحبهم هذا الإعرابى بـهدف حمايتهم وتوصيلهم إلى منطقة آمنة وبعيـدة عـن عيـون المصريـين. ولكـن بعض الفرسان المصريين لمحوا الملـك ورفاقـهم فطـاردوهم، وتمكنـوا مـن

---

(١) Guillaume de Tyr, op. cit. Loc. Cit., Matthw d'Edcsse, op. cit., p. 61; cf. also Grousset, op. cit., I, p. 231, Runciman, op. cit., II, p. 72; Besant, op. cit., p. 245; Campbel, op. cit., p. 166.

ويرجع المؤرخون سبب مساعدةهذا الإعرابى للملك بلدويـن إلى الجميـل الـذى كـان الملـك بلدويـن قـد فعلـه مع زوجـة الإعرابـى. ففـى أوائــل ربيــع عــام ١١٠١م/٤٩٤هـ حدث ان انقض الجيـش الصليبـى بقيـادة بلدويـن علـى إحـدى القبائل العربية الغنية ليلاً فى مخيماتـها، بعـد اجتيازهـا وادى نـهر الأردن سالباً إياها كل ما تملك، فضلاً عن ممـن وقـع فـى الأسـر مـن النسـاء والأطفـال بينما لقى معظم الرجال مصرعهم. وكان من بين الأسرى زوجة هـذا الإعرابـى وكانت على وشك الوضع فلما علم بلدوين بحالتها أخذته الشفقة والرحمة بـها فأطلق سراحها مع جاريتها وأطلق لها ناقتين وقدراً كبيراً من المؤن والشـراب. فوضعت وليدها سليما على جانب الطريـق. ولم يلبـث زوجـها أن عـثر عليـها فاشتد تأثره بالملك بلدوين وأسرع للحاق به ليشكره. ويعده بأنه سوف يرد لـه هذا الجميل. وشاءت الظروف أن ينفذ الإعرابى وعده وينقذ الملـك مـن محنتـه التى كان فيها.

إصابة البعض وأسر البعض الآخر. أما الملك فقد نجح في الاختفاء في جيوب إحدى الجبال المحيطة بالمنطقة. ورغم عمليات التفتيش الدقيقة والعديدة التي قام بها أفراد الجيش المصري للعثور على الملك، إلا أنهم فشلوا في القبض عليه(١). وكان بلدوين قد اتخذ من ظلمات الليل ستاراً يختفي وراءه ويواصل من خلاله مسيرته. وعندما حل الصباح اتخذ من الجبال مستقراً له، وهكذا . وقد عانى خلال هذه المرحلة معاناة شديدة من الجوع والعطش والتعب الجسماني والنفسي. وظل هكذا حتى وصل إلى مدينة أرسوف في ١٩ مايو ١١٠٢م/٢٠ رجب ٤٩٥هـ(٢). وهناك استقبله أهالي المدينة بعد أن تأكدوا من كذب الإشاعات التي انتشرت حول مقتله. وتم علاجه من الجراح التي أصيب بها ثم تركوه يأخذ قسطاً وافراً من الراحة(٣).

وجدير بالذكر، أن المصادر الإسلامية ذكرت أن الملك بلدوين بعد أن هرب اختفى من أعين المسلمين في أجمة قصب، وعندما أدركه المسلمون اضطروا إلى حرق تلك الأجمة للتخلص منه فوصلت إليه النار

---

(١) Anonymous, Historia Nicaenval, cf. R.H.C. – H. occ. V, p. 179; Guillaume de tyr, op. cit., I, pp. 445-446; cf. also: Grousset, op. cit., I, p. 232.

(٢) Albert d'Aix, op. cit., p. 593; Anonymous, Li Estoire dc Jerusalem, cf. R.H.C. – H. occ., V, P. 647; Gotfridi, op. cit., p. 510.

(٣) Albert d'Aix, op. cit. Loc. Cit; Gotfridi, op. cit. Loc. Cit., Fluchcs of Chartres, op. cit., p. 170; Guillaume de Tyr, op. cit., I, p. 446. Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium. Iherusalcm, cf. R.H.C. – H. occ, III, p. 533.

وأصابت بعض أجزاء جسده. ولكنه مع ذلك تمكن من الفرار إلى يافا[1].

وبالتحليل الجامع المانع بين الروايتين الإسلامية والصليبية، لانجد تعارضا بينا فيهما وإنما يمكن اعتبارهما مكملتين لبعضهما. ويلاحظ في هذا الصدد أن كل فريق من المؤرخين قد تحيز لبني جلدته. الأمر الذى ترتب عليه وجود مثل هذا الاتصال في هاتين الروايتين. فاللاتين يريدون إخفاء ذلك التشويه الجسماني الذى ربما يكون قد أصاب ملكهم حتى لا ينقص هذا من شخصيته وقوته أمام اتباعه من ناحية، وأمام المسلمين من ناحية أخرى. أما المسلمين فلعلهم أرادوا بذكر الحقائق التشهير بالملك اللاتيني مما يهون من شأنه في عصر احتدم فيه الصراع بين الطرفين الصليبي والإسلامي. ويوضح مدى إذلاله أثناء حصار النيران له في أجمة القصب. وعلى ذلك لايمكن إنكار أى من الروايتين. بل يمكن أن نخرج من وراء كل هذا باجتهاد لعله يمثل شيئا من الحقيقة. وخلاصته أن الملك الفرنجي بعد هروبه اتجه إلى أجمة قصب للاختفاء فيه، فلما استشعر المصريون بهذا أشعلوا النيران فيها فأصيب الملك ببعض التشوهات والجروح. ولكنه نجح في إنقاذ نفسه بالفرار من هذه المنطقة متخذا من الجبال مستقرا له حتى وصل إلى أرسوف وهناك تم علاجه من الجراح التي أصيب بها وفق ما ذكر المؤرخون اللاتين.

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤١، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨ ق١، ص١.

فيفما كان الأمر، تمكن المصريون فى صباح اليوم التالى من شن هجوم عنيف ضد القوات الصليبية المحاصرة داخل حصن الرملة وانتهى الأمر بسقوط الحصن فى أيدى المسلمين، واضطر الصليبيون إلى الالتجاء إلى برج الحصن للاحتماء بداخله باعتباره مركز الدفاع الوحيد والرئيسى لديهم فى ذلك الوقت. فحاول المصريون تسلق البرج وقتال من بداخله. ولكن باءت محاولاتهم بالفشل أمام ضربات العدو التى كانت توجه إليهم من أعلى البرج. ولذلك تحول تفكير القادة المصريين إلى اتباع خطة جديدة تعتمد على اشعال النيران فى البرج. ونجحت خطتهم. إذ أختنق عدد كبير من الصليبيين. ووقع الآخرون فى الأسر ولم ينج منهم سوى ثلاثة فرسان تمكنوا من الهرب. والوصول إلى القدس[1]. وعند وصولهم أعلنوا نبأ هزيمتهم. فأثاروا الرعب والاضطراب فى قلوب المسيحيين. وساد الحزن شتى أنحاء المملكة اللاتينية. وأعلن الحداد حتى يتأكدوا من سلامة ملكهم الذى لم تكن أخبار نجاته قد وصلت بعد إلى أى من مدن المملكة[2].

ولم يكتف المصريون بما أحرزوه من نصر على الصليبيين. وإنما أرادوا مواصلة انتصاراتهم فى التقدم إلى يافا بهدف استعادتها منتهزين

---

(1) Albert d'Aix, op. Cit., p. 594; Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C.- H. occ., IV, p. 565. Cf. Also Setton, op. Cit., I, p. 364; Grousset, op. Cit., I, p. 233.

(2) Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, cf. R.H.C.H. occ., III, p. 535.

[illegible] وبالعهن ومنها [illegible] المدينة [illegible] الروح [illegible]

[illegible]

[illegible]

وعند الاقتراب من المدينة أمر الملك بنشر العلم الذهبي على سارية المركب [illegible] الألقاب [illegible] على [illegible] [illegible] المحمل [illegible] [illegible] السفن الحربية [illegible] [illegible] [illegible]

(1) Aliho[illegible] op. cit., p. 585; cf. also Grousset, op. cit., [illegible] p. 251.

الأهالى وارتفعت معنوياتهم لسلامة ملكهم[1].

وكان بلدوين يرغب فى استدعاء بعض الفرنج المتواجدين فى مدينة بيت المقدس وفى غيرها من أجزاء المملكة اللاتينية للحضور إليه فى يافا بهدف فك الحصار البرى والبحرى المفروض على المدينة من قبل المصريين. فتطوع أحد الشبان المسيحيين السوريين فى حمل هذه الرسالة وتوصيلها إلى ذوى الأمر. وقد اتخذ هذا الشاب من الليل ستارا يحقق من ورائه مأموريته، منتهزا فرصة الليالى غير القمرية ومستخدما الطرق الملتوية التى كان يعرفها. وقد ساعده هذا إلى حد كبير فى الوصول إلى بيت المقدس دون أن تراه أعين المسلمين. وهناك طمأن الناس على سلامة الملك، فعم الفرح وزال الحزن ورفع الحداد. وسرعان ما تكونت فرقة من أفضل فرسان الفرنج الموجودين فى هذا الوقت بلغ قوامها أربعمائة وثمانين فارسا، وأبحروا إلى أرسوف ومنها إلى يافا. وعندما اقتربوا شاهدوا الحصار البحرى المصرى المفروض عليها. فاضطروا إلى إلقاء كل ما معهم فى البحر حتى لا يستفيد به المصريون إذا ما تمكنوا من الاستيلاء على مراكبهم. ثم اتخذوا من السباحة طريقا يوصلهم إلى بر المدينة. وبالفعل وصلوا دون أن يصيبهم مكروها[2] وفى الأيام الأخيرة من مايو ١١٠٢/أواخر رجب ٤٩٥هـ وصل أسطول مسيحى مكون من مائتى قطعة بحرية أمام يافا يحمل عددا كبيرا من الحجاج، من بينهم صفوة

---

(١) Ibid., Runciman, op. cit., II, p. 79.

(٢) Flucher of chartres, op. cit., p. 172; cf. Also: Grousset, op. cit., I, p. 235.

من الفرسان الفرنسيين والإنجليز والألمان. وقد تمكن هذا الأسطول من التغلب على الأسطول المصرى. مما أجبره على العودة مسرعاً إلى عسقلان. ولعل هذا الأمر قد شجع الملك الصليبى على الخروج من يافا على رأس جيشه لملاقاة المصريين المعسكرين على بعد ثلاثة أميال من المدينة. ودارت معركة عنيفة أدت إلى انتصار الفرنجة وهرب المصريين ناحية عسقلان فى خلال الساعات الأولى من بدء المعركة[1]. ونظراً لقلة عدد الصليبيين فإنهم لم يلحقوا بهم وإنما اكتفوا بما استولوا عليه من المعسكر الفاطمى من خيام وأدوات وجمال ومؤن ونقود. وبعد هذا النصر عاد بلدوين إلى القدس[2] واضعاً حداً لنهاية أحداث معركة الرملة الثانية.

ولكن يبدو ان نشوة الانتصارات الكبيرة التى حققتها القوات المصرية على الجيش الصليبى فى هذه المعركة، جعلت الوزير الفاطمى الأفضل يصر على عدم التخلى عن فكرة إرسال حملة أخرى إلى بلاد الشام لطرد الصليبيين منه واستعادة القدس. وسرعان ما كون فى أغسطس ١١٠٥م/ ذى الحجة ٤٩٨هـ جيشاً كبيراً يتألف من خمسة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاه المصريين والسودانيين بقيادة ابنه سناء الملك، وذلك عدا قطع الأسطول البحرى المصرى[3]. ويبدو أن الوزير الفاطمى لم يكتف

---

(١) Fulcher of chartres, op. cit., Loc. Cit., Albert d'Aix, op. cit., p. 596; cf. Also: Grousset, op. cit., p. 236.

(٢) Flucher of chartres, op. cit., Loc. Cit.; cf. Aso: Grousset, op. cit., Loc. Cit.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٣٩٤، العينى: عقد الجمان. جـ٢٠، لوحة ١٤٤ ومن المصادر والمراجع الأجنبية أنظر ما يلى. =

بهذا العدد الضخم من المقاتلين، وأراد أن يضاعف من حجمه فاستعان بقوة الدماشقة لأنه كتب إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق يعرض عليه ان يعاونه فى قتال مشترك بينهما، فاستجاب طغتكين لهذا النداء وأمده بألف وثلاثمائة فارس من الأتراك ممن يجيدون رمى السهام[1]. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على وحدة النضال والتضامن الإسلامى ضد العدو المشترك، خاصة وإن هذا العمل يعد أول محاولة جادة يتعاون فيها المسلمون فى كل من مصر والشام بهدف تحرير الأراضى المقدسة من براثن العدو الصليبى.

ولعل ما شجع الوزير الفاطمى الأفضل على خروج هذه الحملة فى هذا الوقت بالذات هو علمه التام بخلو مدينة القدس من الحجاج، فضلاً عن انشغال بعض الإمارات الصليبية الأخرى بالمنازعات الداخلية والحروب الأهلية فيما بينها، وخاصة تلك المنازعات القائمة بين بوهيموند صاحب انطاكية والامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين الأمر

= Flucher of charters, op. cit., p. 182; Anonymous, Historia Herosolimitan cf. R.H.C. – H. occ, IV, p. 565; cf also Grousset, op. cit., I, p. 246.

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ١٤٨، ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص٣٩٤، العينى: المصدر السابق، نفس الجزء واللوحة، المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٣٥، وراجع أيضاً:

Flucher of charters, op. cit., p. 183; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem; cf. R.H.C. – H. occ., III, p. 53.9.

الذى يعرقل إمكانية وصول مساعدات للقدس، فيسهل ذلك على المسلمين مهمة انقضاضهم على الفرنج الموجودين بها واستعادتها[1].

ويقول أحد المؤرخين المجهولين الغربيين المعاصرين لتلك الفترة أن الوزير الفاطمى الأفضل طلب من قادته عدم العودة إلا بعد لقضاء على كل مسيحى الأراضى المقدسة وتدمير آثارهم المقدسة حتى لا يكون هناك أى سبب يجذب الحجاج الغربيين للحج والزيارة فى هذه المنطقة. ولضمان تنفيذ هذه التعليمات طلب الأفضل من قادة الجيش أن يقسموا له على أن ينفذوا ما طلبه منهم[2].

وعلى الرغم من أن هذه الحادثة قد رواها أحد مؤرخى الحروب الصليبية القدامى، إلا أننا يجب أن نتقبلها بشىء من الحذر لكثر من سبب. أو لا لأنه ليس من المستبعد أن يكون الأمر مدسوساً عن عمد من جانب هذا المؤرخ تعصباً لبنى جلدته للتقليل من شأن الوزير الفاطمى بوجه خاص والمسلمين بصفة عامة انتقاماً لذلك النصر الذى أحرزوه على الصليبيين فى معركة الرملة الثانية عام ١١٠٢م/٤٩٥هـ. فيلصقوا بهم صفة عدم احترامهم للديانة المسيحية ولشعور المسيحى العالم، ويكون هذا بمثابة وصمة عار فى جبين الخلافة الفاطمية بصفتها زعيمة العالم الإسلامى آنذاك. وثانياً، لأنه ليس من المعقول أن يتعدى هذا الوزير على إحدى الديانات السماوية ويتجاهل شعور أولئك المسيحيين المتواجدين

---

(١) Anonymous, op. cit., p. 540.

(٢) Anonymous, Historia Herolimitana, cf. R.H.C.- H. occ, IV, p. 565.

معه داخل حدود دولته الأمر الذى يجعلهم يثورون ضده ويتربصون به وربما يكون الأمر كله قد اقتصر على خطبة حماسية ألقاها الأفضل وسط صفوف القادة والمقاتلين، شأنها شأن تلك الخطب التى تقال فى مثل تلك المناسبات، طالباً منهم الشدة والقسوة والتفانى فى الحرب. ومما يعزز هذا الاحتمال ان الحادثة المشار إليها لم يرد ذكرها فى أى من المصادر العربية السنية. وبطبيعة الحال لو كانت هذه الواقعة صحيحة لكانت المصادر السنية أولى بالإشارة إليه لاتخاذها ذريعة للتشهير بهذا الرجل الشيعى والنكايه به، فتكون نقطة سوداء فى تاريخ طائفة الشيعة كلها لكونها لم تحترم رمز الديانة المسيحية الذى يتمثل فى تلك الآثار المقدسة التى طالب الوزير الأفضل بتدميرها.

مهما يكن من أمر، تجمعت القوات الإسلامية فى عسقلان، وكانت خطتها تتلخص فى جذب قوات الفرنج إلى الرملة وإبقائها هناك، فى نفس الوقت الذى تتجه فيه بعض القوات الإسلامية إلى يافا لحصارها والاستيلاء عليها. وبعد ذلك تواصل القوات الإسلامية طريقها ناحية بين المقدس لمحاصرتها[1]. وكان الملك بلدوين فى هذا الوقت متواجداً فى يافا. فلما بلغه أمر تحركات الجيش الفاطمى، تملكه القلق خشية تفوق الفاطميين وانتصارهم واستيلاءهم على المدينة بسبب كثرة أعدادهم. ولذا أراد أن يقابل هذه التحركات بدهاء كبير. فتظاهر بعدم معرفته بنية المصريين، وفى نفس الوقت أخذ يجهز قواته سراً معتمداً

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 621.

على كل رجل قادر على حمل السلاح، كما عمل على ترميم أسوار المدينة وتعزيز تحصيناتها، وخصص بعض من المقاتلين للدفاع عن أسوارها[1]. وبعد أن انتهى من كل هذه الترتيبات خرج بجيشه متجهاً نحو عسقلان فى نفس الوقت الذى كان فيه الجيش الإسلامى قد تحرك من عسقلان تجاه يافا. وذلك دون أن يعلم كلا الطرفين بهذا الأمر، فالتقيا فى مفترق الطريق عند الرملة[2]. ومن هناك أرسل بلدوين مع مندوبه رسالة إلى أفريمار Evermar بطريق بيت المقدس (١١٠٢-١١٠٨م) يرجوه فيها هو وعامة الشعب بالتضرع إلى الله وكثرة الصلاة والصوم والزكاة ليكون هذا بمثابة فدية لنجدة الفرنج من أى هزيمة قد تلحق بهم، وليمنحهم الله المساعدة والنصر على المسلمين. كما حمله مسئولية وعظ الناس وحثهم على ضرورة التطوع لحمل السلاح والاتجاه إلى ميدان القتال[3]. وعندما وصل المبعوث الملكى إلى المدينة المقدسة، وعلم البطريرك بمضمون الرسالة، أمر فى الحال بدق أجراس الكنائس معلناً ضرورة اجتماع كل الناس أمامه وقال لهم "يا أصدقائى... يا خدم المسيح، لقد حضر هذا المبعوث من قبل الملك بلدوين ليخبرنا، ان المعركة ستبدأ مع المسلمين عند الرملة. ومن أجل تحقيق النصر لابد من التضرع

---

(١) Ibid., Anonymous, op. cit., p. 566.

(٢) Anonymous, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Flucher of Chartres, op. cit., p. 183; Anonymous, op. cit., Loc, cit.; Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iberusalem, cf. R.H.C. – H. occ., III, p. 450.

إلى الرب، وكثرة الصلاة، وأخبرنا هذا المندوب الملكى بان الملك قد أخر بدء المعركة إلى الغد ليوافق هذا يوم عيد القيامة المجيد. وعلى ذلك فإننى أطلب منكم السهر طوال هذه الليلة للصلاة والتعبد. واذهبوا فى الغد إلى الأماكن المقدسة بالمدينة حفاة الأقدام، تاركين كل شهواتكم، مذللين أنفسكم، متضرعين إلى الله بكل تقوى وإيماناً، لينقذنا من أيدى الأعداء وأما عن نفسى فإنى ذاهب فى الحال للوقوف بجوار الملك وعلموا تماماً بأننى سوف أحث كل واحد منكم قادراً على حمل السلاح أن يأتى معى لسد حاجة الملك من المقاتلين"[1].

لقد كان لهذا النداء صدى كبيراً لدى كثير من المسيحيين الموجودين فى القدس فسرعان ما تقدم أكثر من مائة وخمسين مقاتلاً ابدوا رغبتهم فى الانضمام إلى المعسكر الصليبى بالرملة لناصرة زملائهم هناك. وفى صباح اليوم التالى ذهب برفقة هؤلاء المتطوعين كثير من القساوسة وعلى رأسهم أفريمار بطريق بيت المقدس حاملاً الصليب المقدس[2].

ويعطينا المؤرخ المجهول صاحب كتاب "تاريخ القدس" صورة حقيقة لهؤلاء الناس طوال مسيرتهم من القدس حتى الرملة. فكانوا حفاة الأقدام يبكون بصفة مستمرة ويطلبون المساعدة من الله. وعند وصولهم استقبلهم الملك بفرح وسرور كبيرين. وارتفعت الروح المعنوية

---

(١) راجع نفس هذه الخطبة فى كتاب فوشيه أوف شارنز:

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 184.

(٢) Ibid., Albert d'Aix, op. cit., p. 622; Anonymous, op. cit., p. 540; cf. Also: Grousset, op. cit. T, I p. 244.

لدى المقاتلين الفرنج. واتجهوا جميعا إلى كنيسة القديس جورج، وهى على مقربة من هذا المكان. وأدوا شعائر الصلاة وقدموا الشكر والدعاء لله. ثم أمر الملك بعد ذلك بالنفخ فى الأبواق معلناً بدء المعركة(١).

أما بالنسبة للذين تبقوا فى القدس، فقد اخذوا يوزعون الصدقات على الفقراء ويزورون الكنائس من أول النهار حتى منتصفه، وكانوا ينشدون وهم يبكون. كما تطوع المسنون من الرجال بالصوم حتى التاسعة من صباح اليوم التالى إرضاء لوجه الله(٢).

وأياً كان الأمر فقد التحم الطرفان يوم الأحد ٢٧ أغسطس ١١٠٥م ١٤ ذى الحجة عام ٤٩٨هـ. وكانت المعركة عنيفة وشرسة وغير متكافئة فى العدد فكان الجيش الصليبى لا يتجاوز خمسمائة فارس وألفين من المشاه، بينما كان عدد قوات المسلمين يفوق العشرة آلاف مقاتل بعد التعزيزات الجديدة التى وصلته(٣).

وكان الملك اللاتينى فى أرض المعركة يشجع جنوده ويحثهم على ضرورة الصمود والتفانى فى القتال من أجل نصرة المسيحية. وكان قد خصص له ما يقرب من مائة وستين فارساً لحمايته ضد أى مكروه قد يصيبه. ورغم كثرة القوات المصرية، فلم يفكر أى من هؤلاء الفرسان فى ترك الملك وكان الجيش الصليبى منظماً يتكون من خمس فرق على رأس

---

(١) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ., p. 560.

(٢) Flucher of Chrrtres, op. cit., p. 185.

(٣) Flucher of Charters, op. cit., Loc. Cit; Anonymous, op. cit., p. 566.

كل فرقة حاملى الأبواق والرايات[1]. وكانوا يحاربوا بشجاعة وحماسية شديدة. حيث كانوا يرددون وفقاً لقول البرت دكس "المسيح المنتصر.. المسيح الحاكم.. المسيح السيد"[2]. وكانت المعركة تتسم بكثرة استخدام السهام والأقواس، وشدة ضربات السيوف، خاصة من جانب الدماشقة الذين اشتهروا بالسرعة الفائقة والمهارة التامة فى تصويب أهدافهم بالسهام. فتمكنوا من محاصرة إحدى الفرق الفرنجية وتوجيه ضربات سهامهم. إليها فأثار هذا المنظر ثائرة الملك الصليبى، وأخذ علمه الأبيض من أيدى أحد فرسانه، واقتحم الصفوف، وأخذ يهاجم هنا وهناك فى نفر من فرسانه حتى تمكن من فك شبكة الحصار حول اتباعه. وفى الحال تشتت شمل الدماشقة، ولحقتهم الهزيمة، واضطروا إلى الفرار من ميدان المعركة. ولعل ما دفعهم على هذا فرار كثير من المقاتلين المصريين إلى عسقلان وعلى رأسهم قائدهم سناء الملك الذى تمكن من الهرب مباشرة إلى القاهرة[3]. ورغم هذا. فقد صمد كثير من القادة المصريين طوال المعركة. وعلى رأسهم حاكم عسقلان جمال الملك ولكن لم تطل به الحياة إذ مات شهيداً أثناء المعركة وقطعت رأسه، وأخذها معه الملك الصليبى وحزن عليه جنده حزناً كبيراً[4] وانتهت المعركة بانتصار

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 622.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit., p. 186.

(٣) Ibid., Anonymous, op. cit., Loc. Cit.

(٤) Flucher of Chartres, op. cit., Loc. Cit; Anonymous, Li Estoire de Jerusalem, cf. R.H.C. – Hocc., v, 180. =

الجيش الصليبى رغم قله عـدده. وتم الاستيلاء علـى ممتلكـات الجيـش الإسلامى، وعاد الصليبيون إلى يافا، ومنها اتجه الملك إلى القدس[1].

وعلى الرغم من أن المصريـين قـد أظـهروا شـجاعة فـى القتـال إلا أنهم خسروا خسائر فادحة فى الأرواح والأموال سواء المتصرف منها فى الإعداد للحملـة أو التـى دفعـت فديـة لإطـلاق سـراح كثـير مـن القـادة الأسرى. ولا يعنى هذا أن الفرنج لم يعانوا مـن وراء ذلـك، وإنمـا كـانت خسـائرهم أيضـاً باهظـة لم تعوضـها لا الفديـة التـى حصلـوا عليـها مـن المسلمين ولا ما اغتنموه من وراء الاستيلاء على معسكر المسلمين[2].

أما بالنسبة للسفن المصرية المرابطة أمـام مدينـة يافـا انتظـاراً للفرصة المواتية للانقضاض على المدينة وغيرها من المدن البحرية الأخرى الخاضعة للصليبيين فسرعان ما وصلتها انباء هزيمـة الجيـش الفـاطمى، فدب الذعر فى قلـوب مـن فيـها مـن المقـاتلين خاصـة بعـد أن أمـر الملـك اللاتينى بإلقاء رأس الأمير جمال الملك على ظهر إحدى السـفن المصريـة. وحينذاك انزعج المسلمون عندما علموا بحقيقة ما حدث لأميرهم. فـأثروا

= راجع أيضاً المقريزى: المصدر السابق، جـ٣، ص٣٥، العينى المصدر السابق، جـ٢٠، لوحة ١٤٥.

(١) Anonymous, Historia Herosolimitana, cf. R.H.C. – H. occ., Iv, p. 566; Annalles de Terre Sainte, cf. A.O.L., II, p. 430.

(٢) Flucher of Chartres, op. cit., p. 187; Anonymous, Li Esroire de Jerusalem, cf. R.H.C.- Hocc., V. p. 643; cf. Also: Runciman, op. cit., II, p. 90; Grousset, op. cit. I. p. 245.

الانسحاب إلى عسقلان. وصادفتهم فى الطريق رياح شديدة أطاحت بعدد كبير من سفنهم وألقيت بها على الشواطىء الصليبية، فكانت فرصة ذهبية للصليبيين الذين قبضوا على من فيها بينما لاذت السفن الباقية بالفرار إلى عسقلان(1).

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن المؤرخين اللاتين القدامى الذين سجلوا أحداث معارك الرملة قد تحاملوا بشكل واضح على القوات المصرية والإسلامية وحاولوا أن ينالوا من حماسهم وشجاعتهم وإيمانهم فى حروبها ضد الصليبيين ففى الوقت الذى يمتدح فيه هؤلاء المؤرخين شجاعة اللاتين وحماستهم وإيمانهم الشديد من أجل تمجيد المسيحية ونصرتها، لانجد فى كتبهم وتأليفهم إلا شذرات مبعثرة تتحدث عن موقف المسلمين الحقيقى إبان تلك المعارك. فلا شك ان هؤلاء المؤرخين لم يعطوا المسلمين حقهم فى إظهار سماتهم الطيبة فى هذه الناحية، والتى لا تقل بأى حال من الأحوال هما كان يتصف به الفرنج. لعل السبب فى ذلك يرجع إلى تحيز هؤلاء المؤرخين إلى بنى جلدتهم.

حقيقة أن المؤرخين المسلمين أمثال ابن القلاسى وابن الأثير وغيرهما لم يبرزوا أيضاً تلك الصفات فى مؤلفاتهم. ولكن هذا لا يعنى انهم يتفقون مع ما جاء فى كتابات المؤرخين الغربيين. وإنما يرجع فى المرتبة الأولى إلى اهتمامهم بتدوين أهم الأحداث التى تمت فى الأعوام التى يؤرخون لها على طريقة السرد الحولى، بغض النظر عن تفاصيلها

---

(١) Anonymous, op. cit., Loc. Cit flucher of chartres, op. cit., p. 188.

ودقائقها. وخاصة إذا كانت تتعلق بوصف المعارك الحربية بهذه الصورة الدقيقة التى اعتاد عليها المؤرخون الغربيون.

هكذا تكون قد انتهت الحملة الثالثة والأخيرة من جولات العمليات الحربية التى دارت رحاها فى منطقة مدينة الرملة وانتهت معها تلك المحاولة الضخمة التى قام بها الفاطميون لاستعادة فلسطين من قبضة الفرنج.

فكانت هذه الحملات الثلاث تمثل حلقة هامة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب والذى يمتد منذ عهد اليونان والرومان القدماء حتى وقتنا هذا. وغير خاف، أن تلك الحملات قامت فى وقت كان فيه العالم الإسلامى يعانى من التمزق والانقسام والضعف الشديد، وفى وقت كان فيه مركز الثقل يميل بقوة لصالح الغرب الأوروبى. ولو كان قد قدر للقوى الإسلامية الاتحاد ونسيان ما بينها من خلافات، وغلبت الصالح الإسلامى العام على المصالح الشخصية لما أتاحت للدخلاء فرصة تحقيق أى انتصار أو تثبيت دعائم دولتهم ولاستطاعت ان تحفظ فلسطين من عبثهم.

ومع ذلك تعتبر حملات الرملة الثلاث خطوة هامة نحو ظهور حركة اليقظة العربية الإسلامية التى تمت خلال القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) وأخذت تسرى كالتيار فى المنطقة وأثمرت ظهور شخصيات إسلامية لامعة كان لها دور لا ينسى فى بذر الوحدة العربية الإسلامية مثل عماد الدين زنكى، وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى مؤسس الأسرة الأيوبية بمصر والذى نجح بعد

جهاد كبير فى تكوين وحدة إسلامية عربية من الفرات إلى النيل وتطويق ممتلكات اللاتين وطرهم من بيت المقدس بعد هزيمتهم شر هزيمة فى موقعة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ. واعتدل بعد ذلك ميزان القوى فى المنطقة لصالح المسلمين، إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج نهائياً من أرض العروبة عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ أيام السلطان المملوكى الأشرف خليل.

بيان بالمختصرات

الوارد ذكرها فى حواشى البحث

R.H.C. – H.occ – Recueil des Histore des Croisades – Historiens occidentaux.

R.H.C. – Doc. Arm – Recueil des Histoire des Croisades Documents Armeniens.

J. A. Journal Asiatque.

A.O.L Les Archives de l'Orient Latin.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

أولاً: المصادر:

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed. R.H.C. – H, occ., t. IV, Paris, 1879, (pp. 265-713).

Annales de Terre Sainte (1095-1291), Publiees Par R. Rohericht et G. Raynoud in A.O.L., t. II, (pp. 427-467).

Anonymous, Li Estoire de Jerusalem et d'Antiochie, ed. R.H.C.- H. occ., t. V, Paris, 1889, (PP. 623-642).

Anonymous, Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem Ed. R.H.C. – H. occ., t. III, Paris, 1866, (pp. 490-543).

Anonymous, Geta Francorum et Aliorum Jesrosolimitanorum.

وقد رجعنا إلى الترجمة العربيــة لهـذا الكتـاب تحـت اسـم "أعمـال الفرنجـة وحجـاج بيـت المقـدس" ترجمـة دكتـور حســن حبشــى، القاهرة، ١٩٥٨.

Anonymous, Historia Hierosolimitana Ed. R.H.C. – H. occ, t. IV, Paris, 1879, (pp. 49-585).

Anonymous, Historia Nicaenvel antiochenna. Ed. R.H.C. H. occ., t. V, Paris, 1889, (PP. 140-185).

Baldrici, Histoira Jersolimitans. Ed. R.H.C. – H. occ., t. IV, Paris, 1879, (pp. 4-111).

Ekkehardi, Abatis Urou Giensis Hierosolymitana, Ed. R.H.C. – H. occ., t. V. Paris, 1880, (pp. 1-40).

Fabri, F., The Wandrings of Brother Felix fabri (1480-1483 A, D), translated by A. Stewart, 2 vols, London, 1893. Cf. Palestine pilgrim's Text Society, IX.

Fulcher of Chartres, Ahistory of the expedition to Jerusalem (109-1127), translated by frances Rita Ryan, U.S.A. 1969.

Gotfridi, Anonymi Rhenani Historia et Gestaducis Gotfridi, Ed. R.H.C.- H. occ., t. V, Paris, 1880, (pp. 439-25).

Wiliam of Tyr, A History of Deeds Done Beyond The Sea, 2 Vols, translated by E.A. Babock, A.C. Kery, New York, 1943.

Mattew d'Edesse, Extraits de la chronique de Mattew d'Edesse. Ed. R.H.C. – Doc. Arm, I, Paris 1869 (pp. 1-150).

Sonuto, Marinco, Secrets for the Crusaders to help them to recovoer the holy Land, cf. Palestine pilgrim's Text Society, t. XIV, London 1896 (pp. 1-73).

ثانياً: المراجع:

Alphonse, Travels in the East, Edinbourg, 1839.

Belloc, The Crusades, London, 1937.

Benvenisti, The crusades in the Holy Land,

Besant, The History of Jerusalem London, 1833.

Campbel, The Crusades, London, 1935.

Chalandon, Histoire de la premiere croisade, Paris, 1925.

Conder, The Latin King-dom of Jerusalem, London, 1897.

Defremery, Nouvelles Recherches Sur les Ismaéliens ou Bathiniens de Syrie, cf. J. A.5e, t. v, Paris, 1855, (pp.5-76).

Franklin, Palestine depicted and described, London, 1911.

Grousset, Histoire des Crosades, 3 vols, Paris, 1948.

Lamb, The Crusedes, London, 1931.

Morgoliuth, D., S., Cairo, Jerusalem and Damascus, London, 1907.

Muller, Castles cf. The Crusades, London, 1966.

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols, London, 1971.

Setton, K. M., (Ed.) A History of the Crusades, 2vols, philadelphia, 1958.

Smith, Jerusalem. The Topographie and History, London, 1909.

Stanly, P., Sinai and Palestine, London, 1856.

Stevenson, W. B., The Crusaders into East, London, 1907.

Hand Book for travellers in Syria and Pales tine, 2vols, London, 1888.

المصادر والمخطوطات والمراجع العربية

أولاً: المصادر:

ابن الأثير، (أبو الحسن- أبى الكرم الملقب عز الدين):

الكامل فى التاريخ - ١٢ ج. القاهرة ١٣٠١-١٨٨٢م.

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن):

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ٩ج - القاهرة ١٩٤٢.

ابن الجوزى (سبط) (أبو المظفر شمس الدين يوسف):

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - جـ٨- حيدر آباد ١٩٥١.

ابن حوقل (الحسب القاسم):
صورة الأرض. لندن ١٩٢٨.
ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس):
وفيات الأعيان - ٦ ج - القاهرة ١٩٤٨-١٩٤٩
ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على):
ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨.
أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين):
تقويم البلدان - باريس ١٨٩٠.
الأربلى (عبد الرحمن سبط بن إبراهيم):
خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك - تحقيق مكى السيد جاسم، بغداد، ١٩٦٤.
الاصطخرى (أبو أسحق إبراهيم بن محمد):
المسلك والممالك - ليدن - ١٩٢٧.
الأنصارى الدمشقى (شمس الدين ابن عبد الله):
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر - ليبزج ١٩٢٣.
العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى):
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ٨ ج بيروت (بدون تاريخ).
المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. محمد حلمى محمد احمد، القاهرة ١٩٧١، جـ٢.
بنيامين التطيلى (ابن يونه النبارى الاندلسى)
رحلة بنيامين - ترجمة عن الأصل العبرى عزرا حداد ١٩٤٥.
ناصر خسرو علوى (ابو معين الدين):

سفرنامه – ترجمة د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.
ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين):
معجم البلدان – ٦ ح، ليبزج ١٨٦٦ – ١٨٧٠.
مؤرخ مجهول: مراصد الإطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع:
٦ ج قام بنشره ت. ج جوينيلي – طبعة إبريل ١٨٦٤.

ثانياً: المخطوطات:

ابن ابيك (أبو بكر بن عبد الله):
كنز الدرر وجامع الغرر – ٩ ج – دار الكتب المصرية "تصوير شمسي".
الادريسى (الشريف محمد عبد العزيز):
نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والجزر والمداين والآفاق، مكتبة البلدية "نسخة خطية".
العينى (بدر الدين أبو محمد أحمد بن موسى):
عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان – دار الكتب المصرية، تصوير شمسى.
النويرى الكندى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب):
نهاية الأرب فى فنون الأدب – ٥٥ مجلد – دار الكتب المصرية "تصوير شمسى".

المراجع:

جمال الدين الشيال (الدكتور):
تاريخ صر الإسلامية – ٢ ج – القاهرة ١٩٦٧.

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور):

العرب والروم واللاتين، الإسكندرية، ١٩٦٣.

خليل خورى: خرابات سورية - بيروت ١٨٩٠.

سعيد عاشور (الدكتور):

الحركة الصليبية - ٢ ج - القاهرة ١٩٦٣.

محمد محمد الشيخ (الدكتور):

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها - إسكندرية سنة ١٩٧٠.



المبحث الثاني

كفر طاب وحصنها بين المسلمين والصليبيين

(٤٩٢-٥٣٢هـ/١٠٩٩-١١٣٨م)



كفر طاب وحصنها بين المسلمين والصليبيين

(٤٩٢-٥٣٢هـ/١٠٩٩-١١٣٨م)

من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى التى قامت فى ختام القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) قد أفلحت فى تحقيق هدفها، وتأسيس المملكة اللاتينية فى الأراضى المقدسة على أنقاض لشرق الأدنى الإسلامى الذى كان منقسماً على نفسه سياسياً ومذهبياً مما أضعفه عن مواجهة العدوان الصليبى. وكان حصن كفر طاب هو أحد الحصون الهامة المنيعة ذات الموقع الاستراتيجى المتاز فى شمال الشام. وقد راح ضحية ضعف المسلمين، ووقع فى أيدى الفرنج عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وقد بات يتأرجح منذ ذلك الحين بين المسلمين تارة، والصليبيين تارة أخرى حتى استرده المسلمون نهائياً أيام عماد الدين زنكى عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م.

وكفر طاب، بفتح الكاف، وسكون الراء المهملة وفتح الطاء المهملة ثم ألف وباء موحدة[1]، بلدة بين حلب ومعرة النعمان[2]،

---

(١) أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس ١٨٥٠، ص٢٦٢، البغدادى: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على البجاوى، مكة ١٩٥٤، جـ٢، ص١١٧٠.

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان، طهران ١٩٦٥، جـ٤، ص٢٨٩، البغدادى: المصدر السابق، جـ٣، ص١١٧٠.

بالرجوع إلى الخرائط الدقيقة اتضح أن ما أدلى به ياقوت فى وصف موقع كفر طاب لا يتسم بالدقة التامة. فالمدينة تقع على امتداد الطريق الموصل بين حلب ومعرة النعمان ناحية الجنوب وليس بينهما. وترجع عدم الدقة أحيانا عند=

بينها وبين شيزر[1] اثنا عشر ميلاً، وكذلك بينها وبين معرة النعمان[2]، وهى على طريق المعرة وشيزر على الجانب الأيمن لنهر العاصى[3]. وبينها وبين حماه أربعون ميلاً، وسميت بذلك الاسم لأن حواليها أرضاً كريمة وثماراً كثيرة من الزيتون والرمان والكروم ومختلف أنواع الأشجار[4]. ونظراً لتبعيتها لحماه كان النصارى من أهلها يخرجون فى أعيادهم إلى حماه، فيضرب لهم الأهالى خياماً على شطوط نهر العاصى.

=ياقوت إلى أنه لم يقم بزيارة كثير من البلدان التى يصفها فى مؤلفه، وإنما يعتمد فى ذلك على السمع، وذلك على حد قول الدكتور عبد العال الشامى فى مقدمة كتابه "مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى"، الكويت، ١٩٨٤.

(١) شيزر مدينة ذات قلعة حصينة، يمر نهر العاصى شمالها، بينها وبين حمص ثلاثة وثلاثون ميلاً، ومن شيزر إلى إنطاكية ستة وثلاثون ميلاً. راجع أبو الفدا: المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٢) تقع فى منطقة حمص بين حلب وحماه، وعرفت بالنعمان نسبة إلى النعمان بن بشير الصحابى الجليل الذى توفى ودفن فيها. وقيل ان النعمان اسم جبل يطلق عليها فسميت بهن والمدينة مهدمة اليوم. راجع ابن الشحنه: الدر المنتخب فى تاريخ حلب، بيروت ١٩٠٩، ص١٦٤، مهذب رحلة ابن بطوطه، القاهرة ١٩٣٤، جـ١، ص٥٥، الأنصارى الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، بغداد (بدون تاريخ)، ص ٢٩١.

(٣) أبو الفدا: المصدر السابق، ص ١٨٢، راجع أيضاً:

Dussaud, La Syrie antique en Mediévale illustrée Paris 1931, p. 191; Rey, les Colonies franques de Syrie aux XII me et XIII siécles, Paris, 1883, p. 335.

(٤) الحميرى: الروض المعطار فى خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥، ص١٩٩.

شطوط نــهر العـاصى، فـيركبون المراكـب بالمغـانى ويرقصـون ويواصلـون الاحتفال بأعيادهم[1]. وتقع كفر طاب فى برية معطشـه، وليـس بـها أى مصـدر للميـاه سـوى الأمطـار، وينسـب إليـها جماعـة مـن أهــل العلــم والعقلاء[2].

وظلت كفر طاب تابعة للمسلمين حتى الثلـث الأخـير مـن القـرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى). وعندما أدرك البيزنطيون انهم لا يواجهون على حدودهم الشرقية دولة إسلامية موحدة بدأوا يتوسـعون على حساب المسلمين فى أطراف آسيا الصغرى والشام. فلم يلبث أن نجح الإمبراطور نقفور فوكـاس Nicephorus phocas (٩٦٣-٩٦٩م/٣٥٢-٣٥٨هـ) فى إحدى غاراته على بلاد الشام فى الاستيلاء علـى كفـر طـاب عام ٩٦٨م/٣٥٧هـ[3]. وظلت تحت سيطرة الروم ردحـاً طويـلاً مـن الزمـن حتى نجح مقلد بن نصر والد سديد الملك أبو الحسن بن منقـذ فـى شـيزر

---

(١) الأنصارى الدمشقى: المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٢) القزوينـى: آثـار البـلاد وأخبـار العبـاد، بـيروت ١٩٧٥، ص٢٤٨، يـاقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٤، ص٢٨٩، أبو الفدا: المصدر السـابق، ص٢٦٢، وقال فيها الشاعر سنان الخفاجي:

بــالله يـا حـــادى المطايــا	بيــن حُنَـــاك وأرضايـــا
عــرج على أرض كفــر طــاب	وجيهـــا أحســـن النحايـــا
وأهد لها المــاء فهــى ممـــن	يفرح بالمــاء فـــى الهدايـــا

(٣) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، بيروت (بدون تاريخ)، جـ٢، ص٣٩٥، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، القـاهرة ١٩٨٢، جـ١، ص٦٠-٦١؛ السيد الباز العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ص٤٨١.

فى السيطرة عليها وانتزاعها من البيزنطيين عام ١٠٤١م/٤٣٣هـ، وارتبط اسمه بها منذ ذلك الحين، فقيل ابن منقذ الكفر طابى[1]. وتولى الحكم بعد وفاته عام ١٠٥٩م/٤٠هـ ابنه سديد الملك الذى تابع سياسة أبيه فى بسط سيطرته على منطقة كفر طاب وحفظها من أيدى الأعداء. ونظراً لرغبته الأكيدة فى الاستيلاء على شيزر من البيزنطيين، فقد أقام فى كفر طاب، واتخذها مركزاً للإشراف على بناء حصن على تل يقع غربى شيزر على مسافة قريبة منها عرف بحصن الجسر ليشرف على قلعة شيزر ويظل خط دفاع أمامى لكفر طاب[2]. وعندما توفى سديد الملك عام ١٠٨٢م/٤٧٥هـ انتقلت مقاليد الأمور فيها لابنه نصر، ولكنه لم يهنأ بذلك أكثر من ثلاث سنوات حتى استولى عليها سليمان قتلمش سلطان سلاجقة الروم (١٠٨١-١٠٨٦م/٤٦٥-٤٨٥هـ) عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م لفترة قصيرة. ثم عاد واستردها من جديد نصر بن سديد الملك وضمها إلى حظيرة ملكه[3]. وعندما وصل السلطان السلجوقى ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢م/٤٦٥-٤٨٥هـ) إلى بلاد الشام عام ١٠٨٧م/٤٨٠هـ أعلن نصر بن سديد الملك ولاءه له، وسلم إليه كفر طاب وافامية واللاذقية، فقبل السلطان طاعته واقره على حكم هذه البلاد[4]. وظل يحكمها حتى توفى

---

(١) ابو الفدا: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٦.

(٢) محمد الشيخ: الإمارات العربية فى بلاد الشام، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص٢٨٤، ٢٨٦.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامى الدهان، بيروت ١٩٥٤، جـ٢، ص٩٥.

(٤) أبو شامه: الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٥٦، جـ١، ص ٦١، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى=

عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ ثم خلفه أخوه عز الدين ابـو العسـاكر سـلطان علـى، وظلـت كفـر طـاب تحـت يديـه حتـى اسـتولى الفرنـج عليـها عـام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ.

فبعد ان وصل الصليبيون فى الحملة الصليبيـة الأولى إلى مشـارف الشام فى خريف عام ١٠٩٧م/٤٩٠هـ اقتحموا مدينة انطاكيـة فـى يونيـو ١٠٩٨م/رجب ٤٩١هـ واستولوا عليها. ثم تقدموا تحت قيادة ريموند دى سانت جيل Raymond of Saint Gile مركيز تولوز وكونت بروفانس وأحد زعماء الحملة ناحية الجنوب، فاستولوا علـى البـاره فـى سـبتمبر ١٠٩٨م/ذى القعدة ٤٩١هـ، وعلى معرة النعمان فى ديسمبر ١٠٩٨م/صفر ٤٩٢هـ، ثم واصلوا تقدمهم إلى كفر طاب واسـتولوا عليـها يـوم الخميـس ١٦ يناير عام ١٠٩٩م/ السابع عشر من صفر عام ٤٩٢هـ[1]. وعندمـا راى أبو العساكر سـلطان أمـير شـيزر تجمـع الفـرق الصليبيـة علـى مشـارف إمارتـه بادر بإرسال مندوبين إلى ريمونـدج فـى كفـر طـاب لمفاوضتـه فـى

=أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشـيال، القـاهرة ١٩٥٣، جـ١، ص١٨، أبـو الفدا: المصدر السابق: جـ٢، ص ١٩٨.

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨، ص ١٣٦، راجع كذلك:
Raymond d'Aguilers, historia francorum qui ceperunt iherusalem, translated in to English by John Hill, Philadelphia, 1968, pp. 82-83; Tudebode, historia de hierosolymitana itinere, translated in to Englich by John hill, Philadephia, 1974, p. 104, cf also: Richard, Orient et occident au moyen age: contacts et relations (XIle-Xve S.), London, 1976, p. 105.

الصلح مبدياً استعداده أن يشاطره الكونت بعض ما يملك وأن يقدم المعونة إلى الصليبيين وإرسال إدلاء لارشادهم لعبور نهر العاص نظير عدم تعرضهم لامارته بسوء[1]. وتعد تلك السفارة أول اتصال بين المسلمين والصليبيين في كفر طاب.

وعلى الرغم من الموقع الجغرافى الهام الذى كانت تتمتع به كفر طاب، فلم يعمل الفرنج على إمدادها بحامية كبيرة فى بداية الأمر مما سهل على المسلمين استردادها بعد ثلاثة أعوام من وقوعها فى أيدى الأعداء. فقد دبر رضوان ملك حلب فى عام ١١٠٢م/٤٩٦هـ المكائد ضد الفرنج الموجودين فى بعض البلدان الخاضعة لحلب مثل رمين ومعرة مصرين وغيرهما، فقام الأهالى بالقبض على من عندهم من الفرنج مما اضطرهم إلى طلب الأمان من القتل فأجابهم رضوان لهذا وحملهم أسرى عنده. فانزعج بنو جنسهم فى كفر طاب ومعرة النعمان، وازداد اضطرابهم وقلقهم، ولاذوا بالفرار إلى إنطاكية، فدخلها المسلمون واستتب الأمر لهم دون قتال[2]. وقد أمعن الملك رضوان عندئذ فى الإغارة

---

(١) Roymond d'Aguilers, op. cit., p. 83; Tudebode, op. cit., Loc. Cit., Baldric; Historia Jerosolimitana, cf. R.H.C. – H. Occ., t. IV, (pp.1-111), p. 90; Guiberto Novigent, Gesta Dei pr Francos, cf. R.H.C. – H. Occ. T. IV, (pp. 114-263), p. 214, Anonymos, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.

رجعنا إلى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١١٠.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٨-١٤٩، أنظر أيضا : =

على إمارة إنطاكية التى كادت أن تتعرض للخطر لو لم يمت شمس الملوك دقاق صاحب دمشق عام ١١٠٤م/٤٩٨هـ. فجذب انتباه رضوان، واهتمامه بما وقع من نزاع على حكم دمشق بين بورى بـن دقـاق وعمـه ارتـاش[١]. وكان بوهيموند Bohemond أمير إنطاكيـة اللاتينيـة عندئـذ قـد أدرك عدم قدرته على حفظ البلد، فعاد إلى الغرب يستنجد بمن يخرج بـهم إلى الشرق، واستخلف ابن اخته تنكـرد يدبـر أمـور إنطاكيـة والرهـا أثنـاء غيابه[٢]. وقد نجح تنكرد إلى حد كبير فى تثبيت نفوذه أمـام السـلاجقة فى الشام، واسترد بعض البلدان الإسـلامية منـهم، وفـى مقدمتـها كفـر طاب عام ١١٠٦م/٥٠٠هـ[٣]. وتولى أمرها فارس صليبى يدعى Theophil الذى لم يلبث أن اتخذها مركزاً تخـرج منـه الغـارات ضـد المسـلمين فـى شيزر، فسبب بذلك رعباً كبيراً للأهالى بها[٤]. وأخـرج فـى نفس العـام

=Anonymous, op. cit., Loc. Cit. Tudebode, op. cit., Raymond d'Aguilers, op. cit., Loc. Cit, cf also: Setton, A History of the Crusades, wisconsin, 1969, t. I, p. 390.

(١) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٣، ص١٤٩، أنظر أيضا:

Runciman, A History of the Crusades, London, 1979; t. I, p. 46.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، أنظر كذلك:

fulcher of chartres, A History of the Expedition of Jerusalem (1095-1127), translated by Frances Rita, U.S.A. 1969, p. 177; Mattew d'Edesse, Extraits de la chronique de Mattew d'Edesse, Ed. R.H.C.- Doc. Arm. I, Paris, 1869 (pp. 1-150), p. 73; cf also: Stevenson. The Crusaders in the East, London, 1907, p. 72.

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٤٢٠.

(٤) Runciman, op. cit., 11, p. 53; Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1948, t. 1, p. 426.

فرقة صغيرة من فرسان الفرنج بكفر طاب أخذت طريقها صوب شيزر. ففزع الأهالى طامعين فيهم لقتلهم، ودارت معركة بين الجانبين انهزم فيها الفرنج الذين لاذوا بالفرار، فطاردهم الأهالى فى شيزر حتى أبعدوهم عن المدينة. وهناك وقع المسلمون فى كمين كان الفرنج قد أعدوه لهم قبل هجومهم على شيزر لكى يتجنبوا مطاردة المسلمين لفلولهم إذا انهزموا عند شيزر. فخرج فرسان الكمين على المسلمين، وفى نفس الوقت عاد ضدهم الفرنج المطاردين وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب. ودارت معركة ثانية بين الطرفين انتهت بانتصار المسلمين وقتل ثمانية عشر صليبياً وخيولهم، وتم أسر الباقين وعاد المسلمون إلى شيزر[١].

وكان فى خدمة ثيوفيل أحد الأعراب الخونة يعيش معه فى كفر طاب، يدعى على ابن أبى الريداء، وكان يخرج من المدينة بين الحين والآخر على رأس فرقة من فرسان الفرنج للإغارة على المسلمين الموجودين فى المنطقة يغنمهم ويبالغ فى إيذائهم حتى قطع سبل المسافرين، الأمر الذى أدى إلى انزعاج المسلمين. ورغم ان زوجته كانت تنكر عليه أفعاله تلك، فلم ينتبه حتى دبرت له مؤامرة مع أخيها وقتلاه وهربت بجميع ما لها إلى شيزر[٢]. وفقد الصليبيون فى كفر طاب بهلاك ابن أبى الريداء مغانم عديدة كانت تدر إليهم بسبب معرفة هذا لإعرابى التامة لطرق ومسالك المناطق المجاورة.

وقد ادرك مسلمو الشام خطورة الأمر، وأهمية حصن كفر طاب

---

(١) ابن منقذ: الاعتبار، تحقيق د. قاسم السمرائى، الرياض ١٩٨٧، ص٨١.

(٢) ابن منقذ: المصدر السابق، ص ١٤٨.

على سبل التجارة فى المنطقة، فاجتمع من بالشام من الملمين – علـى حـد تعبير ابن منقذ – عام ١١١٣م/٥٠٧هـ لتنسيق الجـهود بينـهم والاسـتيلاء عليها. فارسلوا رجلاً من أهل شيزر يقال له قنـب بـن مـالك ليـأتى لهـم بأخبار الفرنج فى هذا الحصن قبل الهجوم عليه. ولـا عـاد بشـرهم بقلـة حامية الحصن وبأنه لا يتجاوز عدد الموجودين بداخله مائة فارس. فأعد المسلمون أنفسهم، وانقضوا على كفر طاب وظفروا بالافرج وقتلوهم. وكان قنب يعلم بالدواب التى فى خندق المدينـة فطمع فـى أن يفـوز بالغنيمـة لوحده، فمضى يركض إلى الخندق، فلمحه رجـل مـن الفرنـج الموجوديـن فى الحصن فرماه بحجر فقتله. وعندما علم تنكرد صـاحب أنطاكيـة بمـا حدث، لم يصدق الخبر وقال فى كبرياء وعجرفة "تركت بها مائة فارس تلتقى بالمسلمين كلهم"[1]. ولكن لم يتمكن المسلمون من الحفـاظ علـى كفـر طاب طويلاً فسقطت فى أيدى الصليبيين مرة أخرى فى نفس العام.

وجدير بـالذكر، أن المنازعـات والصراعـات الداميـة التـى كـانت قائمة وقتذاك بين بعض أمراء المسـلمين وبعضـهم الآخـر كـان لهـا أكـبر الأثر فى عودة كفر طاب مرة أخرى إلى أصحابها الشرعيين من المسـلمين. فقد نجم عن عصيان طغتكين صاحب دمشق وايلغازى حـاكم مـاردين ضـد السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه (١١٠٤–١١١٨م/٤٩٨–٥١٢هـ)[2]،

---

(١) ابن منقذ: المصدر السابق، ص ١٣٥–١٣٦.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هـذا النزاع انظر ابـن القلانسـى: المصدر السـابق، ص١٩٨–٢٠٢، ابـن الأثـير: الكـامل فـى التـاريخ، بـيروت ١٩٨٦. جـ٨، ص٢٦٩–٢٧٠، وكذلك محمـد الشـيخ: الجـهاد المقـدس ضـد الصليبيـين حتـى سقوط الرها. الإسكندرية ١٩٧٤، ص ٢٥١–٢٥٦.

ان حالفا روجر دى سالرنو Roger der Salerno الوصى على بوهيمند الثانى صاحب الحق الشرعى فى حكم أنطاكية، وبلدوين الثانى Baldwin II ملك بيت المقدس (٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م) وبونز صاحب طرابلس. فجهز السلطان حملة كبيرة تحت قيادة برسق بن برسق أمير همذان عام ١١١٥م/٥٠٩هـ للقضاء على الأميرين العاصيين. وعندما اقترب برسق من حلب فى سبتمبر من نفس العام لاتخاذها قاعدة يشن منها حربه ضد المخالفين وضد الصليبيين معاً، أظهر له لؤلؤ الخادم المتصرف فى أمور حلب العداء، وانضم إلى جبهة العصاه. وحدث عندئذ تخطيط بين هؤلاء الأمراء والفرنج للتصدى لجيش برسق[1]. فتحول الأخير بجيشه إلى حماه، وهى تابعة لطغتكين، فاستولى عليها عنوة وواصل سيره إلى شيزر[2].فى الوقت الذى اجتمعت فيه القوات الصليبية بالمراء المنشقين عند افامية[3]. ولما تيقن برسق من اتحاد كلمة المسلمين

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٨، ص٢٧٢، ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٧٧، جـ١٢، ص١٧٨، أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٢٨، راجع أيضاً:

Gautier de chancelier, Histoire des guerres d'Antioch, cf. Bib. Des crois par michaud, Paris, 1829, t. II, p. 107; cf. Also: Grousset, op. cit., t. I, pp. 502-503.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٨، ص٢٧٢، أنظر أيضاً:

Gautier, op. cit., p. 108; Stevenson, op. cit., p. 98; Runciman, op. cit., 11. P. 213.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص١٧٤-١٧٥، راجع كذلك:

Grousset, op. Cit., t. I, p. 278. =

والصليبيين تردد فى الالتحام معهم، فآثر التظاهر بالانسحاب بجنوده تجاه الجزيرة، فتفرقت عندئذ القوات الصليبية والإسلامية المتحالفة معها، وعاد كل أمير منهم إلى بلاده لمباشرة شئونه. ولما تحقق برسق بأنه ليس من السهل على هذه القوات أن تجتمع مرة أخرى ضده، عاد وقسم قواته إلى فرق عديدة أرسلها فى اتجاهات متفرقة ليواصل حربه ضد الفرنج فى كل مكان[1]. وانقض هو على كفر طاب ومعه بنو منقذ، وفقاً لرواية ابن منقذ الذى شاهد هذه الحرب، وقاتلوا حامية الحصن، وأخذ المسلمون ينقبون أسوارها[2]. ولما اشتد الحصار على الفرنج وأيقنوا الهلاك قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم حتى لا يستفيد بها المسلمون[3]. ثم أشعلوا النار فى الحصن فاحرقوا السقوف ووقعت على الخيل والدواب والغنم والأسرى فاحترق الجميع، وبقى الصليبيون معلقون فى أعلاه[4]. وأخذ المسلمون ينقبون أيضاً فى سور الحصن حتى بلغوا أساس البرج. كما شرعوا فى تقطيع الخشب وسدوا به النقب، ثم

= وأفاميه مدينة حصينه من سواحل الشام، وكورة من كور حمص. ويرجع بناؤها إلى عام ٣١٣ق.م. راجع ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ١، ص٣٢٢، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٦٢.

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٢٢٨، أنظر كذلك:
William of Tyre, A History of deeds done Beyond the sea, Culumbia, 1976, t. I, p. 503; cf. Also: Stevenson, op. cit., p. 99; Setton, op. cit., t., I, p. 404.

(٢) ابن منقذ: المصدر السابق، ص٩٥.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٧٢.

(٤) ابن منقذ: المصدر السابق، ص٩٦.

طرحوا فيه النار. ويقول أسامة بن منقذ "وقد لبسنا وزحفنا إلى الخندق لنهجم على الحصن إذا وقع البرج وعلينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم فأول ما علمت النار صار يسقط ما بين الأحجار من تكميل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج. ونحن نظن أنه إذا وقع تمكنا من الدخول عليهم. فوقع الوجه البرانى وبقى الحائط الجوانى كما هو"[1]. وانتهى الأمر بأن صعد عدد من المقاتلين المسلمين البرج الواحد تلو الآخر وكل منهم يحمل/ أخذوا يكبرون ففزع الصليبيون وأخذوا يرمونهم بالنشاب والحجارة. ولكن أحد الأتراك نجح فى أن يقترب من قمة البرج وضرب من كان عليه من الفرنج بقارورة نفط، فانتهز المسلمون هذه الفرصة وأخذوا يسرعون فى الصعود والاشتباك مع المحاربين الفرنج الموجودين بأعلى البرج، وانتصر المسلمون بعد قتال مرير واستولوا على البرج. واستردوا بذلك كفر طاب يوم الجمعة الخامس من سبتمبر عام ١١١٥م/ السادس والعشرون من شهر ربيع الآخر عام ٥٠٩هـ، وأسروا كل الفرنج وفى مقدمتهم ثيوفيل[2]. وقام برسق بتسليم الحصن إلى حلفائه بنى منقذ فبدأوا فى تعميره[3]. واتجه بعد ذلك إلى أفاميه، ثم تحول عنها إلى معرة النعمان ثم سار شمالاً إلى دانيث بين حلب وكفر طاب حيث عسكر عندها، وقد صاحب بعض أفراد جيش شيزر تحت

---

(١) ابن منقذ: نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن منقذ: المصدر السابق، ص ٩٧-٩٨ راجع أيضاً:

Grousset, op. cit., t. 1, p. 505.

(٣) Runciman, op. cit., t. 1, p. 213, Grousset, op. cit., t. 1, pp. 504-505.

قيادة أميرهم مرشد بن منقذ والد أسامه غير أن الصليبيين علموا بذلك فتسللوا بقيادة روجر صاحب أنطاكية تحت جنح الظلام. وفاجأوا قوات برسق صباح يوم ١٤ سبتمبر عام ١١١١م/ ٤ جمادى الأول عام ٥٠٩هـ، فأنزلوا بهم هزيمة ساحقة، وفر برسق بنفسه وقليل من رجاله فى حين وقع القتل والأسر فى أغلب اتباعه[١]. وعاد من سلم من قوات شيزر مع الأمير مرشد إلى كفر طاب، فى حين كان أسامه بن منقذ وبعض رجال شيزر مع الأمير مرشد إلى كفر طاب، فى حين كان أسامة بن منقذ وبعض رجال شيزر ماضين فى تعميرها معتقدين أنها غدت حصيلة مشاركتهم فى تلك الحرب، وأنها أضحت فى ظل تفوق القوات الإسلامية فى مأمن من الصليبيين. ولما انهزم برسق لم يجد بنو منقذ بدا من إخلاء كفر طاب والعودة إلى شيزر[٢]. وعندما واصل الصليبيون تقدمهم بقيادة روجر الانطاكى إلى كفر طاب استولوا عليها بدون قتال وعمروها وسكنوها فى نفس العام[٣]. وعاد أمراء شيزر إلى مرونتهم فى التكيف مع القوى المجاورة فعقدوا صلحاً مع روجر وحرصوا على عدم التعرض للقوافل الصليبية بين إنطاكية وبيت المقدس[٤].

وجدير بالذكر، كان تصرف بنى منقذ إزاء إخلاء كفر طاب

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص١٧٥-١٧٦، ابن كثير: المصدر السابق، جـ٢، ص١٧٩.

(٢) محمد الشيخ: الإمارات العربية، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٣) ابن منقذ: المصدر السابق، ص٩٩ راجع كذلك:

Stevenson, op. cit., p. 100.

(٤) محمد الشيخ: الجهاد المقدس، ص٢٦٠.

وتركها لقمة سائغة إلى الفرنج تصرفاً لا يليق بهم على الإطلاق، ولا يتفق مع تاريخهم وجهادهم ضد البيزنطيين لتثبيت أقدامهم وكيانهم في شيزر من قبل. فكان عليهم أن يجمعوا كلمة المسلمين الموجودين في المنطقة للحفاظ على ذلك الحصن ذى الموقع الجغرافى الاستراتيجى المتاز والذي طالما تمسك الفرنج به وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ به.

على أية حال، ظلت كفر طاب بأيدى الصليبيين حتى عام ١١١٩م/٥١٣هـ، إذ حشد ايلغازى حاكم ماردين فى هذا العام جيشاً كبيراً اشترك معه بعض الأمراء المسلمين، واشتبكوا مع جيش روجر الأنطاكى وأنزلوا به هزيمة ساحقة فى موقعة البلاط فى سهل قريب من أرتاح فى يونيو ١١١٩م/ ربيع الأول٥١٣هـ، حتى اشتهرت تلك المعركة عند الصليبيين بساحة الدم لكثرة من قتل فيها منهم، وعلى رأسهم قائدهم روجر(١). وكان لهذا الانتصار الذى أحرزه المسلمون أثراً كبيراً فى رفع روحهم المعنوية، وتشجيعهم على استعادة كفر طاب وغيرها من الحصون والمعاقل التى بأيدى الفرنج(٢). وعندما علم الملك بلدوين الثانى

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥١٥. ولمزيد من التفصيلات حول معركة البلاط انظر ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٠٠-٢٠١، ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص١٨٨-١٨٩، وكذلك:

Gautier de chancelier, op. Cit., p. 116, William of Tyre, op. Cit., 1, p. 23; Mattew d'Edesse, op. Cit., 1, pp. 122-123, Anonymos, L'Estoire de Jerusalem et d'Antioch, cf. R.H.C.-H. Occ., t. v, (pp. 623-648), p. 645.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥١٩.

بما حدث، جهز جيشاً كبيراً فى نفس العام لمواجهة المسلمين. ولكنه قبل أن يستأنف المعركة حرص على حصار كفر طاب واستعادتها إلى حظيرة المملكة اللاتينية ليستفيد من موقعها فى معركته التالية ضد المسلمين. وكان ابن منقذ قد أحرق حصنها وأخرج رجاله منها خوفاً على حياتهم من الفرنج، فتسلم بلدوين الحصن بالأمان، وقام بترميمه من جديد[1].

وبعد وفاة ايلغازى تزعم بلك بن بهرام الأرتقى حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين، وكان لنشاطه الملحوظ فى هذا الميدان أثر كبير فى إدخال كفر طاب دائرة المفاوضات بينه وبين الصليبيين لإعادتها مرة أخرى إلى المسلمين. وقد حدث ذلك عندما وقع الملك بلدوين الثانى أسيراً فى إبريل عام ١١٢٣م/صفر ٥١٧هـ فى قبضة بلك بن بهرام أثر إحدى المعارك التى قامت بين الطرفين عند نهر سنجه، أحد روافد نهر الفرات، ونقل إلى سجن حلب[2]. فقام أبو العساكر سلطان أمير شيزر بالوساطة بين بلك والفرنج التى انتهت بإطلاق سراح الملك بلدوين بعد أن تعهد برد كفر طاب وعزاز إلى المسلمين، فضلاً عن فدية قدرها ثمانين

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٤، راجع أيضاً:

Setton, op. cit., t. I, p. 414, Campbel, The Crusades, London, 1935, p. 97.

(٢) Fulcher of chartres, op. cit., pp. 22-253; Mattew d'Edesse, op. cit., 1, pp. 132-133; Michel le Syrien, chronique de Michel le Syrien, traduit par chabot, Paris 1899, p. 210; Anonymos, op. cit., t. v. p. 748, cf also: Besant, op. cit., p. 265.

ألف دينار يدفع ربعها مقدما[1]. ولكن بعد أن أطلق سـراح الملـك بلدويـن نكـث بوعـده ورفـض أن يسـلم كفـر طـاب وغيرهـا مـن القـلاع الأخـرى المتفـق عليـها إلى المسـلمين[2]. فخـرج بلـك علـى رأس قواتـه فـى جمادى الأولى عام ٥١٧هـ/ أغسطس ١١٢٣م وحاصر كفـر طـاب، وكـادت الحامية الصليبية بها أن تستسلم لـه لـولا أن فـك بلـك الحصـار حولهـا بمجـرد أن علـم أن بعـض أمـراء اللاتـين الأسـرى لديـه قـد هربـوا مـن الأسر[3]. وهكذا يكون بلك قد ضحى بتملك حصن كفر طـاب وانتقالـه إلى أيدى المسلمين مقابل تتبع الأسرى الهاربين، فكـان عليـه أولا أن يضمـن استعادة الحصن ثم يلتفت بعد ذلك إلى أولئك الهاربين أو يكلـف بعـض اتبعه للقيام بهذه المهمة نيابة عنه.

على أية حال، مات بلك عام ١١٢٤م/٥١٨هـ وخلفـه فـى حكـم

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٢١-٢٢٢. أنظر أيضاً:

Mattew d'Edesse, op. cit., 1, p. 139; cf also: Grousset, op. cit., 1, pp. 623-624; Runciman, op. cit., 11, p. 173; Cambel, op. cit., p. 111; Setton, op. cit., 1, p. 420.

(٢) محمد الشيخ: الإمارات العربية، ص ٣٣٣، ويرجع سبب تنكر الملك بلدويـن لوعده إلى عدم موافقة برنارد دى فالس بطريك إنطاكيـة علـى شـروط الصلـح. ووجه انتباه الملك بعدم أحقيته فى التخلى عن أى شىء من أراضى إنطاكية لأنـها ملك للأمير الصغير بوهيمند الثانى، وأنه ليس إلا سيداً ووصياً عليها، راجع:

Runciman, op. cit., t. 11, p. 172.

(٣) Stevenson, op. cit., p. 116. Conder the Latin Kingdom of Jerusalem. London, 1897, p. 108.

حلب تمرتاش بن ايلغازى الذى تولى أمر المفاوضات مع الملك بلدوين دون أن يصل الطرفان إلى حل يرضيها. وعندئذ لم يجد بلدوين بدا من الاصطدام بأمير حلب، فجهز جيشاً فى أكتوبر ١١٢٤م/ شعبان ٥١٨هـ وهاجم حلب وأعمالها، وكان تمرتاش عندئذ فى ماردين فاستنجد أهالى حلب بأقسنقر البرسقى أتابك الموصل. وسرعان ما لبى النداء وكون حلفا مع طغتكين صاحب دمشق وصمصام الدين صاحب حمص واتجهوا جميعاً ناحية حلب فوصلوها أواخر يناير ١١٢٥م/ذى الحجة ٥١٨هـ. وانتصروا على الفرنج وأخذوا يطاردون فلولهم حتى أبعدوهم عن البلد. ورجع اقسنقر البرسقى ودخل حلب وتسلم قلعتها[١]. ثم واصل مسيرته وتقدم بقواته صوب كفر طاب وفرض عليها الحصار فلم تجد حاميتها بداً من الاستسلام بشرط أن يتعهد اقسنقر بالحفاظ على حياة الأهالى. فأجابهم إلى ما يبغون. وتسلم المسلمون الحصن يوم الجمعة ٧ مايو عام ١١٢٥م/٣ ربيع الآخر ٥١٩هـ وقام اقسنقر بتسليمه إلى صمصام الدين صاحب حمص[٢]. وأقر الصليبيون ذلك الوضع فيما بعد فى هدنة عقدوها مع اقسنقر البرسقى[٣].

---

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢١٢، ابن العديم: المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٤-٢٣١، أنظر أيضاً:

Setton, op. cit., t. 1, p. 425, Stevenson, op. cit., Loc. Cit.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٨، ص٣١٨ راجع أيضاً:

Flurcher of Chartres, op. cit., p. 278; William of Tyre, op. cit., t. 11, p. 24; cf also: Runciman, op. cit., t. 11, p. 173.

(٣) Runciman, op. cit., 11, p. 74.

ولم يستمر بقاء كفر طاب فى أيدى المسلمين طويلا، فعندما تولى بوهيمند الثانى شئون الحكم فى إنطاكية فى نهاية عام ١١٢٦م/٥٢٠هـ استهل عملياته الحربية بفرض الحصار عليها. فحشد جيشاً كبيراً من أنحاء متفرقة من إمارته، وأمر المهندسين ببناء الآلات الحربية الضرورية لاقتحام الحصن، ثم تقدم بعد ذلك وفرض الحصار حوله من كل جانب. ولم يمر وقت طويل حتى سقط الحصن فى أيدى الصليبيين. ولم يبق بوهيمند على أرواح السكان، فقتلهم جميعاً رغم كثرة الرشاوى التى قدموها إليه مقابل الحفاظ على حياتهم وضمان الأمن والطمأنينة لهم[١].

وظلت كفر طاب منذ ذلك الحين تحت سيطرة اللاتين لمدة تسع سنوات متتالية دون أن يستردها المسلمون منهم. ولعل ذلك مرجعه حالة الفوضى والاضطراب التى عانى المسلمون منها اثر اغتيال اقسنقر البرسقى على أيدى الإسماعيلية عام ١١٢٦م /٥٢٠هـ[٢]. وما ترتب على ذلك من تهور ابنه عز الدين مسعود وقيامه بحشد جيش سار إلى بلاد الشام وهو يضمر السوء والشر لأهله اعتقادا منه بأن قاتل أبيه قوم من حمص. ولكنه مات قبل أن يستكمل مشروعه فى

---

(١) William of Tyre, op. cit., 11, p. 33; cf also: Grousset, op. cit., 1, p.648.

(٢) لمزيد من التفصيلات حول إسماعيلية الشام ومقتل البرسقى راجع: أسامة زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية. الإسكندرية ١٩٨٠، ص ٥٥-١٠٤، ١٩٥-١٩٦.

الشام[1]. وعندما تولى عماد الدين زنكى أمر الجهاد انشغل بربط الشام بشمال العراق لوضع أساس الجبهة الإسلامية المتحدة والتأهب لملاقاة الفرنج وهو فى أكمل استعداداته الحربية مستفيدا بما غدا له من القوة فى تلك الجبهة العريضة. وقد استغرق ذلك وقتا غير قصير[2]. ثم اضطرته الظروف أثناء انشغاله بأمر توحيد الجبهة الإسلامية إلى الانصراف مؤقتاً عن جهاده فى الشام ضد الفرنج بسبب وفاة السلطان محمود السلجوقى عام ١١٣١م/٥٢٦هـ، وانشغاله فى الصراع الدائر بين أبناء البيت السجلوقى[3].

أما بنو منقذ فى شيزر فقد تابع أميرهم سياسة الأسرة فى التكيف مع القوة الإسلامية والصليبية المجاورة دون إظهار العداء للفرنج خوفاً على إمارتهم[4]. واتضح ذلك للوهلة الأولى عندما استولى الصليبيون على كفر طاب عام ٤٩٢م/١٠٩٩هـ ومروا بممتلكات شيزر، وكذلك الحال عندما انهزم برسق على أيدى الصليبين عام

---

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٢١٦-٢١٧، ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٢) لمزيد من التفصيلات حول جهاد عماد الدين زنكى فى توحيد الجبهة الإسلامية فى المشرق راجع: ابن الأثير: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣، ص٣٥ وما بعدها. ابن واصل: المصدر السابق، جـ١، ص٣٤ وما بعدها.

(٣) حول تفصيلات هذا الصراع راجع: ابن واصل. المصدر السابق. جـ١،ص٤٧-٤٩.

(٤) محمد الشيخ: الجهاد المقدس. ص ٣٠٨.

١١١٥م/٥٠٩هـ[1]. ولكن سرعان ما تحولت سياستهم. عندما أدركوا قوة عماد الدين زنكى فى بلاد الشام فارتبطوا بالتبعية له. وأخذوا يمارسون نشاطهم من جديد ضد الفرنج فى المنطقة وخاصة الموجودين فى كفر طاب[2].

على أية حال، مهما كانت الدوافع التى أدت إلى تأخير استرداد المسلمين لحصن كفر طاب طوال السنوات التسع السابقة، فقد انتهز الأتراك التركمان فرصة الشقاق القائم بين الفرنج بعضهم بعضاً[3] وأتت جموع كبيرة منهم من أرض الجزيرة وعبرت الفرات فى أبريل عام ١١٢٣م/ جمادى الأول ٥٢٨هـ وأغارت على الأراضى الواقعة شرقى نهر العاصى من ممتلكات إنطاكية. واتخذوا من منطقة كفر طاب ومعر النعمان قواعد لأعمالهم الحربية فى تلك الجهات. ولكن الصليبيين لم يلبثوا أن تناسوا ما بينهم من خصومات وأخرجوا أولئك المغيرين من تلك المناطق واضطر التركمان إلى الابتعاد عن إمارة إنطاكية[4].

---

(١) أنظر ما سبق، ص ١٢-١٣ من هذا البحث.

(٢) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(٣) ابتدأ هذا النزاع بين أمراء الصليبيين بعد مقتل بوهيمند صاحب إنطاكية فى فبراير ١١٣٠م/صفر ٥٢٤هـ، فقامت المؤامرات والفتن داخل إنطاكية. وتدخل كل من فولك ملك بيت المقدس وبونز صاحب طرابلس فى هذا الصراع. لمزيد من التفصيلات راجع سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥٤٦-٥٤٠ وكذلك:
William of Tyre, op. cit., 11, p. 54; cf also: Stevenson, op. cit., p. 128-129.

(٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥٤٩، راجع أيضاً:
Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford, 1977, pp. 35-36.

وفى العام التالى تعرضت كفر طاب لغارات بنى منقذ. إذ اتجه أسامة على رأس خلق كبير من الفلاحين والصعاليك وبعض الفرسان من شيزر إلى كفر طاب لنهبها. فخرج الصليبيون لمواجهتهم، وقبل أن يشتبك الطرفان فى معركة حاسمة انسحب معظم أفراد جيش أسامة لمواجهة بعض الفرق الصليبية المهاجمة لأفامية، بينما بقى أسامة فى عشرة من الفرسان مختبئين راء شجر الزيتون يناورون الفرنج ويوهمونهم بكثرة عددهم. وظل الأمر هكذا دون أن يلتحم الطرفان فى معركة متكاملة حتى عاد بقية جيش شيزر بعد أن هزم الصليبيين عند أفامية. ثم قفل المسلمون عائدين إلى شيزر مرة أخرى بعد أن غنموا من غلة وقطن كفر طاب دون أن يستولوا عليها لشدة تحصيناتها وقوة حاميتها[1].

ولا شك أن غارات التركمان وبنى منقذ ضد كفر طاب فى فترات متقاربة من عام واحد قد أثرت تماماً على حاميتها الصليبية وأدت إلى تدمير أسوارها مما ساعد عماد الدين زنكى إلى حد كبير فى الاستيلاء عليها عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ عندما كان يوجه ضرباته ضد المراكز الصليبية شرقى نهر العاصى[2]. فبعد أن اطمأن زنكى على استقرار الأوضاع بين

---

(١) ابن منقذ: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٩، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة ١٩٨٥، جـ٢٧، ص١٣٣، سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥٨٣، راجع أيضاً:

stevenson, op. cit., p. 134, Setton, op. cit., I, p. 435.

أبناء البيت السلجوقى. وهدوء الخلافات القائمة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية وصل إلى الشام فى يونيو ١١٣٧م/رمضان ٥٣١هـ لحصار حمص لاستكمال ما سبق أن بدأه فى عملية وحدة الإمارات الإسلامية. ولما علم الصليبيون بذلك أتوا لنجدة حمص، فاضطر عماد الدين زنكى إلى ترك حصارها واتجه لمواجهة الفرنج تحت قيادة الملك فولك ملك بيت المقدس (١١٣١-١١٤٤م/٢٦-٣٩هـ) عند قلعة بعرين. ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالصليبيين، وحاصر عماد الدين الملك فولك فى هذه القلعة. ولكن عندما علم بقرب وصول النجدات الصليبية صوب بعرين لم يمانع فى عقد صلح مع الصليبيين المحاصرين. وقد تم ذلك فى أغسطس ١١٣٧م/ ذى الحجة ٥٣١هـ، ونص الصلح على إطلاق سراح الملك فولك وبقية الأسرى على أن يأخذ المسلمون خمسين ألف دينار. وتكون بعرين من نصيبهم، فضلاً عن تثبيت حق المسلمين فى المراكز التى استولى عليها عماد الدين عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ شرقى نهر العاصى دون نزاع عليها فى المستقبل وهى كفر طاب، ومعرة النعمان. والأثارب، وزردنا[١].

وجدير بالذكر أن كلا من ابن الأثير وأبى الفدا ذكر أن عماد الدين زنكى قد استولى على كفر طاب من الفرنج أثناء حصاره قلعة بعرين عام ١١٣٧م/٥٣١هـ[٢]. وبذلك يكون هذان المؤرخان قد خالفا بقية

---

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٢٥٨-٢٩، ابن واصل: المصدر السابق، جـ١، ص٧١-٧٢، أبو الفدا: المصدر السابق. جـ٣، ص ١٢، أنظر أيضاً:
Grousset, op. cit., 11, p. 63.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٨، ص٣٥٨. أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٣. ص١٢.

المؤرخين الذين أثبتوا هذه الواقعة ضمن أحداث ١١٣٥م/٥٢٩هـ، وفق ما أوضحنا من قبل، ولكننا نؤيد الرأى الأخير، لأن الصلح المنعقد بين عماد الدين زنكى والصليبيين عام ١١٣٧م/٥٣١هـ تضمن احتفاظ المسلمين بفتوحاتهم فى كفر طاب ومعرة النعمان، والأثارب وزردنا. وليس هناك خلاف بين المؤرخين على أن هذه الأماكن (بما فيها كفر طاب) قد تم فتحها عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ. فإذا كان استرداد كفر طاب قد تم عام ١١٣٧م/٥٣١هـ وليس عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ. لنصت معاهدة الصلح على احتفاظ المسلمين بها فقط دون ذكر بقية الحصون الأخرى التى تم فتحها منذ عامين سابقين على معاهدة الصلح. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن بعرين من الحصون المنيعة صعبة المنال على حد قول ابن الأثير، الأمر الذى لا يجعل زنكى يفكر فى تشتيت قواته بين حصار كل من بعرين وكفر طاب. وأصدق دليل على ذلك أن عماد الدين لم يتمكن من الاستيلاء على حصن بعرين وآثر الصلح مع الملك الصليبى فولك.

مهما كان الحال. نجح المسلمون طبقاً لهذا الصلح أن ينتزعوا من الصليبيين موافقتهم على تثبيت حقهم فى تملك كفر طاب دون أن ينازعوهم فيها بعد ذلك. ولكن لم يكد المسلمون يهنأون بانتصاراتهم العديدة التى حققوها على الفرنج، واستيلائهم على كفر طاب وغيرها من الحصون الأخرى حتى انتابهم الفزع عندما علموا بالتحالف الذى تم بين ريموند صاحب إنطاكية والامبراطور البيزنطى حنا مانويل (١١١٨-١١٤٣م/٥١٢-٥٣٨هـ) فى جمادى الأول عام ٥٣٢هـ/مارس ١١٣٨م من أجل الاستيلاء على بعض البلدان

الإسلامية ومنها حلب[1]. ولكن تجربة الفرنج كانت مريرة أمام حصارهم مدينة حلب عندما أدركوا حصانتها وقوة حاميتها فعجلوا بالانسحاب منها إلى الحصون الأخرى المجاورة لها. فخضعت لهم كفر طاب في إبريل عام ١١٣٨م/جمادى الآخرة عام ٥٣٢هـ بعد حصار قوى استخدموا فيه المجانيق لعدة أيام[2].

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٥-٢٦٦ أنظر أيضاً:

william of Tyre, op. citt. 11, p. 93; cf. Also: Stevenson, op. cit., p. 140; Setton , op. cit., t. 11, p. 439.

ومما يثير الدهشة أن يعود الصفاء من جديدبين البيزنطيين والصليبيين بعد أن طال العداء بينهما منذ وصول الفرنج إلى أطراف الشام والعراق وتنكرهم للعهد الذى قطعوه على أنفسهم للإمبراطور البيزنطى بتسليمه كافة المدن والبلاد التى كانت ضمن ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية قبل أن يستولى المسلمون عليها. ذلك العداء الذى استحكم على وجه الخصوص بين البيزنطيين من ناحية، والنورمان فى إنطاكية من ناحية أخرى. ولكن تبادل المصالح بين الطرفين كان سبباً جوهرياً فى التقارب بينهما من جديد عندئذ. فأتفقا على تحطيم قوة عماد الدين زنكى والتحالف معاً بغرض الاستيلاء على حلب وشيزر وحمص وحماه ثم أقامه إمارة صليبية جديدة يحكمها ريموند مقابل أن يتسلم الإمبراطور البيزنطى حكم إنطاكية، راجع سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٥٩٤-٥٩٥ وكذلك:

william of Tyre, op. cit., 11, p. 93, cf also: Stevemson, op. cit., p. 139; Richard, op. cit., p. 36.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٧، ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢٦٦، النويرى: المصدر السابق، جـ٢٧، ص ١٣٤-١٣٥، أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٣، ص ١٢-١٣ راجع كذلك: =

ولعل السبب فى سهولة سقوط حصن كفر طاب فى أيدى الصليبيين هو ضعف الحامية الإسلامية الموجودة به نتيجة لسحب عماد الدين زنكى عدد كبير من حاميات المدن والحصون الموجودة فى المنطقة لتقوية حلب والدفاع عنها تعويضاً عن وجوده على رأس جيشه أمام حمص لطرد الدماشقة منها وتثبيت أقدامه فيها.

على أية حال، بعد أن اطمأن عماد الدين إلى استقرار الأمور فى حلب وفك الفرنج حصارها، نجح فى أن يفرق صفوف المسيحيين وإثارة النفور بينهم مما أدى إلى تفكك الحلف الصليبى البيزنطى وعودة كل من الطرفين إلى بلاده. ثم انصرف بعد ذلك إلى محو أثر هذه الغزوة الفاشلة، فأرسل قواته إلى كفر طاب فى أواخر مايو عام ١١٣٨م/ ذى القعدة ٥٣٢هـ وملكها بعد أن هربت الحامية الصليبية الموجودة بداخلها خوفاً على حياتها أثر تصدع الحلف البيزنطى الصليبى[1]. وظلت كفر طاب منذ ذلك الحين خاضعة تماماً للمسلمين، ولم يتمكن الفرنج من الاستيلاء عليها بعد ذلك رغم المحاولات التى بذلوها من أجل استعادتها عام ١١٤٢م/٥٣٦هـ[2].

= kinamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, New York, 1976, p. 24; Gregoire le pretre, Chronique de Gregoire le Pretre, cf. R.H.C. – Doc. Arm., t. 1, (pp. 151-201), p. 153, cf also: stevenson, op. cit., Loc. Cit., Setton, op. cit., Loc. Cit; Grousset, op. cit., 11, p. 100.

(١) ابن العديم: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٨، سعيد المصدر السابق، جـ١، ص٥٩٧-٦٠٠ راجع كذلك:

stevenson, op. cit., 141, Grousset, op. cit., 11, p. 123.

(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٣٣٥، ابن النديم: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٦ راجع أيضاً:

Gregoire le pretre, op. cit., p. 179; cf also: Grousset, op. cit., 11, p. 378.

ويتضح مما سبق أن كفر طاب كانت تتأرجح بشكل سريع فى حكمها بين المسلمين والصليبيين بسبب تلك الظروف والأوضاع القائمة لدى الطرفين، والتغييرات الكبيرة التى طرأت على ميزان القوى الذى أخذ يتحول تدريجياً لصالح المسلمين، فضلاً عن حرص كل من الجانبين المتصارعين على الاحتفاظ بحصن كفر طاب المنيع ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز بالنسبة لباقى الحصون والمعاقل المجاورة له. فكان كل طرف ينتهز فرصة ضعف خصمه أو انشغاله فى أموره الداخلية ويبادر فى فرض الحصار عليه ويثبت نفوذه فيه. وظلت الأمور هكذا حتى اكتملت سيطرة المسلمين على كل الحصون والمعاقل المجاورة لكفر طاب أيام نور الدين محمود فاصبح من الصعب على الفرنج عندئذ مجرد التفكير فى فرض الحصار عليها أو على غيرها من الحصون والمدن الموجودة فى المنطقة.

مهما كان الأمر، بعد ان انتقلت مقاليد الأمور إلى نور الدين محمود بعد مقتل عماد الدين زنكى عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ أصبحت كفر طاب مثل باقى الحصون الأخرى والمدن الإسلامية تتمتع برعايته التامة، وتمتاز بقوة تحصيناتها. ولم تشر المصادر بشقيها الإسلامى والغربى إلى أية محاولات بذلها الصليبيون لاستعادة كفر طاب. وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على إدراك الصليبين التام بقوة تحصيناتها.

وعلى الرغم من ان كفر طاب قد أصابها الدمار والخراب اثر الزلازل العديدة التى تعرضت لها بلاد الشام والتى بلغ عددها أربعون زلزالاً خلال الفترة من أكتوبر حتى ديسمبر عام ١١٥٩م/من شعبان حتى

شوال عام ٥١هـ. إلا أن نور الدين محمود سرعان ما قام بتعميرها وتجديدها من جديد. بسبب موقعها الجغرافي الذى هيأ لها موقعاً استراتيجيا له أهميته بالنسبة للمسلمين أثناء صراعهم ضد الصليبيين.

وبعد أن توفى نور الدين محمود عام ١١٧٤م/٥٦٩ هـ أصبحت كفر طاب ضمن ممتلكات ابنه الصبى الصالح إسماعيل ولكنه تنازل عنها إلى صلاح الدين عام ١١٨٣م/٥٧٩هـ بموجب الصلح الذى تم بينهما فى ذلك العام. فأسند صلاح الدين حكمها إلى ابن أخيه تقى الدين عمر[1]. هذا فى الوقت الذى استكمل فيه عملية بناء الوحدة الإسلامية فى منطقة الشرق الأدنى استعداداً لتوجيه ضربته القاضية ضد الفرنج.

وجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية والغربية قد سكتت تماماً عن ذكر أى دور قامت به كفر طاب فى مواجهة الصليبيين فى المنطقة منذ أن تسلمها المسلمون عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ. رغم موقعها المتاز الذى كان يحتم عليها أن يكون لها دور فى الصراع الإسلامى الصليبى. ولعل ذلك يرجع إلى أن الحصون والمدن المحيطة بها أصبح معظمها خاضعاً تماماً للمسلمين أيام كل من نور الدين محمود وصلاح الدين مما يصعب على الفرنج حينئذ، حتى الموجودين منهم فى إنطاكية، إدخال جيوشهم فى هذه المنطقة ليحصروها بين المعاقل الإسلامية مما يعرضها للخطر والهلاك، خاصة وهم يدركون ان ميزان القوى فى ذلك الوقت لم يعد فى صالحهم،

---

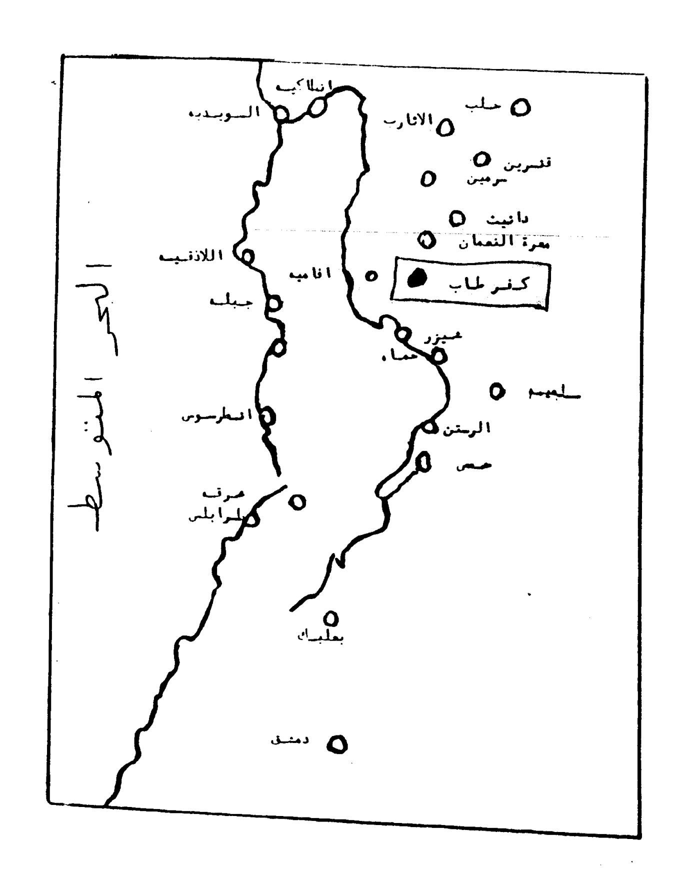
(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٣١٧هـ، ص٤٠، ابن واصل: المصدر السابق. جـ٢. ص٣٣.

وإنما اعتدل لصالح المسلمين. واصبح لزاما عليهم تعديل سياستهم الحربية فى المنطقة من الهجوم إلى الدفاع ولذلك لم تعد كفر طاب تتعرض لهجمات الفرنج مثلما كان يحدث لها من قبل. ويمكن القول أن دورها اقتصر فى هذه المرحلة على الناحية الدفاعية إذا ما تعرضت لخطر خارجى، أما بالنسبة لدورها الهجومى ضد الصليبيين فإننا نستبعد أن يكون قد تم ذلك لأن المنطقة التى تتوسطها كفر طاب شرقى نهر العاصى كانت محاطة بمعاقل إسلامية عديدة، كما ذكرنا، فأبعد عنها ذلك فرصة الخروج فى حملات هجومية ضد الفرنج مثلما كان يحدث أثناء مجاورتها لحصون صليبية أو تعرضها لهجمات مباشرة من قبل الفرنج. ولكننا لا نستبعد أنه كان لها دور فى موقعة حطين رغم أننا لم نستدل عليه بين ثنايا سطور المصادر التى تحت أيدينا. فالمعروف أن المؤرخين لم يعتادوا فى كتاباتهم عن المعارك الحربية أن يبرزوا دوراً محدداً لأى معقل من المعاقل الإسلامية. وإنما انصبت كتاباتهم على وصف الدور الذى كان المسلمون يقومون به بصفة عامة بالنسبة لسائر الحصون والمدن والمعاقل الإسلامية دون أن يخصصوا البعض على البعض الآخر، أو يتحدثوا بالتحديد عن معقل بالذات أو حصن بعينه، اللهم إلا فى حالات معدودة استدعت ذلك.

وهكذا يكون قد انتهى كفاح كفر طاب فى مواجهة العدوان الصليبى عليها، والذى يمثل حلقه هامة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب. وغير خاف ان المسلمين فى كفر طاب كانوا يجاهدون ضد أعدائهم فى فترة كان فيه العالم الإسلامى يعانى من التمزق والانقسام

والضعف الشديد، وفى وقت كان يميل فيه مركز الثقل بقوة لصالح الغرب الأوربى.

ولو كان قد قدر للقوى الإسلامية الاتحاد ونسيان المصالح الشخصية وتركها جانبا مع المنازعات والصراعات مع بداية الحركة الصليبية لما تمكن هؤلاء الدخلاء من تحقيق أى نصر أو تثبيت دعائم دولتهم، ولاستطاعت تلك القوى ان تحفظ كفر طاب وغيرها من الحصون الإسلامية على يد روادها الأول أمثال مودود وأقسنقر البرسقى ثم تبلورت زمن عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود، واكتملت فى عهد صلاح الدين الايوبى، أصبح مركز الثقل يميل إلى الجانب الإسلامى بينما بدأ الضعف يدب فى الكيان الصليبى فى الأراضى المقدسة الأمر الذى سهل على المسلمين استعادة كفر طاب لتنضم إلى باقى المعاقل الإسلامية فى المنطقة التى تصدت للكيان الصليبى إلى أن انتهى الأمر بالقضاء عليه.



خريطة توضح موقع كفر طاب وجيرانها المحيطين بها

بيان بالمختصرات الوارد ذكرها

R.H.C. H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades
Historiens Occidentaux.

R.H.C.- Doc. Arm. Recueil des Historiens des Croisades
BIB. Des Crois. Bibiothéque des Croisades.

بيان بقائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

- ابن الأثير: (أبو الحسن أبى الكرم الملقب عز الدين):
  - الكامل فى التاريخ، ٩ج، بيروت ١٩٨٦.
  - التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادرة طليمات، القاهرة ١٩٦٣.
- ابن العديم (كمال الدين أبى حفص عمر بن أحمد بن هبة الله):
  زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامى الدهان، بيروت ١٩٥٤.
- ابن الشحنة: (أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبى):
  الدر المنتخب فى تاريخ حلب، بيروت ١٩٠٩.
- ابن شداد: (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف):
  النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٣١٧هـ.
- ابن القلانسى: (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على):
  ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.
- ابن كثير: (عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن عمرو القرشى):

البداية والنهاية فى التاريخ، ١٤ج، بيروت ١٩٧٧.
- ابن منقذ: (مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد):
الاعتبار، تحقيق د. قاسم السمرائى، الرياض ١٩٨٧.
- ابن واصل: (جمال الدين محمد بن سالم):
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١، جـ٢ تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٥٧.
- أبو الفدا: (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل):
- تقويم البلدان، باريس ١٨٥٠.
- المختصر فى أخبار البشر، ٤ج، بيروت (بدون تاريخ).
- أبو شامة: (عبد الرحمن إسماعيل بن عثمان بن شهاب الدين).
الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٥٦.
- الأنصارى الدمشقى: (شمس الدين أبى عبد الله محمد).
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، بغداد (بدون تاريخ).
- البغدادى: (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق):
مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣ ج، تحقيق على البجاوى، مكة المكرمة، ١٩٥٤.
- الحميرى: (محمد بن عبد المنعم):
الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق حسن عباس، بيروت ١٩٧٥.
- القزوينى (أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود):
آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٧٥.
- النويرى: (شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن محمد):

نهاية الأرب فى فنـون الأدب، جـ٢٧، تحقق د. سـعيد عبـد الفتـاح عاشور، القاهرة ١٩٨٥.

- ياقوت الحموى: (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاد الدين): معجم البلدان، ٤ ج، طهران، ١٩٦٥.

ثانياً: المراجع العربية:

- أسامة زكى زيد (الدكتور)

الصليبيـون وإسماعيليـة الشـام فـى عصـر الحـروب الصليبيـة، الإسكندرية، ١٩٨٠.

- السيد البار العزينى (الدكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٥.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)

الحركة الصليبية، ٢ ج، القاهرة ١٩٨٢.

- عبد العال الشامى (الدكتور)

مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى، الجمعية الجغرافيـة الكويتيـة عام ١٩٨٤.

- محمد محمد مرسى الشيخ (الدكتور)

- الإمارات العربية فى بلاد الشام، الإسكندرية، ١٩٨٠.

- الجهاد المقـدس ضـد الصليبيـين حتـى سـقوط الرهـا، الإسـكندرية، ١٩٧٤.

ثالثاً: المصادر الأجنبية:

- Anonymos, l'Estoire de Jerusalem et d'Antioch, cf. R.H.C. – H. Occ., t. v, Paris, 1889 (pp. 623-648).

- Anonymos, Gesta Francorum et Aliorum Jerosolimitanorum.

وقد رجعنا إلى الترجمة العربية لهذا لكتاب تحت اسم (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٨.

- Baldrici, Historia Jerosolimitana, cf. R.H.C.-H.Occ. t. IV, Paris, 1879. (pp. 4-111).
- Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem (109-1127), translated by Frances Rita Rian, U.S.A. 1969.
- Gautier de chancelier, Histoire des guerres d'Antioch, cf. Bib. Des Crois. Par Michaud, t. 11, Paris 1829.
- Gregoire le Pretre, Chronique de Gregoire le Pretre, cf. R.H.C.-Doc. Arm., t. 1, Paris, 1869.
- Guiberto Novigent, Gesta Dei Per Francos, cf. R.H.C.- H. Occ, t. IV, Paris 1879 (pp. 114-263).
- Kinamos, Deeds of John Manuel comnenus, translated by Charle Brand, Culumbia 1976.
- Mattew d'Edesse, Extraits de la chronique de Mattew d'Edesse, cf. R.H.C.- Doc. Arm. T. 1, Paris 1869 (pp. 1-150).
- Michel le Syrien, chronique de Michel le Syrien, traduit Par Chabor, Paris 1899.

- Raymond d'Aguilers, Historia Francorum Qui Ceperunt Iherusalem. Translated in to English by John Hill, Philadelphia, 1968.
- Tudebode, Historia de Hierosolymitano Itinere, translated by John Hill, Philadelphia, 1974.
- William of Tyre, A History of deeds Done beyond the sea, 2 vols, translated by E.A. Babock, New York, 1943.

رابعا: المراجع الأوربية:

- Besant, W., & Palmer, E., The history of Jerusalem, London, 1888.
- Campbel, The Crusades. London, 1935.
- Conder, C., The Latin Kingdom of Jerusalem. London, 1897.
- Dussaud, R., La Syrie Antique en Medié vale illustrée, Paris, 1931.
- Grousset, R., Histoire des Crosades, 3 vols, Paris 1948.
- Rey. E., Les colonies Franques de Syrie au XII et XIII siécles, Paris, 1883.
- Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford 1977.

Contacts et relations (XIle-Xves). Cf. Orient et oecident aumoyen age, London, 1976, p. 105.

- Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols, London, 1971.
- Setton, K., A History of the Crusades, 2 vols, Philadelphia, 1958.
- Stevenson, W., The Crusaders in the East, London, 1907.

المبحث الثالث

الخوارزمية ودورهم فى الصراع
الصليبى الإسلامى فى عصر بنى أيوب
(١٢٢٥-١٢٤٦م/٦٢٢-٦٤٤هـ)

الخوارزمية ودورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى
فى عصر بنى أيوب
(١٢٢٥-١٢٤٦م/٦٢٢-٦٤٤هـ)

شهد القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) كثيراً من الظواهر التاريخية الهامة المؤثرة فى تطور العلاقات الصليبية الإسلامية مما كان له أكبر الأثر فى تحول ميزان القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين لصالح المسلمين. ومن أهم هذه الظواهر عودة بيت المقدس عودة نهائية إلى المسلمين فى يوليه ١٢٤٤م- صفر ٦٤٢هـ، وقد ظل تحت الحكم العربى الإسلامى منذ هذا التاريخ حتى بدايات القرن العشرين.

وإذا كان المسلمون قد فقدوا بيت المقدس عام ١٠٩٩م/٤٩٣هـ بسبب ضعفهم وانقسامهم وعدم إدراكهم التام لطبيعة الحركة الصليبية وأهدافها إلا أن حركة اليقظة الإسلامية التى نمت خلال القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) أخذت تسرى كالتيار فى المنطقة. وأثمرت عن ظهور شخصيات إسلامية لامعة كان لها دورها فى بذر بذور الوحدة العربية الإسلامية مثل عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى مؤسس الأسرة الأيوبية فى مصر، الذى نجح بعد جهاد كبير فى تكوين وحدة إسلامية عربية امتدت من النيل إلى الفرات، وتطويق ممتلكات اللاتين وإخراجهم من بيت المقدس ومعظم مدن الساحل بعد أن الحق بهم الهزيمة فى موقعة حطين عام

١١٨٧م-٥٨٣هـ فاعتدل بذلك ميزان القوى لصالح المسلمين.

وإذا كانت موقعة حطين تمثل الضربة الأولى القاسية التى تلقاها الصليبيون على أيدى المسلمين، فهناك ضربة أخرى أشد منها مرارة راح ضحيتها آلاف من الصليبيين وفقدوا فيها للأبد سيطرتهم على بيت المقدس ونعنى به هزيمتهم على أيدى الخوارزمية الأتراك فى بيت المقدس فى يوليو ١٢٤٤م - صفر ٦٤٢هـ ثم هزيمتهم للمرة الثانية فى أكتوبر من نفس العام فى معركة غزة أمام جيوش الخوارزمية المتحالفة مع الجيش المصرى، ونظراً لأن هذه المعركة كانت أكبر كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣ لكثرة ما تكبدوه فيها من خسائر فى الأرواح والعتاد فقد أطلق بعض المؤرخين عليها اسم "حطين الثانية"[1].

وقبل إلقاء الضوء على هذه المعركة من كل جوانبها والدور الذى لعبه الخوارزمية خلالها لابد من التعريف بالخوارزمية وأصلهم وأحوالهم ثم كيفية وصولهم إلى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى وأثر هذا على طبيعة علاقاتهم بأفراد البيت الأيوبى وانعكاس ذلك على العلاقات الصليبية الإسلامية والتى تتمثل فى معركة ١٢٤٤م/٦٤٢هـ.

ينتمى الخوارزمية إلى محمد بن أنوش تكين وكان والده مملوكاً لأحد أمراء البيت السلجوقى. وقد رباه والده فأحسن تأديبه فنشأ عارفاً وأديباً، واشتهر بالكفاية وحسن التدبير فارتفع شأنه بين كبار

---

(١) Grousset, Histoire des Croisades, t. III, p. 416.

السلاجقة وتدرج فى المناصب العليا فى الدولة حتى أسند إليه حكم مدينة خوارزم[1] عام ١٠٩٥م-٤٨٩هـ، ولقب "خوارزم شاه". وتفانى فى خدمة ولايته، وقرب أهل العلم والدين إليه فعظم شأنه وارتفعت منزلته فى شتى أنحاء الدولة السلجوقية. وعندما توفى خلفه بعده ابنه أتسز[2]. وعلى هذا يعتبر محمد ابن أنوش تكين المؤسس الحقيقى للدولة الخوارزمية[3].

وكان لضعف السلاجقة عقب وفاة السلطان ملكشاه عام ١٠٩٢م-٤٨٥هـ أثر كبير فى بزوغ نجم الدولة الخوارزمية وظهورها كدولة مستقلة على أنقاض الدولة السلجوقية. فبعد وفاة السلطان ملكشاه حدث صراع شديد بين أولاده على الملك[4] ولم يحل عام ١٠٩٦م/٤٨٩هـ حتى

---

(١) تمتد خوارزم من بحر قزوين إلى بحر آرال أى بين فارس وبخارى. وهذه الأراضى أكثر خصوبة من الأراضى المجاورة لها. وهى على حد قول القزوينى "ذات مدن وقرى كثيرة. وسيطة الرقعة وفسيحة البقيعة جامعة لا شتات الخيرات وإيذاع المسرات". وبها نهر جيحون، ورغم كثرة مياه هذا النهر فهو يتجمد فى فصل الشتاء. ويوجد بالقرب من خوارزم بحيرة صغيرة تستمد مياهها من نهر جيجون. أنظر القزوينى: أخبار العباد وآثار البلاد، ص ٣٥٣-٣٤، وكذلك:

Eracles, Cf. R.H.C. H. Occ., II, p. 428.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٢٠٩، ابن الوردى: تتمه المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٩-١٠.

(٣) حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٩.

(٤) الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٧٦.

كانت الدولة مقسمة إلى خمس ممالك متنافسة هى سلطنة فارس "أصبهان" وعلى رأسها السلطان بركيا روق ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها أبو حرث سنجر ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ومملكة دمشق وعلى رأسها شمس الملوك دقا بن تتش، وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وعلى رأسها تاج أرسلان بن سليمان بن قتلمش[١].

واستغلت الدولة الخوارزمية هذه الظروف لتحقيق أهدافها. فنجحت فى تكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء بلغت أقصى اتساعها فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى – بدايات القرن السابع الهجرى فى عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه (١١٩٩-١٢١٩م-٥٩٦-٦١٧هـ). فامتدت من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوباً. وضمت هذه الدولة مدناً من أمهات المدن الإسلامية نخص بالذكر منها بخارى وسمرقند[٢]. ويرجع الفضل الكبير فى اتمام هذه الفتوحات إلى جلال الدين منكبرتى[٣].

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص١١٤، محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ص ٣٦، راجع كذلك:
Cam, Med. Hist., IV, p. 317.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ٤، ص ٣٢٣، حافظ حمدى: المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

ووجد علاء الدين خوارزم شاه أنه ليس من اليسير عليه السيطرة التامة على كل هذه الأراضى وضمان بقائها على ولائها التام. ولذلك قسمها بين أبنائه الأربعة يحكم كل منهم جزءاً منها ويتولى تصريف أمور الإقليم الذى من نصيبه على أن يكون الأب هو المرجع الأول لكل من هؤلاء الأبناء إذا ما صادفوا أى عائق[1].

وجدير بالذكر أن علاء الدين خوارزم شاه كان قد أوصى بالملك بتأثير من أمه إلى ابنه الأصغر ازلانج شاه، ولكنه ما لبث وأن تراجع فى قراره وحول ولاية العهد لابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى[2].

وكان لظهور المغول بقيادة جنكيز خان آنذاك أثره السيىء على هذه الإمبراطورية. فكانت جيوشه تعمل التخريب فى كل ما صادفه فى البلاد التى وطئتها، وكان من ضمنها ممتلكات الدولة الخوارزمية. ولما يأس علاء الدين خوارزم شاه من الوقوف أمام جحافل المغول صمم على

---

(١) كان الركن الشرقى من الدولة الخوارزمية من نصيب ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتى ويتكون من مدينة غزنة وباميان الواقعة فى أعالى نهر جيحون فضلاً عن بعض البلاد الواقعة غرب حوض نهر السند. أما الأقاليم الشمالية تشمل خوارزم وخراسان ومازندان فكانت من نصيب ابنه قطب الدين ازلانج شاه. بينما كانت الأقاليم الجنوبية وتشمل كرمان ومكران من نصيب ابنه غياث الدين شيرشاه، أما ابنه ركن الدين غورشاه فقد حكم الأقاليم الغربية وتشمل العراق، أنظر: ابن الوردى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٥٤، حافظ حمدى: المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) ابن الوردى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

الابتعاد عن مسرح أحداث الحرب والسياسة وهرب إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، فأرسل جنكيز خان في أثر السلطان الخوارزمي فرقتين تتكون كل منهما من ألف مغولى لمطاردته وهو يتنقل من بلد إلى آخر حتى وصل الأمر إلى إقليم مازندان جنوبى بحر قزوين ثم التجأ إلى إحدى جزره. ولم يستطع المغول الوصول إليه. فمات أخيراً في هذه الجزيرة عام ١٢٢٠م-٦١٧هـ[1]. وواصل المغول تخريبهم للمدن الخوارزمية، وكانت خاتمة انتصاراتهم في إقليم غزنه حيث أخذ جلال الدين منكبرتي على عاقته مهمة مقاومة المغول والثأر لأبيه. فقاد جيشاً كبيراً وسار لملاقاه المغول شمال مدينة غزنة وانتصر عليهم انتصاراً مؤقتاً. ولكن سرعان ما انقسم جيشه على نفسه وشعر جلال الدين بعدم استطاعته لملاقاه قوات جنكيز خان فاضطر إلى الانسحاب إلى السهل الواقع غرب نهر السند وفي نيته عبور هذا النهر إلى بلاد الهند لعله يجد هناك ملجأ أميناً. ولكن قابلته جيوش المغول وهزمته مرة أخرى شر هزيمة. غير أنه تمكن من الهروب إلى الهند معه أربعة آلاف من اتباعه. وبعد أن اطمأن جنكيز خان على سيطرته على كل أقاليم الدولة الخوارزمية وتشريد وقتل الأسر الخوارزمية، شرع في العودة إلى بلاده عام ١٢٢٣م/٦٢٠هـ. ولذلك عاد جلال الدين إلى بلاده، عام ١٢٢٥م ٦٢٢هـ ونجح في أن يعيد نفوذه مرة أخرى على أقاليم خوارزم وغزنة وفارس وخراسان وغيرها ثم أخذ

---

(١) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين نكبرتي، ص١١.

يوسع نفوذه على حساب القوى الموجودة شمال الدولة الخوارزمية، ومن أهمها أذربيجان وجورجيا[1].

ووجد الخوارزمية فى صراعات البيت الأيوبى فى مصر والشام فرصة طيبة لتقوية نفوذهم فى منطقة الشرق الأدنى على حساب أمراء هذا البيت. غير أن الملك الأشرف بن العادل تنبه إلى خطرهم فهرع إلى أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق عام ١٢٢٦م/٦٢٣هـ طالباً منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبى أمام خطر الخوارزمية الذين باتوا يهددون كل أرجاء الدولة الأيوبية. وكان الأشرف أكثر إحساساً بخطرهم بحكم متاخمة بلاده - فى الجزيرة وخلاط - لهم فى إقليم جورجيا[2]. وقد استقبله المعظم عيسى استقبالاً حسناً، ولكنه بعد ذلك أراد أن يستغل الفرصة التى أتيحت له فقبض على أخيه الأشرف فى دمشق ورفض أن يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماه وكانتا تابعتين لأسد الدين شيركوه وقليج أرسلان على التوالى[3] ثم مهاجمة أخيهما الكامل محمد سلطان مصر. فوافق الأشرف

---

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة، المقريزى: السلوك جـ١، ق١، ص٢٥٢، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٢، ص٢١٣-٢١٤.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص٩٩٨.

(٣) كان الملك المعظم قد طمع فى حماه وبعض أعمالها فحاصرها واستولى عليها. ولكن الأشرف والكامل انزعجا لذلك، ووحدا جهودهما وأجبرا المعظم على الرحيل عنها فتركها حانقاً فكان ذلك بداية لخلاف بين الأخوة الثلاثة. أنظر: المقريزى: السلوك، جـ١، ق١، ص٢٥٠.

مضطراً بعد أن وصلته الأخبار بحصار الخوارزمية لعاصمة ملكة "خلاط". وعند ذاك سمح له المعظم بعد عشرة شهور من سجنه بالعودة إلى أرضه فى جمادى الآخر ٦٢٤هـ- يونيو ١٢٢٦م. والواقع أن المعظم عيسى لم يكن يهدف إلى تدمير سياسة أخيه الأشرف، وإنما تحديد قوته وحماية نفسه ضد أى تحالف يمكن أن ينشأ بين الأشرف والكامل محمد ضده.

وبمجرد وصول الأشرف إلى الرقة أعلن رسمياً عدم التزامه بجميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم ثم اتجه إلى الملك الكامل وأخبره بحقيقة الأمر وأكد تحالفه معه[1]. فثار المعظم عيسى لتصرف أخيه الأشرف فى الوقت الذى كانت فيه المفاوضات مفتوحة بينه وبين الخوارزمية. ففكر عندئذ فى الاستعانة بها لمناصرته ضد أخويه فكتب إلى جلال الدين منكبرتى واتفق معه على التحالف ضد الملكين الكامل والأشرف[2].

وهكذا التهب الموقف فى الشرق الأدنى، وأصبحت الأمور تنذر بقيام حرب أهلية جديدة بين أفراد البيت الأيوبى.

---

(١) Humphery, Frome Saladin to the Mongols, pp. 182-183.

(٢) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٨ راجع أيضاً:

Humphreyop. Cit., Loc. Cit.

ولمزيد من التفصيلات عن علاقة الخوارزمية بأمراء بنى أيوب أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص ٤٨٩، ٤٩١-٤٩٥.

وجدير بالذكر أن وجه الخطورة فى هذا النزاع الـذى نشـب بـين أبناء العادل، هو أن كلا من الفريقين استعان بقوى خارجية. ففى الوقت الذى تحالف فيه المعظـم عيسـى مـع الخوارزميـة نجـد أن الملـك الكـامل محمد قد استعان بالإمبراطور فردريك الثانى ليجـبر أخيـه المعظـم علـى التخلى عن حلفائه الخوارزمية، ويعيد خضوعه إليه مرة أخرى[1].

فأرسل الملك الكامل إلى الإمـبراطور فردريـك فـى صقليـة مبعوثـا خاصا هو الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وطلب منـه الحضـور إلى الشام والساحل ليتسلم بيت المقدس وكل فتوح صـلاح الديـن بالسـاحل مقابل مساعدته ضد المعظم وحلفائه الخوارزمية[2]. وقـد أحسـن فردريـك الثانى استقبال مبعوث الملك الكامل. ثم رد عليه بسفارة مماثلـة بريـاسـة بيرارد رئيس أساقفه بالرمو والكونت توماس اوف أسرا Thomas of

---

(١) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٥٨، راجع أيضا:

Humphrey, op. cit., p. 184.

(٢) المقريزى: المصدر السـابق، جـ١، ق١، ص٢٥٨-٢٥٩، ابـن الفـرات: تـاريخ الدول والملوك، المجلد العاشر لوحة ٨٨، راجع أيضا:

Richard, The Latin Kingdom, p. 232, Prawer, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, II, p. 176, Setton, A History of the Crusadesm II, p. 449, Runciman, History of the Crusades, III, p. 184, Stevenson, The Crusaders in the East, p. 310 Blochet, Le Relations Diplomatiques des Hohenstaufen avec les Sultan D'Egypte, cf. Revue Historique, Vol. 80 (pp. 51-69), 1902, p. 54.

accerra تحمل هدايا وتحفا غربية. فتلقى السلطان الكامل رسول الإمبراطور وهداياه بالسرور وكان قد أعد للإمبراطور هدايا فاخرة من تحف اليمن والهند والعراق ومصر[1]. وفى طريق عودة السفارة مرت بدمشق لتطلب من الملك المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور ولكنه أغلظ لرئيسها وقال له "قل لصاحبك ما أنا مثل غيرى، ما له عندى إلا السيف"[2].

وجدير بالذكر إذا كان الملك الكامل قد أكثر فى الإلحاح على الإمبراطور فردريك لسرعة الحضور إلى الشرق لمساندته ضد الخوارزمية والمعظم عيسى صاحب دمشق إلا أن هذا المطلب لم يعد له فائدة عند وصول فردريك إلى عكا فى إبريل ١٢٢٨م/ ربيع أول ٦٢٥هـ بسبب وفاة الملك المعظم فى نوفمبر ١٢٢٧م/ ذى القعدة ٦٢٥هـ والذى كان مصدر الخطر ثم تعيين ابنه الناصر داود خلفاً له. وهو شاب صغير له من الخبرة والقوة ما يجعله مصدر خطر على الملك الكامل. وقد ساعد هذا كثيراً كلا الأخوين الكامل محمد والأشرف إذا تمكنا بنوع من التحايل تارة وباستخدام القوة والعنف تارة أخرى، من الوصول إلى اتفاق مع الناصر داود يرضى جميع الأطراف ويؤدى فى نفس الوقت إلى استقرار الأوضاع بين أبناء البيت الأيوبى فى الشام[3]. وعلى ذلك لم تعد هناك

---

(١) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٦٠.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين تحقيق عزت العطار، ص ١٥١.

(٣) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٧٤. أنظر أيضاً: =

حاجة إلى الملك الكامل فى معونة الإمبراطور فردريك، خاصة وأنــه بعـد موت الملـك المعظـم قـد انحـل الاتفـاق المـبرم بـين دمشـق والخوارزميـة، وعادت الأمور فى منطقة الشرق الأدنى مرة أخرى إلى مجراها الطبيعى.

على أية حال، عندما وصل الإمبراطور فردريك إلى عكا فى إبريل ١٢٢٨م/٦٢٦هـ، أصيـب بخيبـة أمـل شـديدة عندمـا علـم بـزوال سـبب استدعائه إلى الشرق، فأصبح فى موقف لا يحسد عليه. لأنه عندما خـرج من بلاده كان متـأكداً مـن إعطائـه بيـت المقـدس. ولم يـدر بذهنـه فكـرة نشـوب قتـال بينـه وبـين المسـلمين، بدليـل أنـه لم يحضـر معـه سـوى خمسمائة فارس وهى قوة صغيرة لا تستطيع منازلة المسلمين فى معركـة محلية محدودة. وفى نفس الوقت كان لا يستطيع الاعتمـاد علـى صفـوف الصليبيين فى بلاد الشام، لأنه كان محروماً من الكنيسة، ويأبى أى فرد التعاون مع رجل مطرود من رحمة الكنيسة حتى ولو كان هذا الرجل هو

= Humphrey, op. cit., p. 193.

وقد تم الاتفاق بينهم على أن يتنازل الناصر داود عن دمشق للأشرف، ويعوض عنها بالكرك والبلقاء والشوبك والأغوار. بينما حصل الكامل لنفسه على البلاد الشرقية التى كانت قد عينت للناصر داود وهى حـران والرهـا وغيرهمـا التـى كانت بيد الملك الأشرف. وتنازل الناصر داود عن الشوبك لعمه الكامل فقبلها. ولمزيد من التفصيلات عـن كيفيـة اسـتقرار الأوضـاع بـين أبـاء البيـت الأيوبـى بالشام، وإعادة تقسيم الممتلكات الأيوبية بين الكامل والأشـرف والنـاصر داود أنظر: المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٦٤-٢٦٥، ٢٧٣-٢٧٤، ابـن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص٤٧٣-٤٧٥.

الإمبراطور. وعلى ذلك لم يعد أمامه سوى الاستعطاف والتذلل لدى السلطان الكامل، واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والحصول على بيت المقدس. لأنه إن لم يحصل عليه فسوف يهتز عرشه في الغرب الأوربى بل وربما يفقده[1]، والدليل على ذلك ما قاله فردريك إلى المسلمين في الشرق من أنه "ماله غرض القدس ولا غيره، وإما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج"[2].

وبعد مفاوضات طويلة استمرت بين سلطان مصر الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثانى تخللتها استعطافات كثيرة من جانب الإمبراطور وافق الكامل محمد فى فبراير ١٢٢٩-ربيع أول ٦٢٦هـ على عقد اتفاقية يافا بين الطرفين لمدة عشرة سنوات حصل الصليبيون بموجبها على بيت المقدس وبيت لحم والناصره. على أن يبقى بيت المقدس على ما هى عليه من الخراب، ولا يجدد أسوارها، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى فى القدس[3].

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص١٠٠٨-١٠٠٩، راجع أيضاً:

Blochet, op. cit., p. 56, Humphery, op. cit., pp. 197-198.

(٢) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٦٩، راجع أيضاً:

Eracle, cf. R.H.C. – H. Occ., II, p. 369-370.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ص١٥٤، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٦٨، راجع كذلك:

Eracles, op. cit., II, p. 374, cf also: Grousset, op. cit., III, p. 307, Lamonte, The world of the Middle Ages, p. 504 Conder, The Latin=

وكان لهذه المعاهدة أثر كبير في قيام المسلمين بثورة ضد الكامل، لأنه فرط في حقه وفي بيت المقدس بصفة خاصة دون حرب أو قتال وأصبحت هذه المعاهدة وصمة عار في جبين البيت الأيوبي بصفة عامة والملك الكامل بصفة خاصة[1].

ومع ذلك يرى الدكتور سعيد عاشور أن الكامل عندما وافق على شروط هذه المعاهدة كان بعيد التفكير، لأنه أدرك بثاقب نظره أن قيام الإمبراطور بتحصين يافا في نوفمبر ١٢٢٨م- ذي الحجة ٦٢٥هـ أثناء سوء موقفه في المفاوضات إنما يشكل خطراً كبيراً يخشى معه اتفاق الإمبراطور مع بقية الجموع الصليبية بالشام للقيام بعمل حربي ضده. وفي هذه الحالة لا يجرؤ الكامل دخول حرب ضد الإمبراطور والصليبيين، لأنه سيقع بين ثلاث قوى هي: الصليبيين من ناحية، وابن أخيه الناصر داود من ناحية ثانية، ثم الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي الذي استنجد به الناصر داود ضد عمه - من ناحية ثالثة[2].

ومهما كان من أمر فليس هناك أدنى شك في أن الخوارزمية كان

=Kingdom of Jerusalem, p. 313, Runciman, op. cit., III, p. 187, King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 208, Blochet, op. cit., Loc. Cit., Stevenson, op. cit., p. 311.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ص١٥٤، المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٦٩.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص١٠١٠-١٠١١.

لهم دور كبير فى تطور العلاقات الصليبية الإسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الأول من القرن السابع الهجرى). فمن الواضح أنه لولا سياسة السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى ورغبته فى تثبيت نفوذه وسلطانه على حساب الصراعات الدامية بين أمراء البيت الأيوبى فى الشام، ولولا تحالفه مع المعظم عيسى حاكم دمشق لمساندته فى صراعه ضد السلطان الكامل محمد لتغير وجه التاريخ بالنسبة للعلاقات بين الصليبيين والمسلمين. لأنه ما كان هناك أى داع فى الاتصالات السلمية وتبادل السفارات التى تمت بين سلطان مصر والإمبراطور الألمانى لطلب تأييده، ولربما كانت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك قد اتخذت شكلاً مغايراً عما تمت عليه، ومماثلاً لباقى الحملات الصليبية السابقة من ناحية جلب ما يمكن جمعه من الرجال والسلاح والخيل لمنازلة المسلمين، وليس الاكتفاء برفقة خمسمائة فارس فقط وفق ما جاء بهم فردريك. وفضلاً عن هذا ما كان السلطان الكامل قد اضطر، وهو بغير حاجة إلى مساعدة فردريك، إلى الموافقة على إبرام معاهدة الصلح بينهما عام ١٢٢٩م-٦٢٦هـ والتفريط فى حق المسلمين فى بيت المقدس بتسليمه إلى الإمبراطور فردريك. فكان ذلك بسبب الخوارزمية أيضاً وما استجد من نشاطهم فى المنطقة عندما تحالفوا مع الناصر داود وأيدوه ضد عمه سلطان مصر. فخاف الكامل محمد أن يدخل فى صراع ضد الإمبراطور فيجد نفسه بين فكى الكماشة: قوات الصليبيين بالشام من ناحية، وقوات الخوارزمية المؤيدة للناصر داود من ناحية أخرى، فيسلم نفسه إلى مصير تعس. كما أن همجية

الخوارزمية فى منطقة الشرق الأدنى قد أفزعت حكام المسلمين، وجعلتهم لا يحاولون استغلال الظروف السيئة التى بات فيها الصليبيون بعد عودة فردريك إلى الغرب تاركاً الصليبيين فى الشام دون ملك قوى او شخصية بارزة ترعاهم. فلم يفكروا فى تلك الفترة فى استرداد بيت المقدس رغم بقائها غير محصنة ومهدمة الأسوار، وبدون جيش كبير للصليبيين يحميها.

على أية حال، كان لتزايد خطر الخوارزمية فى المنطقة أثر كبير فى تقارب وجهات النظر بين حكام المسلمين فى البلدان المجاورة، وتناسيهم ما بينهم من خصومات للقضاء على الخوارزمية. فتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين منكبرتى بعد نجاحه فى الاستيلاء على خلاط عاصمة ملك الملك الأشرف[1] واجتماع الجيش الأيوبى بقيادة الملك الأشرف مع قوات السلاجقة بقيادة كيبقاد فى سواس، ومنها زحفوا على خلاط، ولما سمع السلطان جلال الدين منكبرتى بأمره هذه الحشود توجه بجيشه ولقيهم بناحية ارزنكان من بلاد أرمينيا، وتقاتل الفريقان فى أغسطس ١٢٣٠- رمضان ٦٢٧هـ وانتهى الأمر بهزيمة الخوارزمية. وفر جلال الدين إلى آذربيجان بعد أن قتل معظم عسكره، أما فى ميدان القتال، أو ترديا من رؤوس الجبال التى كانت فى طريقهم، واسترد

---

(١) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٧٧، راجع أيضاً:

Setton, op. cit., II, p. 703.

الأشرف خلاط. واضطر جلال الدين فى النهاية إلى طلب الصلح بينه وبين الملك الأشرف وسلطان سلاجقة الروم، فوافقا وتم الصلح بينهم[١].

وفى غمرة هذه الأحداث مات جنكيز خان، وتولى من بعده ابنه اجتاى عام ١٢٣١م/٦٢٨هـ الذى أرسل جيشاً كبيراً ضد الخوارزمية نجح فى هزيمتهم، وقتل منهم عدداً كبيراً وأسر البعض الآخر. أما الجزء الثالث المتبقى فقد نجح فى الهرب مع جلال الدين ودخلوا ميافارقين. وبذلك نجح المغول فى الاستيلاء على كل أقاليم الدولة الخوارزمية. أما بالنسبة لجلال الدين منكبرتى فقد تم اغتياله بيد رجل كردى انتقاماً من الخوارزمية لما فعلوه بعائلته من قبل[٢].

وإذا كانت نهاية الدولة الخوارزمية قد تحددت بمقتل سلطانها جلال الدين منكبرتى، واستيلاء المغول على أقاليمها، فليس معنى هذا القضاء نهائياً على جموعهم ونهاية دورهم فى التاريخ. لأنهم بعد هزيمتهم على يد المغول ومقتل سلطانهم تشتتوا فى كثير من بلاد الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على كل من يبذل لهم الأرزاق من حكام

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص٢٩٨-٣٠٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٧٣.

(٢) النسوى: المصدر السابق، ص١٧، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص٣١٧، راجع كذلك:

Hayton, La Flor des Estoire de la Terre d'Orient, cf. R.H.C. – Doc. Arm., II, p. 146, Micahud Bibliotheque des Croisades, IV, p. 444, cf also: Humphrey, op. cit., p. 220, Setton, op. cit., II, p. 561.

المسلمين[1]. فكان الصالح أيوب سلطان مصر أكثر هؤلاء الحكام استخداماً لبعض جموع الخوارزمية منذ عام ١٢٣٦م/٦٣٤هـ[2]. وكانوا يجوبون إقليم الجزيرة وشمال الشام يشنون الغارات ويمارسون عمليات السلب والنهب أينما ساروا. ولكن نجح حلف مكون من أمراء حمص وحلب في إنزال هزيمة قاسية بهم في معركة دارت بين الفريقين عند حران عام ١٢٤١م/٦٣٩هـ[3]. وسرعان ما أعاد الخوارزمية تنظيم صفوفهم، ونجحوا في إقامة مراكز لهم في القرى الواقعة بين الرها وحران، واستمروا في عرض أنفسهم كمرتزقة لدى الحكام المسلمين[4]. وقد ساعدتهم الظروف إلى حد كبير إذ وجدوا في انقسام البيت الأيوبي على نفسه في هذه الفترة، وكثرة الصراعات القائمة بين ملوكه مرعى خصباً يجددون فيه نشاطهم ويستمدون منه قوتهم، فجاء وجودهم في ذلك الوقت مصلحة كبرى لمستقبل العالم الإسلامي، لأن الضربة القاضية التي

---

(١) النسوى: المصدر السابق. ص١٧، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص ٢٤١.

(٢) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ص٤٦٢، ابن الوردى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٥.

(٣) سبط ابن الجوزى: المصدر السابق، جـ٨، ص٤٨٧، أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٣، ص١٧٥، راجع كذلك:

Runciman, op. cit., III, p. 224.

(٤) idem., Grousset, op. cit., III, p. 410.

فيها إلى الخوارزمية، للدور الكبير الذى لعبوه خلال هذه المعركة وقبلها عندما نجحوا فى إعادة بيت المقدس إلى المسلمين مرة أخرى وفق ما سيتضح فيما بعد.

وجدير بالذكر انه على الرغم من ظلم جلال الدين منكبرتى وسفكه للدماء إلا أنه كان سداً منيعاً بين المغول وتقدمهم فى بلاد المسلمين. فبهلاكه تمكن المغول بعد ذلك من العراق وبلاد الروم والجزيرة ثم التطرق إلى الشام[1]. ولم يتنبه الأيوبيون إلى هذه الحقيقة، واستمروا فى انقسامهم على أنفسهم لاهم لكل منهم إلا توسيع حدود دولته حتى ولو كان هذا على حساب تماسكهم ووحدتهم ومستقبل العالم الإسلامى. ولعل ذلك يتضح فى انشقاق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر سلطان مصر الكامل محمد، وتدبير ثورة شاملة ضده، ولكنه مات قبل تنفيذ هذا[2]. ولما خلفه أخوه الصالح عماد الدين إسماعيل فى حكم دمشق كون حلفاً ضد الكامل محمد يضم جميع ملوك بنى أيوب باستثناء الناصر داود صاحب الكرك، وتقى الدين الثانى صاحب حماه. ولكن سلطان مصر نجح فى القضاء على هذا الحلف أوائل عام ١٢٣٨م/٦٣٥هـ، واستولى على دمشق[3]. وجاءت وفاة السلطان الكامل

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص٣٢٣.

(٢) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٩٤، ٤٩٦، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص ٣٠٠.

(٣) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٩٧.

محمد كبداية لحلقة جديدة فى سلسلة إنهيار البيت الأيوبى لأنه بعد أن استولى الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد على دمشق عام ١٢٣٩م/٦٣٦هـ، أوقعه هذا فى صراع عنيف ضد أخيه العادل الثانى سلطان مصر. كما حدث أيضاً فى نهاية العام نفسه أن نجح الصالح إسماعيل فى استرداد دمشق، وأن يطرد منها الصالح أيوب[١]. ولكن فى عام ١٢٤٠م/٦٣٨هـ نجح الأخير فى تدبير مؤامرة ضد أخيه العادل الثانى وعزله عن حكم مصر، وجعل نفسه سلطاناً على مصر ودمشق. وعند ذلك دب الخلاف بينه وبين عمه الصالح إسماعيل، مما أوقع الدولة الأيوبية فى حالة شديدة من الفوضى والاضطراب فى الوقت الذى كان فيه أعداؤها يتربصون بها منتظرين الفرصة المواتية للانقضاض عليها.

ولكن فى عام ١٢٤٣م/٦٤١هـ أعرب كل من الطرفين عن رغبته فى إتمام الصلح بينهما، وفتح صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات السلمية بين البلدين من ناحية، وبين كل أمراء الدولة الأيوبية من ناحية أخرى[٢]. وبعد تكرار تبادل المراسلات بين جميع الأطراف المعنية تم الاتفاق على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، ومصر للصالح أيوب، وتبقى حمص وحماه على ما هى عليه[٣]. وان تكون الخطبة

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٢٧٩-٢٨١، ٢٨٧.

(٢) سبط ابن الجوزى: المصدر السابق، جـ٨، ٤٩٠، ابن الوردى: المصدر السابق، جـ٢، ١٧٣.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢٧، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٤، راجع أيضاً:
=

والسكة فى جميع هذه البلاد للملك الصالح أيوب بعد أن أنكرتها عنه طوال المدة السابقة[1]. ووافق أيضاً صاحب دمشق على إطلاق سراح جميع الأسرى الذين تم القبض عليهم فى دمشق عندما استولى عليها بما فيهم الملك المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب والوريث الشرعى لأملاكه من بعد[2]. وتمت الموافقة أيضاً على تقسيم ممتلكات الناصر داود بين كل من مصر ودمشق حتى يتخلصوا منه، ومن المشاكل التى كان يثيرها فى المنطقة، ومن تهديده لكل منهما[3]. ولكن لم تلبث وأن دبت الفتنة مرة أخرى بين مصر ودمشق، وإنهار الصلح بين الطرفين، وعادت الأمور بينهما إلى ما كانت عليه من بغض وعداء، وصراع دامى ساعد على التهاب الموقف فى شتى أنحاء منطقة الشرق الأدنى الإسلامى، مما كان له أكبر الأثر فى نشوب معركة غزة عام ١٢٤٤م/٦٤٢هـ[4].

= Humphrey, op. cit., p. 272.

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢٧، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٤.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢٧–٣٢٨، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ٣١٤ ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢١، راجع أيضاً:

Humphrey, op. cit., Loc. Cit.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٢٨، أنظر أيضاً:

Humpherey, op. cit., Loc. Cit.

(٤) بعد ان وافق جميع الأطراف على شروط الصلح اتفقوا على أن يجتمع سفراء الدول الثلاث دمشق وحمص وحلب فى القاهرة ليقسموا يمين الولاء للصالح=

وقد تكاتفت ملوك الشام بعد ذلك ضد سلطان مصر، وكونوا حلفاً قوياً شمل دمشق وحمص وحلب. هذا، فى الوقت الذى حسن فيه الصالح إسماعيل علاقته مع الناصر داود وضمه إلى هذا الحلف. وعلى الرغم أن هذا الحلف كان يشكل قوة كبيرة، إلا أنه كان لا يستطيع الوقوف أمام تحالف سلطان مصر والخوارزمية[1]. ولهذا فكر أمراء الشام وعلى

=أيوب ويسمعوا قسمه على المحافظة على ممتلكات وحقوق الأمراء السوريين. وكادت الأمور تسير فى مجراها الطبيعى لولا ان تسلم جلال الدين الاخلاطى، مندوب الصالح إسماعيل فى مصر، قبل اتمام القسم الأخير لاقرار عملية السلام، خطاباً من سيده مرفق به خطاب موجه من سلطان مصر إلى الخوارزمية يؤكد لهم أنه تظاهر بموافقته على عملية السلام حتى ينقذ ابنه من الأسر، وأنه باق على عدوانه لعمه، وأخذ يحثهم على غزو سوريا دفعة واحدة، وضرورة الاستيلاء على دمشق. وفى الحال قدم جلال الدين الإخلاطى هذه الوثيقة إلى معين الدين بن الشيخ وزير سلطان مصر فعجز عن شرح اى شيىء ينفى به هذا الاتهام. وعند ذاك انقطعت المفاوضات وأعيد الملك المغيث إلى سجنه مرة أخرى، وقطعت الخطبة للصالح أيوب ومسح اسمه من السكة، لمزيد من التفاصيل انظر: ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣١، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢٢ ومن المراجع الأجنبية أنظر:

Humphrey, op. cit., pp. 273-274.

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٢، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص٣١٤، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢٢، راجع أيضاً:

Humphrey, op. cit., Loc. Cit.

رأسهم الصالح إسماعيل فى الاستعانة بالفرنج، ولكن آثروا التريث قليلاً قبل الموافقة على تأييدهم، لأنهم وجدوا فى انقسام البيت الأيوبى على نفسه فرصة كبيرة لهم لكى يتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملك دمشق وسلطان مصر حتى يحققوا فى النهاية اكبر قدر من المكاسب على حساب المسلمين جميعاً دون عناء[1]، خاصة وهم يدركون تماماً أن الصالح أيوب يبحث بدوره عن حليف يشد أزره فى صراعه ضد صاحب دمشق[2].

ففى بداية عام ١٢٤٤م/٦٤٢هـ كتب مقدم الداوية أرماند أوف بريجورد Armand of Perigord إلى السلطان الصالح أيوب يعرض عليه مساعدة الفرنج له مقابل منحهم غزة وحبرون ونابلس والداروم. وقد وافق السلطان فى بداية الأمر، ولكن ما لبث وأن رجع فى موافقته بعد أن أدرك أن هذا التنازل سوف يقطع حلقة الصلة بين مصر والشام مما يشكل خطراً كبيراً على ممتلكاته فى كل من البلدين[3]. هذا، وإن كان يتضح من نص الخطاب الذى أورده المؤرخ الإنجليزى متى الباريزى فى كتابه "التاريخ الإنجليزى" والصادر من أرماند مقدم الداوية إلى الواعظ الإنجليزى روبرت أوف ساند فورد Robert of Sandford عام ١٢٤٤م/٦٤٢هـ، أن من أسباب فشل المفاوضات مع الصالح أيوب هو عدم

(١) Smail, the Crusaders in Syria and the Holy Land, p. 33, Richard, op. cit., p. 333, CaM. Med. Hist., V, p. 315.

(٢) Prawer, Histoire du Royaume Latine de Jerusalem, I, p. 307.

(٣) Ibid.

موافقة بارونات المملكة اللاتينية ورجال الدين على عقد هدنة مع سلطان مصر. وتفضيلهم التعاون مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق لأن التحالف معه يعنى التحالف ايضاً مع الناصر داود صاحب الكرك، والمنصور إبراهيم صاحب حمص[1]. هذا بالرغم من أن الإمبراطور فردريك الثانى قد أوضح فى خطابة المرسل إلى كل أمراء وملوك العالم المسيحى الغربى بشأن هزيمة الفرنج فى معركة غزة عام ١٢٤٤م-٦٤٢هـ أنه كان يؤيد فكرة تحالف الصليبيين مع سلطان مصر لثقته الكبيرة بملوكها بعد أن حافظ الملك الكامل محمد من قبل بكل قيود المعاهدة المبرمة معه عام ١٢٢٩م-٦٢٦هـ[2].

على أية حال، انتهى الأمر بموافقة الصليبيين على مساعدة الصالح إسماعيل وحلفائه ضد سلطان مصر، على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ومطلقة، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة[3]. وأن

---

(١) "... وقد رفض بارونات المملكة اللاتينية ورجال الدين إقامة هدنة مع سلطان مصر. ووجدوا أن من صالح الفرنج التحالف مع سلطان دمشق والناصر داود سيد الكرك..." لمزيد من التفصيلات أنظر:

Matthew Paris, English History, I, p. 483.

(٢) **Historia Diplomqatica Fridrici second, Vol, Part, p. 239.**

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ ٥. ص ٣٣٢، ابن الوردى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٧٣، ومن المصادر والمراجع الأجنبية أنظر:

Matthew Paris, op. Cit., I, p. 479. Prawer, Military Orders and Crusaders Political in the Second half Of XIII th Century, p. 224.

يسلم إليهم كذلك طبرية وعسقلان وكوكب، ويسمح لهم بتحصين قلاعها[1]. واتجه الصليبيون على الفور ناحية بيت المقدس وعلى رأسهم البطريرك اللاتينى روبرت ورجال الدين وبدأت الكنائس فى دق أجراسها معلنة عن بدء نشاطها. وجهز كل من الداوية والاسبتارية الترتيبات اللازمة لإعادة تحصين المدينة المقدسة[2].

وجدير بالذكر أن الصالح إسماعيل وحلفاؤه قد وعدوا الصليبيين بمنحهم جزءاً من أراضى مصر إذا هزموا السلطان المصرى واستولوا على الديار المصرية[3]. وقد أعدت الترتيبات بين الجيوش المتحالفة على ان يرسل الصالح إسماعيل قواته إلى غزة لغلق الطريق الموصل بين مصر وبيت المقدس بينما يستقر الناصر داود بجيشه بالقرب من القدس

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق نفس الجزء الصفحة ، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٥، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٦- ٣٢٢ راجع كذلك:

Amadi. Chroniques d'Amado, p. 185, cf also: Stevenson, op. cit., op. 322.

(٢) King, op. cit., p. 231, Smith, The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus, p. 181.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٢، أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٣، ص٨١، راجع أيضاً:

Humphrey, op. cit., p. 274, Richard, op. cit., p. 333, Smith, op. cit., Loc. Cit., Michaud, Histoire des Croisades, IV, p. p. 26, Setton, op. cit., II, p. 561.

ليتمكن من صد أى تقدم مصرى على وجه السرعة. أمـا المنصـور إبراهيـم صـاحب حمـص فكـان علـى عاتقـه الذهـاب إلى عكـا لإعـداد الترتيبــات والتجهيزات الأخيرة مع الفرنجة اسـتعداداً لبـدء المعركـة. وقـد اتفقـوا جميعاً على أن تتجمع القوات الصليبية السـورية خـارج عكـا فـى صيـف ١٢٤٤م-٦٤٢هـ[1].

وإزاء ذلك الخطر المشترك شعر الصالح نجم الدين أيوب أن بـلاده مهدده بالغزو والاستيلاء عليها ولذلك لم يجد بداً فى ذلك الموقف الحرج مـن الاسـتعانة بالخوارزميـة[2]. ووعدهـم فـى مقـابل هـذا أن يمنحـــهم الاستقرار في بيـت المقـدس وجـزء مـن أراضـى مصـر[3]. ولم تكـن دعـوة الصالح أيوب تصل إلى الخوارزمية فى يونيو ١٢٤٤م-محرم ٦٤٢هـ حتى اندفع عشرة آلاف منهم فى فرحة كبيرة بقيـادة مقدمـهم الأمـير حسـام الدين بركة خان نحـو بـلاد الشـام الصليبيـة يخربـون البـلاد ويشـعلون الحرائق فـى القـرى، ومـا مـروا بموضـع إلا نـهبوه وعـاثوا فيـه وقتلـوا

(١) Humphey, op. cit., Loc. Cit., Setton, op. cit., Loc. Cit.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٦، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٥، أنظر أيضاً:

Stevenson, op. cit., cit., p. 322, Richard, op. cit., Loc. Cit, King, op. cit., p.231.

(٣) Eracles, op. cit., p. 427, Matthew Paris, op. cit., p. 491, cf also: Beasant, The History of Jerusalem, p. 513, Michaud, op. cit., IV, p.27.

وسبو[1]. وكانوا قد انقسموا إلى قسمين: أحدهما اجتاز بقاع بعلبك، والآخر قصد غوطة دمشق، وكانت دمشق نفسها حصينة فاتجهوا صوب الجليل حيث استولوا على طبرية، ثم على بانياس، ومنها قصدوا بيت المقدس في ١١ يوليو ١٢٤٤م- ٣ صفر ٦٤٢هـ[2].

ولما علم لصالح إسماعيل بهذا الأمر حصن دمشق واعتصم بها، واستدعى جنوده من غزة ففارقوها وعادوا إلى دمشق، ورحل الملك الناصر داود إلى الكرك، وهرب كثير من الفرنجة الذين كانوا بالقدس[3]. وعندما وصلت جموع الخوارزمية بيت المقدس لم تجد بها حامية قوية، فكانت أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين[4]. فساعدهم هذا إلى حد كبير على دخول المدينة بدون عناء. ووقع القتال في الشوارع وبذلوا السيف فيمن كان بها من أهلها من المسيحيين حتى أفنوا الرجال وسبوا النساء والأولاد[5].

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٦، القريزي، المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص ٣١٦، راجع كذلك:

Michaud, Bibliotheque des Croisades, IV, pp. Pp. 444-445, cf also: Setton, op. II, p. 561, King, op. cit., p. 208.

(٢) Prawer, Histoire du Royaume Latin, II, p. 310, Stton, op. cit., Loc cit.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٧.

(٤) Eracles, op. Cit., p. 428, Michand, op. Cit., IV, 54, cf. also: Prawere, op. cit., p 307.

(٥) ابن واصل: المصدر السابق، ذات الجزء والصفحة، القريزي: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٧.

وقد انتهك الخوارزمية حرمـة المقدسـات الدينيـة، فـاقتحموا الكنـائس وهدموها مثل كنيسة القديس يعقوب Saint Jacques فى حى الأرمن، ودير القديس جيمس Saint Kames، وذبحـوا كـل مـن بداخلـها مـن قساوسـة ورهبـان وعلمـانيين[1]. ولم يكتفـوا بذلـك بـل دخلـوا كنيسـة القيامـة، ونـهبوا آثارهـا المقدسـة، وامتـدت أيديـهم إلى القـبر المقـدس وحطموه، ثم انتهكوا حرمة مقابر ملوك اللاتين الأول أمثال جـود فـرى وبلدوين ففتحوها وأحرقوا مخلفاتها ونهبوا كل ما فيها من آثار مقدسـة ومجوهرات[2]. وقاموا بعد ذلك بذبح المسـيحيين البؤسـاء الذيـن اتخـذوا من هذه الكنيسة ملجأهم وهرباً من سيوف الخوارزمية[3].

ومع ذلك فقد جهز سادة الداوية والاسبتارية فرقة كبيرة لتلبيـة النداء فى الدفاع عن المدينة، وإنقاذ البقية الباقيـة مـن سـكانها. ولكنـها سرعان ما تقـهقرت وعـادت فـى الحـال بعـد أن علمـت بتحطيـم أسـوار

---

(١) Chronical of Melrose, cf. Church Historians of England, t. IV, Part, I. P. 188 cf also: Prawer, op. cit., king op. cit., p. 232.

(٢) Rothelin, cf. R.H.C-H. Occ., II, p. 562, Michaud, Bibliotheque des Croisades, IV, p. 445, Chronical of melrose, IV part, I, p. 190, Historia Diplomatica Fredrici Secundi, t. IV, Part, I, p. 238, cf also: Lamb, The Crusades, p. 280, Iorga, Histoire des Croisades, p. 166, king, op. cit., 232, Prawer, op. cit., p. 311.

(٣) Rothelin, op. cit. Loc, cit Chronical of Melrose, op. cit., Loc cit, Matthew Paris, op. cit., I, p. 524.

المدينة، وأدركت صعوبة وخطورة الوصول إليها وهي على هذه الحالة، مما يزيد خسائر الفرنج[1] خاصة وأنهم كانوا يجهزون فى هذا الوقت قواتهم فى عكا بقصد الهجوم المشترك بينهم وبين السوريين ضد مصر[2].

وهكذا أصبح سكان بيت المقدس فى موقف لايحسدون عليه، لأنهم عانوا كثيرا من شدة الجوع وقلة الأسلحة وحالة الرعب الشديد الذى كانوا يعيشون فيه، بجانب عمليات الإرهاب والعنف التى تعرضوا إليها من قبل الجنود الخوارزمية[3]. وقد كان لهذا أثره السيىء فى نفوس مسيحى العالم الغربى وسائر الفرنجح الموجودين فى عكا. ولكن مع ذلك، ورغم كثرة طلبات النجدة المرسلة من السكان المحاصرين بالمدينة إلى بنى جلدتهم فى عكا، لم يتمكن هؤلاء من إمدادهم بالمساعدات اللازمة لكثرة إعداد الخوارزمية من ناحية، وشدة الحصار المفروض على المدينة من ناحية أخرى. فكان لا يوجد أى منفذ فى المدينة يمكن التسلل منه إلا وأن يمر أمام جيش الخوارزمية[4].

وفى ضوء هذه الظروف. لم تتمكن حامية المدينة من الصمود طويلا أمام قوات الخوارزمية، واضطرت إلى الهرب إلى برج داود.

---

(١) King, op. cit., Loc cit.

(٢) Prawer, op. cit., Loc cit.

(٣) Chronical of melrose, op. cit., p. 188.

(٤) Chronical of Melrose, op. cit., p. 189, Matthew Paris, op, cit, I, p.499.

ولكنها لم تصمد فى المقاومة أكثر من ستة أسابيع، ثم استسلمت بعد ذلك[١].

وعلى الرغم من كل هذه المذابح التى تعرض لها سكان بيت المقدس، لم تقف الفرنج موقفا سلبيا تجاه إخوانهم المحاصرين فى المدينة المقدسة، وإنما بعثوا بسفارة إلى الناصر داود صاحب الكرك، وهو أقرب الحلفاء المسلمين إليهم يرجونه مساعدتهم فى تأمين خروج الفرنجة من بيت المقدس والسير حتى يافا، وكذلك السماح للراهب سيمون رئيس الوعاظ بالدخول فى المدينة لتشجيع المسيحيين الموجودين بداخلها وتثبيت إيمانهم. فوافق الناصر داود على هذا، ووعد بالذهاب بنفسه إلى الخوارزمية لاقناعهم بالموافقة[٢].

ومما يثير الدهشة والتساؤل، أن الناصر داود وافق ان يتوسط للفرنج لدى الخوارزمية ويرجوهم فى مثل هذا الشأن، على الرغم من أنه كان متحالفا مع باقى أمراء الشام والفرنج ضدهم. الواقع أن المصادر العربية والأجنبية المعاصرة لهذه الفترة أو المتأخرة عنها زمنيا، لم تمدنا بأية تفصيلات تعلل سبب هذا التناقض. ومع ذلك فإننا نرى، من خلال تتبع الأحوال والظروف فى المنطقة، إنه ربما كان لصلة القرابة القوية التى تربط بين الناصر داود من جهة والخوارزمية من جهة

---

(١) Brundage, The Crusades, A Documentary Survey, p. 233, Humphrey, op. cit., p. 272.

(٢) Chronical of Melrose, op. cit., Loc. Cit.

أخرى، أثرها فى التأثير عليهم، لأن أمـة خوارزميـة الأصـل[1]. فكأنـه عندما توجه إليهم ورجاهم لصـالح الفرنـج لم يكـن هـذا بصفتـه سـلطانا للكرك، وإنما بدافع صلة القرابة. وعندئذ فعندما تحدث إليهم إنما كـان يتحدث مع أخواله وأقاربه، وليس مـع أعدائـه. وتدعيمـا لهـذا الـرأى، وعلـى ارتيـاح الخوارزميـة فيمـا بعـد للتعـامل مـع النـاصر داود. أنـهم استمالوه إليهم للوقوف معهم ضـد الملـك الصـالح نجـم الديـن أيـوب عـام ١٢٤٦م -٦٤٤هـ وفق ما سيتضح فيما بعـد[2]. وكذلـك عندمـا فضـل عـدد كبير منهم الدخول فى خدمته بعد هزيمتـهم السـاحقة وتشـتت شملـهم فى نفس هذا العـام علـى أيـدى قـوات المنصـور إبراهيـم صـاحب حمـص المتحالف مع الجيش المصرى. فكانوا سندا قويا له فى كـل المعـارك التـى خاضوها ضد منافسيه[3].

على أية حال عندما قـرر الملـك النـاصر التوجـه إلى الخوارزميـة أصر الواعظ سيمون على مرافقته فى رحلته إلى بيت المقدس. وعند وصوله اجتمع بكل المسيحيين الموجودين هناك وأخذ يعظهم ويرفع مـن روحـهم المعنوية. كما منحهم الغفران نيابة عن البطريرك، ثم أبلغهم بمحاولات الناصر داود لدى الخوارزمية لضمان الأمان لهـم عنـد الخـروج مـن بيـت المقدس. وأخيرا حذرهم بعدم الخروج من المدينة إلا بعـد الحصـول علـى

---

(١) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٢٥.

(٢) أنظر فيما بعد ص.

(٣) أنظر ص.

وثيقة الأمان من السلطان. وعقب انتهاء الاجتماع أعربوا عن استيائهم الشديد للراهب لثقة الفرنج فى صك الأمان الذى يمنحهم إياه الخوارزمية. وأجمعوا على أنهم يفضلون الموت جوعا داخل المدينة المقدسة، عن الثقة أو الاعتماد على هؤلاء الخوارزمية. وقرروا فى النهاية أنهم لن يغادروا المدينة وسيبقون منتظرين المساعدة الإلهية لهم[١]. وعند ذاك غادر الراهب سيمون المدينة، وفى طريق عودته إلى يافا زار السلطان ناصر داود واستلم منه وثيقة تأمين طريق الفرنج عند مغادرتهم بيت المقدس[٢]. ولكن حدث فى ذلك الوقت أن استسلمت حامية المدينة فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٢٤٤م ١٥ ربيع الأول ٦٤٢هـ، فاعمل فيهم الخوارزمية الذبح[٣]. وفى مساء هذه الليلة هرب من المدينة حوالى ستة آلاف من أهلها من الرجال والنساء والأطفال، وتركوها للخوارزمية متخذين طريقهم ناحية يافا[٤]. ولم يبق فى المدينة سوى أصحاب العاهات والمسنين. فشن الخوارزمية عليهم هجوما قاسيا وقتلوهم جميعا،

---

(١) Chronical of Melrose, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Idem.

(٣) Matthew Paris, op. cit., p. 498, Hayton, La Flor des Estoire de la terre d'Orient, CF. R.H.C.-Doc. Arm., II, p. 146, cf. Also: Brundage, op. cit. P. 233., Smith, op. cit., p. 181, Cam Med. Hist., V, p. 315.

(٤) Rothelin, op. cit., p. 564, Matthew Paris, op. cit., I, p. 498, cf. also: Setton, op. cit., II, p. 562, Prawer, op. cit., p. 311.

وأصبحت المدينة شبة مهجورة[1]. ولم يكد المسيحيون يبتعدون عن بيت المقدس حتى تطلعت منهم جماعة إلى الوراء لإلقاء النظرة الأخيرة على مدينتهم المقدسة، فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة وسمعوا أجراس الكنائس معلنة الصلاة فظنوا أن هناك بعض النجدات قد وصلت المدينة وانتصرت على الخوارزمية وأن هذه الأعلام إعلاناً لاستدعائهم للعودة مرة أخرى إلى المدينة[2]. وأصر عدد كبير منهم على الرجوع. ولكن هذا الإصرار كان خطوة سريعة إلى مصيرهم التعس، لأن الخوارزمية تعمدوا خداعهم بهذه الطريقة ولتأكيد هذا الخداع انسحبوا مسافة قصيرة عن مواقعهم. وعند ذاك عاد المسيحيون وهم مطمئنين ومعتقدين بأنهم سيكونون فى أمان. غير أنهم وقعوا فى الكمين الذى أعده لهم الخوارزمية[3]. فسرعان ما أحاطوا بهم من كل جانب ووقعت مذبحة كبيرة راح ضحيتها الكثير. وعندما حل الظلام تسلل الصليبيون الذين نجوا من المذبحة وحاولوا الهرب ولكنهم ضلوا طريقهم. وسلكوا طرقاً صحراوية فى وسط الجبال. وعندما وصلوا إلى أحد الممرات الضيقة عند سهول الرملة، فوجئوا بكمين آخر أعده الخوارزمية لهم. فأحاطوا

---

(١) Besant, op. cit., p. 513, Michaud, Histoire der Croisades, IV, pp. 27-28.

(٢) Matthew Paris, op. cit., I, p. 498, Rothelin, op. cit., p. 564, cf also: Setton, op. cit., ii, p. 562, Prawer, op. cit., p. 311, Besant, op. cit. Loc. Cit.

(٣) Idem.

بهم من كل جانب وهجموا عليهم وقتلوهم عن آخرهم[1].

أما بالنسبة لهؤلاء الذين لم يعودوا إلى بيت المقدس مع باقى إخوانهم، وآثروا مواصلة طريقهم إلى يافا، فقد تعرضوا لهجمات قطاع الطرف من العرب أثناء سيرهم تجاه البحر. وهلك منهم أكثر من ثلاثة آلاف مسيحى. أما البنات والأولاد فقد حملوا كأسرى وتم بيعهم فى أسواق العبيد. وعلى ذلك لم يصل منهم سالماً إلى يافا أكثر من ثلاثمائة فقط. ولكنهم كانوا فى حالة صحية سيئة للغاية. ومات أكثر من نصفهم[2].

وجدير بالذكر، إذا كان بعض المؤرخين القدامى المعاصرين لهذه الفترة الزمنية، مثل روتلان ومتى الباريزى، قد أوضحوا طريقة القضاء على هؤلاء المسيحيين الهاربين من بيت المقدس بالكيفية التى ذكرناها فإن الخطاب الصادر فى ٢١ سبتمبر عام ١٢٤٤م- ١٣ربيع ثان ٦٤٢هـ من روبرت بطريرك بيت المقدس وغيره من كبار سادة الفرنج إلى البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٣م) قد انفرد بذكر رواية أخرى تختلف عن تلك التى ذكرها هذان المؤرخان وتضمنت هذه الرواية أن عدداً كبيراً من الفرنج نجح فى الهروب ليلاً من بيت المقدس دون إخبار بقية

---

(١) Rothelin, op. cit., p. 64, Matthew Paris, op. cit., I, pp. 524-525, cf also: Besant, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Matthew Paris, op. cit., I, pp. 524-25, cf also: Setton, o. cit., II, p. 62, Runciman, op. cit., III, p. 225.

زملائهم من المسيحيين الموجودين معهم. وعندما وصلوا إلى يافا وجه إليهم البطريرك وسادة الفرنج فى المدينة اللوم الشديد لخروجهم دون بقية إخوانهم. وبعد أيام قليلة، وعلى وجد التحديد فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس ١٢٤٤م ١٥ ربيع الأول ٦٤٢هت هرب بقية سكان المدينة المقدسة باستثناء المسنين وأصحاب العاهات. وقد اتخذوا من الأقاليم الجبلية طريقاً سهلاً لهروبهم بعيداً عن عيون الخوارزمية، ولكنهم تعرضوا لهجمات قطاع الطرق من عرب الجبال فقتلوا منهم أكثر من ألفين بينما وقع كثير من النساء والأولاد والبنات فى الأسر وتم بيعهم كعبيد فى أسواق النخاسه. أما الذين نجوا منهم فقد واصلوا سيرهم حتى وصلوا سهول مدينة الرملة، وهناك تلقفتهم سيوف الخوارزمية وقضت عليهم ماعدا ثلاثمائة منهم نجحوا فى الهرب والوصول إلى يافا وهم فى حالة صحية سيئة متأثرين بجروحهم فمات أكثر من نصفهم[١].

والواقع أننا لو دققنا النظر فى كلتى الروايتين لوجدنا أن مضمونهما واحد غير أن المؤرخين متى الباريزى وروتلان قد أضافا واقعة الخدعة التى دبرها الخوارزمية لسكان المدينة عندما رفعوا أعلام الفرنج على أبراج المدينة لاستدراجهم إليها. وعلى ذلك يمكننا القول أنه عندما أغفل بطريرك بيت المقدس ذكر هذه الواقعة فى خطابه المرسل إلى البابا أنوسنت الرابع فإن هذا لا يعنى عدم حدوثها أو اتهام البطريرك للتعمد

---

(١) Chronical of Melrose, p. 190.

فى إخفائها، وإنما من المحتمل أن يكون الخطاب قد سقط منه سهواً بسبب الحالة النفسية السيئة التى كان يعانى منها وقت كتابة الخطاب بسبب حزنه وتألمه على فقد الفرنج بيت المقدس من ناحية، وما أصاب المسيحيين من سكان المدينة المقدسة من قتل وتشرد وجوع على أيدى الخوارزمية من ناحية أخرى، بالإضافة إلى الجرائم والفظائع التى اقترفها هؤلاء الخوارزمية فى حق المقدسات المسيحية من ناحية ثالثة. كما أننا لو تحققنا من تاريخ تدوين الخطاب نجده يرجع إلى الحادى والعشرون من شهر سبتمبر ١٢٤٤م، أى أنه لم يكتب إلا بعد مرور شهر على وقوع الحادثة وهى مدة ليست قصيرة ويمكن أن تؤدى إلى نسيان بعض الوقائع، خاصة فى مثل هذه الظروف الصعبة التى كان يعيشها المسيحيون فى ذلك الوقت. ونضيف إلى هذا أيضاً أن البطريرك لو كان تذكر هذه الحادثة، لما تردد على الإطلاق فى ذكرها، لأنه لايوجد سبب واحد يجعله يتعمد فى إخفاءها خاصة وهى تمثل نقطة سوداء تضاف إلى رصيد الخوارزمية فى المكر الذى اتصفوا به والفظائع والأعمال الوحشية التى ارتكبوها باسم المسلمين ضد الفرنج، خاصة وأن خطاب البطريرك قد اعتمد كلية على وصف وحشية الخوارزمية وهمجيتهم والمقارنة بين سياستهم تجاه المسيحيين فى بيت المقدس وسياسة التسامح الدينى التى أظهرها صلاح الدين الأيوبى عندما استعاد المسلمون بيت المقدس عقب موقعة حطين عام ١١٨٧م-٥٨٣هـ.

ومهما كانت الآراء حول كيفية قضاء الخوارزمية على سكان بيت المقدس، كنا ننتظر من المصادر والأصول العربية أن تمدنا بمعلومات

تساعدنا على إلقاء بصيص من الضوء على تلك الخدعة الناجحة الى اتبعها الخوارزمية حيال سكان بيت المقدس لنقطع الشك باليقين. ولكن بالرغم من ذلك، فإننا لا نستبعد حدوثها بما تضمنته من مكر وخداع ووحشية، لأن هذه السياسة ليست بغريبة على الخوارزمية ويتفق مع ميولهم وطباعهم.

على أية حال بعد أن قام الخوارزمية بعملية نهب واسعة النطاق فى بيت المقدس، حتى أصبح المكان قفراً موحشاً، اتجهوا صوب غزة، ومن هناك أرسلوا إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب يخبروه بقدومهم لنصرته على عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق. فأرسل إليهم جيشاً بقيادة ركن الدين بيبرس. ووعدهم بأن يمنحهم الشام[1]. وكانت جيوش الفرنج فى ذلك الوقت تحتشد خارج عكا، وقد انضمت إليها جيوش حمص ودمشق بقيادة المنصور إبراهيم أمير حمص، وجيش الكرك بقيادة الناصر داود. ثم اتجهت جموع هذه القوات فى الرابع من أكتوبر عام ١٢٤٤م ٢٦ ربيع ثان ٦٤٢هـ ناحية غزة[2]. ومما يؤسف له أن هذا الجيش الأيوبى قد سار تحت أعلام الفرنجة والصلبان على

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٧-٣٣٨، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢ ص٣١٦-٣١٧.

(٢) المقريزى: نفس الجزء والصفحة راجع أيضاً:

Rothelin, op. cit., p. 563, cf also: Setton, op. cit., Loc. Cit.

Besant, op. cit., p. 514, Runciman, op. cit., III, p. 225.

عسكر دمشق وفوق رأس المنصور إبراهيم صاحب حمص[١]. وقد التقى الجيشان المتحاربان عند المنطقة الرملية الفاصلة بين غزة وعسقلان، بالقرب من قرية "الحربية" Harbiyah المعروفة عند مؤرخي الحروب الصليبية باسم La Forbie، وهي على بعد أميال قليلة من شمال شرق غزة[٢].

كان الجيش الصليبي يتكون من فرسان جميع بارونات المملكة اللاتينية وكذلك من مختلف الطوائف العسكرية الدينية المثلة ببعض فرق من جماعة الفرسان الداوية بقيادة أرماند بريجورد، وجماعة الفرسان الاسبتارية بقيادة وليم شاتونوف وكتيبه من فرسان التيوتون. كما ساهمت أيضاً كل من قبرص وانطاكية وطرابلس بعدد كبير من الفرسان. فبلغ مجموع فرسان الفرنج المشتركين في هذه المعركة ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس، يضاف إليهم ما يقرب من ألفين من القوات السورية بقيادة أمير حمص المنصور إبراهيم. هذا، بجانب ما يقرب من عشرة آلاف من المشاه[٣]. وعلى ذلك كان الجيش الصليبي المشترك في

---

(١) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، جـ٨، ص٤٩٤، المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٧.

(٢) Setton, op. cit., II, . 563, Prawer, op. cit., p. 312, Humphrey, op. cit., p.p. 27.

(٣) Eracles, op. cit., p. 428, Matthew Paris, op. cit., I, p. 491, H Historia Diplomatica Fridrici Secoundi, VI, part I, p. 237, cf also: Prawer, op. cit., pp. 312-313.

معركة غزة يمثل أكبر قوة تم تكوينها وإعدادها لمعركة ضد المسلمين منذ معركة حطين عام ١١٨٧-٥٨٣هـ[١]. ولكن مما يعيب تكوين هذا الجيش هو عدم وجود قائد واحد اساسى له، وإنما يوجد العديد من القادة، كل منهم يرأس مجموعة من المقاتلين، وكان من بينهم فيليب دى مونتفرات صاحب صور، والتربريين كونت يافا وليم سيد البترون، وتوماس كند سطبل طرابلس فضلا عن مقدمى الطوائف العسكرية الدينية الثلاث السابق ذكرهم[٢]. ولذلك فقد تكون ما يسمى باسم "مجلس الحرب" من كل هؤلاء القادة ليحل محل القائد العام فى عملية الإشراف على خط سير المعركة[٣].

وقد تشكل الجيش الصليبى فى ثلاث مجموعات، تضمن الجناح الأيسر الفرسان الاسبتارية بقيادة والتر دى بريين كونت يافا، وتضمن الجناح الأيمن جيوش المسلمين المتحالفة مع الفرنج بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص. بينما كان القلب برياسة مقدم الداوية ويضم فرسانه، وقوات بارونات المملكة اللاتينية[٤]. ومعهم روبرت بطريرك

---

(١) Runciman, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Eracles, op. cit., p. 430, cf also: king, op. cit., p. 233, Setton, op. cit., II, pp. 662-663.

(٣) King, op. cit., Loc. Cit.

(٤) Joinville's Chronicle, p. 268, cf also: Michand, op. cit., IV, pp. 32-33, King, op. cit., p. 234, Lamb, op. cit., p. 280.

بيت المقدس حاملاً الصليب الحقيقى وبرفقته بطرس رئيس أساقفة صور، ورالف أسقف اللد والرملة[١]. أما الجيش المصرى فقد تألف من مجموعتين: الجناح الأيسر ويضم خمسة آلاف من أمهر المقاتلين بقيادة الأمير المملوكى ركن الدين بيبرس، والجناح الأيمن ويتكون من عشر آلاف من الخوارزمية بقيادة سيدهم بركة خان[٢].

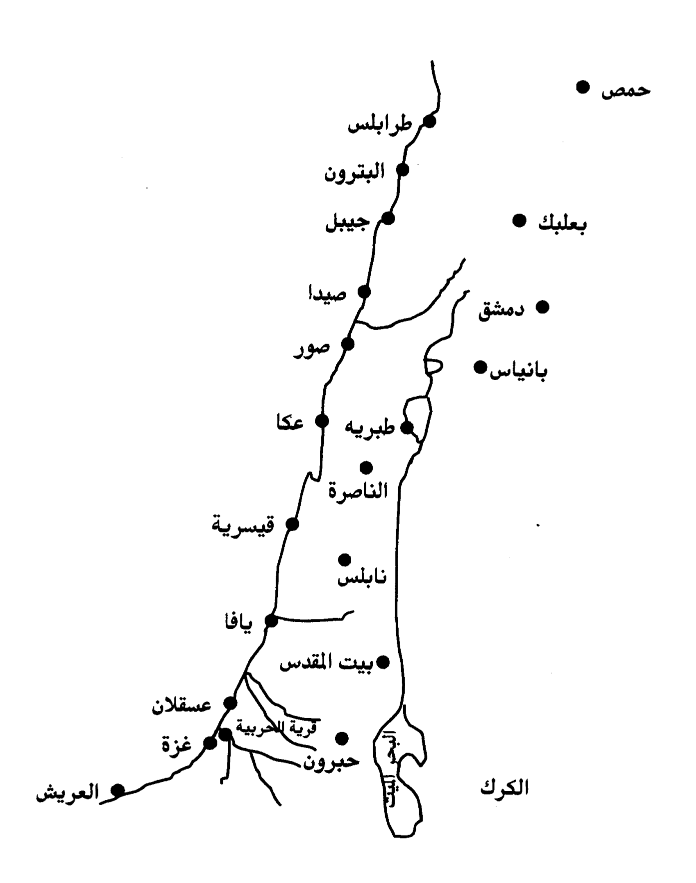
وجدير بالذكر ان الصليبيين عقدوا مجلساً للحرب عند عسقلان قبل وصولهم إلى عزة. وأعرب فيه المنصور إبراهيم عن تخوفه من خوض المعركة ضد الخوارزمية والمصريين بسبب نقص إمكانيات الفرنجة فى المؤونة وعدم ضمان وصولها بسرعة وبكميات وافرة من عكا. وأوصى بالعودة لتجنب الهزيمة. وفى نفس الوقت أشار عليهم بأنه إذا لم يكن هناك مفر من القتال فلابد من التريث فى الهجوم وان يعملوا على تحصين معسكرهم جيداً. وأن يتخذوا جانب الدفاع خاصة وأن الخوارزمية يكرهون مهاجمة المواضع المنيعة، ويملون من هذا النوع من القتال مما يؤدى إلى انسحابهم من ميدان القتال. وبالتالى لن يكن بوسع الجيش المصرى الاستغناء عنهم والقتال بدونهم فيضطر إلى الانسحاب بدوره[٣]. وقد أيد كثير من الصليبيين هذا الرأى، بينما عارضه البعض الآخر وعلى رأسهم والتردى بريين كونت يافا الذى كان شديد الإلحاح على ضرورة القيام بهجوم مباشر وسريع. وانتهى الأمر برجحان كفة

---

(١) Setton, op. cit., II, p. 563, Runciman, op. cit., III, p. 226.

(٢) King, op. cit., Loc. Cit., Setton, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Eracles, op. cit., p. 429, cf also: Setton, op. cit., Loc. Cit.


حمص
طرابلس
البترون
جبيل
بعلبك
صيدا
دمشق
صور
بانياس
عكا
طبريه
الناصرة
قيسرية
نابلس
يافا
بيت المقدس
عسقلان
قرية الحربية
غزة
حبرون
العريش
الكرك

والـتر، ويتحـرك الصليبيـون مـن عسـقلان ووصلـوا غـزة واصبحـوا فـــى مواجهة الجيوش الخوارزمية المصرية[1].

وساد الهدوء بين الطرفين عـدة ساعات كـان خلالهـا كـل طـرف يتحرش بالآخر. وقد لاحظ والتر كونت يافـا وجـود بعـض الاضطرابـات فى صفوف الخوارزمية، وأراد أن ينتهز هذه الفرصة ويبدأ فـى الهجـوم عليهم ليحقق نصر يشـفع لـه عنـد البطريـرك فـى العفـو عنـه مـن قـرار الحرمان الصادر ضده، ولكن البطريرك نهاه عن هذا ورفض منحه العفـو المطلوب[2].

وفـى صبـاح يـوم الاثنـين ١٧ أكتوبـــر ١٢٤٤م-١٤ جمــادى الأول ٦٤٤هـ بدأت المعركة بين الخوارزمية وقـوات الصـالح أيـوب مـن ناحيـة، والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والكرك من ناحية أخرى. ورغـم كـثرة الحاحه على البطريرك للسماح له بالاشتراك فى المعركة إلا أنـه لم يوافـق. ولكن أمام صلابة البطريرك اضطر أسقف الرملة والذى كانت تربطه علاقـة قوية بكونت يافا، أن يصدر قراراً بالعفو عنه والسـماح لـه بالاشـتراك فـى القتال، فامتطى صهوة جواده وأخذ يشارك زمـلاءه فـى القتـال[3]. وكـانت

---

(١) Idem.

(٢) ذكر جوانفيل أن سبب صدور قرار الحرمان ضد كونت يافا هـو رفضـه تسـليم برج المدينة إلى البطريرك انظر:

Joinville's Chronicle, p. 268, cf also: Michaud, op. cit., IV, IV, p. 34.

(٣) Jouinville's Chronicle, p. 269, cf also: Besant, op. cit., p. 14, Michaud, op. cit., Loc. Cit.

المعركة منذ اللحظة الأولى تتسم بالشراسة والضراوة فكانت ضربات السيوف وصيحات المتحاربين تسمع من مسافة عدة أميال. واستمرت المعركة يومين، استغرقت فى اليوم الأول وقتاً طويلاً امتد من بزوغ الشمس حتى بعد الغروب بدرجة أنه لم يعد بإمكان أى من الفريقين المتحاربين التمييز بين قواتهما(١). ولم يتمكن الفرنجة فى هذا اليوم من إحراز أى نصر أمام شدة ضربات الخوارزمية والمصريين معاً ولذلك فقدوا أعداداً كبيرة من قواتهم(٢).

وفى صباح اليوم التالى اشتعلت المعركة من جديد، وكان فرسان الداوية والاسبتارية قد استعادوا قوتهم ونشاطهم، فأقبلوا على المعركة وهم يغنون تمجيداً لله، ولبعث أمل النصر فى نفوس باقى الصليبيين المحاربين فكانوا يرددون "السيد منحنا النصر، ليس من أجلنا وإنما لتمجيد لقبه واسمه المقدسين"(٣). ولكن لم تمض عدة ساعات حتى فقدوا كل أمل فى النصر. لأنه فى الوقت الذى كان فيه الجيش المصرى يواصل هجماته ضد قوات لفرنجة، نجح الخوارزمية فى توجيه الضربات الشديدة والسريعة إلى الجيش السورى المتحالف مع الفرنج. فانتهى الأمر بهلاكه وانسحابه من ميدان القتال، وهرب المنصور إبراهيم إلى

---

(١) Matthew Paris, op. cit., I, p. 492, 499, cf also: Besant, op. cit., p. 514, Dowling, Gaza, a city of many Battles, p. 69.

(٢) King, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Matthew Paris, op. cit., I, p. 499, Lamb, op. cit., p. 281.

دمشق وظلت القوات الصليبية فى ميدان القتال تواجه هجمات الخوارزمية بمفردها[1]. فانتهز هؤلاء الفرصة وحاصروهم من كل جانب، وأخذوا يشددون ضرباتهم العنيفة ضدهم، ولكن، فى بداية الأمر، نجح الصليبيون فى الصمود بعض الوقت، غير أنهم فى النهاية لم يتمكنوا من مواصلة القتال لكثافة أعداد الخوارزمية من ناحية والخسائر العديدة التى تكبدوها فى الأرواح والسلاح من ناحية أخرى[2]. ففى ساعات قليلة تحطم كل جيشهم وحلت بهم الهزيمة الساحقة، حتى قدر عدد قتلى الصليبيين ومن انضم إليهم من منافقى المسلمين بأكثر من خمسة عشر ألف مقاتل[3]. ومن الذين لقوا مصرعهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور وسيد البترون وأسقف الرملة. ولاذ بالفرار إلى عسقلان فيليب دى مونتفورت ومقدم التيوتون وبطريرك بيت المقدس، ولحق بهم من بقى على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ثلاثة من التيوتون، وثلاثة وثلاثون من الداوية، وستة

---

(١) Rothelin, op. cit., p. 563, Eracles, op. cit., p. 429, Matthew Paris, op. cit., p. 494, cf also Setton, op. cit., II, p. 63, King, op. cit., p. 234.

(٢) Matthew Paris, op. cit., I, p. 500, cf also: Michaud, op. cit., IV, p. 35.

(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ص١٧٤، سبط ابن الجوزى: المصدر السابق، جـ٨، ص٤٩٤، القريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٧. ومن المراجع الأجنبية أنظر:

Setton, op. cit., II, P. 64, Michaud, op. cit., Loc. Cit Dowling, op. cit., Loc. Cit.

وعشرون من الاسبتارية[1]. ووقع فى الأسر وليم شاتونوف سيد الاسبتارية، وكند سطبل طرابلس، وكونت يافا فضلاً عن ثمانمائة آخرين تم سحبهم إلى مصر[2].

وبعد ان أحرز الخوارزمية هذا النصر الكبير على الفرنج، اتجهوا ناحية عكا واستولوا على الأماكن المحيطة بها التى كانت فى حوزة الصليبيين والواقعة على بعد ميلين من المدينة، وقسموها كلها فيما بينهم بحيث لم يتبق للصليبيين سوى القلاع[3].

ولما وصلت أنباء انتصار الخوارزمية إلى السلطان المصرى عم الفرح ودقت الطبول واستمرت الرايات والأفراح فى شتى الأقاليم المصرية عدة أيام[4]. وامتلأت السجون بالأسرى وعلقت رؤوس القتلى

---

(١) Rothelin, op. cit., p. 563, Eracles, op. cit., p. 430, Chronical of Melrose, op. cit., p. 192, cf also: Stevenson, op. cit., 322, Dowling, op. cit., Loc. Cit. Richard, op. cit., p. 334, Runciman, op. cit., III, p. 227, Lamb, op. cit., p. 280, Michaud op. cit., IV, p. 35.

(٢) Rothelin, op. cit., pp. 563-564, Eralcles, op. cit., p. 430, Gestes des Chiprois, cf. R.H. C-Doc. Arm, II, p. 740, chronique d'Amadi, p. 197, cf also: Runciman, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Rothelin, op. cit., p. 564.

(٤) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٧، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢٤.

على أبواب المدينة[1].

وكان الخوارزمية يأملون بعد كل ما قدموه من مساعدات إلى السلطان المصرى الصالح نجم الدين أيوب أن يكافأهم بالسماح لهم فى الاستقرار بمصر. ولكن يبدو أن الصالح أيوب قد خشى على ما يترتب على دخولهم مصر من أضرار بالبلاد لكثرة إعدادهم وسياستهم الهمجية، ولذلك أرسل إليهم قوات مصرية عند بلبيس لمنعهم من دخول مصر. وفى نفس الوقت أباح لهم الاستقرار فى الشام على حساب الصليبيين، وخاصة فى الأماكن التى استولوا عليها حول عكا[2]. ولكن نظراً لرغبتهم الشديدة فى الاستيلاء على يافا فقد ضربوا الحصار حولها، واستغلوا فرصة وجود حاكمها الكونت والترى بريين فى الأسر لديهم فقاموا بتكبيله بالسلاسل وهددوه بالقتل إذا لم يسهل لهم عملية الاستيلاء على المدينة. وفى نفس الوقت هددوا حامية المدينة باغتيال أميرهم إذا لم يفتحوا الأبواب. ورغم كل ذلك فقد أبى الكونت والتر الاستسلام، ولم يلتفت إلى تهديدات الخوارزمية، وأخذ يصيح بصوت مرتفع أمام أسوار المدينة مشجعاً أهاليها وحاميتها، حاثاً إياهم على التماسك وعدم الاهتمام بتهديدات عدوهم، وضرورة تقوية

---

(١) سبط ابن الجوزى: المصدر السابق، جـ٨، ص٤٩٧، أبو شامة: المصدر السابق، ص١٧٤، راجع أيضاً:

Michaud, op. cit., IV, p. 36, Lamb, op. cit., p. 28.

(٢) Eracles, op. cit., p. 430, cf also: Humphrey, o. cit., p. 284.

استحكامات المدينة وعدم الاستسلام حتى لو ناله منهم. وكان يقول لهم" واجبكم الدفاع عن المدينة وحمايتها حتى الموت من أجل نصرة المسيح"[1]. وعندما يأس الخوارزمية من الاستيلاء على المدينة فكوا الحصار عنها وأرسلوا حاكمها إلى سلطان مصر هدية له للتصرف فيه كيفما يشاء، فوضعه فى السجن[2]. وكان بعض التجار المصريين قد طلبوا من السلطان الصالح أيوب التخلص من كونت يافا انتقاما من الخسائر الفادحة التى تكبدوها بمعرفته عندما كان رجاله يقومون بالإغارة على القوافل التجارية المصرية المارة بالقرب من مدينة يافا ولكن الصالح أيوب لم يوافق على مطلبهم، فاضطروا فى إحدى الليالى إلى التسلل إلى السجن وقتلوه[3].

على أية حال، بعد انتصار الصالح أيوب فى معركة غزة عام ١٢٤٤م /٦٤٢هـ أراد إنزال العقاب بأمراء البيت الأيوبى الذين تحالفوا ضده مع الصليبيين والذين كانوا عاملا هاما من عوامل نشوب معركة غزة. فأرسل جيشا كبيرا استولى على ممتلكات الناصر داود صاحب الكرك فيما عدا الكرك والبلقاء وعجلون[4]. ثم أرسل حملة اخرى بقيادة معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على بهدف الاستيلاء على دمشق

---

(١) Jounville's Chronicle, p. 269, cf also: Michaud, op. cit., IV, p. 37, King, op. cit., p. 239, Besant, op. cit., p. 514, Setton, op. cit., II, p. 564.

(٢) Ibid.

(٣) Joinville's Chronicle, p. 269.

(٤) المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣١٨.

وقد استعان فى ذلك بالخوارزمية، وقد حققت الحملة هدفها واستولت على المدينة فى أكتوبر ١٢٤٥م جمادى الأول ٦٤٣هـ. وتم تعويض الصالح إسماعيل بإمارة بعلبك وبصرى والسواد، وقد ظن الخوارزمية بعد هذا الانتصار الذى حققه سلطان مصر بتأييدهم له بأنه سوف يسمح لهم بالاستقرار فى مدينة دمشق ويقاسمهم ملكيتها تكريما لهم للدور الكبير الذى قاموا به أثناء تعاونهم مع القوات المصرية منذ فرض الحصار على المدينة حتى استسلامها. ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة عندما رفض الصالح ايوب مطلبهم، بل قام بمنعهم من دخول دمشق، واكتفى باقطاعهم الساحل. ولذلك فقد غيروا سياستهم تجاه السلطان المصرى، واتفقوا على الخروج عن طاعته. فساروا إلى داريا، وهى إحدى القرى التابعة لدمشق ونهبوها. وكاتبوا ركن الدين ببرس وهو بغزة على رأس بعض القوات المصرية وحثوه على تكوين حلف بينهما ضد الصالح أيوب. ووعدوه بتزويجه واحدة منهم. فمال إليهم. وكاتبوا أيضا الناصر داود صاحب الكرك فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم[1]. وقد رأى الصالح إسماعيل من خلال تلك الظروف أن من مصلحته الاتصال بالخوارزمية والتحالف معهم لمساعدته فى إعادة دمشق إليه مرة ثانية. فكاتبهم وقدم إليهم بتطورات الأحداث، أراد أن ينتقم من ركن الدين

---

(١) المصدر السابق، ذات الصفحة، أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٣، ص١٨٢، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢٤، أنظر أيضا:

Prawer, op. cit., p. 314, Michaud, op. cit., IV, p. 38.

بيبرس لخيانته، فاستخدم الحيلة معه لاستدراجه إلى مصر وقام باعتقاله[1]. وكان الخوارزمية فى ذلك الوقت قد زحفوا ناحية دمشق، وحاصروها ثلاثة شهور وضيقوا على من فيها. فهلك كثير من الأهالى من الجوع والأوبئة. غير أن السلطان المصرى كان فى ذلك الوقت قد نجح فى استمالة الحلبيين إليه، وكذلك المنصور إبراهيم صاحب حمص. وتعهدوا إليه جميعا بمحاربة الخوارزمية وطردهم من البلاد[2]. وفى أوائل عام ١٢٤٦م-محرم ٦٤٤هـ وقعت المعركة الفاصلة بالقرب من حمص بين الطرفين: الملك المنصور صاحب حمص، وعسكر حلب من ناحية، وجموع الخوارزمية والصالح إسماعيل من ناحية أخرى. وانتهت المعركة بهزيمة الصالح إسماعيل هزيمة ساحقة، فضلا عن دمار معظم الخوارزمية حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة. وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان[3]. وتشتت شملهم. فانحاز البعض إلى المغول، والبعض الآخر

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ٣٥٠-٣٥١، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣٢٢، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ٣٢٤-٣٢٥. أنظر أيضا:

Streveson, op. cit., p. 324.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ، ص٣٥٣، سبط ابن الجوزى: المصدر السابق، جـ٨، ص٥٠٤؛ المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣٢٣.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ، ص٣٥٣، ٣٥٩؛ المقريزى: نفس الجزء والصفحة؛ ابن تغرى بردى: المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢٥؛ أبو الفدا: المصدر السابق، جـ٣، ص١٨٣ راجع أيضا:

Prawer, op. cit., p. 314, Setton, op. cit., II, p. 564.

استأجر نفسه عند الناصر داود صاحب الكرك. بينما ظل البعض الثالث يخدم كمرتزقة لدى المماليك فى مصر[1].

وابتهج العالم الإسلامى لما اصاب الخوارزمية من هزيمة ساحقة أدت إلى اختفائهم من مسرح الأحداث كقوة مستقلة بذاتها أخذت تعمل لصالحها الخاصة ردحا طويلا من الزمن على حساب باقى الدول الإسلامية الموجودة فى منطقة الشرق الأدنى.

وهكذا بعد أن استعاد الصالح أيوب دمشق اعترف الأيوبيون بالشام بسيادته على مصر والشام وبيت المقدس، واستعادت الدولة الأيوبية وحدتها وخيم الهدوء على المنطقة، وأضحى السلطان المصرى بوسعه أن يوجه جهوده بعد ذلك لمواجهة الفرنج[2]. الذين كانت أحوالهم فى ذلك الوقت تسير من سيىء إلى أسوأ، وأصبحوا فى حاجة إلى أن يقوم الغرب الأوربى بعمل إيجابى جديد يساعدهم على البقاء ولو إلى حين. وترتب على ذلك مجيىء الحملة الصليبية السابعة إلى الشرق بزعامة ملك فرنسا لويس التاسع.

---

(١) Setton, op. cit., II, p. 674, Lamb, op. cit., p. 282.

(٢) Runciman, op. cit., Loc. Cit.

بيان بالمختصرات

R.H.C.-H.Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

R.H.C.-Doc. Arm. Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens.

Cam. Med. Hist. Chambridge Medieveal History.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

أولا: المصادر:

Amadi, F., Chroniques d'Amadi et de Strambadi, ed. Mas Latrie, Paris, 1891.

Chronique de Terre Saint, Les Gestes des Chiprois, ed. R.H.C.-Doc. Arm., t. II, Paris, 1869, pp. 623-871.

Chronical of Melrose, cf. Church Historians of England, 1857, pp. 77-243.

Eracles, L'Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer. T. I, Paris, 1859 ed. R.H.C.H. Occ. T. pp. 1-418.

Historia Diplomatica Fridrici Secundi, ed by J.L.A. Huillard-Breholles, t. VI, part I, Paris, 1860.

Hayton, La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, ed. R.H.C. Doc. Arm., t. II, Paris, 1869, pp. 71-490.

Joinville' Chronicle, of the Crusade of St. Lewis, translated by Marzials, London, 1957.

Matthew Paris, Englih History, translated by J.A. Gilles, 2 vosl, London, 1889.

Michand, J., Bibloitheque des Croisades, 4 vols., London, 1852.

Rothelin, Continuation de Guillaume de tyr dite du Manuscrit de Rothelin (1229-1261) ed. R.H.C. – H. Occ., t. II, Paris, 189, pp. 489-639.

Besant., W., The History of Jerusalem, London, 1883.

Blochet, Les Relation Diplomatiques Hohenstaufen avec les Sultans d'Egypte, Cf. Revue Historique, V, 80, 1902 (pp. 541-69).

Brundage, J., The Crusades, A Documentary, Survey, U.S.A., 1976.

Conder, C., The Latin Kingdom of Jersualem, London, 1897.

Dowling, D., Gaza, a city of many Battles, New York, 1913.

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vol, Paris, 1948.

Humphrey, S., From Saladin to the Mongols, New York, 1977.

Iorga N., Histoire des Croisades, Paris, 1924.

King,., The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

Lamb, H., The Crusades, London, 1931.

La Monte, L., The Wold of the Middle Ages, New York, 1949.

Michaud, M., Histoire des Croisades, VII, vols., Paris, 1822.

Prawer, J., Histoire du Royaume Latin de Jerualem, 2 vols., Paris, 1975.

Military Orders and Crusader Politics in the Second half of XIII century", in Die Geitichen Ritterordn Europas, ed, Fleckenstein and Manfred Hellmann. (sigmaringen, 1980).

Richard, J., The Latin Kmigdom in Jerusalem, Oxford, 1979.

Riley, Smith., The Knights of St. John in Jerusalem and Chyprus (1050-1310), Edinburg, 1978.

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols. London, 1965.

Setton, K. (ed), A History of the Crusades, 3 vols. Philadelphia, 1958.

Smail, R., The Crusaders in Syria and the Holy Land, London, 1973.

Stevenson, W., The Crusaders in the East, London, 1907.
Cambridge Medieval History, 8 vols., London, 1911-1936.

ثانيا: المصادر والمراجع العربية

أولا: المصادر:

ابن الأثير (أبو الحسن أبى الكرم الملقب عز الدين):
الكامل فى التاريخ - ١٢ ج - القاهرة ١٨٨٢.
ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن):
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ٩ ج - القاهرة ١٩٤٢.
سبط ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين يوسف):
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان - ج٨ - شيكاغو ١٩٠٧.
ابن الوردى (أبو حفص الدين عمر):
تتمة المختصر فى أخبار البشر - ٢ ج - القاهرة ١٨٦٨.
ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم):
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب - الجزء الخامس، تحقيق د.حسنين محمد ربيع - القاهرة ١٩٧٧.
أبو شامة (عبد الرحمن إسماعيل بن عثمان بن شهاب الدين):
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين - تحقيق عزت العطار، القاهرة، ١٩٤٧.
أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل):
المختصر فى أخبار البشر - ٤ ج ، القاهرة ١٩٠٦.

الأصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد):

تاريخ دولة آل - سلجوق - القاهرة ١٩٠٠.

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود):

آثار البلاد واخبار العباد - جوتنبرج ١٨٦٨.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):

السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزء الأول والثانى إلى ٧٤١هـ-نشر وتعليق الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٥٧-١٩٧١.

النسوى (محمد بن أحمد بن على):

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى - نشر وتعليق حافظ حمدى - القاهرة ١٩٥٣.

ثانيا: المراجع:

حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول - القاهرة ١٩٤٩.

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)

الحركة الصليبية - ٢ ج - القاهرة ١٩٦٣.

محمد مرسى الشيخ (الدكتور):

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها - الإسكندرية ١٩٧٤.

البحث الرابع

ملكات بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى
(القرن السادس الهجرى)

ملكات بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى
(القرن السادس الهجرى)

اكتسبت المرأة بصفة عامة فى الغرب الأوروبى الوسيط خلال الخمسة قرون الأخيرة للإمبراطورية الرومانية حقوقاً وحريات عديدة لم تكن تتمتع بها من قبل. فنتج عن ذلك مساواتها تماماً بالرجل فى كثير من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والدينية. وقد زادت هذه الحقوق بشكل واضح بعد سقوط الجزء الغربى من الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م[١]. وكانت المرأة المنتمية إلى الطبقات الاقطاعية الشريفة فى المجتمع الغربى الوسيط تتمتع بمكانة كبيرة يفتقدها غيرها من باقى الطبقات الاجتماعية الأدنى منها، فلم تقتصر سلطاتها على نطاق أسرتها فى بيتها كزوجة وأم وإنما كانت نائبه عن زوجها فى كل شىء أثناء غيابه. وأخذت المرأة بمرور الزمن تكتسب حقوقاً وحريات أخرى عديدة زادت من مكانتها[٢].

ولم تكن المرأة التى تعيش داخل الإمارات الصليبية والمدن فى

---

(١) Frances and Joseph, Women in the Middle Ages, pp. 13, 15.

ولمزيد من التفصيلات عن الحقوق العديدة التى اكتسبتها المرأة انظر:

The Burgandian Cod, translated from the original by Catherin fisher, pp. 72-73, Laws of Canut, cf. English Historical Document, Deworiginal by ing, V, pp. 29, Rrocopius, history of the wars, translated from the Dewing, V, pp. 15-16.

(٢) Eleen Power, Medieval Women, p. 35.

مملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (القرنان السادس والسابع من الهجرة) أقل شأناً مما اكتسبته مثيلاتها في الغرب الأوروبى، وإنما تمتعت بنفس الحقوق والحريات. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه بعد أن نجح الفرنج فى تأسيس الإمارات اللاتينية الثلاث، الرها، وإنطاكية، وطرابلس إلى جانب مملكة بيت المقدس، عملوا على نقل النظام الغربى كاملاً إلى كافة المستعمرات الصليبية فى الأراضى المقدسة، مع إدخال بعض التعديلات فى خصائصه الغربية ليتمشى مع الوضع القائم فى الشرق، فكان المجتمع الاقطاعى أشبه فى بنائه شكلاً هرمياً رأسه الملك والملكة وتحت ذلك طبقة الإشراف ويليهم صغارهم ثم يلى هؤلاء من هم أصغر منهم وهكذا[1].

وجدير بالذكر أن قوانين مملكة بيت المقدس قد حافظت على مشاعر المرأة وعواطفها وعدم التعرض إلى الانحراف فى طريق الفسق والفساد. ويتضح ذلك عندما أكدت تلك القوانين على ضرورة حصول الزوج على موافقة زوجته قبل خروجه للاشتراك فى الحملات الصليبية. وكان الأزواج يلتزمون بآراء زوجاتهم ويحترمون رغباتهن[2].

---

(١) كوبلاند: الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا - ترجمة محمد مصطفى زيادة، ص٤٨٥، إبراهيم طرخان: النظم الاقطاعية فى الشرق الوسط فى العصور الوسطى، ص ٤٧-٤٨.

(٢) Brundage, The Crusader's wife: A Canonistic Quandary, CF. Studia Cratiana, t. 12, pp. 430-431.

لقد لعبت المرأة فى مملكة بيت المقدس من خلال النظام الاقطاعى المطبق بها دوراً هاماً فى تاريخ الإمارات والمدن الصليبية. ولعل الحديث عن ملكات بيت المقدس يعتبر أحسن توثيق لدور المرأة فى الشرق اللاتينى فى عصر الحروب الصليبية، ونقطة بداية واضحة لأى دراسة تتعلق بدور المرأة المنتمية إلى الطبقات الشريفة هناك.

وإذا كانت المصادر والمراجع، الغربية والشرقية، قد تحدثت من بعيد أو قريب عن أحوال ملكات بيت المقدس، فإن المصادر العربية سكتت تماماً عن ذكر أى شيىء عنهن. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى الصدمة الكبيرة التى أصابت العالم العربى الإسلامى حينذاك نتيجة للوجود الصليبى فى المنطقة فضلاً عما لمسه العرب المسلمون من الحرية الاجتماعية الكبيرة التى كانت تتمتع بها المرأة الغربية، بعكس الأوضاع التى كانت سائدة فى شتى أرجاء العالم الإسلامى.

مهما كان الأمر، عندما تكونت المملكة اللاتينية فى الشرق وتولى حكمها الملك جودفرى (١٠٩٩-١١٠٠م-٤٩٢-٤٩٣هـ)، لم تحمل المرأة لقب الملكة لقصر مدة حكم هذا الملك، ولعدم زواجه. ولذلك لم يظهر دورها فى التاريخ إلا اعتباراً من حكم أخيه بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م-٤٩٣-٥١٣هـ)[1]. الذى كان متزوجاً منذ عام ١٠٩٨م/٤٩١هـ عندما كان حاكماً لإمارة الرها الصليبية، من الأميرة أردا Arda الوريثة الوحيدة لعرش أبيها ثوروس حاكم

---

(١) Albert d'Aix, Historia Hierosolimitana. Cf, R.H.C.-H,occ. IV, p.358.

أرمينيا[١]. ويرى بعض المؤرخين الحديثين أن هذا الزواج لم يكن المقصود منه سوى خدمة أغراض بلدوين السياسية، حتى يضمن الولاء التام له من جانب الأرمن الذين تغلغلوا آنذاك فى إمارة الرها، وحتى ينجح فى ضم العنصرين الصليبى والأرمنى معاً فى وحدة واحدة يضمن بها استقرار الأمور فى إمارته[٢].

وبعد أن علم بلدوين الأول بوفاة أخيه جود فرى عام ١١٠٠م/٤٩٣هـ أسرع بمغادرة إمارته متجهاً ناحية بيت المقدس، تاركاً زوجته أردا فى إنطاكية لانتظار نقلها على إحدى السفن واللحاق به، حتى تكون فى حراسة بحرية قوية تحفظها من اى اعتداء عليها من جانب السفن الإسلامية، خاصة وأن معظم مدن الساحل الشادى كانت فى ذلك الوقت لاتزال فى قبضة المسلمين[٣]. وفى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ وصلت أردا إلى يافا فى حراسة الأسطول الجنوبى حيث كان زوجها الملك بلدوين هناك يراقب تحركات المصريين الموجودين بالقرب من مدينة الرملة بهدف استعادتها من الفرنجة، ثم التوجه ناحية بيت المقدس. وعلى ذلك فقد عاصرت أردا، وهى بمدينة يافا، استعدادات الصليبيين

---

(١) Du Cange, Les Famille d'outre-mer,ed Rey, E.G., p. 11, Wiliam of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, I, pp. 415-416. Cf also

(٢) Grousset, Historie des Croisades, I, P. 297, Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 4.

(٣) Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 402, Guibert of Nogent, Geata Dei per francos, cf. R.H.C.-H. Occ., IV, P. 259.

لخوض معركة الرملة الأولى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ والتى دارت رحاها فى السهل الواقع جنوب غربى مدينة الرملة[1]. وكان لها موقف مشهود عقب انتصار الصليبيين فى هذه المعركة، فعندما بلغت الإشاعة التى روجها المصريون بانتصارهم وتدميرهم للجيش الصليبى واغتيال بلدوين، دعت الملكة أردا فى الحال إلى عقد اجتماع يضم بارونات مدينة يافا وأهلها وقرروا الكتابة إلى تنكريد صاحب إنطاكية يطلبون منه إمدادهم بالمساعدات اللازمة[2]. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى إخلاص الملكة التام وحبها لزوجها ولشعبها فى الأزمة العصيبة التى مرت بهم.

وقد استمر زواج الملكة أردا من بلدوين ما يقرب من سبع سنوات فكر الملك بعدها فى الانفصال عنها فأجبرها على الانخراط فى سلك الرهبنة فى دير القديسة آن Saint Anne الكائن فى الجزء الجنوبى الشرقى لبيت المقدس. وعلشت به رغم أنفها لعدة سنوات. ونظراً لعدم قدرتها على تحمل هذه الحياة، فقد انتهزت فرصة التقرب إلى الملك بلدوين وطلبت منه السماح لها بالسفر إلى القسطنطينية لزيارة بعض

---

(١) لمزيد من المعلومات عن حملة الرملة الأولى أنظر: اسامة زيد "حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل (١١٠١-١١٠٥م-٤٩٥-٤٩٩هـ"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٢٩ لسنة ١٩٨١، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) Flucher of Chartre, A History of the Expedition to Jerusalem, pp. 162-63.

أقاربها الموجودين هناك. وعندما وافق الملك على طلبها فسافرت ولم تعد، وهجرت بعد ذلك حياة الرهبنة واتخذت من القسطنطينية ملجأ وملاذاً لها[1]. وطبقاً لما رواه المؤرخ اللاتينى وليم الصورى فإنها عاشت بالقسطنطينية حياتها الخاصة دون النظر إلى سمعتها أو كرامتها الملكية التى كانت تتمتع بها من قبل[2]. وهذا القول مشكوك فيه، خاصة أن الملك بلدوين قد أنبه ضميره فيما بعد وعزم على أن يعيدها إليه وفق ما سيتضح فيما بعد.

والواقع هناك العديد من الأسباب التى قيلت فى شان انفصال الملك بلدوين عن زوجته أردا. فقد أرجع البعض سبب هذا إلى رغبة الملك فى الزواج من امرأة أخرى أكثر ثراءاً لمواجهة العجز المالى الذى تعانى منه المملكة اللاتينية فى ذلك الوقت[3]. بينما ذكر المؤرخ اللاتينى جيبرت أوف نوجنت **Guibert of Nogent** المعاصر لإحداث هذه الفترة من الزمن ان انفصالهما قد تم نتيجة لحادثة الاغتصاب التى تعرضت لها الملكة آردا من جانب بعض البحارة أثناء رحلتها من إنطاكية إلى يافا عام ١١٠١م/٤٩٤هـ للحاق بزوجها الملك بلدوين[4]. ولكن المؤرخ وليم الصورى كان أكثر حرصاً فى اتهامه للملكة، عندما اكتفى

---

(١) DU Cange, op. cit., Loc. Cit, Cf also: Grousset, op. cit., Loc. Cit, Runciman, History of the Crusades, II, p. 102.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 461.

(٣) Grousset, op. cit., Loc. Cit., Richard, op. cit., Loc. Cit.

(٤) Guibert of Nogent, op. cit., Loc. Cit.

بنقل آراء الناس فى سبب الانفصال دون إبـداء رأيـه، فذكـر أن بعضـهم أرجع هذا إلى الشك فى إخلاص الملكة لزوجها، بينما رأى البعض الآخر أن السبب يرجع إلى رغبة الملك فى الاستفادة من زواج آخر[1]. أما المـؤرخ فوشيه أوف شارتر فقد سكت تماماً عن ذكـر أى رأى فـى هـذا الموضـوع، رغم أنه المؤرخ الوحيد الذى يمكن أن يكون لديه المعلومات الكاملـة عنـه بصفته القس الخاص للملك بلدوين.

ومهما كانت الآراء، وطالمـا انـه لاتوجـد أدلـة قاطعـة علـى عـدم إخلاص الملكة، فإننا نستبعد عامل الخيانة كسبب للانفصال كما نستبعد أيضاً عامل حادثة الاغتصاب التى أشار إليـها المـؤرخ وليـم أوف نوجنـت وإلا ما كان زواج الملك بلدوين بها قـد اسـتمر سـبع سـنوات خاصـة وأن الملك بلدوين قد فكر فى أواخر أيامه أن يعيد زوجته إليه مرة أخـرى[2]. وفى رأينا أن الدوافع التى دفعت بلدوين علـى الانفصـال كـانت سياسـية أكثر منها أخلاقية. فإذا كان زواجه من أردا قد حقق له مزايـا ومكاسـب مادية وسياسية عندما كان حاكماً على إمارة الرهـا، فـأصبح هـذا الـزواج غير ذى نفـع بعـد أن أصبـح ملكـاً علـى بيـت المقـدس. ولم يعـد العنصـر الأرمنى يشكل له أى قلق أو خطورة على امتداد مملكة بيت المقدس. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه لم يتسلم من ثـوروس، والـد زوجتـه باقى المبلغ الذى وعد بدفعه له عند بداية زواجه ويقدر بثلاث وخمسـين

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 462.

(٢) Ibid., p. 513.

الف بيزنط[1]. فربما يكون هذا باعثاً لكى يفكر الملك فى الاقتران بزوجة أخرى أكثر ثراءاً ليضمن له ميراثاً كبيراً يساعده فى الإنفاق على مملكته، ورفع الأعباء المالية الملقاه على عاتقها فى ذلك الوقت. وربما يكون عدم إنجاب الملك ابناً من أردا قد أدى إلى انفصالهما والتفكير فى زواج آخر يأتى معه وريث للمملكة اللاتينية.

وظلت مملكة بيت المقدس بدون ملكة لبضع سنوات. فلم تظهر تلك الزوجة الغنية التى كان يتطلع إليها بلدوين إلا فى أواخر عام ١١١٢م/٥٠٦هـ عندما إغراه أرنولف **Arnulf** بطريرك بيت المقدس للزواج من أدليد **Adelaid** كونتيسة صقلية، وأرملة حاكمها روجر الأول[2]. ولما كان الملك ملماً بتطورات الأزمة المالية التى تمر بها المملكة، وعلى علم بكثرة الديون المتراكمة عليها رغم كثرة الصفقات التجارية

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., p. 361, Mattew d'Edesse, Extraits de la Chronique de Mattew d'Edesse. Cf. R.H.C.-Doc. Arm, I, p. 25.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., I, P. 489.

تزوجت أدليد من روجر الأول حاكم صقلية عام ١٠٨٩م واستمرت معه حتى وفاته عام ١١٠١م، وانجبت منه ولدين، سيمون عام ١٠٩٣م، وروجر عام ١٠٩٥م ولما مات الابن الأكبر فى الثانية عشر من عمره انفردت الأم الأرملة بحكم صقلية كوصية على ابنها روجر الثانى حتى يبلغ السن القانونى لتولى أعباء الحكم بالجزيرة. أنظر:

Norwich, The Normans in the South, pp. 281-282, Haskins, The Normans in European History, p. 210, Curtis, Roger of sicily, p. 100.

التى عقدتها المملكة فى ذلك الوقت مع تجار الجمهوريات الإيطالية. هذا فى الوقت الذى كانت تتمتع فيه أدليد بثروات طائلة، وكانت مملكتها تمثل أحد المراكز التجارية الرئيسية بين أوروبا والشرق الأدنى فقد وافق على اقتراح البطريرك بدون تردد خاصة بعد أن أدرك ما يمكن أن تقدمه له البحرية الصقلية، والتى كانت تمثل قوة كبيرة فى حوض البحر المتوسط، من مساعدات فى تثبيت وتقوية مركز مملكة بيت المقدس بين الدول الإسلامية والمسيحية المجاورة لها[1].

فأرسل بلدوين سفارة خاصة إلى صقلية لطلب الزواج من أدليد، وكان أعضاء السفارة يحملون معهم تفويضا من الملك بالموافقة على كل الشروط التى يضعها البلاط الصقلى فى سبيل اتمام الزواج[2]. وقد أدركت أدليد بثاقب نظرها أنه كما أن الملك يريد الاستفادة من وراء زواجه منها فعليها أيضا أن تبحث بدورها عما يفيدها وينفع ابنها من بعدها. ولذا فقد اشترطت على الملك بلدوين أن يؤول عرش المملكة اللاتينية بعد وفاته إلى ابنها روجر الثانى حاكم صقلية إذا لم يثمر زواجها منه بإنجاب وريث للمملكة[3]. ولعل أدليد عندما وضعت هذا الشرط كانت تعلم أن ليس هناك أمل فى الإنجاب لتقدمها فى

---

(١) Norwich, op. cit., I, p. 496, Cf also: Norwich, op. cit., p. 287.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 496, Cf also: Norwich, op. cit., p. 287-300.

(٣) Idem, Richard, op. cit., p. 4, Grousset, op. cit., I, p. 300, Curtis, op. cit., 111.

السن[1] وبعد أن وافق الملك على هذا الشرط استعدت أدليد للسفر إليه لإتمام الزواج. وفى أغسطس عام ١١١٣م /ربيع أول ٥٠٧هـ وصلت العروس إلى عكا. وقد زودنا المؤرخون المعاصرون لهذه الفترة الزمنية بصورة واضحة تدل على مدى الثراء الفاحش الذى كانت تتمتع به صقلية بصفة عامة وأدليد بصفة خاصة فى ذلك الوقت، ويتضح ذلك فى وصف رحلة خروج أدليد من صقلية إلى عكا حيث كانت السفينة التى تنقلها مفروشة ببساط منسوج من خيوط الذهب، بينما كان سارية السفينة مغطاه برقائق من الذهب والفضة. وكانت تتبعها سفينتان كبيرتان مزينتان بالذهب والفضة وتحمل كل منهما خمسمائة من صفوة المحاربين لحماية سفينة الكونتيسه من قراصنة البحار، وكان كل مقاتل يحمل درعاً من الذهب اللامع . هذا، فضلاً عن وجود سبع سفن صغيرة أخرى محملة بكميات هائلة من الكنوز والأموال بجانب المؤن من حبوب ونبيذ وزيت ولحوم[2] فكان هذا الموكب على حد قول الكاتب الإنجليزى رانيسمان مهيب جداً بدرجة لم يشهده البحر المتوسط منذ أن أبحرت كليوباترا إلى نهر البردان لمقابلة مارك انطونيو[3]. وعندما وصل الموكب إلى عكا كان الملك بلدوين قد أعد الترتيبات اللازمة لاستقبال عروسه، فكان موجوداً على رأس كل أمراء المملكة وأعضاء البلاط الملكى،

---

(١) Runciman, op. cit., II, p. 102.

(٢) Albert d'Aix, op. cit., pp. 696-697, Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 497.

(٣) Runciman, op. cit., Loc. Cit.

ومحاطاً بكل مظاهر الأبهة والعظمة الملكية. فكانت صفوف الخياله تقف خلفه والفرق الموسيقية تعزف على كل أنـواع الآلات الموسيقية، وكـانت السجاجيد مفروشة فى الشوارع والإعلام ترفرف مـن الشـرفات، وكـانت كل القرى والمدن بطول الطريق الطويل الموصـل مـن عكـا إلى بيـت المقـدس مبـهرة بالزينـات[١]. وبعـد عـدة أيـام تم الـزواج، وانتعشـت المملكـة اللاتينية كثيراً بهذا الزواج والتقارب بين بيت المقدس وصقليـة. فتمكـن الملك من صرف مرتبـات أفـراد الجيـش التـى لم تصـرف لهـم منـذ عـدة شهور. كما كافأ كثيراً من البارونات والفرسان على الجهود التى بذلوها من أجل تثبيت نفوذ المملكة اللاتينية، وعوض الكثير منهم عن أراضيهم التى استردها منهم المسـلمين، كمـا تمكـن بلدويـن مـن سـداد كثـير مـن الديـون المتراكمــة علــى المملكــة. كذلـك أقـام العديـد مــن الحصــون والاستحكامات[٢].وعلى ذلك حلت أموال الكونتيسـة كثـيراً مـن المشـاكل المالية التى كـانت تعـانى منـها مملكـة بيـت المقـدس. ولكـن كـان لعـدم إنجابها الوريث الشرعى المطلوب للملكة اللاتينية أكبر الأثر فى تـهديد حياتها الزوجية. وأصبـح الأمـل كبـيراً فـى أن يـؤول عـرش المملكـة إلى كونت صقلية، فأدى هـذا إلى غـيرة وحمـاس بارونـات المملكـة للإطاحـة بهذا الزواج، فهاجموه ووجهوا الاتهام إلى البطريرك أرنولـف بالتسـتر على زواج الملك بلدوين من أدليد رغم علمه التـام بـأن زوجتـه الأولى أردا

---

(١) Albert d'Aix, op. cit., pp. 697-698.

(٢) Norwich, op. cit., p. 288, Runciman, op. II, p. 103.

مازالت على قيد الحياة بالقسطنطينية. فأرسلوا العديد من الشكاوى إلى البابا بسكال الثانى (١٠٩٩-١١١٨م/٤٩٢-١٣هـ) فى روما[١]. ولذلك وصل المندوب البابوى برنجار Brengar إلى بيت المقدس، واجتمع برؤساء الأديره وأعلنهم قرار البابا بعزل أرنولف من منصبه[٢]. فاضطر الأخير إلى الذهاب إلى روما واستخدم كل الطرق لاقناع البابا والكرادلة ببراءته حتى تعاطفوا معه ووافق البابا فى النهاية على إعادته إلى منصبة مرة أخرى، وصدر القرار البابوى بذلك فى يوليو ١١١٦م/ربيع أول ٥١٠هـ[٣]. واشترط البابا على البطريرك ضرورة العمل من أجل انفصال الملكة أدليد عن بلدوين وإعادتها إلى صقلية[٤]. وحاول البطريرك إقناع الملك لفسخ الزواج من أدليد، ولكنه تردد كثيراً فى اتخاذ مثل هذا القرار رغم علمه التام بأنه قد انتهى من الاستفادة من كل أموالها. ولعل ذلك التردد مرجعه أنه لم يرغب أن يفقد مزايا التحالف مع صقلية، والتى عادت على المملكة بالنفع الكبير فى تثبيت نفوذها داخل الإمارات الصليبية وبين جيرانها المجاورين لها. ولذلك قاوم إلحاح البطريرك فى هذا الشأن، حتى أنه أصيب بمرض خطير فى مارس ١١١٧م/ ذى القعدة ٥١٠هـ، وشعر بدنو أجله وبتأنيب ضميره لما ارتكبه فى حق زوجته

---

(١) Norwich, op. cit., Loc. Cit., Runciman, op. cit., II, p. 104, Crousset, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Fulcher of chartre, op. cit., p. 215.

(٣) Ibid., Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 499.

(٤) Albert d'Aix, op. cit., p. 704, du Cange, op. cit., p. 12.

الأولى أردا وانفصاله عنها. فانتهز البطريرك وباقى رجال الدين فى المملكة هذه الفرصة واقنعوا الملك بضرورة الانفصال عن الملكة أدليد واستدعاء زوجته الأولى أردا ليكفر بذلك عن خطيئته التى ارتكبها فى حق تعاليم الكنيسة عندما تزوج للمرة الثانية ومازالت زوجته السابقة على قيد الحياة. فوافق الملك، واستدعى الملكة وأخبرها بقرار انفصاله عنها وطلب منها العودة إلى صقلية[1]. وفى إبريل عام ١١١٧م/ ذى الحجة ٥١٠هـ أبحرت أدليد من عكا إلى صقلية وهى تحمل معها كراهية شديدة ضد المملكة اللاتينية وشعبها[2]. وللمعاملة السيئة التى لاقتها والإهانة البالغة التى لحقت بها عندما فسخ زواجها بمعرفة الكنيسة اللاتينية فى عكا[3] وقد وافتها المنية فى إبريل من العام التالى بعد وفاة زوجها بلدوين بأسبوعين[4].

وجدير بالذكر، أن روجر لم يغفر على الإطلاق الإهانة التى لاقتها أمه أو التغاضى عن حقوقه فى توليه عرش مملكة بيت المقدس طبقاً لشروط إتمام الزواج السابق الإفصاح عنها. وقد أوضح المؤرخ وليم الصورى أن صقلية ظلت دون باقى ملوك الغرب الأوروبى لا تقدم المساعدات إلى مملكة بيت المقدس[5].

---

(١) Fulcher of chartre, op. cit., pp. 217-218.

(٢) Ibid., p. 218, Wiliam of Tyre, op. cit., I. P. 513, Cf also: Grousset, op. cit. I, p. 303, Curtis, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 704.

(٤) Fulcher of Charte, op. cit., p. 224.

(٥) Albert d'Aix, op. cit.,m Loc. Cit., Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. 506.

عندما مات بلدوين الأول لم يكن هناك من يتولى أمر مملكة بيت المقدس، خاصة وأنه لم يعجل قبل وفاته بإرجاع زوجته الأولى بعد رحيل أدليد إلى صقلية. وخلفه فى الحكم ابن عمه بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م/٥١٣-٥٢٦هـ) حاكم إمارة الرها. وكان متزوجاً منذ عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ من سيدة أرمينية الموطن اسمها مورفيا Morphia ابنه جبريل صاحب مالاتيا، وهى العاصمة الثانية لارمينيا، Gabriel of Malatia. وقد انجبا أربع بنات أكبرهن ميليسند Melisend ثم اليس Alic، ثم هوديرنا Hodierna والأخيرة يفيتا Yveta[1]. وقد تم تتويج بلدوين الثانى وزوجته مورفيا ملكان على بيت المقدس فى ديسمبر ١١١٩م/ رمضان ٥٠١٣هـ[2].

وجدير بالذكر، أن الملك بلدوين لم يتح الفرصة لورفيا فى مشاركته فى إصدار القرارات المتعلقة بالملكة، ولكن هذا لا يعنى أنها غير جديرة بذلك، لأن الأحداث التاريخية أثبتت قدرتها الفائقة فى تحمل مسئوليات كثير من الشئون السياسية الخطيرة المتعلقة بأمن الملكة. ولعل ذلك يتضح عندما خرج الملك على رأس قواته لتخليص جوسلين أوف كورتناى صاحب الرها من أسره لدى المسلمين. ولكن شاءت الظروف أن يقع الملك هو الآخر أسيراً فى أيدى

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., I, p. du Cange, op. cit., 13, Grousset, op. cit., I, p. 536.

(٢) Fulcher of Chartre, op. cit., p. 252.

المسلمين[1]. وقد ساد الحزن أنحاء المملكة. وأصبح الأمر يشكل خطورة كبيرة. ويحتاج إلى عقل حكيم مدبر يعمل على استقرار الأمور داخل المملكة حتى يتم تعيين نائب عن الملك أثناء غيابه فى الأسر. فكان ذلك العقل متمثلاً فى الملكة مورفيا فسرعان ما أعدت الترتيبات اللازمة من أجل محاولة إطلاق سراح زوجها. فاتفقت على استئجار كثير من الأرمن المنتمين إليها والذين يدينون لها بالطاعة، ودبرت لهم خطة للتنكر فى شكل الأتراك ثم التسلل إلى المعسكر المسجون فيه زوجها الملك لمساعدته على الهرب[2]. وعندما فشلت هذه الخطة اضطرت الملكة إلى السفر شمال سوريا وفى صحبتها ابنتها الصغرى يفيتا وسلمتها إلى المسلمين لتكون رهينة لديهم حتى تم دفع الفدية المفروضة على الملك بلدوين لفك أسره. وبالفعل تم إطلاق سراحه فى عام ١١٢٤م/١٨هـ[3].

وجدير بالذكر أن المصادر الشرقية والغربية المعاصرة لهذه الفترة الزمنية والمتأخرة عنها زمنياً، قد ضنت علينا بالمعلومات المتعلقة بالدور الذى قامت به الملكة مورفيا فى تاريخ المملكة اللاتينية، فلم تتعرض إلا لتلك الشذرات السابق ذكرها والتى لا تشفى غليل أى باحث متشوق لمعرفة الكثير عن أحداث تلك الفترة الزمنية. ولعل ذلك يرجع إلى

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن وقوع الملك بلدوين الثانى فى السر أنظر:

Ibid., pp. 252-255, Mattew d'Edess, op. cit., I, p. 133, Annonimous, Li Estoire de Jerusalem et d'Antioche, CF.R.C.-H.Occ., V, p. 647.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., I, pp. 538-39.

(٣) Fulcher of Chartre, op. cit., p. 232, Mattew d'Edesse, op. cit., p. 139.

اهتمام المؤرخين الكبير فى تأريخ الفترة الملكية التالية لها لما تضمنتها من أحداث كثيرة ومثيرة عاصرت حكم ملكة من أقوى وأشهر ملكات بيت المقدس وهى ابنتها مليسند.

احتلت مليسند مكانة كبيرة فى مملكة بيت المقدس، خاصة بعد أن أعلن والدها بلدوين الثانى قبل وفاته أحقيتها فى وراثة عرش المملكة من بعده بصفتها كبرى بناته. ولذلك كانت تشارك أباها فى كثير من شئون المملكة، خاصة فيما يتعلق بإصدار الوثائق الرسمية. وقد أفادها ذلك كثيراً، وأكسبها خبرة ودراية بشئون الحكم عندما اعتلت عرش المملكة بعد وفاته. ومن بين الوثائق التى اشتركت فى إصدارها تلك الوثيقة الصادرة فى مارس ١١٢٩م/ ربيع أول ٥٢٣هـ والمتعلقة ببعض الهبات التى منحها الملك لصالح القبر المقدس. فكانت مليسند شاهدة عيان، بل جاء اسمها وتوقيعها فى مقدمة اسماء رجال الدين الذين شهدوا على الوثيقة[١]. ولم يكتف بلدوين بذكر اسم ابنته فحسب وإنما أثبت بجواره لقب "وريثة ملك بيت المقدس". فكان ذلك تأكيداً لما سبق أن أعلنه فى أحقيتها فى وراثة العرش[٢].

ولما كان بلدوين الثانى قلقاً على مسألة العرش، فقد رأى ضرورة

---

(١) Mayer, Studies in the History of Queen Melisend of Jerusalem. Cf. Dumbarton Oaks Papers, 26, p. 99.

(٢) Marsy, Fragment d'un Cartulaire de l'ordre de St. Lazare en Terre Saint, Cf. A. O. L., 2, p. 128.

ترتيب أمر زواج ابنته مليسند فبعد أن استشار باروناته أرسل وفداً منهم برياسة الكند سطبل وليم دى بور Wiliam de Bur إلى فرنسا يطلب من ملكها لويس السادس أن يختار من بين نبلائه رجلاً يصلح للزواج من مليسند ويكون له القدرة على تحمل مسئولية عرش المملكة اللاتينية فيما بعد. فوقع الاختيار على فولك كونت انجو(١). ولما عرض بلدوين الثانى الأمر على باروناته لم يعترض أحد على اقتران ابنته بالكونت فولك. ولذا سرعان ما أعلن موافقته عليه، وتم الزواج فى مايو ١١٢٩م جمادى الأول ٥٢٤هـ ووهب الملك العريسين اقطاع أكبر مدينتين من المدن الساحلية هما صور وعكا ليتمتعان بهما طوال حياته(٢).

ويذكر الكاتب الإنجليزى هانز ماير أن بلدوين كان قد وعد فولك انجو بأن يخلفه فى الحكم بعد إتمام زواجه من ابنته بشرط أن تكون مليسند هى الزوجة والملكة الوحيدة لملكة بيت المقدس ولكن عندما سقط الملك صريع مرض خطير فى أغسطس ١١٣١م/شعبان ٥٢٥هـ دعا إليه ابنته مليسند وزوجها وبطريرك بيت المقدس وعدداً من رجال الدين والنبلاء وأعلن صراحة أمامهم بأنه عدل عن رأيه وعن الاتفاقية التى كان قد عقدها مع فولك انجو ليخلفه وحده فى الحكم، وضم مليسند وطفلها الرضيع بلدوين الثالث إليه ليكون ثلاثتهم ورثة متحدين فى مباشرة

---

(١) Du Cange op. cit., p. 16, Cf. also: Grousset, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 50, Cf. also, Grousset, op. cit., Loc. Cit.

أمور الحكم فى المملكة وقد علل الكاتب ذلك بخوف بلدوين الثانى من أن يتنكر فولك بعد وفاته لزوجته ويعمل على نقل وراثة العرش لأحد أولاده من زوجته الأولى[1].

وأننا نشك فى صحة هذه الرواية لمخالفتها ما اعتاد عليه الملك بلدوين فى مشاركة مليسند له فى إدارة كثير من شئون المملكة[2] فلم يكن فى نية الملك على الإطلاق إبعاد مليسند عن الحكم بل إن تصميمه على إشراكها مع زوجها فى إجراءات تقديم الهبه الجديدة التى وهبها إلى كنيسة القبر المقدس عام ١١٣٠-١١٣١م/٥٢٥-٥٢٦هـ لدليل يثبت أن بلدوين قد عامل مليسند وفولك منذ زواجهما على أنهما مشتركان معا فى وراثة عرش مملكة بيت المقدس. وعلى ذلك يمكن القول بأن وراثة الحكم قد تأكدت لها ولابنها بلدوين الثالث قبل وفاة أبيها فى أغسطس ١١٣١م/ شعبان ٥٢٥هـ.

وفى سبتمبر من نفس العام (رمضان ٥٢٥هـ) تم الاحتفال بتتويج مليسند وفولك ملكين على عرش المملكة[3].

وظلت الملكة مليسند خلال الخمس سنوات الأولى من حكمها لا تشارك زوجها الملك فولك فى تدبير أمور المملكة، ولا تملك النفوذ الذى كانت تتمتع به من قبل فى حياة أبيها. وإذا كان السبب الذى أدى إلى

---

(١) Mayer, op. cit., pp. 99-100.101.

(٢) أنظر ما سبق، ص ٩.

(٣) Wiliam of Tyre. II, p. 50 cf also: Crousset, op. cit., II, p. 5.

ذلك الوضع غير معروف، فإننا نرى ان سلوك الملكة خلال هذه الفترة وفقاً لرواية الكاتب الإنجليزى ماير كانت عاملاً هاماً فى تقلص سلطاتها أمام زوجها الملك. فلم تكن الملكة تهتم بزوجها رغم الحب الذى كان يكنه لها. هذا، فى الوقت الذى أظهرت فيه عطفاً وصداقتها تجاه ابن عم والدها الكونت هيو **Hugh** سيد يافا الذى كان يتصف بالأناقة والرشاقة. فأشعل ذلك الوضع نار الغيرة فى قلب فولك، خاصة عندما استغل أعداء هيو هذه الفرصة وزادوا من إشعال نيران الفتنة والشك بينه وبين الملك، حتى انتهى الأمر بعصيان هيو وتمرده على الملك فنتج عن هذا انقسام المملكة إلى حزبين متنافسين: أحدهما يؤيد الملك فولك، والآخر تحالف مع الكونت هيو. وقد ازداد الأمر سوءاً فى صيف ١١٣٢م/٥٢٦هـ عندما وجهت إلى هيو تهمة التآمر على حياة الملك[١]. ولكن العداء بين الطرفين لم يدم طويلاً. إذ تدخل وليم بطريرك بيت المقدس للصلح بينهما، ونجح فى ذلك بعد أن حصل من الملك على شروط ميسره للصلح انتهت بنفى المتمردين وعلى رأسهم هيو لمدة ثلاث سنوات يمكنهم بعدها استرداد اقطاعاتهم وأموالهم. ولم يكن العقاب صارماً بل متضمناً مجاملة كبيرة للملكة بصفتها صديقة للكونت هيو. وقد حرص الملك على تهدئة الأمور خشية ما ينجم عن الحرب الأهلية من أخطار تطيح بالمملكة اللاتينية، خاصة وأن المسلمين كانوا يتربصون لمثل هذه الفتن الداخلية لينقضوا على المملكة ويستعيدوا ما

---

(١) Mayer, op. cit., p. 102.

فقدوه من قبل فى فترة ضعفهم وتمزقهم[1].

وكانت الملكة مليسند مستاءة للمعاملة القاسية التى لاقاها الكونت هيو فى منفاه، ومن تشكك زوجها فى شرفها وكرامتها. ولذلك لم تكن العلاقات طيبة بين الطرفين. واستمرت هذه الحالة مدة طويلة حتى تم الصلح بينهما عام ١١٣٦م/٥٣١هـ. وعادت مليسند من جديد تمارس سلطاتها كملكة تشارك فولك فى إدارة شئون المملكة، وإصدار الوثائق الرسمية المتعلقة بالمملكة. ووصل نفوذها إلى درجة جعلت الملك فولك يخضع لها ولا يبت فى أى أمر مهما صغر شأنه دون مشورتها[2]. حتى أصبحت مليسند فى السنوات الأخيرة من حياة الملك فولك هى الحاكمة والمسيطرة على كل أمور المملكة[3]، وذلك بعد ان فشل زوجها فى اجتذاب الجانب الأكبر من نبلاء المملكة إلى جانبه.

وكانت مليسند تتصف بالورع والتقوى، كما اهتمت بالشئون الدينية وخاصة الهبات الكثيرة التى كانت تمنحها للمؤسسات

---

(١) Wiliam of Tyre, II, pp. 70-76, Cf also Mayer, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., Loc. Cit. Cf also: Mayer, op. cit., p. 104.

وتعتبر أول وثيقة شاركت فيها هى المتعلقة بالهبة التى منحها بيت جبلين Bethgibelin إلى الاسبتارية عام ١١٣٦م أنظر:

Delaville le Roulx, Cartulaire General de l'order des Hospitaliers de St. Jean de Jerusalem, I, p. 116.

(٣) A.O.L., II, p. 124.

الدينية[1]. فتبنت فكرة بناء أحد الأديرة ليكون مقرا لعبادة المراة داخل المملكة اللاتينية. وقد رغبت بهذا العمل التكفير عن خطاياها وخطايا والديه وزوجها[2]. هذا، وإن كان المؤرخ وليم الصورى يرجع الدافع للتفكير فى بناء هذا الدير إلى انخراط ايفيتا الأخت الصغرى لها فى سلك الرهبنة فى دير القديسة آن. إذ وجدت الملكة أنه من المناسب لأختها أن تخضع لأوامر وتعليمات رئيسة الدير، شأنها فى ذلك شأن الأشخاص العاديين من أهل الملكة. ولهذا قامت بنفسها بمسح كل أراضى المملكة، وأخذت تبحث عن المكان المناسب لبناء الدير حتى انتهى بها المطاف إلى بنائه فى بيسان على بعد ثلاثة أميال من بيت المقدس. كما قامت بإنشاء التحصينات العالية والأبراج القوية حول الدير للدفاع عنه ضد أى محاولة للاعتداء عليه، خاصة وأن موقعه على حافة الصحراء يجعله أكثر تعرضاً لهجمات الأعداء[3]. وبعد أن تم البناء، وأصبح الدير مهيئاً للعبادة، حرصت الملكة ألا يكون الباعث لها فى بناء الدير مكشوفاً للجميع. فلم تعين أختها رئيسة للدير، وإنما عينت راهبة أخرى شديدة الصلاح والتقوى من كبار السن مما يجعل وفاتها وشيكة الوقوع. ولم تلبث وإن ماتت بعد بضعة شهور، وعندئذ قامت مليسند بتعيين أختها رئيسة للدير، وذلك بعد موافقة بطريرك بيت المقدس[4].

---

(١) Mayer, op. cit., p. 131.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 132.

(٣) Ibid., pp. 132-133.

(٤) Idem.

ومن الأعمال الخيرية الأخرى التى تنسب إلـى مليسنـــد تلـــك الهبات العديدة التى منحتــها لجماعتى الفرسان الداوية والاسبتارية ومستشفى القديس لعازر لمرضى الجذام. كما انـها حثـت زوجـها الملك فولك على تقديم هبات كثيرة من الأراضـى إلى كنيسة القيامة[١]. كما يرجع إليها الفضل فى تحسين العلاقات مع الكنيستين اليعقوبيــة والأرمينية. ذلك أن اليعاقبه قد هربوا إلى مصر قبل استيلاء الفرنج علـى بيت المقدس عام ١٠٩٩م/٤٩٤هـ. وعندما عادوا وجدوا أن أملاك كنيستهم بفلسطين قد استولى عليها فارس من الفرنـج اسمـه جوفييـه Gauffier. ولما وقع هذا الفارس أسيراً فى أيدى المصريين عام ١١٠٣م/٤٩٨هـــ ساعد هذا اليعاقبة فى استرداد أراضيهم، واستمروا يتمتعـون بـها حتـى عـام ١١٣٧م/٥٣٢هـ، إذ عاد جوفييه من أسره بعد أن ظن كل الناس أنه مـات فى الأسر. فطالب بأملاكه، ولكن الملكة تدخلت تفادياً لـما قـد ينجـم مـن صراعات دامية بـين الطرفـين، لإصـرار كلاهما علـى أحقيتـه فـى هـذه الأراضى. فسمحت لليعاقبة بالاستقرار فى أملاكهم والاحتفاظ بــها بعـد أن يدفعوا لجوفييه تعويضاً مالياً قدرة ثلاثمائة دينار[٢].

وفى عام ١١٤٣م/٥٣٨هـ توفى الملك فولك متأثراً بجراحة نتيجـة لوقوعه من فوق جواده أثناء خروجه لرحلة صيـد[٣]. وكـان ملكـاً صالحـاً

---

(١) du Cange, op. cit., p. 17.

(٢) Grousset, op. cit., II, p. 163, Runciman, op. cit., II, p. 232.

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East, p. 147, Grousset, op. cit., II, p. 165.

لملكة بيت المقدس، ولكنه لم يكن قائداً كفئاً للفرنج فى الشرق. وقد حزنت عليه مليسند، ومع ذلك لم يصرفها حزنها عن المبادرة بتولى مقاليد الأمور فى المملكة. فمن المعروف أنه لم يبقى من ذريتها من فولك إلا ولدين: بلدوين الذى كان فى الثالثة عشر من عمره، وعمورى الذى لم يتجاوز السابعة من عمره[1]. ولم تلبث وأن نصبت ابنها الأكبر قسيما معها فى الحكم نزولاً على رغبة بارونات المملكة لأنه لم يخطر ببالهم فكرة انفراد الملكة بالحكم. ونظراً لأن ابنها كان أقل من السن القانونى الذى يجيز له مباشرة امور المملكة بمفردة، فقد تولت مليسند كل مقاليد الأمور. وقام بطريرك بيت المقدس بتتويجهما معاً فى كنيسة القيام يوم عيد الميلاد عام ١١٤٣م/٥٣٨هـ[2]. وكانت الملكة الأم من القدرة والكفاية ما يجعلها تصيب نجاحاً كبيراً أثناء فترة حكمها. إذ أدارت دفة الحكم فى المملكة بكل شجاعة وإخلاص[3]. فكانت تنظر فى الأمور الهامة فى الدولة، وكان طموحها أن تباهى وتنافس اعظم نبلاء المملكة اللاتينية وأمرائها حتى تظهر تفوقها عليهم فى الحكمة والرزانة[4]. وعلى الرغم من تجمع كل السلطان فى قبضتها، إلا أن أنوثتها كانت تمنعها من تولى

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 137, cf also: Grousset, op. cit., II, p. 169.

(٢) Wiliam of Tre, op. cit., Loc. Cit., du Cange, op. cit., p. 17.

(٣) Stevenson, op. cit., Loc. Cit., Setton, A History of the Crusades, I, p.444.

(٤) Wiliam of Tyre, op. cit., p. 139, 204.

أمر الجيش بنفسها، ولخطورة هذا المنصب وأهميته، كان عليها أن تتريث فى اختيار من هو أهل بهذا المنصب من أهل الثقة والمقربين إليها. وقد وقع اختيارها على ابن عمها منسيس هيبرج وعينته كندسطبل للمملكة[1]. وبهذا تكون الملكة قد تجنبت إعطاء هذا المنصب الخطير إلى أحد اتباعها أو رعاياها غير الموثوق فيهم حتى لا يؤدى هذا إلى ضعف السلطة الملكية فيما بعد. ولكن يبدوا أن منسيس قد تعالى على كبار البارونات فى المملكة، ولم يظهر لهم الاحترام اللائق بهم. فأدى هذا إلى نفور البارونات منه. ولولا مهابة الملكة وسلطاتها الواسعة عليهم فى ذلك الوقت لتحركت الكراهية والبغض الموجهين ضده ولتعرضت المملكة لخطر حرب أهلية[2].

وقد لعبت مليسند دوراً هاماً من خلال تطور العلاقات الصليبية الإسلامية. من ذلك تلك المحاولة الجادة التى قامت بها من أجل إعادة

---

(١) Ibid., p. 204.

وتعتبر هذه الوظيفة أعلى المراتب العسكرية فى المملكة. فصاحبها هو القائد الأعلى للجيش ويتمتع بسلطات كبيرة وخاصة إذا كان الملك دون السن القانونى لتولية أمور المملكة وتكون الوصيه، امرأة. ومن أهم وظائفة تعيين قادة الجيش الملكى، ويعتبر ممثلاً لسلطة العدالة العسكرية فى الجيش. وله المكانة العسكرية الثانية بعد الملك. وله حق الإشراف على البلاط الملكى أثناء غياب الملك. ومكانة فى مقدمة الجيش فى الحروب أنظر:

Liver au roi, cf. assises de Jerusalem, I, P. 615.

(٢) Idem., cf also: Setton, op. cit., II, p. 142.

إمارة الرها مرة أخرى إلى حظيرة المملكة الصليبية بعد أن استردها عماد الدين زنكى فى نوفمبر ١١٤٤م/ جمادى الأولى ٥٣٩هـ. فبعد ان شدد المسلمون الحصار على الرها ومنعوا دخول الميره والمساعدات إليها، لم يتمكن حاكمها جوسلين الثانى من الوقوف أمامهم لأن جيشه لم يكن من القوة بحيث يمكنه الدخول فى معركة متكافئة مع قوات زنكى. ولذا أسرع فى طلب النجدة من إمارة إنطاكية وبيت المقدس. وسرعان ما دعت مليسند المجلس الملكى للانعقاد ومناقشة موضوع إنقاذ الرها، ففوض المجلس الملكه لحشد جيش كبير لهذا الغرض. ولكن الأمر اختلف فى إنطاكية، إذ لم يعر صاحبها ريموند بواتيه أى اهتمام للأزمة التى تمر بها الرها. وانتظر جوسلين بقلق شديد وصول النجدات من بيت المقدس. لكنها وصلت متأخرة بعد سقوط المدينة فى يد عماد الدين زنكى(١).

وجدير بالذكر، أن الملكة رفضت أن تشرك ابنها بلدوين فى هذه الحملة وفى باقى الحملات العسكرية. وعلل ماير سبب هذا أن الملكة كانت تكره من ينافسها فى التفوق والسلطان. فخشيت أن يكتسب ابنها سمعه طيبه فى المجال العسكرى ترفعه إلى مراتب القادة العظام، فيزيد تأييد البارونات له مما يؤدى إلى شعوره بأنه قائد سياسى أيضاً(٢).

كما كان للملكة أيضاً دور كبير فى دعوة جميع القادة الصليبيين

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., p. 142, cf also: Crousset, op. cit., II, p. 182, Stevenson, op. cit., p. 149, Brundage, The Crusades, p. 81.

(٢) Mayer, op. cit., p. 118.

فى الغرب الأوربى للحضور إلى بيت المقدس على رأس جيوشهم فى الحملة الصليبية الثانية لمحاولة استعادة الرها من المسلمين. وعندما وصلوا وجهت إليهم الدعوة لحضور مجلس كبير ينعقد فى عكا فى يونيو ١١٤٨م/ محرم ٥٤٣هـ لمناقشة خط سير الحملة[١].

على أية حال، بالرغم من أن بلدوين الثالث قد أتم فى عام ١١٤٥م/٥٤٠هـ الخامسة عشر من عمره وهو السن القانونى الذى يسمح له بالانفراد فى تولى شئون المملكة، لم تعلن الملكة الأم عن نيتها فى التخلى عن الحكم لابنها[٢]. وربما يرجع ذلك إلى رغبتها فى السيطرة أطول فترة ممكنة، خاصة وأنه لم تكن تشعر بالهيبه التى يجب أن يتحلى بها ابنها بين كافة رعاياه وكبار رجال الدولة. فخافت ما قد يترتب على هذا من ضعف الملكية وسيطرة كبار البارونات. ومع ذلك، فإن العناصر المستهترة فى المملكة التى ظلت تنتظر طويلاً حلول هذا اليوم، لم تترك الأمور تسير وفق أهواء الملكة الأم، لأنهم شعروا أن تأثير الملكة على ابنها قد أعاق محاولاتهم فى السيطرة على الملك. ولذا أشعلوا نيران الفتنة بين بلدوين الثالث وأمه، فأخذوا يحرضونه على ضرورة التخلص من وصاية أمه عليه وأن ينفرد بالحكم. وكانوا يوسوسون فى أذنه بكلمات الحقد والكراهية ضدها. فكانوا دائماً يذكرونه "أنه من غير المناسب ان يخضع الملك دائماً لرغبات أية امرأة

---

(١) Runciman, op. cit., II, p. 280.

(٢) Mayer, op. cit., p. 114.

حتى ولو كانت أمه"[1]. وتأثر الملك بتحريض هذه العناصر الفاسدة له، وأخذ يتحين الفرصة للتخلص من سيطرة أمه عليه، وازدادت العلاقات سوءاً بينهما بشكل واضح منذ عام ١١٥٠م/٥٤٥هـ عندما بدأت الملكة الأم تصدر القرارات الملكية باسمها فقط دون الإشارة إلى ابنها على الإطلاق. فثار الرأى العام وطالب بتتويج بلدوين الثالث ملكاً رشيداً، غير أن الملكة كانت قد اتفقت مع البطريرك فولشر على أن يتوجها من جديد إلى جانب ابنها حتى يتيح لها هذا الإجراء الاعتراف باشتراكها فى الحكم. وتم تحديد يوم عيد القيامة لعام ١١٥٢م/٥٤٧هـ موعداً للتتويج. ولكن عندما علم بلدوين بهذا الاتفاق أرجأ حضوره، وأخذ يماطل فى تحديد وقت الاحتفال بقصد عدم رغبته فى اشتراك أمه معه فى التتويج. ورجاه البطريرك والرجال الحكماء المحبين للسلام على عدم إثارة المشاكل والفتن والسماح لأمه فى أن تشاركه فى التتويج. ولكنه أصر على رأيه واستمر فى المماطله[2]. غير أنه فى يوم غير متوقع من جانب الملكة اقتحم بلدوين كنيسة القيامة مع نفر من فرسانه وطلب من البطريرك أن يتوجه بدون حضور أمه. ولما رفض أجبره الملك على هذا خاصة وأنه قد أقام احتفالاً كبيراً فى بيت المقدس وارتدى إكليلاً من الزهور رمزاً للسلطة الملكية بدلاً من التاج الملكى المرصع بالمجوهرات الذى رفض

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 140, 205. Cf also: Grousset, op. cit., II, pp. 171-172.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., Loc. Cit., cf also: Crousset, op. cit., II, p.315.

البطريرك تسليمه إياه[1].

وكان ذلك إيذاناً بقطع حبل المودة بين مليسند وبلدوين الثالث.

وعندما انتهت إجراءات التتويج دعا الملك إلى عقد مجلس المملكة للبت فى إيجاد حل وسط لإنهاء أزمة العلاقات السيئة بينـه وبـين أمـه. وتم الاتفاق على ان يذهب الملك إلى أمـه ويطالبـها بالموافقـة علـى تقسيم المملكة بينهما. وبعد مفاوضات مكثفة بين الجانبين تركت مليسند للملك حرية اختيار المدن التى يريد ضمها إليه. فوافق على أن تتـألف مملكتـه من الجليل والشطر الشـمالى مـن مملكـة بيـت المقـدس. أمـا مليسـند فقـد احتفظت لنفسها ببيت المقدس ونابلس بملحقاتها يهوذا وسامرا[2].

ولا شك أن ما حدث من جانب الملك بلدوين يعتبر عملاً عنيفاً فـى حق أمه أولاً، ثم فى حق مملكة بيـت المقـدس بأسـرها ثانيـاً. لأن الملكـة الأم كانت تحكم طوال فترة وصايتها على ابنها بمهارة فائقة لما اكتسبته من خبرة كبـيرة ومقـدرة لإدارة شـئون الحكـم داخـل الملكـة. فنجحـت بذلك فى أن تجعل من المملكة اللاتينية وحدة واحدة تحت قيادة موحده. أما الان وبعد أن انقسمت المملكة إلى قسمين فلن يتسنى للملكة ان تحتفظ بقوتها الدفاعية وسلطانها تحت قيادتين منفصلتين خاصة وأن بلدوين لم يكن لديه من الخبرة أو المقدرة ما يسمح بتسيير دفـة الحكـم. وإذا كـان

---

(1) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 205, cf also: Setton, op. cit., Loc. Cit.

(2) Wiliam of Tyre, op. cit., Loc. Cit., cf Richard, oop. Cit., p. 64. Crousset, op. cit., II, p. 317.

مليسند قد وافقت على هذا التقسيم رغم أنها كانت مؤيده من جانب الكنيسة ومعظم لوردات وبارونات جنوب المملكة، فإن ذلك ليعد إضافة جديدة فى سجل أعمالها المجيدة فى خدمة مملكة بيت المقدس، لأنها وجدت فى موافقتها على التقسيم خير وسيلة لتجنب صراعات وحروب أهلية يمكن أن تنشب بينها وبين حزب النبلاء المؤيد لابنها.

لقد ساد الهدوء أنحاء المملكة بعد التقسيم لبضعة أسابيع فقط، إذا أراد بلدوين أبعاد أمه كلية عن الحكم. فأعد جيشه وغزا الأراضى الخاضعة لسلطانها. ولما علمت الأم بما حدث. خرجت من نابلس واتجهت إلى بيت المقدس تاركه المدينة فى حماية رعاياها من النبلاء المنحازين إلى صفها ولكن بعد أن نجح بلدوين الثالث فى الاستيلاء على نابلس، واصل طريقة ناحية بيت المقدس لمطاردة الملكة هناك. ويبدو أن الانتصارات التى أحرزها على جيش الملكة قد رفعت من شأنه بين مؤيدين واثبت كفاءته أمام كثير من بارونات المملكة المنحازين لأمه، فأخذ الكثيرون منهم التخلى عنها والانضمام إلى صفوف الملك. ولاشك أنهم وضعوا مصلحتهم الخاصة فوق أى اعتبار، فخشوا أن تطول الحرب الأهلية بين الملكة وابنها فيفقدون امتيازاتهم وممتلكاتهم ومكانتهم فى المملكة بعد انتصار الملك وسيطرته على المملكة كلها. ورغم ذلك، فقد ظل بعض أتباع مليسند خاضعين لها ومؤيدين حقوقها فى مباشرة السلطة مع الملك. وكان فى مقدمة هؤلاء ابنها عمورى[1]. وعندما علمت الملكة بأن

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II p 206.

قوات بلدوين فى طريقها ناحية مدينة بيت المقدس لحصارها والاستيلاء عليها انسحبت مع اتباعها المخلصين وأهل بيتها إلى قلعة المدينة متخذين من برج داود مكاناً للدفاع عن أنفسهم[1]. وسرعان ما وصل الملك بقواته أمام أبواب المدينة، وتبادل الطرفان المتحاربان الضربات. وقد شعر البطريرك فولشر حينذاك أن الأمور تزداد سوءاً وخطورة على سلام وأمن المملكة. فلم يتردد فى الذهاب على رأس مجموعة من رجال الدين لمقابلة الملك وتحذيره من مغبة الموقف إذا تمادى فى إصراره على السيطرة على باقى ممتلكات الملكة، ونصحه بضرورة الالتزام ببنود الاتفاقية القائمة بينه وبين مليسند بشأن تقسيم أراضى المملكة بينهما. ولم تأت هذه المحاولة من جانب البطريرك بفائدة، واضطر للعودة إلى المدينة يحمل معه بغض الملك وكراهيته. وواصل الملك حصاره للمدينة، واضطر الأهالى فى نهاية الأمر إلى تجنب حنق الملك عليهم، ففتحوا أبواب المدينة ودخلها الملك مع قواته. ثم فرض الحصار حول القلعة محاولاً الاستيلاء عليها. وأمام هذا الموقف الخطير الذى شهدته أرجاء المملكة اللاتينية اضطرت ميلسند فى نهاية الأمر بعد أن فقدت كل امل فى إحراز النصر على عقد معاهدة سلام مع ابنها. ووافقت فيها على التنازل له عن كل ممتلكاتها ومناطق نفوذها بشرط أن يترك لها خراج مدينة نابلس وما يجاورها من البلاط طوال حياتها فوافق الملك على هذا وأقسم أن يحافظ على بنود هذه المعاهدة والالتزام

(1) Ibid., pp. 206-207, cf also: Crousset, op. cit., II, p. 319.

بتنفيذها[١]. وبذلك عاد الهدوء يخيم على أرجاء مملكة بيت المقدس من جديد.

وبعد هذه التطورات، كان على الكنيسة أن تبحث عن مصالحها في ظل حكم الملك الجديد. فطوت صفحة العلاقات التى كانت قائمة مع الملكة الأم، وفتحت صفحة جديدة بيضاء مع بلدوين وبالمثل كان على الملك أن يتقرب إلى الكنيسة لشدة احتياجه إلى مساندتها له. ولتحقيق ذلك أسرع فى تأكيد كل الهبات والممتلكات التى تخص الكنيسة. ولم يكتف بذلك وإنما أضاف إليها هبات أخرى عديدة[٢].

وجدير بالذكر، أنه على الرغم من سوء العلاقات بين ميلسند والملك، فلم يمنعها هذا من المشاركة فى حل كثير من المشاكل المتعلقة بصالح المملكة وأمنها. ويتضح ذلك عندما كان بلدوين قلقاً بسبب نمو قوة نور الدين فى شمال الشام[٣]. وخاصة بعد أن حاول الاستيلاء على إنطاكية عام ١١٤٩م/٥٤٤هـ. ولكنه فشل وانتهى الأمر بمقتل صاحبها ريموند أوف بواتيه[٤]. وتولى الحكم فيها أرملته كونستانس ابنه اليس

---

(١) Idem., Stevenson, op. cit., p. 170.

(٢) Mayer, op. cit., p. 170.

(٣) لمزيد من المعلومات عن توسع قوة نور الدين أنظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق١، ص ٥٥-٨٩، ابن الأثير: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، ص ٩٨-١٣٥.

(٤) حشد ريموند بواتيه صاحب إنطاكية قواته فى يونيو ١١٤٩م/صفر ٥٤٤هـ، وحاول الإغارة على بعض نواحى حلب فتصدت له قوات نور الدين ونجحت=

خالة الملك. ونظراً لأهمية هذه الإمارة بالنسبة لملكة بيت المقدس. ، فلم يرض بلدوين أن يظل حكم إنطاكية في يد امرأة. ولـذا فكـر فـى البحـث لها عن زوج جديد يفيـد الإمـارة بجـهوده وخبراتـه وأمجـاده الحربيـة خاصة وأن المملكة كانت تضم صفوة النبلاء المنحازين لصفوف الملك والذين يصلحون لتولى الحكم فى إنطاكية. ورغم إلحاح الملك على ابنه خالته فـى الموافقة على الزواج فكانت تصر على الرفـض فـى كـل مـرة، وفضلت أن تعيش حرة مستقلة بذاتها. وإزاء هذا الإصرار فكر الملك فى عقد اجتمـاع كبير فى طرابلس فى صيف ١١٥٢م/٥٤٧هـ للبت فى هـذه المشكلة. وقـد دعا للاجتماع بارونات المملكة وأعضاء المجلس الملكى ورجال الديـن فـى إنطاكية وكذلك الملكة الأم لما لهـا مـن تأثـير كبـير علـى ابنـه أختـها[1]. وعندما بدأ الاجتماع بـذل الأعضـاء قصـارى جـهدهم لإقنـاع كونسـتانس

=فـى هزيمتـه. ولذلـك أراد نـور الديـن الانتقـام. فـنزل بقواتـه إلى إنطاكيـة وحاصرها معتمداً على خلوها من القـوات الدفاعيـة اللازمـة فـى ذلـك الوقـت. وتوجه الفرنج من ناحية الساحل صوب إنطاكية لنجدتها. وانتهى الأمر بعقـد هدنة بين الطرفين تقرر فيها ان تكون الجهات القريبة مـن الأعمـال الحلبيـة لنور الدين والجهات القريبة من إنطاكية للفرنج. ونتج عـن الاشـتباكات التـى وقعت بين الطرفين مقتل ريموند بواتيـة، وأصبحـت كونسـتانس أرملتـه هـى المسئولة عن حكم الإمارة. لمزيد من المعلومات انظر أبـو شـامة: الروضتـين فـى أخبـار الدولتـين، جــ١، ق١، ص٥٧-٥٨، ابـن الأثـير: التـاريخ البـاهر فـى الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، ص٩٨-٩٩ وكذلك:

Wiliam of Tyre, II, pp. 196-202.

(١) Wiliam of Tyre, op. cit. P. 172.

بالزواج، ولكنهم فشلوا جميعا فى ذلك[1]. ومما زاد الطين بله، أنه عقب انتهاء الاجتماع لاقى ريموند الثانى صاحب طرابلس حتفه على أيدى جماعة الحشيشيه وخسرت المملكة اللاتينية بذلك فارساً شجاعاً يعد من ألمع فرسان المملكة[2].

وبدا بلدوين يظهر احترامه الفائق لأمه بعد اغتيال الكونت ريموند[3]. ولعل ذلك يرجع إلى أن الملك كان يتطلع للاحتفاظ ببعض السيطرة على إمارتى طرابلس وإنطاكية منتهزاً فرصة عدم وجود حاكم رشيد فى أى منهما. وكان يرى انه إذا تحقق له ذلك فسوف يتمكن من مواجهة قوات نور الدين محمود. فكان ولابد عليه وقبل أى شىء أن يحسن معاملته لأمه ولو ظاهرياً، وأن يتقرب إليها بصفتها خالة كونستانس أميرة إنطاكية، وأخت هوديرنا حاكمة طرابلس والوصية على ابنها ريموند الثالث. وكان يدرك تماماً أن أية معاملة قاسية توجه إلى أمه سينتج عنها ازدياد العداء بينه وبين امه. وبالتالى عاد الهدوء مرة أخرى إلى أنحاء المملكة. وتأكيداً لهذا، فقد منح الملك أمه توجيه النصح والإرشاد إليه، وأن تقدم له خبراتها السياسية للعمل معاً لصالح مملكة بيت المقدس. وإرضاء لها فقد وافق على كل الهبات التى كانت قد صدرت من أمه أثناء فترة حكمها عندما كان العداء متبادل

---

(١) Mayre, op. cit., p. 172.

(٢) لمزيد من التفصيلات أنظر أسامة زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) Idem.

بينهما[1]. هذا وإن كان الكاتب الإنجليزى ماير يرى أن بلدوين الثالث لم يشرك أمه تماماً فى الحكم، وإنما نجح فى أن يوهمها بأنها تقاسمه إياه، وذلك بعد أن ترك لها ممارسة الحقوق وإبداء الرأى فى بعض الأمور العامة. قليلة الشأن والتى لا تؤثر إطلاقاً على كيان المملكة وأمنها. وكان يهدف من وراء ذلك عدم شعورها بأنها مبعدة عن السلطة والنفوذ[2]. وقد ضرب لنا مثلين يؤيدان وجهة نظره أولهما يرجع إلى نوفمبر ١١٥٧م/رمضان ٥٥٢هـ عندما تفاوض الملك مع بعض التجار البيازنه على منحهم امتيازات فى صور بشرط عدم بيع الأسلحة والحديد والخشب والقطران إلى مصر. وقد راعى بلدوين موافقة الملكة أولاً على هذه المعاهدة. والثانى فى العام التالى عندما فوض أمه فى رفض أو قبول القرار الذى اتخذه فى تأييد الهبات التى أوقفها الكندسطبل همفرى اوف تورون لصالح جماعة فرسان القديس حنا[3].

ولكننا نرى عكس ما رآه الكاتب الإنجليزى لأن القرار الذى أصدرته الملكة الأم بشأن تعيين عمورى اوف نسل Amaury of Nesle فى منصب بطريك بيت المقدس الذى خلا بوفاة البطريرك السابق فولشر انجولم Flcher of angoulem عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ[4] لخير دليل على

---

(١) Ibid., p. 173.

(٢) Ibid., p. 174.

(٣) Idem.

(٤) Benjamin kedar, Outre Mer, Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem, p. 189, Crousset, op. cit., p. 389.

أن مليسند كانت تمارس سلطانا فعليا فى الأمور الهامة المتعلقة بمملكة بيت المقدس. فمما لاشك فيه أن منصب البطريرك يعتبر من المناصب الهامة والخطيرة فى مستقبل ومصير المملكة. وطالما أن الملك قد فوض إليها أمر شغل هذا المنصب، فيعتبر هذا فى حد ذاته عملا هاما ومشاركة فعلية فى إدارة شئون الحكم مع الملك.

ولكن مليسند اختفت تماما من مسرح الأحداث بالملكة اللاتيبية اعتبارا من يناير ١١٦٠م/ محرم ٥٥٥هـ. فلم تمكنها حالتها الصحية من ممارسة أى نوع من مظاهر الحياة ومشاكلها داخل المملكة أو خارجها. ولم تعد قادرة حتى على الصياح للتعبير عن آلامها، إذ وقعت صريعة مرض خطير قضى على حياتها فى ١١ سبتمبر ١١٦١م/ ٢٠ رمضان ٥٥٦هـ. وحزن عليها بلدوين كثيرا واستمر عدة أيام لا يقبل العزاء نادما على كل ما اقترفه فى حقها من قبل[1].

لقد كانت الملكة مليسند امرآه مشهورة فى تاريخ بيت المقدس. ونجحت فى مسك زمام السلطة فى يدها اكثر من ثلاثين عاما، فى الوقت الذى لم يكن لأسلافها من النساء أى سلطان ونفوذ، هى، على حد قول المؤرخ اللاتينى وليم الصورى، كانت تتمتع بالحكمة والرزانة والخبره فى معظم شئون المملكة مما ساعدها فى الانتصار على أعدائها فى تحمل مسئولية حكم المملكة بنجاح فائق[2].

(١) Wiliam of tyre, op. cit., II, pp. 283, 291.

(٢) Ibid., p. 50.

وكان مجلس البلاط الملكى قد ناقش، فى عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ فكـرة زواج الملك بلدوين، وقرر ضرورة البحـث لـه عـن عـروس لضمـان وراثـة العرش. وقد آثروا أن تكون العروس منتمية إلى البـلاط البـيزنطى حتـى يكسبوا رضاء الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، ويمدهم بمهر كبـير يساعد مملكة بيت المقدس على الخروج مـن الضائقـة الماليـة التـى كـانت تعانى منها، وحتى يضمنوا فى نفس الوقت تقديـم المسـاعدات الحربيـة لهم فى صراعـهم ضـد قـوة نـور الديـن محمـود التـى كـانت فـى ازديـاد مطرد[1]. خاصة بعد أن تورط بلدوين فى التوغل فـى أراضـى نـور الديـن معتقدا أنـه مـا زال طريـح فـراش المـرض. وراعـه أن خصمـه كـان فـى انتظاره، فأحجم عن اللقاء. ونظرا لأن نور الديـن كـان لا يـزال فـى دور النقاهة ولم تمكنه قواه من الدخول فى معارك طويلة، فقد اتفق الطرفـان على أن يتهادنا[2].

على أية حال، أرسل بلدوين سفارته إلى الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية لاعـداد الترتيبـات اللازمـة لزواجـه مـن إحـدى العـائلات النبيلة البيزنطية، وانتظرت السفارة رد الإمـبراطور عـدة شـهور تلقت بعدهـا موافقتـه علـى زواج الملـك الصليبـى مــن ابنـه أختـه ثيــودورا Theodora. وقد اشترط الإمبراطور مانويل منـح العـروس ناحيـة عكـا

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, P. 264, Gregoire le Pretre, Continuation of Matthw d' Edessa, Cf. R.H.C. Doc. Arm, I, p. 186.

(٢) حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص٢٧.

بائنة لها ، على أن تظل فى حوزتها تتمتع بها طوال حياتها حتى بعد وفاة الملك[1]. فوافق الملك وقدم لها فضلا عن ذلك مهرا كبيرا قدرة مائة ألف قطعة ذهبية، بينما تكلف جهازها أكثر من أربعة عشر ألف قطعة ذهبية. وبعد أن أعدت لوازم السفر للعروس تحركت رحلتها إلى الشام تحت حراسة قوية. فوصلت بيت المقدس فى سبتمبر ١١٥٨م/٥٥٣هـ، وتم تتويجها على بيت المقدس بجانب زوجها بلدوين الثالث[2].واستقبل الفرنجة فى بيت المقدس نبأ الزواج بالبهجة لما سيترتب عليه من قيام التحالف مع بيزنطة. فضلا عن أن الإمبراطور اعتبر نفسه حامى القوى الصليبية فى الشرق الأدنى ضد المسلمين، وتعهد بمساندة الفرنج ضد قوات نور الدين محمود[3].

ولكن ثيودورا لم تتمتع بمباشرة السلطة فى المملكة بالقدر الذى يليق بمكانتها كملكة على مملكة بيت المقدس. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى صغر سنها، لأنها عندما تزوجت كانت تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً[4]. كما كان للتجربة القاسية التى عاشها بلدوين مع أمه،

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, P. 274, cf also: Setton, op. cit., I, I, pp. 502-512, Crousset, op. cit., II, pp. 397-398.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 275.

(٣) Mayer, "Latins, Muslims and Greek in the Latin Kingdom of Jerusalem" Cf. The Journal of the Historical association. T. 63, 1978, p. 190, Grousset, op. cit., II, p. 398.

(٤) Du Cange, op. cit., p. 18.

حسبما أسلفنا، اكبر الأثر على نفسه. ممـا جعلـه لا يسـمح لأيـة امـرأة بتولى اى قدر من السلطة لإدارة شـئون المملكـة. ولذلـك لم نعـثر إلا علـى ثلاث وثائق فقط ترجع إلى الفترة المعاصرة لها كملكة على بيـت المقـدس. وقد ذيلت هذه الوثائق بتوقيعها عليها. ويتضح منها نوعية العمل الـذى كانت تقوم به الملكة ثيدورا فى مشـاركة زوجـها فـى الحكـم. فبالنسـبة للوثيقة الأولى تضمنت موافقتها على تحديـد مسـاحة الأرض المسـتخدمة فى زراعة قصب السكر فى عكا بصفتها إقطاعاً ممنوحاً لها. أمـا الوثيقـة الثانية ويرجـع تاريخـها إلى يوليـو ١١٦١م/ جمـادى الآخـر ٥٧هـ فقـد تضمنت اتفاق الملـك مـع فيليـب اوف ميلـى Philip of Milly صـاحب نابلس على تبادل الراضى المملوكة لفيليب فى نابلس مع أراضى الملك فى إقليم ما وراء نهر الأردن. وقـد اشـتركت الملكـة فـى مناقشـة بنـود هـذه الوثيقة والتوقيـع عليـها مثـل بـاقى أفـراد الأسـرة المالكـة لكونـها أحـد أفرادهـا. وعلـى هـذا فلـم تتضمـن الوثيقـة توقيـع الملكـة فحسـبن وإنمـا تضمنت أيضـاً توقيـع عمـورى أخـى الملـك، وخالتـه هوديرنـا كونتيسـة طرابلس وأبنائها وريموند[١]. أما الوثيقة الثالثة والأخـيرة. فـترجع إلى نفس العام وتضمنت هبة الملكة لأحـد المنـازل المملوكـة لهـا فـى عكـا إلى حاجبها الإنجليزى[٢].

يتضح مما سبق أن ثيودورا لم تكن تباشر سلطاتها إلا فى حدود

---

(١) Pauli. Cordic diplomatico del Sacro Militare Ordine Gerosolimitano, oggi di Malta, t. I, pp. 50-51.

(٢) A.O.L., II, PP. 138-139.

ضيقة للغاية لا تتعدى الأمور الشخصية الخاصة بها والتى لا تتعلق بأمن الملكة وسلامتها أو بمستقبلها. ولذلك كان الملك يتجاهل وجودها فى كل الشئون الأخرى للملكة.

مات بلدوين الثالث فى فبراير ١١٦٣م/صفر ٥٥٨هـ دون أن ينجب أولاداً من ثيوداورا رغم أنها كانت فى السابعة عشرة من عمرها[1]. ولذلك فقد تركت العاصمة واتجهت إلى عكا لتعيش بها وقد تولى عمورى الأول حكم مملكة بيت المقدس عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ خلفاً لأخيه بلدوين الثالث. وكان سعيداً بمرور سنوات عديدة على وفاة أخيه دون أن تفكر ثيودورا فى الزواج. فقد كان يخشى أن يؤول بزواجها حكم عكا إلى زوجها الجديد، وتخسر بذلك المملكة اللاتينية سيطرتها على أكبر المدن الهامة التابعة لها. أما إذا ظلت الملكة الأرملة بدون زواج فسوف تسترد المملكة هذه المدينة مرة أخرى بعد وفاتها.

ولكن يبدو أن صغر سنها، وهى تمر بمرحلة المراهقة، لم يساعدها فى الاستمرار على المحافظة على سمعتها الملكية. إذ أساءت التصرف عندما وقعت فى غرام اندرونيكوس كومنين[2] أحد أبناء عمومة

---

(١) Kinamos, Deeds of John and Manuel Comnenus, tr. Charles Prand, p. 178, Grégoire le Pretre, op. cit., p. 186.

(٢) أرسله الإمبراطور البيزنطى مانويل عام ١١٦٦م إلى قيلقيه للعمل على استتباب الأمن بها بفضل ما اشتهر به من شخصية جذابة. وعندما اتيحت له فرصة زيارة إنطاكية راعه جمال الأميرة فيليا شقيقة بوهيموند الثالث، وأقام=

الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين فى شتاء عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ. ذلك الأمير الذى يعتبر مغامراته العاطفية. وتناول الطرفان الحب والغرام دون زواج – لأن صلة القرابية بينهما حالت دون زواجهما. وكانت الملكة قد تركت عكا دون خجل أو حياء، وعاشت معه خليله له فى بيروت[١].
ونتج عن هذا أن استردت مملكة بيت المقدس عكا مرة أخرى، وأعلن الملك عمورى عدم أحقية ثيودورا فى الاستمرار فى التمتع بإقطاع عكا لكونها آثمة وللضرر الذى ألحقته بمملكة بيت المقدس بأسرها[٢].

على أية حال، كان عمورى متزوجاً منذ عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ من أجنس Agnes ابنه جوسلين الثانى حاكم إمارة الرها سابق، وأرملة

=علاقة عاطفية معها وصلت إلى حد الفسق والزنا. فاشتدت ثائرة بوهيمند ورفع شكواه إلى الامبراطور الذى سرعان ما استدعى اندرونيكوس ولكن رفض العودة إليه واتجه صوب الجنوب وعرض خدماته على الملك عمورى الذى أعجب بشخصيته وبسالته ومنحه إقطاع بيروت. ولم يلبث أن توجه اندرونيكوس إلى عكا وعندما تعرف على ثيودورا وقع فى غرامها وتبادلا الحب. أنظر:

Kinamos, op. cit., p. 188. Wiliam of Tyre, II, p. 345.

ولمزيد من التفصيلات عن حياة اندروتيكوس أنظر:

Diehl Les romaneaques aventures d'Andronic Comnen, Eigures Ryzantines, pp. 86-133.

(١) Kinamos, op. cit., p. 188, William of Tyre, op. cit., II, p. 345, cf. also: Diehl, op. cit., p. 107.

(٢) La Chronique d'Ernoul, p. 15.

ريناك حاكم مرعش وقد أنجب منها طفلين هما : سيبيلا وبلدوين الرابع[1]. وكان من الممكن أن يتم هذا الزواج قبل ذلك بسبع سنوات، ولكن حالت معارضة البطريرك فولشر دون اتمامه حينذاك بسبب أن العروس كانت تمت لعمورى بصلة قرابة من الدرجة الرابعة، وهى ما نهت عنه الكنيسة اللاتينية. إذ حرص القانون الكنسى على عدم زواج الأقارب حتى الدرجة السابعة ولذلك فقد انتظر العروسان حتى وفاة البطريرك عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ واعلنا زواجهما[2]. ولكن يبدوا أنهما كانا يعتقدان أن أزمتهما تنحصر فى وجود البطريرك فى منصبه فإذا اختفى عن المسرح فلن تتصدى لهما أى معارضة، ولاشك أن هذا الاعتقاد كان فى غير محله لأن القانون الكنسى ثابت لا يتغير بتغير الأشخاص والدليل على ذلك أنه عندما حان وقت تتويج عمورى ملكاً على بيت المقدس لم ينس مجلس البلاط الملكى الخطأ الذى ارتكبه عمورى فى حق الكنيسة ورفضوا تتويجه ما لم يبادر بفسخ زواجه من أجنس. وأيدهم فى ذلك البطريرك الجديد عمورى دى نسل Amauru de Nesl[3]. واضطر عمورى أمام الضغط الكبير الواقع عليه. من قبل البطريرك من ناحية ومن البارونات من ناحية اخرى، أن يرضخ لرايهم ووافق على فسخ

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 300, cf. also: DuCange. Op. cit., p. 20, Pierre Aube, Baudouin IV de Jerusalem, p. 5.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 300, 362.

(٣) Ernoul, p. 17, Eracles, p. 5, cf. also: Aubé, op. cit., p. 56, Richard, op. cit., p. 78.

زواجه من أجنس بشرط أن يتمتـع اولاد سـيبيلا وبلدويـن بكـل الحقـوق الشرعية بما فى ذلك وراثة العرش. فوافق الجميع على ذلك. وبالفعل تم فسخ الزواج بمعرفة البطريرك والمندوب البابوى الكاردينال حنا[1].

وجدير بالذكر أن الملك عمورى قد اهتم بنفسه عقب انفصالـه عـن اجنس بالبحث عن زواج آخر مناسب، فوقع الاختيار على هيـو دبيلـين صاحب الرملة[2]. ولا شك أن هذا التصرف من عمورى قـد سـاعده كثـيراً فى الخروج من أزمته النفسية التى كان يعانى منها لشعوره بالظلم الذى وقع على زوجته عندما تخلى عنها وضحى بها مقابل احتفاظه بالعرش. وفى نفس الوقت إعفاء هذا ن دفع مبالغ مالية كبـيرة لهـا كـان ولابـد أن يدفعها كتعويض لها.

وقد ظل عمورى بدون زواج حتى ١١٦٥م/ ٥٦٠هـ لانشـغاله فـى إدارة الشئون الداخلية للملكة من جانب، ولتخوفه من نشاط نـور الديـن الحربى فى المنطقة من جانب آخر. وكانت سياسته تهدف على ألا تكون سيطرة مملكة بيـت المقـدس علـى أراضيـها كاملـة. فكـان يقـوم بغـارات سريعة فى بلادهـا، ويرسـل قـواده الذيـن كـانوا يتوغلـون حتـى لرملـة وعسقلان، ويبعث قواته لتخترق البلاد من الشمال والجنـوب. وبعضـها اتخذ معسكرات متنقلة داخل أراضى مملكة بيت المقدس نفسـها. وكلمـا

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 300, Cf. also: Riley-Smith, Feudal Nobility and the latin Kingdom of Jerusalem, p. 108.

(٢) Ernoul, p. 17, Eracles, op. cit., Loc. Cit, cf. also: aubé, op. cit., p. 55.

طردها جند الصليبيين فى ناحية انتقلت إلى ناحية أخرىز وكان هدف نور الدين من وراء ذلك أن يستمر الطريق مفتوحا إلى مصر، لأنه كان واثقا من أن استيلاءه على مصر سيهيىء له من القوة ما يمكنه مواجهة الفرنج من ناحية، والدولة البيزنطية من ناحية أخرى[١]. وكان الغرض الأساسى لسياسة عمورى هو منع نور الدين من الاستيلاء على مصر[٢]. ولذا عندما شعر بتزايد نشاطه من أجل تحقيق هدفه فى فتح مصر، فكر فى ان يستعين بحليف يؤازره، ولكن الأحوال فى أوروبا لم تكن مهيأة لإرسال نجدة سريعة. فاتجه ببصره إلى الدولة المسيحية القريبة منه، وهى الدولة البيزنطية. ومهد لهذه الخطوة بسعيه لخطبة إحدى الأميرات من البيت الإمبراطورى فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين سفارة عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ لهذا الغرض. ولكن الامبراطور تركها تنتظر رده لمدة عامين[٣]. ولعل السبب فى التأخير، وفق ما أشار إليه المؤرخ البيزنطى كيناموس، يرجع إلى غضب الإمبراطور من الملك عمورى لإلحاحه عليه فى طلب التنحى عن السيادة البيزنطية على إنطاكية. ولما أدرك عمورى هذا انصرف نهائيا عن

---

(١)حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٢٨١-٢٨٢.

(٢)لمزيد من التفصيلات عن الصراع بين نور الدين والملك عمورى للاستيلاء على مصر أنظر : ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، جـ١، ص١٣٧-١٧٤، أبو شامة: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص٣٢٩-٣٩٥.

(٣) Ernoul, pp. 17-18, Cinamos, op. cit., 179, Wiliam of Tyre, II, P. 344.

مطلبه[1]. وانتهى الأمر باختيار الأميرة ماريا ابنه حنا كومنين أخو الإمبراطور لتكون زوجه لعمورى وملكة على بيت المقدس[2]. وعندما علم الملك عمورى بأن سفراءه قد وصلوا إلى صور فى رفقتهم الأميرة البيزنطية أسرع لمقابلتها وتم زواجهما فى احتفال كبير فى كاتدرائية صور بمعرفة البطريرك عمورى دى نسل فى ٢٩ أغسطس ١١٦٧م/ أول ذى القعدة ٥٦٢هـ[3]. وتقرر بذل نابلس وما يحيط بها من أراض معاشاً للملكة ماريا[4].

ويبدو أن عمورى قد سار على نفس النهج الذى اتبعه أخوه بلدوين الثالث تجاه الملكة مليسند فى الإمساك بكل مقاليد الحكم، وذلك حتى يتمتع بسلطاته كاملة. فلم نعثر على ما يفيد أن للملكة ماريا دور إيجابى فى حكم المملكة.

---

(١) Cinamos, op. cit., p. 179.
من المعروف أن إنطاكية كانت خاضعة من الناحية الإسمية لسلطان الإمبراطور البيزنطى، أما من الناحية الفعلية فكانت تدور فى فلك مملكة بيت المقدس.

(٢) حدثت مفاوضات بين الملك عمورى والإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين حول ضرورة إرسال حملة مشتركة من الطرفين للذهاب إلى مصر والاستيلاء عليها. وقد خرجت بالفعل عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ حملة تضم الفريقين، واتجهت إلى دمياط وعسكرت أمامها، وانتهى بها الأمر إلى الفشل والانسحاب. لمزيد من التفصيلات عن هذه الحملة أنظر: ابن واصل: المصدر السابق، جـ١، ص١٧٩-١٨٣. أبو شامه: المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٦-٤٦٠.

(٣) Ernoul, P. 18, Wiliam of Tye, op. cit., p. 344.

(٤) Ernoul, p. 31.

وقد أنجبت ماريا ابنتين لم تعش منهما غير ايزابيلا المولودة عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ. وعلى ذلك لم يكن للملك عمورى نصيب من الأولاد الذكور سوى ابنه بلدوين الرابع المعروف لدى مؤرخى الفرنج باسم بلدوين الأبرص لإصابته بمرض الجذام[١].

بعد وفاة عمورى عام ١١٧٤م/٥٧٠هـ بأربعة أيام تم تتويج ابنه بلدوين الرابع ملكاً على بيت المقدس، لم يتردد البارونات أو مجلس البلاط الملكى فى قبوله ملكاً عليهم. وكان عمره حينذاك ثلاثة عشر عاماً. ولذا كان تحت وصاية الكونت ريموند الثالث صاحب طرابلس لمدة عامين حتى يصل إلى السن القانونى المسموح به لتوليه أمور المملكة بنفسه[٢].

وثمة سؤال يتبادر إلى الذهن حول أسباب عدم اختيار اجنس والدة بلدوين الرابع لتكون وصيه عليه حتى يتم الخامسة عشر من عمره بدلاً من ريموند الثالث. ونرجح أن ذلك يرجع إلى عدم الاعتراف من قبل بزواج اجنس من الملك عمورى لعدم شرعيته طبقاً للقانون الكنسي. فضلاً عن أن روح العصر فى ذلك الوقت كانت تقضى بعدم ارتياح بارونات المملكة لحكم النساء، مثلما اتضح من قبل عندما أظهر بارونات شمال المملكة استياءهم وسخطهم على تتويج الملكة مليسند.

شعرت الملكة ماريا إزاء الأوضاع الجديدة أنه لم يعد لها أو لابنتها ايزابيلا مكان داخل البلاط الملكى طالما أن اجنس أم الملك بلدوين

---

(١) Du Cange, op. cit., p. Cf. also: Aubé, op. cit., p. 55.

(٢) Runciman, op. cit., II, p. 404.

على قيد الحياة، فلا شك أن ذلك الموقف قد أتاح الفرصة الكبيرة لإعادة نفوذ اجنس إلى البلاط الملكى مرة أخرى، ولممارسة السلطة الملكية من وراء تأثيرها الشديد على ابنها الذى لم يكن يتجرأ على معارضتها[1]. ولعل ذلك يتضح فى تحديها لبارونات المملكة معتمدة على قدرتها فى التأثير على بلدوين. فجعلته يوافق على زواج أخته سيبيلا من جاى لوزجنبان ضد رغبة البارونات[2]. فعندما مات وليم لونجز وورد اوف مونتفرات Wiliam Longsword of Montferrat زوج الأميرة سيبيلا عام ١١٧٧م/٥٧٣هـ، وصل فيليب اوف فلندر ابن عم الملك بلدوين إلى بيت المقدس وطلب منه ترتيب أمور زواج سيبيلا من احد مواليه. ولكن مجلس البلاط الملكى رفض هذا المطلب، وأخذ بلدوين دبلين صاحب الرملة يسبه ويشتمه جهراً حتى اشتد بفيليب الغضب وترك المملكة عائداً إلى بلاده[3]. ويعلل المؤرخ اللاتينى ارنول هذا التصرف من قبل صاحب الرملة بأنه كان على علاقة حب مع سيبيلا ويرغب فى الزواج منها ليضمن تتويجه ملكاً على بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الأبرص[4]. ولكننا نرى أن هذا التعليل غير مقنع لأنه لاتوجد أية إشارات فى المصادر أو المراجع تفيد بأن بلدوين دبلين قد طلب الزواج من سيبيلا بعد هذا الحادث. فإذا كان لديه الرغبة الصادقة فى الزواج منها وفق ما أشار

---

(١) Richard, op. cit., p. 168.

(٢) Runciman, op. cit., II, p. 424.

(٣) Ernoul, op. cit., p. 33, Wiliam of Tyre, o. cit., II, pp. 417-418.

(٤) Ernoul, op. cit., Loc. Cit.

به أرنول لما تأخر بعد أن عرف أن هناك من يطلب الـزواج منـها. وعلى ذلك يجب ألا نأخذ بهذا التعليل، وأن نعتبره نوعاً من تشـويه الحقـائق الذى درج ارنول عليه معتمداً فيما يتعلق بهذا الموضـوع. فـنراه مثـلاً قـد انفرد دون بقية المؤرخين المعاصرين له بذكر قصة خيالية تفيد أنه عندما وقع بلدوين فى الأسر لدى صلاح الدين عـام ١١٧٩م/٥٧٥هـ أرسلت لـه الأميرة سيبيلا خطاباً تقترح عليه فيه الزواج منه بعد إطلاق سـراحه[١]. ومما يضعف من شأن هذه الرواية أنه المؤرخ الوحيد الذى انفرد بذكرها، كما أن سيبيلا لم تكن حره فى اختيار زوجها حتى يتسنى لها أن تكتب مثل هذا الخطاب خاصة وهى تدرك تماماً أنـه لا دخـل لهـا فـى اختيـار زوج المسـتقبل تمشـياً مـع روح العصـر وإنمـا الـرأى فـى ذلـك يرجـع إلى أخيـها. كمـا أنـها كـانت تـدرك أيضـاً أن أمـها اجنـس كـانت تميـل إلى تزويجها رجل آخر هو جاى لوزجنيان، وأن الأم سوف تستخدم كـل مـا أوتى لها من قوة التأثير على ابنها عليها حتـى تتـم الموافقـة علـى جـاى لوزجنيان مما يجعل امر زواجها من بلدوين فى حكـم الاسـتحالة حتـى ولو كانت هى موافقة عليه. وفضلاً عن هذا وذاك، فإن سيبيلا عندما رأت جـاى لوزجنيـان واكتشـفت أنـه حسـن المظـهر ويتسـم بطلعـــه جذابـــة وشخصية ساحرة أفصحت عن موافقتها فـى الـزواج منـه[٢]. فـلا شـك أن هذا يثبت عدم وجود علاقة تربط بين الطرفين، وإلا لما تخلت عن حبـها

---

(١) Ibid., p. 58.

(٢) Runciman, op. cit., II, p. 424, Grousset, op. cit., II, p. 689.

بسهولة لمجرد أنها أعجبت بشخصية جاى. ثم أننا نرى أن كرامة المرأة وكبرياءها تمنعانها من الكتابة إلى من تحب لعرض نفسها على الزواج منه.

على أية حال، لم يكتف ارنول بهذه الإشاعة فى حق الأسرة المالكة، وإنما أضاف إليها اتهاماً جديداً لشخص اجنس عندما أشاع فى إحدى المرات بأنها قد سعت لدى الملك فى أمر تعيين عمورى أوف لوزجنيان كندسطبل المملكة إخلاصاً منها له للعلاقة غير الشريفة التى تربطهما معاً[1].

وإذا دققنا النظر فى كل هذه الأمور والادعاءات التى ذكرها ارنول لأدركنا أن سببها يرجع إلى إخلاص هذا المؤرخ لآل ابلين حيث كان يعمل فى خدمة باليان دبلين - أخو بلدوين دبلين، كما كان تابعاً أميناً له، فربما يكون صاحب الرملة قد نوى بالفعل طلب الزواج من سيبيلا، ولكن حال وقوعه فى الأسر فى أيدى صلاح الدين عام ١١٧٩/٥٧٥هـ دون تحقيق ذلك. وعندما أطلق سراحه وجد أن الفرصة قد فاتته بزواجها من جاى لوزجنيان عام ١١٨٠م/٥٧٦هـ بعد أن نجحت اجنس فى التأثير على الملك للموافقة على هذا الزواج. وربما يكون هذا الأمر باعثاً لحزن ارنول لابعاد أسرة ابلين عن العرش، فجاء انتقامه فى شكل تشويه بعض الحقائق التاريخية.

مهما كان الحال، لم يقتصر نفوذ اجنس على الأمور الخاصة

---

(١) Ernoul, p. 59.

بالأسرة الملكية، وإنما امتد إلى درجة سيطرتها على تعيين أكبر سلطة دينية وأخطرها في المملكة. وهو البطريرك. فعندما مات البطريرك عموري دنسل في أكتوبر ١١٨٠م/ جمادى الأول ٥٧٦هـ اختارت هيئة رجال الدين بكنيسة القيامة في بيت المقدس تحت ضغط اجنس على ابنها، هرقل رئيس أساقفة قيسارية ليخلف عموري في البطريركيه[١]. رغم ما ألصق به من صفات سوء السلوك وعدم الشرف والمرؤه والفسق[٢]. وبذلك أصبحت السلطة في مملكة بيت المقدس مركزه في أربع قوى رئيسية هي: آل كورتناي وعلى رأسهم اجنس، وآل لوزجنيان برياسة جاي لوزجنيان باعتباره المرشح لتولي عرش المملكة، ثم هرقل بطريرك بيت المقدس الذي سيظل تابعا مخلصا يدين بالولاء التام لآل كورتناي لتاييدهم الشديد له ورفضلهم عليه في التعيين في منصب البطريرك. وأخيرا رينالداوف شاتيلون Renald of Chatilon المعروف في المصادر العربية بارناط صاحب الكرك[٣].

وجدير بالذكر، أن المؤرخ اللاتيني المجهول صاحب كتاب الإمبراطور هرقل قد ارجع سبب إنحياز اجنس إلى البطريرك هرقل إلى العلاقة المشينة بينهما منذ فترة زواجها من الملك

---

(١) Ibid., p. 82, cf also: Richard, op. cit., p. 167, Benjamin, op. cit., p.188.

(٢) Crousset, op. cit., II, P. 765, Riley – Smith, The Hnights of St. John in Jerualem and Cyprus, p. 81, Setton, op. cit., I, p. 517.

(٣) Grousset, op. cit., II, p. 765.

عمورى[1]. ولكن يجب أن ننظر إلى هذه الرواية بعين الحذر لأنه ليس من المعقول أن تصل مثل هذه الشائعة إلى الملك بلدوين دون أن يكون كارهًا أو مشمئزا أو حتى رافضا تعيين عشيق أمه فى هذا المنصب الخطير، مهما بلغ تأثير أمه عليه. ولذا فإننا نرى أن تاريخ هرقل باعتباره مكملا لتاريخ ولسم الصورى فقد نقل هذا الرأى عنه، والمتضمن الحقد والكراهية لاجنس لأنها كانت السبب فى أبعاده عن منصب البطريركيه بتأييدها هرقل.

وقد بلغ من نفوذ اجنس أيضا أنها كانت تتحكم فى دخول وخروج الأمراء والبارونات إلى الملكة عند مقابلة الملك. فعندما رغب ريموند الثالث صاحب طرابلس فى لقاء الملك عام ١١٠٠م/٥٧٨هـ رفضت الملكة الأم دخوله إلى أرض المملكة بسبب عدم اتصاله بالقصر أكثر من عامين، فضلا عما بدر منه فى رفضه مد يد العون إلى المملكة خلال هذه الفترة، فأوهمت الملك بأنه يدير مكيده للتآمر على حياته. فغادر ريموند مرة أخرى إلى إمارته وهو حانق على اجنس، وقد تفاقمت المشكلة بين الطرفين[2].

وفى رأينا أن هذا لم يكن هو السبب الحقيقى وراء الموقف

---

(١) Wiliam of Type, op. cit., II, p. 489, cf. also: Ruley-Smith, op. cit., p.104.

(٢) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 460, cf. also: Brundage, The Crusades, p. 145.

العدائى الذى اتخذتــه اجنـس مـن طرابلـس. وإنمـا يكمـن السـبب وراء غيرتها الشديدة منه لأنـها شـعرت أن فـى توليـه نيابـة الملكـة بسـبب إصابة الملك بمرض الجذام إنما يحد مـن سـلطاتها ونفوذهـا علـى ابنـها. ويبدو أنها قد اختارت هذه الحيلة لكى تتخلص منه، حتـى يخلـو لهـا الجو فى إطلاق سلطانها على المملكة كلها دون مراعـاة وجـود نـائب لهـا مستنده فى ذلك على تدهور صحة ابنها.

لم يقبل بارونات المملكة هذا الموقف بسـهولة، وإنمـا خشـوا مـن زيادة نفذ اجنس خاصة وأن صحة الملك كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم، ولم يعـد قـادرا علـى تدبـير أمـور المملكـة. فحـاول البارونـات الاتصـال بالكونت ريموند لتهدئة ثورته وغضبه. وفى نفس الوقـت نجـح مجلـس البلاط الملكى فى إقناع الملك بضرورة اسـتدعاء صـاحب طرابلـس وتصفيـة الأمور معه. وبذلك عاد السلام مرة أخرى بالمملكة[1] وعندما اشتد المرض على الملك بلدوين، ولم يعد بوسعه أن يستخدم ذراعية وساقية، نجحـت أمه واخته سبيلا بتأييد من البطريرك ان يقنعوه فى ان يعـهد بالوصايـة على العرش إلى جـاى لوزجنيـان زوج سـيبيلا. وبالتـالى صـارت السـلطة التامة على المملكة إلى جاى لوزجنيان باستثناء بيت المقدس الذى اختص بها الملك لنفسه. وقبل بارونات المملكة هذا القرار باشمئزاز كبير[2].

---

(١) Wiliam of Tyre, op. cit., II, p. 460, c. also: Brundage, The Crusades, p. 145.

(٢) Wiliam of Tre, op. cit., II, p. 492, cf. also: Aubé, op. cit., p. 336.

ولا شك أن هذا التعيين لم يؤثر قط على نفـوذ اجنـس طالما أنـها تملك السيطرة علـى ابنتـها سيبيلا، وفـى نفس الوقـت تضمـن ولاء وإخلاص جاى لوزجنيان لهـا صاحبـة الفضـل فـى إسناد الوصايـة علـى العرش.

ولكن يبدو أن سلوك جاى تجـاه بارونـات المملكـة قـد أثـار الملـك وجعله يتحين الفرصة المناسبة لعزله مـن الوصايـة. وحـدث هـذا عندما رفض جاى ان يحقق رغبة الملك فى منحه مدينة صـور مقـابل ان يسـلمه مدينة بيت المقدس. ولذا فقد أسرع الملك وهو فـى شـدة غضبـه باسـتدعاء كبار رجال المملكة وقرر أمامهم فى مـارس ١١٨٣م/ ذى الحجـة ٥٧٨هـ عزل جاى من الوصاية على العرش وإحلال بلدوين ابن اخته سيبيلا مـن زوجها السابق وليم اوف مونتفرات محله. ولم يكن بلدويـن وقتـذاك قـد تجاوز السادسة من عمره. وقرر الملـك أن يسـتأنف تسـيير أمـور المملكـة بنفسه رغم عجزه عن الحركة[1].

وفى أوائل سنة ١١٨٥م/٥٨١هـ عندما أحس الملك انه يدنوا أجلـه وأن الأمل ميؤس فى شفائه، أعلن وصيته أمام مجلس البارونات فقرر أن يخلفه على العـرش ابـن اختـه بلدويـن علـى أن يتـولى الكونـت ريمونـد الثالث صـاحب طرابلـس منصب الوصايـة علـى الملـك حتـى يبلـغ السـن القانونى لتوليه أمور المملكة بنفسه. وقصد الملك من وراء ذلك أن يحجـب

---

(١) Richard, op. cit., p. 170, Runciman op. cit., II, pp. 439-440.

عن جاى الفرصة فى الوصاية على عرش المملكة[1]. ولكن صاحب طرابلس رفض أن يبقى فـى الوصايـة حتـى لا يمـوت الصبـى الصغـير وهـو الـذى اشتهر بسوء صحتــه فيجـرى اتهامـه بأنـه عجـل وفاتـه. وأمـام إصـرار الكونـت علـى الرفـض اضطـر مجلـس البارونـات إلى اسـناد الوصايــة إلى جوسلين اوف كورتناى، خال الملك[2]. وبذلك تكون اجنس قـد احتفظت بنفوذها وسلطاتها مدة أطول فى ظل حكم حفيدها ووصايـة أخيـها حتـى وفاتها علم ١١٨٦م/٥٨٢هـ.

وفى نفس الوقت طلب الملك من البطريرك مساعدته فى أمر إلغـاء زواج سيبيلا من جـاى لوزجنيـان حتـى لا تتـاح أيـة فرصـة لوصولـه إلى العرش. ولكن لما علمـا هـذا الأمـر لم يستسلما لـه، وإنمـا هربـا معـا إلى عسـقلان ورفضـا أن يعـودا مـرة أخـرى حتـى عندمـا اسـتدعاهما الملـك للمحاكمة وبالتالى فشلت خطة الملك فـى التفريـق بينـهما، لأنـه لايمكـن على الإطلاق طبقا للقوانين المتبعة حينذاك النظر فـى فسـخ الـزواج مـا لم يحضرا الزوجان معا[3].

مات بلدوين الرابع بعد رحلة طويلة وشاقة من المرض فى مـارس ١١٨٥م/ ذى الحجة ٥٨٠هـ، وتم تتويج ابن اخته بلدوين الخامس ملكا

---

(١) Eracles, P. 10, Cf. also: Grousset. Op. cit., II. P. 759, Richard, op. cit., p. 170, Brundage, op. cit., p. 150.

(٢) Runciman, op. cit., p. 443.

(٣) Wiliam of Tyre, II, p. 507-509.

على المملكة اللاتينية ولكنه لم يعمر طويلا، إذ وافته المنية فى العام التالى مباشرة أثناء تواجده فى عكا. وأصبحت الأمور كلها ميسرة لكى تتولى والدته سيبيلا عرش المملكة. ولكن البارونات لم يقبلوا جاى لوزجنيان ملكا عليهم. واجتمعوا ذات يوم واتفقوا فيما بينهم على ضرورة فصل جاى عن زوجته بسبب أيلوله المملكة غليها، ورغبوا فى تزويجها من رجل آخر يكون أصلح من جاى لتولى أمور المملكة معها. وقد تم لهم ما أرادوا وفرقوهما ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم على الشخص الذى يزفونها إليه، وانتهى بهم الأمر إلى ترك المسألة للملكة ذاتها، وتعطى التاج لمن تريده ملكا معها[1].

على أية حال بعد وفاة الملك بلدوين الخامس تظاهر جوسلين أمام الكونت ريموند الثالث بأنه حريص على التعاون معه، وأقنعه بالتوجه إلى طبرية لدعوة بارونات المملكة للاجتماع به بعيدا عن مؤامرات البطريرك. وتعهد هو بنقل جثمان الملك من عكا إلى بيت المقدس. وبذلك يكون ريموند قد وقع فى الفخ الذى نصبه له جوسلين لإبعاده من عكا إلى بيت المقدس. فمضى ريموند فى طريقة إلى طبرية. وعند ذاك أرسل جوسيلين جثمان الملك فى راية جماعة الداوية إلى بيت المقدس، بينما خرج هو على رأس قواته متجها إلى بيروت التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للكونت ريموند واستولى عليها. ثم أرسل إلى سيبيلا وأخبرها

---

(1) Robert of Clary, The Conquest of Constantinople, translated by Edgar Holmes, p. 62.

بضرورة التوجه إلى بيت المقدس مع كل فرسانها لتحتلها حتى يسهل هذا عملية تتويجها ملكة[1].

وعندما علم ريموند بالخدعة التى تعرض لها توجه إلى نابلس ودعا إلى عقد المحكمة العليا للبارونات بها. وكان فى مقدمة الحاضرين باليان ديبلين وزوجته الملكة السابقة ماريا وابنتها ايزابيلا من الملك عمورى، وزوجها همفرى سيد تبنين وجميع بارونات الملكة. وأثناء اجتماعهم وصل مندوبين عن سيبيلا يحملون دعوتهم فى حضور حفل تتويجها ملكة على بيت المقدس. ولكنهم رفضوا الحضور، وأرسلوا راهبين من جماعة الإخوان السسترشيان لمقابلة بطريرك بيت المقدس وجيرارد فورت سيد الداوية. وروجر دى مولين سيد الاسبتارية لمنعهم من اتخاذ إجراءات التتويج حتى تنظر المحكمة العليا فى الأمر. ولكن الموجودين فى بيت المقدس لم يلتفتوا إلى هذا التهديد. وأصروا على مواصلة إجراءات تتويج سيبيلا[2]. وعند ذاك قاموا بإغلاق أبواب مدينة بيت المقدس وأقاموا عليها حراسة مشددة لمنع أى محاولة للهجوم عليها من قبل البارونات الموجودين فى نابلس. وعندما بدأ حفل التتويج أخذ سيد الداويه والأمير ارناط صاحب الكرك بيد سيبيلا وأوصلاها إلى القبر المقدس ليتم تتويجها بمعرفة البطريرك. وألقى ارناط خطبة على الحاضرين قال فيها "أيها السادة انتم تعلمون جيدا أن الملكة آلان بدون

---

(١) Ernoul, pp. 25-26, Eracles, p. 25.

(٢) Ernoul, p. 27, Eracles, p. 27.

وريث أو حاكم بعد وفاة كل من الملك بلدوين الرابع والملك بلدوين الخامس، ونحن نرغب فى تتويج سيبيلا ابنه الملك عمورى وأخت الملك بلدوين الرابع وأم آخر ملك من ملوكنا بلدوين الخامس، وهى موجودة الآن بيننا فهى أقرب المستحقين لوراثة العرش". وعند ذاك أجاب الحاضرون في صوت واحد" أننا نحب ابنه الملك عمورى أكثر من أى شخص آخر[1]. وعلى الفور ابتدأ البطريرك فى إجراءات التتويج. وطلب من مقدمى الداوية والاسبتارية تسليمه مفاتيح الصندوق المحفوظ به التاج الملكى، لأنه دائما تكون فى عهده مقدمى هاتين الجماعتين، فوافق الأول، بينما أصر الثانى على عدم تسليمه المفتاح الذى فى عهدته إلا بعد موافقة بارونات المملكة الموجودين فى نابلس. وبعد مناقشات طويلة بين الحاضرين وسيد الاسبتارية اضطر إلى قذف المفتاح بعيدا، فأخذه البطريرك وأحضر التاجين الملكيين. ونظرا لما يكنه الناس من كراهية تجاه جاى لوزجنيان قام البطريرك بتتويج سيبيلا وحدها[2]. وبعد ذلك وضع التاج المخصص للملك بجانبها وقال لها "لك الآن أن تختارى الرجل الجدير بك ليتولى حكم المملكة بجانبك وتضعى هذا التاج فوق رأسه"[3]. وقد أخذت الملكة التاج بين يديها وقلبت ناظريها فى الحاضرين حتى أبصرت جاى فتقدمت نحوه وقالت له لن أجد أفضل منك لمعاونتى فى إدارة المملكة". فركع أمامها ووضعت التاج على رأسه وكان

(١) Ernoul, p. 28, Eracles, p. 28.

(٢) Ernoul, pp. 28-29, Eracles, pp. 28-29.

(٣) Ernoul, p. 29; Eracles, p. 33.

ذلك يوافق الجمعة نصف سبتمبر ١١٨٦م/١٣ جمادى الآخر ٥٨٢هـ[1].

وعندما وصلت أنباء تتويج سيبيلا وجاى ملكين على مملكة بيت المقدس إلى البارونات المجتمعين فى نابلس اقترح عليهم الكونت ريموند صاحب طرابلس بالتوجه جميعا إلى بيت المقدس وفى صحبتهم همفرى اوف تورون وزوجة ايزابيلا، ابنه الملك عمورى وأخت الملكة المتوجه، والعمل على تتوجها هناك طالما أن معظم بارونات المملكة وفى مقدمتهم سيد الاسبتارية غير موافقين على تتويج جاى[2]. ولكن عندما علم همفرى بهذا الأمر لم يقبله وترك المدينة ليلا مع جماعة فرسانه دون أن يشعر به أحد وتسلل إلى بيت المقدس وقابل الملكة سيبيلا ولكنها لم ترحب به فى بداية الأمر لمعارضته إجراءات التتويج وعدم حضوره الحفل وانحيازه إلى جانب بارونات المملكة المجتمعين فى نابلس ولكن عندما علمت منه حقيقة الأمور وبعدم رغبته فى الانقياد وراء مطلبهم أظهرت عفوها ورضاها عليه، وطلبت منه الوقوف بين يدى الملك جاى وتقديم فروض الولاء والطاعة له، فلم يتردد فى ذلك. واستقر بعد ذلك فى بيت المقدس[3]. وعدما علم البارونات فى نابلس بما حدث اضطروا آسفين للتوجه إلى بيت المقدس وأعلنوا ولاءهم للملكين معا[4].

---

(١) Idem., Robert of Clary, op. cit., p. 62.

(٢) Ernoul, p. 30.

(٣) Ibid., pp. 31-32, Eracles, p. 31.

(٤) Ernoul, p. 32.

ليس هناك أدنى شك فى أن تتويج سيبيلا وجاى جاء ضربة كبرى موجهة إلى ماريا كومنين لأنها كانت تضع كل آمالها فى أن تصبح ابنتها ايزابيلا ملكة على بيت المقدس بدلا من أختها سيبيلا لتتاح لها فرصة استعادة سلطتها التى لم تتمتع بها طويلا أثناء وجودها ملكة مع زوجها عمورى الأول. ولذلك كان صدرها يمتلىء غيرة وحقدا على الملكين المتوجين[1].

وكانت الملكة سيبيلا تشارك زوجها فى معظم أمور المملكة، ولكن لم يستمر هذا طويلا، إذ أسر فى موقعة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ واعتقل فى نابلس. وعندما دخل صلاح الدين بيت المقدس نجح رجاله فى أسر الملكة وماريا كومنين، ولكن صلاح الدين عاملة معاملة طيبة تليق بمكانتيهما، بل سمح للملكة سيبيلا بأن تلحق بزوجها فى نابلس وتعيش معه طوال فترة اعتقاله[2]. وبعد أن أطلق سراح جاى عام ١١٨٨م/٥٨٤هـ، لم يطل العمر بزوجته إذ وافتها المنية فى يوليو ١١٩٠م/جمادى الأولى ٥٨٦هـ. وبذلك أصبحت أختها الأميرة ايزابيلا هى الوريثة الوحيدة لعرش مملكة بيت المقدس. واعتقد جاى فى أحقيته بالاحتفاظ بالتاج معتمدا فى ذلك على كونه ملكا متوجا يدين له بالولاء كثير من اتباعه، ولكن يبدو أنه لم ينتبه إلى أنه لم يفز بالتاج إلا باعتباره زوجا للملكة سيبيلا. فهى التى اختارته دون موافقة ورغبة

---

(١) Eracles, pp. 30-31.

(٢) Ernoul, p. 85.

بارونات المملكة أو بطريرك بيت المقدس. ولذا فقد انتهز أعداء جاى هذه الفرصة وطالبوا بعزلة من الملك لموت زوجتـه صاحبـة قـرار تتويجـه مـن ناحية، ولأنهم ألقوا عليه اللوم فى سبب هزيمتهم فى موقعة حطين مـن ناحية أخرى وطالبوا بتتويج ايزابيلا وزوجـها همفـرى اوف تـورون[١].

ونظـرا لضعـف شـخصية همفـرى وجبنـه وتخليـه عـن بارونـات المملكة حينما كانوا مجتمعـين فـى نـابلس يبحثـون أمـر تتويـج سـيبيلا وجاى، فقد ابتعد عنه كثـير مـن بارونـات المملكـة وانحـازوا إلى جـانب المركيز كونراد دى مونتفرات صاحب صور مؤيدين زواجه من إيزابيـلا، بعـد انفصالهـا عـن زوجـها، وتتويجـه ملكـا عليـهم. وقـد بـدأوا للتخطيط لفسخ الزواج بين ايزابيلا وهمفرى، فطعنوا فـى صحـة شرعية الزواج مسـتندين فـى ذلـك إلى أن عقـد الـزواج قـد تم ولم تبلـغ العـروس أكثر من ثمان أعوام. كما أنها وافقت رغم إرادتها بناء على تأثير أخيـها الملك بلدوين عليها. وقد شهدت والدتا الملكة السابقة ماريا أمـام المنـدوب البـابوى بـهذا. فوافـق أخـيرا علـى إصـدار قـرار بإبطـال الـزواج بـين الطرفين، بعد أن نجح البارونات فى إقناع همفرى بعدم صلاحيته لتـولى امور المملكة فى هذه الفترة بالذات لأن المملكة كانت تمر بأزمات عصيبة مما يستلزم وجود حاكم قوى له شخصية متميزة تساعده على رفع شأنها والوقوف فى وجه أعدائها[٢].

---

(١) Riley-Smith, op. cit., p. 114.

(٢) Eracles, pp. 151-152, Ernoul, pp. 267-268.

كانت إيزابيلا مترددة كثيرا فى الموافقة على الابتعاد عن زوجها بسبب حبها الشديد له. ولكن نتيجة لضغط أمها عليها خضعت فى نهاية الأمر لرغبتها ووافقت على الانفصال عن زوجها حتى تسود السلام أنحاء المملكة(١).

وبمجرد انفصال ايزابيلا عن زوجها همفرى أعلن مجلس البلاط الملكى حقها الشرعى فى وراثة العرش، وتم زواجها من المركيز كونراد دى مونتفرات(٢). ولم يتم تتويجها بسبب انقسام المعسكر الصليبى إلى جبهتين: الأولى يرأسها الملك الفرنسى فيليب أوغسطس ومعه كثير من بارونات المملكة وفرسان الداوية وهم يؤيدون تتويج كونراد دى مونتفرات. أما الجبهة الثانية فكانت برياسة الملك الإنجليزى رتشاد قلب الأسد ويؤيده جماعة الفرسان الاسبتارية وعدد من بارونات المملكة وهم يؤيدون جانب جاى لوزجنيان. وأمام هذا الانقسام الخطير الذى هدد سلام المملكة وأمنها، اضطر الملكان فيليب ورتشارد إلى إصدار قرارهما بأن يظل جاى لوزجنيان ملكا على بيت المقدس طوال حياته فقط دون أن يورث منصبه إلى فرد من أسرته، ثم ينتقل التاج بعد ذلك إلى كونراد وإيزابيلا ونسلهما، على أن يقتسم الطرفان موارد مملكة بيت المقدس خلال استمرار حكم جاى. وإذا ماتت الأطراف الثلاثة يتولى الملك ريتشاد تدبير أمور المملكة خلال فترة وجودة فى الشرق(٣).

---

(١) Grousset, op. cit., III, pp. 42-43.

(٢) Riley-Smith, op. cit., p. 116.

(٣) Ibid., p. 117.

وجدير بالذكر، أنه على الرغم من أن كونراد دى مونتفرات كان لايمد يد العون والمساعدة إلى الملك رتشاد محاولا هدم سياسته فى الشرق، فقد اقتنع الملك الإنجليزى بعدم كفاءة جاى لوزجنيان فى تحمله مسئولية حكم المملكة، وأن كونراد أجد منه فى ذلك. ولذلك وافق الملك الإنجليزى على تتويج كونراد فى الحال. وعندما شعر جاى بتغيير رأى رتشارد وتخليه عنه فى تأييده على عرش المملكة اللاتينية، طلب منه منحه قبرص تعويضا له عن فقده عرش بيت المقدس عندما سيتم تتويج جاى فوافق الملك على ذلك[1].

ورغم أن كل الأمور أصبحت ممهده لتتويج كونراد ملكا على بيت المقدس بجوار ايزابيلا، إلا أن العمر لم يمتد به طويلا إذا اغتيل على أيدى اثنين من الفداوية الإسماعيلية عام ١١٩٢م/٥٨٨هـ[2].

لاشك أن مصرع كونراد جاء ضربة موجهة إلى المملكة اللاتينية، ولكن إيزابيلا أصبحت حرة فى أن تتزوج وأن تنقل التاج إلى مرشح آخر لا يتعرض لمثل ما تعرض له كونراد من المنازعات والصراعات الداخلية بين بارونات المملكة. فكان هذا الرجل هو هنرى كونت شامبانيا ابن أخت الملك الإنجليزى ريتشارد. وقد رحبت به إيزابيلا استجابة لرأى أهالى المملكة[3].

---

(١) Eracles, p. 160.

(٢) لمزيد من المعلومات عن كيفية اغتيال المركيز كونراد أنظر: أسامة زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية، ص ٢٢٧-٢٣٥.

(٣) Eracles, p. 194, cf also: Riley-Smith, op. cit., p. 119.

ولم يستمر هنرى فى الحكم طويلا، إذ لقى مصرعه فى العاشر من سبتمبر ١١٩٧م/ الثانى من ذى القعدة ٥٩٣هـ أثر وقوعه من نافذة القصر فى الطابق العلوى[1]. وقد رأى بارونات المملكة ضرورة المبادرة إلى اختيار حاكم جديد ليحل كل مشاكل المملكة، خاصة وأنه لم يبق على قيد الحياة من أطفال إيزابيلا من هنرى سوى ابنتين صغيرتين هما اليس وفيليبا. أما ماريا ابنتها من كونراد فلم تكن تتجاوز الخامسة من عمرها. وبعد كثرة الجدل والمناقشات بين بارونات المملكة حول اختيار زوج للملكة إيزابيلا، انتهى الأمر بترشيح ايمرى لوزجنيان ملك قبرص. ورغم أنه أخو جاى إلا أنه كان يفوقه فى الكفاءة والمقدرة وقد تمت موافقة بارونات المملكة على الزواج. ولكن بطريرك بيت المقدس عارض هذا الزواج استنادا إلى أن جاى لوزجنيان كان متزوجا من سيبيلا أخت الملكة، كما أن همفرى اوف تورون مازال على قيد الحياة. وفى نهاية الأمر رضخ البطريرك لرأى الأغلبية ووافق على اتمام الزواج بعد الحصول على موافقة الكنيسة. وفى يناير ١١٩٨م/ صفر ٥٩٨هـ تم تتويجها فى احتفال كبير ملكا وملكة على بيت المقدس[2]. ولم ينعم الملك طويلا بمكانته الرفيعة، ففى إبريل ١٢٠٥م/ رمضان ٦٠١هـ مات بعكا عقب إسرافه فى تناول

---

(١) Ernoul, p. 306, Eracles, p. 220.

(٢) Eracles, pp 221-223, Ernoul, pp. 309-301, cf. also: Riley-Smith, op. cit., p. 150.

وجبه سمك[1]. وانتقلت السلطة بوفاته دون نزاع إلى الملكة إيزابيلا التى لم يبغ بها الوجد على زوجها الأخير ما يمنعها من تقلد زمام الحكم. غير أنها لم تعش طويلا بعد وفاة زوجها- وقد اكتنف الغموض تاريخ وفاتها مثلما اكتنف الغموض معظم حياتها. وخلفها فى حكم بيت المقدس خمس بنات، ماريا مونتفرات، واليس ثم فيليبا ابنتا هنرى اوف شامبانى، سيبيلا ومليسند لوزجنيان.

وهكذا انطوت آخر صفحة من صفحات تاريخ ملكات بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى)، ونخلص منها بان العواطف والمشاعر الإنسانية والروابط الأسرية لم يكن لها أهمية كبيرة لدى المسيطرين على مقاليد الأمور فى المملكة اللاتينية. فأصبح كل ما يهمهم أن يغلبوا مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة للملكة حتى يضمنوا بقاء السلطة فى أيديهم أطول وقت ممكن، فنتج عن ذلك سلسلة كبيرة من الصراعات والمنافسات بين بارونات المملكة أدت فى النهاية إلى ضعف وانحلال مملكة بيت المقدس. هذا، فى الوقت الذى ظهرت فيه حركة اليقظة الإسلامية أيام عماد الدين زنكى، ثم من بعده ابنه نور الدين محمود ثم بلغت ذروة نضجها على يد صلاح الدين الأيوبى. فنجح فى توجيه الضربة القاصمة إلى المملكة اللاتينية فى موقعة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ واستولى على بيت المقدس ومعظم مدن الساحل الشامى وفقدت المملكة هيبتها الأولى وأصبحت لا تتمتع بأى قسط من الاستقلال الذاتى والحرية فى العمل كما كان الحال من قبل.

---

(١) Eracles, p. 395.

بيان بالمختصرات

R.H.C.-C. OCC : Recueil Historiens des Croisades Historiems Occidentaux.

R.H.C.-Doc.Arm: Recueil des Historiens des Croisades Documents Armenien.

A.O.L. : Les Archives de I'Orient Latin.

R.O.L. : Revue de I'Orient Latin.

D.O.P. : Dumberton Oaks Papers.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

أولا: المصادر:

Albert d"Aix, Historia Hierosolymitana, ed. R.H.C.-H.Occ., t. IV, psris, 1879 (PP. 265-713).

Anonimous Li Estoire de Jerusalem et d'Anitoch, Cf. R. H.C.H.Occ., V, p. 647.

Anonimous, The Burgandian Code, translated from the original by Ficher, C., Philadelphia, 1972.

Clary, R., The Conquest of Constantinople, translated into English by Edgar Holmes, New York, 1969.

Delavile le Roulex, (ed), Cartulaire General de L'Ordre des Hospitalers des st. Jean de

Jerusalem, (1100-1310), 4 vols, Paris, 1894-1906.

De Marsy, Fragment d'un Cartulaire de l'order de St. Lazare en Teree Sainte, Cf. A.O.L., t. II, Paris, 1884.

Du Cange, Les Familles: d'Outr mer, Ed, E.G.Rey, Paris, 1869.

English Historical Documents: Law of Canut, t. I. London, 1969.

Eracles, Li Estoire Eracles Empereur et la Conquest de La Terre d'outre mer. Ed.R.H.C.H Occ. T. II, Paris. 1859, pp. 1-481.

Ernoul, La Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier, ed. L. de Mas Latrie, Paris, 1871.

Fulcher of Chartres, A History of the expedition to Jerusalem (1095-1127), translated by Frances Rita Ryan, Tennessee, 1969.

Cregoire le pretre, Chronique de Grégoire le Pretre, Cf. R.H.C-Doc. Arm, Paris, 1869, (p.p. 152-201).

Guibert of Nogent, Gesta Dei Per Francos, Cf. R.H.C.-H Occ., IV, Paris, 1879.

Jean d'Ibelin, Livre de Jean d'Ibelin, cf. Assises de Jerusalem, t. I, Paris, 1841, (PP. 1-432).

Livre du rois, cf. Assises de Jerusalem, T. 1, Paris, 1841.

Mattew d'Eesse, Extraite de la Chronique de Mattew d'Edesse. Ed. R.H.C.-Doc. Arm, I, Paris, 1869 (pp. 1-150).

Pauli, S., Codice dipllomatico del Sacro milurare Ordine Gersolimitano, Oggi de Malta, 2 vols, Lucca, 1733-1737.

Procopius, History of the Wars, translated into English by H.B., Dewing, Cambridge, 1961.

Wiliam of Tyre, A History of Deeds Done beyond the Sea, 2 vols, translated by Babock, E.A., C. Kery, New York, 1943.

ثانيا: المراجع:

Aubé, p., Baudouin IV de Jeusalem, Le roi le preux, Paris, 1981.

Brundage, J., 1) Crusader's Wife: a Canonistic Quandary., cf. Studia Cratiana, 12 Wisconsin, 1967 (pp. 427-441).

2) The Crusades, New York, 1976.

Curtis, E., Roger of sicily, London, 1912.

Diehl, Ch., Le Romanesques aventures d'Andronicos Comnene, Figures Byzantine, Paris, 1948.

France, E., & Joseph, S., Women in the Middle age, New York, 1978.

Grousset, R., Histoire des Croisades, 3 vols, Paris, 1948.

Haskins, ch., The Normans in European History, New York, 1966.

Kedar, B., Outre mer, Studies in the History of the Crusading Kingdome of Jerusalem. Jerusalem, 1982.

Mayer, H., 1) Studies in the History of Queen Melisend of Jerusalem, Cf. D.O.P., 26, New York, 1972, (pp. 93-183).

2) Latins, Muslims and the Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem, cf. Journal of the Historical Association, t. 63, London, 1978 (pp. 175-192).

Norwich, J., The Normans in the South, London, 1981.

Power, E., Medieval Women, Cambridge, 1975.

Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, translated by Janet Shirley, Oxford, 1979.

Riley-Smith, 1) The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem (1174-1276), London, 1973.

2) The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus (100-1310), London, 1967.

Runciman, S., History of the Crusades, 3 vols, London, 1971.

Setton, K. M., History of the crusades, 2 vols, Philadelphia, 1985.

Stevenson, W. B., The Crusaders in the East, London, 1907.

المصادر والمراجع العربية والمعربة:

أولا: المصادر:

ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣.

ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال. ج١، القاهرة ١٩٥٣.

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية- ٢ج - القاهرة ١٣٨٧هـ.

ثانيا المراجع:

إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى. القاهرة ١٩٦٨.

أسامة زيد (الدكتور): الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية. الإسكندرية، ١٩٨١.

حسين مؤنس (الدكتور) نور الدين محمود، القاهرة، ١٩٥٩.

كوبلاند: الاقطاع في العصور لوسطى بغرب أوروبا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٤.

البحث الخامس

الأفكار السياسية للقديس
أوغسطين عن مدينة الله

تأليف
نورمان بينز
ترجمة وتعليق
الأستاذ الدكتور/ أسامة زكى زيد

كلمة المترجم

يحتوى هذا البحث على مقالة قمنا بنقلها إلى العربية وعنوانـها "الأفكار السياسية للقديس أوغسطين عن مدينة الله" تأليف نورمان بينز. وهى منشورة فى السلسلة العامة لمطبوعات الجمعية التاريخية الإنجليزية بلندن عام ١٩٦٢.

والمؤلف نورمان بينز غنى عن التعريف. فهو من كبار المؤرخين الغربيين المحدثين المهتمين بالتاريخ الوسيط وحضارته، وخلف لنا كثير من الكتب والبحوث[1].

وقد مهدنا لترجمتنا الحديثة بدراسة تحليلية تكون بمثابة خلفية تاريخية تساعد القارئ على فهم الموضوع من كافة جوانبه.. ورأينا تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام: الأول ويتناول الأثر الذى تركته الديانة المسيحية فى نفوس الناس، وما ترتب على ذلك من ظهور سلطتين كبيرتين هما البابوية والإمبراطورية. والثانى يتضمن نبذة عن حياة القديس أوغسطين وأحوال العالم الرومانى فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد عندما سقطت روما عام ٤١٠م فى أيدى القوط الغربيين إذ كان هذا الحدث سبباً لتأليف كتاب مدينة الله.

---

(١) من أهم مؤلفاته:

The By Zantine Empire (London, 1939); By zantine studies and other Essays (London, 1960); Constantine the great and the christian church (London, 1929).

أما القسم الثالث والأخير فقد خصصناه لإبراز أهم الجوانب التى تناولها القديس أوغسطين فى مؤلفه، والتى كانت خير معين للبابوية فيما بعد حينما احتدم الصراع بينها وبين الإمبراطورية حول المسائل العلمانية.

وقد اقتضى نقل هذا البحث إلى العربية تزويده بكثير من المعلومات والبيانات التى لم يتضمنها الأصل الإنجليزى وبخاصة بعض التعليقات فى الحواشى على عدد من النقاط التى قد تكون معروفة للقارئ الغربى.. ولكنها فى حاجة إلى المزيد من الإيضاح بالنسبة للقارئ العربى. وللتمييز بينها وبين حواشى المؤلف الأصلية فقد أضفنا كلمة المترجم بين قوسين أمام كل حاشية منها وقد ذيلنا المبحث بقائمة بأسماء المراجع العربية والمعربة والأجنبية التى اعتمدنا عليها فى الدراسة التحليلية وفى التعليقات فى الهوامش الأصلية.

والله ولى التوفيق،،،

أسامة زكى زيد

الأفكار السياسية للقديس أوغسطين
عن مدينة الله

شهد القرن الرابع الميلادى بعض التطورات الخطيرة التى كان لها أثرها فى تغيير وجه التاريخ الأوروبى القديم، وإن ظلت معالم هذا التاريخ باقية فى أوروبا إلى ما بعد القرن الرابع بكثير.. ولعل من أبرز هذه التطورات اعتراف الإمبراطورية الرومانية عام ٣١٣م بالديانة المسيحية كدين رسمى لها ونقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠م، ثم الخطر الجرمانى على حدود الدولة، إلى جانب الأزمات العديدة التى أنهكتها فى النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وقد ترتب على ذلك تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين عام ٣٩٥: إحداهما شرقى وعاصمته القسطنطينية والآخر غربى وعاصمته روما. وعلى ذلك يمكن القول بأن القرن الرابع يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كيفت تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، وهى الكنيسة والجرمان والإمبراطورية.

ولكن ترتب على الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية نتائج بعيدة المدى فى شتى مجالات الحياة. فمثلاً أدى مع مرور الزمن إلى ازدياد سلطة الكنيسة ونفوذها السياسى وتطور اللاهوت المسيحى وتقدمه كما أدى انتشار الديانة الجديدة بين طبقة المثقفين الذين الفوا التفكير الكلاسيكى وتمرسوا على طرق الجدل وأساليب المنطق

والفلسفة، إلى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية. فأخذ هؤلاء المثقفون يتساءلون عن كثير من تفاصيل العقيدة المسيحية مثل العلاقة بين الله والمسيح، وطبيعة الملائكة، والمقصود بالخير والشر، مما استلزم إرساء علم اللاهوت على أسس راسخة حتى يقتنع المثقفون من معتنقى المسيحية بالمعضلات والمشكلات اللاهوتية العويضة التى كانت تواجههم. وقد قام بهذه المهمة عدد من كبار مفكرى المسيحية وأهمهم القديس جبروم (٣٣١-٤٢٠) وكذلك القديس امبرواز (٣٤٠-٣٩٧)، والقديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م). وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية ولاسيما آراء الأفلاطونية الحديثة، فافادوا منها فى تبرير آرائهم والتدليل عليها، وتقديم العقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون[1]. كذلك أثرت الديانة المسيحية تأثيراً كبيراً فى الاتجاهات السياسية التى سادت الإمبراطورية الرومانية بالرغم أنها منذ البداية قد حصرت نطاق اهتمامها فى المسائل الدينية فحسب، دون النظر إلى أى من الأنظمة أو الأفكار السياسية[2]. فبعد أن تطورت وانتعشت السلطة الكنسية وقفت فى وجه السلطة العلمانية. ممثلة فى شخص الإمبراطور وبخاصة عندما حاول التدخل فى شئونها وتعاليمها. فوجد المسيحيون أنفسهم أمام طريقين: أما أن يطيعوا الله، وأما أن

---

(١) Duchesnem Histoire Ancienne D'Eglise, III, p. 18; Painter, A History of the Middle Ages, p. 15.

(٢) جورج سباين: تطور الفكر السياسى، ترجمة د. حسن جلال العروسى، جـ٢، ص٢٠٢.

يطيعوا الحاكم، وكانوا يفضلون الطريق الأول فى وقت كانت فيــه الـروح تفوق الجسد.. ومن ثم نشأت فى المجتمع الغربى الوسيط سلطتان: الأولى دنيوية ويرأسها الإمبراطور، والأخـرى دينيـة ويرأسـها البابـا علـى أن تكون إدارة كل منهما طبقاً للقانون السـماوى والقـانون الطبيعـى[1]. كمـا ذاعت العبارة الواردة فى إنجيل متــى "أعطـى مـا لقيصـر لقيصـر ومـا لله لله"... وبذلك كان المسيحى خاضعاً لنوع من الالتزام الثنائى بين الله وبين الحاكم. وكان من تأثير المسيحية أيضاً، أن ظــهر مذهـب الغـايتين غايــة دنيوية متصلة بالدولة وغاية أبدية متصلة بالكنيسة[2]. وترتب على هذا أن ظفرت الكنيسة بالسـلطان والـثراء بفضـل مـا لهـا مـن عقيـدة وأخفـق الحكام العلمانيون نتيجة لاعتقاد الكثرة الغالبة من الناس – بما فى ذلك معظم هؤلاء العلمانيين أنفسهم – اعتقاداً حازماً بصدق الديانة المسيحية. ولكن ما كان أحد يتصور أن أياً من السلطتين تمـارس سـلطة اسـتبدادية. فكان الجميع يعتقدون أن السـلطتين إنمـا تخضعـان للقـانون، وتمـلأ كـل منهما مكاناً هامـاً فـى الحكومـة التـى قضـى الله أن يحكـم بـهـا الإنسـان والطبيعة. ويرى الفيلسوف جورج سباين أنه على الرغـم مـن ذلـك، فلـم تكن هناك جماعــة مـن النـاس تتكـون منـهم الدولـة ولا جماعـة أخـرى تتألف منهم الكنيسة، لأن الناس جميعاً كانوا ينضمــون إلى كـل منــهما.

---

(١) على عبد المعطى: الفكر السياسـى الغربـى، ص ١٣٣-١٣٤، جـورج سـباين: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٢١.

(٢) Barker, principles of social and political Theory, p. 7.

فلقد كان هناك مجتمع مسيحى واحد هو ذلك الذى نوه عنه القديس أوغسطين فى كتابه "مدينة الله" قضى الله أن يكون له رئيسان. البابا والإمبراطور، ومصدره أن للسلطات حكم روحى يقوم به رجال الكهنوت وحكم زمنى يقوم به الملوك[1].

وجدير بالذكر أن المسيحيين الأوائل قد ميزوا بين المملكة الروحية التى نادى بها، المسيح وبين الممالك والدول الأخرى. وكانت هذه التفرقة هى محور كتابات الحواريين الذين نادوا بضرورة طاعة الحكومات وأوضحوا أن الحكومة هى وسيلة تنفيذ إرادة الله فى الأرض. وقد سمح الحواريون بعدم طاعة الحكومة فى حالة تدخل الدولة فى شئون الكنيسة وتعاليمها، لأنه فى هذه الحالة تعرقل الدولة انتهاج تعاليم الله. ولما كانت طاعة الله هى الأفضل فإن عدم طاعة الحاكم فى مثل هذه الحالة واجبة[2].

ومن خلال تلك التطورات نشأت الآراء والأفكار السياسية فى العصور الوسطى حول العلاقة بين السلطتين الروحية والزمنية. وتبعاً لقوة الخلاف بين هاتين السلطتين، أى بين البابا والإمبراطور أو بين الكنيسة والدولة، تفاوتت شدة هذه الأفكار وقوتها. ولذا فقد انقسم الفكر السياسى فى هذه الفترة الزمنية إلى اتجاهين: الأول يدافع عن السلطة الدينية ويؤكد حقها الإلهى فى مراقبة أعمال الدولة والسلطة

---

(١) ج سباين: المرجع السابق، جـ٢، ص٣٢٢.

(٢) المرجع السابق، جـ٢، ص٢٠٢.

الزمنية. والثانى يدافع عن السلطة الزمنية معتمداً على أن الدولة ذات الأصل المقدس يجب أن يكون حاكمها وكيلاً عن الله فى الأرض، ومسئولاً أمامه وحده[1].

وقد عبر عن هذه المفاهيم خير تعبير كتاب القديس أوغسطين "مدينة الله". وبالرغم أن هذا الكتاب كان كلاسيكياً بالنسبة للنظرية السياسية التى سادت القرون الوسطى المبكرة بصفة عامة. فقد احتفظ بالكثير من نفوذه حتى النهاية[2].

وقبل استعراض أهم الآراء التى تضمنها الكتاب يحسن إلقاء نظرة سريعة على مؤلفه والظروف التى أحاطت به وانعكاس ذلك على الأفكار التى نادى بها.

يعتبر القديس أوغسطين من الشخصيات الهامة والبارزة فى تاريخ الكنيسة الغربية، واستمرت أعماله تؤثر بشكل واضح فى الفكر المسيحى الغربى منذ فجر المسيحية وحتى اليوم[3].

وتأثرت كثير من الكتابات والمؤلفات اللاهوتية والفلسفية الحديثة بأسلوبه وطريقته[4] وهو على حد قول برتراند راسل، يعد

---

(١) المرجع السابق، جـ٢، ص٢٠٥.

(٢) كولتون: عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف، ص ٢١٧.

(٣) Jackson, History of the Christian church, p. 490; stephenson, Medieval History, p. 98.

(٤) Hardwick, A History of the christian church in the Middle Ages, p.168.

ضمن أحد أربعة رجال يطل عليهم أساتذة الكنيسة الغربية[1].

ولد فى ١٣ نوفمبر من عام ٣٥٤م فى طاجست (Tagaste) من أعمال نوميديا[2] من أب وثنى يدعى باتريكوس (Patricus) وأم مسيحية اسمها مونيكا (Monica)[3]. وعندما بلغ السادسة من عمره أرسل إلى قرطاج ليتم دراسته الأولى واستمر بها حتى بلغ الثانية عشرة فأرسل إلى مدرسة قواعد اللغة فى مادورا Madaura، وهى مستعمرة صغيرة تقع على بعد ٢٠ ميل من طاجست تضم نخبة من الرومان المحنكين[4] وكان أوغسطين قد أخذ عن أمه منذ الصغر حب المسيح، كما تشبع من خلالها بالثقافة الدينية[5] وعندما شب ابتعد عن الكنيسة، وحاول أن يعد نفسه ليتبع مهنة أبية فى دراسة القانون. فعكف على دراسة قواعد اللغة اللاتينية وعلم البيان، وأجادهما إجادة تامة. أما بالنسبة للغة اليونانية، فقد أسف أوغسطين كثير لعدم إجادته لها لقلة استخدامها فى ذلك الوقت فى المدارس

---

(١) المقصود بهم جيروم (٣٣٠-٤٢٠م) والقديس امبرواز (٣٤٠-٣٩٧م) والبابا جريجورى الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) أنظر:

Russel, History of Western philosophy, p. 335.

(٢) تبعد الآن حوالى مائة كيلو متر من مدينة عناية بالجزائر.

(٣) Donald attwater, Saints, p. 55; Russel; op. cit., p. 344, chadwic, TheEarly church, p. 216.

(٤) Idem.

(٥) حسن حنفى حسنين: نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط، ص٣.

الإفريقية[1]. فضلاً عن أنه كان يساق سوقاً عنيفاً في دراسته لها. ويتوعدونه الوعيد القاسي والعقاب الأليم إذا ما تباطئ في اتقانها[2]. لذلك لم يعرف منها إلا القليل وبعد أن نال قدراً وافراً من الدراسة في المجالات السابقة اتجه إلى قرطاج ليكمل تدريباته القانونية بها. وقضى بها ما يقرب من ست سنوات (٣٧٦-٣٨٢م)... وهناك أظهر اهتمامه بدراسة الأدب[3].

وفي عام ٣٨٣م قرر السفر من قرطاج إلى روما، لأنه علم أن الفصول الدراسية هناك أكثر نظاماً، كما كانت الفوضى التي يحدثها الطلاب في قرطاج اكثر منها في روما مما يجعل التعليم شبه مستحيل. وبعد أن قضى عاماً في روما أرسله العمده سيمخوس إلى ميلان استجابة لرجاء تقدمت إليه به تلك المدينة تطلب معلماً لعلم البيان. وهناك في ميلان عرف القديس امبرواز[4] وتوطدت علاقتهما. وفي عام ٣٨٥م

(١) Stephenson, op. cit., p. 98.

(٢) Russel, op. cit., p. 346.

(٣) Stephenson, op. cit., Loc. Cit.

(٤) كان اسقفاً لمدينة ميلان في عهد الإمبراطور فالنتنيان الثاني (٣٧٤-٣٩٧م) وتميز بآرائه القوية في استغلال الكنيسة في المسائل الروحية ويقال أنه وقف معارضاً في وجه الإمبراطور عندما أمر بموجب تأثير أمه الإمبراطورة أوجستينا الاريوسية بالتنازل عن كنيستين في ميلان لإتباع المذهب الاريوسي هناك. وكانت الهرطقة الاريوسية قد انتشرت في شمال أوروبا ولاسيما بين القبائل المتبربرة.. أنظر: كولتون: المرجع السابق، حـ١، ص١٧٧، ج. سباين، المرجع السابق، جـ٢، ص٢٧٣.

لحقت به أمه مونيكا فى ميلان، وكان له الفضل فى التعجيل بخطاه نحو اعتناق المسيحية عام ٣٨٦م.. وفى ٢٤ إبريل عام ٣٨٧ تم تعميده على يد القديس امبرواز وفرحت أمه لذلك.. ولكنها لم تلبث أن لقيت حتفها. ومكث أوغسطين بعد ذلك بضعة شهور فى روما عاد بعدها إلى مسقط رأسه حيث أقام بها حتى ختام حياته، منصرفاً إلى حياة الرهينة وإلى كتاباته التى كان مكثاراً فيها[1] وفى عام ٣٩١م عندما زار مدينة هيبو (Hidpo) عرض عليه أسقفها فاليريوس (Valerius) تعيينه قسيساً بها، فوافق بعد إلحاحه عليه.. وفى عامم ٣٩٦م أصبح مساعداً للأسقف فاليريوس. وفى نفس العام تولى منصب الأسقف خلفاً لفاليريوس وامتد تأثير أوغسطين بعيداً فيما وراء مقاطعته، وأصبح أبرع قديس فى عصره حتى موته عام ٤٣٠م[2].

إن معلوماتنا عن فترة شبابه أكثر مما نعلمه عن معظم رجال الكنيسة فى بواكير حياتهم لأنه أنبأنا بها فى كتابه (الاعترافات) (Confessions) الذى يعتبر صورة واقعية ووثيقة هامة عن سيرته منذ طفولته حتى اعتناقه المسيحية فى الثامنة والثلاثين من عمره، أى فى

---

(١) Augustine, Confessions, translated by R.S. Pinecoffin, pp. 91. III. Cf. Also: Russel, op. Cit., pp. 346-348, Jackson, op. cit., pp. 493-496.

(٢) Confessions, p. 20; cf. also: Jackson, op. cit., p. 496; Stephenson, op. cit., p. 99.

راجع كذلك يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصور الوسطى، ص١٨.

الفترة الواقعة بين عامى ٣٤ و ٣٨٧م. وهذا الكتاب ألفه عـام ٤٠٠، وهـو مشهور فى الآداب العالمية لسـمو أسلوبه وقدرة تأثيره ودقـة التحليـل النفسانى، وعمق النظريات الفلسفية. إذ وضح فيه كيف ان الوثنـى وجـد خلاص نفسه فى تعـاليم المسـيح[1]. ونلمـس مـن هـذا الكتـاب، أيضـاً أن أوغسطين قد عاش طوال هذه المدة الزمنية حياة الخطيئـة وتلـوث شبابه بالرذائل غير أنه منذ أن اعتنق المسيحية إلى أن وافتـه المنيـة كـان يتسـم بأخلاق وعبادات نقية بسيطة، خالية من الترف والمظاهر. فكان من أبرز فضائله حماسته المتقدة ضد الهراطقة أياً كان لونهم، فشـن عليـهم حربـاً شعواء لا هوادة فيها[2].

وجدير بالذكر، أنه عندما كان غارقاً فـى اللـهو فـى قرطـاج عـام ٣٧٣م قرأ كتاباً لشيشيرون[3]. اسمـه هورتنسـيوس (Hortesius) وكـان

---

(١) Confessions, p. 111. Cf. als 20: Jackson, op. cit. P. 420, Lamonte, The world of the Middle Ages. P. 78.

راجع كذلك يوسف كرم: المرجع السابق، ص١٩.

(٢) Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, p. 558; La Monte, op. cit., Loc. Cit.

(٣) ولد عـام ١٠٦ ق.م وقتلـه مـارك انطونـى فـى عـام ٤٣ ق.م. وتشـمل مؤلفاتـه ثمانية عشر مجلداً نشرت عام ١٨٢٣ فى طبعة صغـيرة للجيـب. وفيـها ثلاثـة مجلدات تحتوى على مقالات فى البلاغة وستة مجلدات تتضمن الخطـب التـى كتبـت لإلقائـها فـى السـناتو أو المحـاكم، وأربـع رسـائل، وأربعـة مؤلفـات فلسـفية، ومجلـد مـن المقتطفات. لمزيـد مـن المعلومـات راجـع د. هــ. بـارو: الرومان، ترجمة د. عبد الرازق يسرى، ص ٦٦.

كاتبه يمزج فيه الفلسفة ببلاغته المعهودة، فيصورها علم وفضيلة ووسيلة للحياة السعيدة. واندفع أوغسطين فى طلب الحقيقة، حقيقة مصير الإنسان فقرأ الكتاب المقدس، ولكن لم يجد إلى نفسه سبيلاً لأن أوغسطين كان متشبعاً بالأدب، اللاتينى. ولذلك لم تعجبه لاتينية الكتاب المقدس. وكان متعلقاً بالدنيا ومتاعها فلم تهزه مبادئه. فظن انه وجد ضالته فى المانويه (Manichaeis) فانضم إليها[1] ولعل هذه

---

(١) يوسف كرم: المرجع السابق، ص ١٥، حسن حنفى حسين: المرجع السابق، ص٩، عبد الرحمن بدوى: فلسفة العصور الوسطى، ص١٧.

والمانوية مذهب شديد التمسك بمبدأ الثنائية القائل بوجود الهين فى الكون أحدهما للخير وآخر للشر، الأول يحكم العالم الروحى والثانى يحكم العالم المادى. وبعبارة أخرى فإن هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة. فهناك روح ومادة، ونور وظلام وخير وشر.. وهذا المذهب يجمع بين عناصر مسيحية وعناصر زاردشتيه فارسية تنادى بأن الشر شىء إيجابى متجسد فى المادة بينما الخير يتجسد فى الروح. ولعل هذه الديانة الفارسية موحاه من فكرة أن هناك قوتين تسيطران على العالم هما مبدأ الخير والشر، وأن الكائن الذى يتمثل فيه الخير هو الإله "اهورامازادا" وأن روح الشر تتجسد فى الإله "اهرمان" وكان الصراع بين القوتين ينتهى بانتصار الخير. والمانويون يدعون انهم أصحاب مذهب عقلى محض لتفسير العالم وتبرير وجود الشر، وللوصول إلى الإيمان عن طريق العقل المحض لمزيد من التفصيلات أنظر:

Russel, op. cit., pp. 325-326; cam. Med. Hist, VI, pp. 701-702; Chadwick, The early church, p. 169.

وكذلك سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ١، ص٦٧، حسن حنفى: المرجع السابق، ص ٩، نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٦، ص٤٣٩-٤٤١.

الخطوة ناتجة أيضاً، عن كثرة فضوله، واقناعه التام بحرية الفرد في اعتناق الدين الذى يتقبله عقله، لأنه في تعاليم المانوية معلومات كاملة وافرة، ورداً جامعاً على كل ما يدور في ذهنه، خاصة وأن الدعوة المانوية كانت تتمتع في القرن الرابع الميلادى بمكانة كبيرة[1]. واستمر أوغسطين معتنقاً للمانوية تسع سنوات. ولكنه كان يتحول عنها تدريجياً. لأن الشك بدأ يساوره في عقائدها وفي أسسها العقلية التي لم تكن كافية لاقناعة بصحة المذهب. وجاءت قراءاته للأفلاطونية الحديثة[2] خير منقذ له من ضلال المانوية. فقرر نهائياً تركها، خاصة بعد أن استمع في روما عام ٣٨٣م إلى وعظ أسقفها القديس امبرواز (Ambroise)، معتمداً على التفسير الروحي للكتب المقدسة. فتفتح قلبه له، إلا أنه ظل مغلقاً عن المسيحية وعقائدها، إلى أن أقر بعض رسائل القديس "بولس التي تبين أن الإنسان فريسة للخطيئة، وأنه لايمكن الخلاص منها إلا بفضل المسيح. فاكتشف أوغسطين عند ذلك ما

---

(١) Stephenson, op. cit., p. 98.

(٢) على الرغم من الإعجاب الكبير الذى شعر به أوغسطين بفلسفة أفلاطون، فلم يكن بمقدوره أن يصبح واحداً من الأفلاطونيين. إذ كانت معرفته بالفلسفة الأفلاطونية شحيحة لأنه لم يقرأ محاورات "أفلاطون في لغتها الأصلية باليونانية لعدم اتقانه التام لها، بل قرأ باللغة اللاتينية. فرأى المذهب الأفلاطوني في صورة شبيهة بالانعكاس فحسب. أى كما هو متضمن في كتاب شيشرون والكتاب الأفلاطونيين الجدد. لمزيد من التفصيلات انظر: أرنست كاسيرو، الدولة والأسطورة، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، ص١١٤، وما بعدها.

كان يبحث عنه، فتقبل المسيحية فى سبتمبر ٣٨٦م وتم تعميده على يد أستاذة القديس امبرواز حسبما أسلفنا[(١)].

ويعتبر تحول اوغسطين إلى المسيحية من الأحداث الهامة فى تاريخ المسيحية لأنها اكتسبت رجلاً نال إعجاب الجميع من ناحية شخصيته وعلمه وفلسفته وذكائه.

وكان العصر الذى يعيش فيه أوغسطين يتسم بالفوضى والاضطراب إذ أصبح المجتمع فى الإمبراطورية الرومانية جامداً لا حياة فيه... وكان المواطن الرومانى قد تخلى عن الكثير من حرياته السياسية.

---

(١) حسن حنفى: المرجع السابق، ص ٩، عبد الرحمن بدوى: المرجع السابق، ص١٨، انظر أيضاً:

Stephenson, op. cit., p. 99; Jackson, op. cit., p. 492; Chadwick, op. cit., p. 218.

ويرى يوسف كرم فى كتابه تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، ص١٩-١٧، أن الأفلاطونية لم تكن سبباً فى تحول أوغسطين إلى المسيحية لأنه كان قد آمن بها من قبل عندما وجد أن فى الكنيسة علامات بأربع تدل على أنها من عند الله. ففيها تتحقق نبؤات العهد القديم. ويتمثل فيها الكمال الروحى وتصنع المعجزات وهى قد انتشرت بالرغم مما لقيت من عنت هائل. أما بالنسبة لقراءة رسائل أفلاطون فقد أفادته فى حل مشكلات عقلية كانت تحول بينه وبين فهم المسيحية كما يجب ان تفهم. ويؤيد ذلك أنه توهم عند قراءته الأولى أنه وجد فيها العقائد المسيحية الكبرى، وهى غير موجودة بلا شك وأنه إنما فرح بالفلسفة الأفلاطونية لهذا السبب مما يدل على أنه كان مسيحياً بالقلب قبل أن يطلع عليها وانه قرأها بهذا الاستعداد.

قانعا بان يعهد بأمر الدفاع عن الإمبراطورية إلى المرتزقة من البرابرة. وفى غمرة هذا الاستهتار والانحلال كان هناك شىء واحد نما بقوة وثبات ألا هو الدين الجديد(١).

ولكن أدى الاعتماد على الجرمان البرابرة إلى تغلغلهم فى أجهزة الدولة الرومانية حتى وصلوا إلى أعلى المناصب بها، وأصبحوا قوة لا يستهان بها ومصدر خطر دائم. هذا فى الوقت الذى عاث فيه هؤلاء البرابرة فساداً على الحدود الشمالية للإمبراطورية وكثرت إغارتهم على تلك الحدود. وأخذوا ينهالون بجحافلهم فى جوف الإمبراطورية لينقضوا عليها مستغلين حالة الضعف والفوضى الشديدة التى عليها الإمبراطورية. وجاءت الضربة القاصمة ضد الإمبراطورية من القوط الغربيين الذين تمنوا بفضل زعيمهم الاريك (Alaric) من الاتجاه غرباً إلى إيطاليا واستولوا على روما عام ٤١٠م(٢).

وجدير بالذكر، أن البرابرة الجرمان عندما اجتاحوا الدولة الرومانية اكتسحوا أمامهم كل شىء فيما عدا الكنيسة ورجالها. فقد أبقوا على القس فى كنيسته والراهب فى ديره(٣). وضمنوا الأمان لكثير من الوثنيين الفارين إلى الكنائس واتخاذها ملاذاً لهم(٤). ولعل هذا

---

(١) كولتون: المرجع السابق، ص١٠.

(٢) Gibon, E., History of the Later Roman Empire, I, p. 180, Jackson Bur, op. cit., pp. 511-512.

(٣) Jackson, op. cit., p. 513.

(٤) Russel, op. cit., p. 353.

مرجعه إلى خوفهم الشديد من أن يصعب عليهم رجال الدين المسيحى لعنتهم فتحل بهم الكوارث هذا بجانب كونهم مسيحيين. وهكذا أصبحت تلك الكنيسة اللاتينية هى كل ما تبقى من الإمبراطورية القديمة بعد زوالها.

على أية حال، بسقوط روما تملك الناس حالة من الفزع والذهول العميقين، لأن الاعتقاد العام كان أن روما لا تقهر.. فأصبحت الفرصة سانحة لكثير من الوثنيين فى توجيه أصابع الاتهام إلى المسيحية باعتبارها المسئولة عما أصاب روما من جراء هذه الكارثة المروعة وإن الآلهة غضبوا على المدينة الكبيرة وتخلوا عن نصرتها لتهاونها فى إتمام شعائرها الدينية وتشجيعها على انتشار المسيحية فى إرجاء الإمبراطورية[(١)]. ولكن جاء كتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطين خير نصير للمسيحية، ورداً شاملاً على هؤلاء الوثنيين.

ويعتبر هذا الكتاب من أكبر الأعمال الأدبية والفلسفية تأثيراً فى الفكر المسيحى الغربى وقد استغرق إنجازه ثلاث عشرة سنة، بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦م[(٢)]. ويتكون الكتاب من اثنين وعشرين مقالة،

---

(١) Jackson, op. cit., p. 512, Hoyet & Chodorow, Europe in the Middle Ages, CAM. Med Hist., I, p. 115; Russel, op. cit., p. 353; Chadwick, op. cit., p. 225.

ومن المراجع العربية أنظر يوسف كرم: المرجع السابق، ص١٩، عبد الرحمن بدوى: المرجع السابق، ص٣٧.

(٢) Donald Attwater, op. cit., p. 56; Hool, op. cit., Loc. Cit. Cam. Med. Hist., I, p. 576.

خصص المقالات العشر الأولى منها لنقد الوثنية ومعتقداتها، وأخلافها ومذاهبها الفلسفية، موضحاً أن المسيحية لم تكن مسئولة على الإطلاق فيما أصاب روما من محن وأزمات، وإنما هذا مرجعه انتشار الوثنية فى ذلك الوقت، وإن هذه الآلهة الوثنية التى لا خلاق لها، وتلك الخرافات العالقة بطقوسها الدينية قد شجعت على انحلال الأخلاق، ومن ثم جلبت على الناس نقمة الله[1]. واستطرد قائلاً أن المجد الذى تمتعت به روما إنما كان بسبب مناصرة الله للرومان والمسيحيين المخلصين فى إيمانهم والذين نبذوا فكرة تعدد الآلهة وضلال الوثنية[2]. وقد اعتمد أوغسطين على كثير مما جاء فى التوراه والإنجيل كمصدر للدفاع عن المسيحية ضد الوثنية فى الأيام الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية[3] أما بالنسبة للإثنتى عشرة مقالة التالية، فيوضح فيها أوجه الخلاف بين مدينة الإنسان ومدينة الله. فهو يرى أن الأولى مبنية على حب الذات إلى حد امتهان الله، والأخرى مبنية على حب الله إلى حد امتهان الذات[4] فهناك مدينتان ترجع إليهما سائر المجتمعات البشرية: المدينة الأرضية أو مدينة الشيطان وهى من صنع الإنسان وتفتقد الكمال فضلاً عن تأصل الشر فيها[5].

والمدينة السماوية أو "مدينة الله" وبينهما منذ البداية حرب

---

(١) كولتون: المرجع السابق، ص٢١٨، يوسف كرم: المرجع السابق، ص١٩.

(٢) CaM. Med. Hist., I, p. 576.

(٣) Maurice Keen, The Pelicam History of Medi'eval Europe, p. 19.

(٤) CaM. Med. Hist., I; p. 576.

(٥) Thompson, History of the Middle Ages, p. 177.

هائلة تجاهد الأولى أى مدينة الإنسـان علـى نصـرة الظلم وتـأييد الطغيـان وتحبيذ الآثام، وتجاهد الثانية فى سبيل العدالة وتحقيق الفضيلة وتـأكيد الإيمان. ويرى أوغسطين ان هذه الحرب سوف تظـل قائمـة بـين المدينتـين حتى نهاية العالم، حيث يقوم المسيح بـالفصل بينـهما فـى آخـر الزمـان فتلقى الأولى جزاؤها فى النار، بينما تنعم الثانية بالسعادة الأبدية(١).

ويعتبر أوغسطين أن أصل هاتين المدينتين يرجـع إلى مـا قبـل خلـق الإنسان فمدينة الله وجدت بخلق الملائكة، ثم انتقلت أول الأمـر فـى الأمـة العبرية ثم تجسدت فـى الكنيسـة بينمـا المدينـة الأرضيـة ظـهرت بتمـرد الملائكة وتجسدت فى ظهور إمبراطوريات أشور وبـابل والرومـان(٢). فمنـذ خطيئة آدم يبدأ تـاريخ كـل مـن هـاتين المدينتـين. وعلـى ذلـك فـإن معظـم الجنس البشرى مواطنون بالمدينة الأرضية. أمـا الأقليـة الذيـن ينتمـون إلى المدينة السماوية فهم يعتبرون أثناء إقامتهم فى الأرض كغربـاء أو حجـاج فى المدينة الأرضية(٣).

ويرى أوغسطين أيضاً فى كتابة أن السـلام ليـس ممكنـاً إلا فـى مدينة الله كما أن الدوام غير ممكـن إلا فـى هـذه المدينـة ومـا مـن مملكـة أرضية إلا إلى زوال لأن بنيانها يقوم على جوانب الطبيعة الإنسانية التى لا تصدر إلا عن العدوان الجشع والرغبة فى التحكم والاستيلاء(٤).

---

(١) يوسف كـرم: المرجـع السـابق، ص٤٥، علـى عبـد المعطـى: الفكـر السياسـى الغربى، ص١٤١.

(٢) Bury, op. cit., I, p. 304.

راجع أيضاً ج. سباين: المرجع السابق، ص١٦٧.

(٣) Idem

(٤) كولتون: المرجع السابق، ص ٢٢٠.

على أنه ينبغي ان تتخذ الحيطة والحذر. وفق ما يـرى الفيلسـوف جورج سباين، لأن أوغسطين لم يرم إلى القول بأن مدينة الإنسان أو مدينـة الله كما صورهما تنطبقان عملياً على أية واحدة من المنظمات الموجودة فعـلاً. فلـم تكـن الكنيسـة بوصفـها مثـالاً ملموسـاً للمنظمـات الإنسـانية بالنسـبة لأوغسطين هي نفس مملكة الله التى عناها.. كما لم تكن الحكومة الدنيويـة هى مأوى الشـر التـى عناهـا فـى حديثـه عـن مملكـة الشـيطان. إذ لم يكـن متوقعاً من أحد ساسة الكنيسة الذين اعتمدوا علـى قـوة الإمبراطوريـة فـى محاربـة الإلحـاد، أن يـهاجم الحكومـــة فيصفــها بأنـــها تمثـــل مملكـــة الشيطان[1]. وقد كان أوغسطين يؤمن بأن كل سـلطة أرضيـة قائمـة بـأمر الله وتستمد سلطانها من الله مباشرة[2] وإن كان يؤمن أيضاً بأن اثم الإنسـان أدى بالضرورة إلى استعمال الحكومة للقوة والعنف. فكان هذا العنـف إذن دواء سماوى أرسل لعلاج الخطيئة[3]. ويترتب على ذلك أنه لم يتخيل أن هاتين المدينتين قابلتان للتجزئة، بـل ذهـب إلى أن المدينـة الأرضيـة هـى مدينـة الشيطان والأشرار من الناس جميعاً، والمدينة السماوية هى المجتمع الـذى يضم كل من تطهرت روحه وتخلص مـن الخطيئـة فـى هـذا العـالم والعـالم الآخر. وهو يرى أن هاتين المدينتين ستختلطان إذن، فى الحيـاة الراهنـة. ويشارك أعضاء المدينة السماوية فى مزايا المدينة الأرضية وأعبائـها. ولكـن

---

(١) ج. سباين: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٢) عبد الرحمن بدوى: المرجع السابق، ص٣٩.

(٣) Carlyle, Médiéval Political Theory in the West, I, p. 164.

راجع أيضاً: ج. سباين: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

الاختلاط ظاهرة بالرغم من هذه المشاركة. ذلك أن الخيرات المادية عند أهل المدينة الأرضية غايات يتنازعون عليها ويستمتعون بها لذاتها، وعند أهل المدينة السماوية هى وسائل يستخدمونها لصياغة حياتهم وتحقيق الغاية الحق التى هى الفضيلة والكمال الروحى[1].

وفى نفس الوقت تخيل أوغسطين مملكة الشيطان فى صورة الإمبراطوريات الوثنية وإن لم يقل بتطابقهما. كما فكر فى الكنيسة باعتبارها ممثلة لمدينة الله. بالرغم أن هذه الأخيرة لايمكن أن تطابق المنظمات الكنيسة مطابقة تامة. وكان من أكثر نواحى فكره تأثيراً ما اشترط توافره من الواقعية والقوة فى لكنيسة كمؤسسة منظمة. فإن المشروع الذى خططه لخلاص البشر ولتحقيق الحياة السماوية، كان يعتمد اعتماداً تاماً على واقعية الكنيسة كاتحاد يضم جميع المؤمنين. وقدرته على أن يلعب دوره فى تاريخ البشرية بوحى كلمة الله ورعايته. ولهذا السبب أعتبر أوغسطين ظهور الكنيسة المسيحية نقطة تحول فى التاريخ حيث أنها بداية لمرحلة جديدة فى الصراع بين قوى الشر والخير. ومنذ هذه اللحظة أصبح خلاص الإنسان مرتبطاً بمصالح الكنيسة كما أصبحت هذه المصالح فى مستوى أرفع من أية مصالح أخرى. ولذلك فإن تاريخ الكنيسة فى رأى أوغسطين هو بالتحديد "خط سير الله فى هذا العالم". ويرى أن الجنس البشرى ليس إلا أسرة واحدة. ولكنه لن يبلغ مصيره النهائى على الأرض بل فى السماء. وعلى هذا فإن الحياة الإنسانية ليست إلا مسرحاً لصراع مختلط بين الخير المتمثل فى

---

(١) يوسف كرم: المرجع السابق، ص٤٥-٤٦، ج. سباين: نفس المرجع والصفحة.

الإله. والشر كما يتمثل فى الأرواح الشريرة[1].

وفى نفس الوقت كان أوغسطين يرى أنه لايمكن أن تكون هناك دولة حقيقية بدون توافر العدل فيها. وإلا زال منها النظام والقانون. فهو يربط إذن بين فكرة العدالة ووجود المدينة الإلهية. فيرى أنه طالما أن المدينة الأرضية قد خلقت وقامت على الظلم بسبب اغتيال قابيل أخيه هابيل. فلا ينبغى أن نتوقع وجود العدالة فيها بمفهومها الواسع العام. لأنه إذا لم يكن هناك عدل بين الأفراد المكونين للدولة. فبدون شك ليس من الممكن أن يتوافر العدل فى الدولة نفسها. ولذا فهو شديد الإيمان بأنه ليس هناك عدل إلا فى المدينة الإلهية[2].

وجدير بالذكر أن لفظى "المدينة" و "الدولة" لم يكونا قد انفصلا بعد بصفة نهائية إلى اصطلاحين محددين. فكانت الإمبراطورية الرومانية فى رأى القديس أوغسطين عبارة عن مدينة (Civitas) وكذلك الكنيسة التى كانت لاتزال تطالب لنفسها بمزيد من السيادة العالمية مع الإقلال من السلطة المحلية[3].

ويخلص أوغسطين من وراء الأفكار التى قام بسردها فى كتابه "مدينة الله"، إنه إذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لا تزال بخير. وإذا كان بوسع البشر قتل الجسد فإن الروح لا قدرة لهم على المساس بها. وإن المدينة الأرضية تفنى كما

---

(١) ج. سباين: المرجع السابق، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٢) CaM. Med. Hist., VI, p. 630; Carlyle, op. cit., I, p. 164.

(٣) كولتون: المرجع السابق، ص ٢١٧.

يفنى جسم الإنسان. أما مدينة الله فإنها تدوم مع الروح[1].

تلك هى أهم الآراء التى تضمنها كتاب "مدينة الله" وكان الإقبال على قراءته فى الغرب كثيراً بعد الإنجيل طوال فترة العصور الوسطى[2].

ولا شك أن هذا الكتاب كان له أثر فعال على كل من الوثنيين من ناحية والكنيسة من ناحية أخرى. فبالنسبة للوثنيين فقد وقفوا منه موقف العداء وجادلوا اوغسطين بكل عنف موجهين إليه تهمة الهرطقة فى كل ما جاء به من آراء. ولكن رغم ذلك لم يتمكن أى منهم سلب أو زعزعة هذه الأفكار من عقول المؤمنين بكتابات أوغسطين حتى ولو عن طريق إخراج أى عمل مساو له فى القيمة رداً على ما أنتجه[3].

أما بالنسبة لأثر هذا الكتاب على الكنيسة الغربية فقد تمكنت إلى حد بعيد من تحقيق المثل الأعلى المتمثل فى "مدينة الله" بفضل ضعف الأباطرة وضعف الكثرة الغالبة من الملوك الغربيين فى العصور الوسطى.. أما فى الشرق فكانت قوة الإمبراطورية وسيطرته حائلاً دون اتمام هذا التطور، وظلت الكنيسة أكثر خضوعاً للدولة بعكس الحال فى الغرب عندما أصبحت الكنيسة دولة داخل الدولة بحكم الظروف التى أحاطت بنشأتها وتطورها[4]. وقد أشاعت الكنيسة الغربية عند ذاك بأن الدولة لا تستطيع أن تكون جزءاً من "مدينة الله" إلا إذا خضعت لها فى كل الأمور

---

(١) باراكلاف: الدولة والإمبراطورية. ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف، ص٤٥.

(٢) Maurice Keen, op. cit., p. 19.

(٣) Stephenson, op. cit., p. 101.

(٤) Russel, op. cit., p. 360.

الأمور الدينية[1]. هذا وقد ساعدت الخطوط الرئيسية لفكر أوغسطين وفلسفته المدرجان فى كتاب "مدينة الله" البابوية فى تأييد مطالبها وإدعاءاتها ضد الإمبراطورية. إذا اكتشفت فيه العديد من الحجج والأسانيد التى ارتكزت عليها الإبراز تفوق مدينة الله أى الكنيسة وعلى رأسها البابا على مدينة الإنسان أى الدولة وعلى رأسها الإمبراطور[2] وعلى ذلك يكون اوغسطين قد وضع فى مؤلفه فلسفة سياسية لأوروبا فى العصور الوسطى، موضحاً فيها الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية وظلت هذه الفلسفة قائمة حتى القرن الثالث عشر الميلادى. وخلاصة هذه الفلسفة من وجهة نظر البابوية أن الدولة قامت على أساس من الشر والغدر لأنها من صنع البشر، فى حين أن دولة المسيح المثلة فى الكنيسة الرومانية من عمل الله وعلى هذا تكون سلطة البابا وهو الحاكم الدينى وممثل الله على الأرض وخليفة القديس بطرس ورأس الكنيسة المسيحية الكاثوليكية فى مرتبة أعلى من تلك التى يتمتع بها منافسة الإمبراطور وهو الحاكم العلمانى ويترتب على ذلك خضوع التى يتمتع بها منافسة الإمبراطور وهو الحاكم العلمانى ويترتب على ذلك خضوع الدولة للكنيسة وخضوع الإمبراطور وغيره من الحكام الزمنيين للبابا[3]. ولذا يمكن القول أن نظرة القديس أوغسطين استمرت ماثلة خلال العصور الوسطى كلها، وإبان ازدياد سلطة البابوية وفى أثناء الكفاح بين البابا والإمبراطور حول الأمور الدنيوية، إذ أمدتها بالأساس

---

(١) Idem.

(٢) باراكلاف: المرجع السابق، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة، سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص٣٢٣.

النظرى الذى تقيم عليه سياستها[1].

وليس هنا مجال الدخول فى تفصيلات الكفاح بين البابوية والإمبراطورية الذى شغل أكثر من ثلاثة قرون من الزمان، وإنما يكفى القول أنه مر بعدة مراحل رئيسية امتدت بين عامى ١٠٧٣-١٢٥٠م، أى الفترة الواقعة بين حكم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) والبابا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م). وفى كل منها كانت البابوية تعمل على إذلال، الإمبراطورية والقوى العلمانية الأخرى فى الغرب[2].

وهناك العديد من العبارات الصريحة الواردة فى أقوال بعض البابوات نستدل منها على ان نظرة القديس أوغسطين وآرائه الموجودة فى كتاب "مدينة الله" استمرت ماثلة دائماً فى أفكار ذوى الطموح من رجال الكنيسة.. فنجد مثلاً البابا نيقولا الأول (٨٥٨-٨٦٧م) يقول إذا عجز الحاكم العلمانى عن المحافظة على السلام وجب على الكنيسة أن تتدخل فى الأمر وأن تتولى الحكم. بينما طالب البابا جريجورى السابع بأن تكون الدولة التى أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التى أسسها قابين (قابيل). ويضيف أن

---

(١) Russel, op. cit., Loc. Cit.

(٢) حول الصراع بين البابوية والإمبراطورية أنظر:

S. Mattews, Selecte. Medieval Documents (1900) pp. 122-129, 132-141; W. Stubs, Germany in the Early Middle Ages (1908), pp. 220-1; 223; & Germany in the Later Middle Ages (1908), pp. 38-40; 414; T.F. Tout, the Empire and the Papacy (1909), pp. 367-69; J. L, Ka Mont, The Medieval World of the Middle ages, p. 257-74; 391-94; N.F Cantor, The Medieval World (1963), 69-81; M. W. Baldwin, The Medieval Church (193), 85-9; E. Lewis, Medieval Political Ideas (1954), II, 432-435.

من حق البابا تعيين الأمراء فى مناصبهم الدينية واقطاعياتهم الدنيوية على السواء، ومن حقه أيضاً عزلهم منها. وبلغت هذه المبادئ المتطرفة ذروتها فى عهد اينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) عندما قال أن البابا خليفة الله والقديس بطرس على الأرض، وهو تلميذ المسيح وبيده وحده مفاتيح السماء. وأن الله عز وجل خلق فى الكنيسة سلطتين أولاهما سلطة البابوية لتشرف على رعاية أرواح اتباعها، وثانيتهما الملكية لتحكم فى الأجساد. ولكن سلطان الأولى يفوق بكثير سلطان الثانية فكما يستمد القمر ضوءه من الشمس كذلك نستمد الملكية قوتها من البابوية[١].

لاشك أن هذه المبادئ والآراء التى نادت بها الكنيسة، والتابعة مما أوصى به أوغسطين فى مؤلفة "مدينة الله" كان لها أثر كبير فى هيمنة الكنيسة الكاثوليكية بيد من حديد على مصائر الناس وعلى حياتهم الخاصة والعامة حتى أن كل من كان يخرج على تعاليمها وقيودها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب. وما أكثر أسلحتها التى كانت ترهب بها معارضيها من حرمان ولعنة وقطع[٢].

تلك هى أهم الآراء والنقاط التى تضمنها كتاب "مدينة الله" الذى ظهر فى أوائل القرن الخامس الميلادى. وفى عام ٤٣٠م أى بعد انقضاء أربع سنوات على الانتهاء من تأليفه، مات القديس أوغسطين أوف هيبو – أثناء حصار الوندال لمدينة هيبو[٣]. ودفن فيها. ولكن فى عام ٥٠٦م

---

(١) باركلاف: المرجع السابق، ص ٤٧-٤٨.

(٢) باراكلاف: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) الوندال هم إحدى القبائل الجرمانية وتتسم غزواتهم بالقسوة والعنف والوحشية حتى أصبح لفظ الوندالية (Vandalism) فى اللغات الأوروبية=

نقلت رفاته من هناك إلى ساردينيا. وظلت بها حتى أمر لويتبراند ملك اللومباردين عام ٧٢٥م بنقل الرفات من مكانة إلى جنوه أولاً ثم إلى بافيا بعد ذلك. وهناك تم بناء كنيسة تضم رفاته ورفات قديس آخر اسمه بيتر. ولكن تخليداً لذكراهما تم بناء كاتدرائية كبيرة فيما بعد تضممهما معا[١].

وبعد وفاته ببضعه شهور أشعل الوندال النار بمدينة هيبو. وكان من حسن الحظ أن النار لم تمتد إلى المكتبة فنجت من الحريق، وكانت فيها كل كتاباته الضخمة ومن بينها كتاب "مدينة الله" موضوع هذه الدراسة[٢].

وهكذا عاش أوغسطين ومات وهو أستاذ من أساتذة الكنيسة المسيحية ومؤسس الفلسفة الوسيطة، وتاركاً بصماته وتأثيره على الغرب المسيحى منذ أيامه وحتى وقتنا الحالى.

=الحديثة يستخدم مرادفاً للهمجية والوحشية. أسسوا مملكة لهم فى شمال إفريقيا سنة ٤٢٩م بقيادة ملكهم جنسريك فبعد اعتلاء جستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية نجح فى القضاء على هذه المملكة واستردها منهم سنة ٥٣٤م. أنظر: محمد الشيخ: الممالك الجرمانية فى أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٢٧-٢٩، سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٨٩ راجع أيضاً:

Oman, The Dark ages, pp. 7-9.

(١) Ludolph, Decription of the Holy Land, cf. Porlestine pilgrims' Text Society, pp. 22-23.

(٢) Gibbon, op. cit., p. 56.

وقد خلف أوغسطين ١١٣ كتاباً ومقالة وما يزيد عن مائتى خطاب وخمسمائة موعظة ولعل من أكبر أعماله كتاب الاعترافات الذى يعد ترجمة لسيرة حياته، فضلاً عن كتاب "مدينة الله" انظر:

Donald, op. cit., p. 6.

الترجمة العربية لكتاب

"مدينة الله"

(كتبت هذه المقالة لتكون واحدة في سلسلة المحاضرات النموذجية في المجالات السياسية والاجتماعية التي قام بتنظيمها فرع الجمعية التاريخية بجنوب غرب لندن. وقد اقترح فرع الجمعية الموضوع. ونسجت فكرة المحاضرة لتكون مدخلاً لدراسة الأدب الحديث).

وعندما شرع أوغسطين في كتابة هذه المقالة لم يكن في ذهنه أن يجعلها تمس النواحي السياسية أو الاجتماعية، فقد خصصها أصلاً للدفاع عن الدين المسيحي. وعلى ذلك فهي آخر التبريرات وأكبرها دفاعاً عن المسيحية في الفترة المبكرة من تاريخ الكنيسة. ولكن مما لاشك فيه أن العقيدة السياسية لعالم العصور الوسطى قد اشتقت من فكرة "مدينة الله" وأصبحت عبارات أوغسطين نداءاً وشعاراً للمناقشات السياسية الجادة في أماكن مختلفة. ونحن هنا مهتمون بأفكار أوغسطين نفسها، وليس بتلك التفسيرات التي نسجت، حولها من الأجيال اللاحقة له. ويجب أن نتذكر دائماً أن موضوع "مدينة الله" قد استغرق إعداده ثلاثة عشر عاماً إلى أن أنجزه أوغسطين. وتم نشره على أجزاء مختلفة ولذلك لم يكن من الميسور مراجعته كوحدة واحدة عند الانتهاء منه. ولم يكن أوغسطين مفكراً منهجياً كما أنه لم يكن متحمساً لكتابة مقالة فلسفية، وقد قاوم أي مؤثرات خارجية. وكانت كتاباته متكاملة الرد ضد تلك الاستفزازات الموجهة إليه وتلك المؤثرات الخارجية عليه. وكان عليه بصفته أسقفاً أن يهتم بشئون الكنائس من ناحية مشاكل التعليم وحماية أفواج المسيحيين من الظلم والطغيان والدفاع عن العقيدة المسيحية ضد

الضلال والانشقاق عن الديـن. ولم يكـن ناسـكاً فـى دراسـته وإنمـا اتسـم بالهدوء، وكتب القديس أوغسطين عن "مدينة الله" فـى لحظـات، شـاردة لا تعد، وكان هذا العمل كفيلاً بالرد فى تحد واضح على استيلاء الأريـك القوطى على روما عام ٤١٠م. ولكن بمضى السنين نما بين يديه المشروع[1] الذى كان قـد بـدأه مـن قبـل وبصعوبـة عـاد إليـه وقـد تراجـع عـن ذلـك الاستطراد الذى لازمه لفـترة فـى الكتابـة متناسـياً كـل مصالحـه. وكـان المجتمع الذى واجهه القديس أوغسطين بهذا المؤلف متنوعاً جـداً. ففيـه عابدوا الأوثان، والمسيحيون الأقوياء فى إيمانهم، وأقـوام غـير متعلمـه، وفلاسفة على قدر كبير من الاستعداد للمجادلة، وطبقات أخرى متعـددة على مستويات مختلفة من الفكر. كل هذه الأمور يجب أن يتذكرها تماماً القارئ الحديث. فإن دراسة "مدينة الله" لم يكن بالأمر السهل[2].

لسنا بحاجـة للحديـث عـن القديـس أوغسـطين أو الإمبراطوريـة الرومانية فى القرن الرابع فكان توليه قسطنطين[3] عـرش الإمبراطوريـة

---

(١) المقصود به كتاب "مدينة الله" (المترجم).

(٢) حول تحليل مدينة الله – أنظر:

Joseph Rickaby, St. Augastin,

Cit of God (burns, oates & Washbourne, 1925).

(٣) يعتبر الإمبراطور قسطنطين (٢٠٦–٣٣٧م) من أبرز الشخصيات فـى التـاريخ الأوروبى الوسيط نظراً للأعمال المجيدة التى قام بها. والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ. ويتميز حكمة بعملين على جانب كبير مـن الأهميـة. أولهما اعترافه رسمياً بالمسـيحية وجعلـها الديانـة الرسميـة للإمبراطوريـة=

الرومانيـة حـدا لنهايـة الاضطـهادات الكبـيرة التـى تعـرض لهـا المسيحيون[1]. فقد اختار لنفسه العقيدة المسيحية. وعلى الرغم من أنه لم

=الرومانية وبكنيستها باعتبارهـا كنيسـة الدولـة وعلـى رأسـها الإمـبراطور. وثانيـهما تشـييده القسـطنطينية علـى ضفـاف البسـفور ونقـل عاصمـة الإمبراطورية من روما إليها عام ٣٣٠م وتدل تشريعاته وقوانينه على احترامه للنفس البشرية ولمزيد من التفصيلات انظر:

Baynes, Constantine the Great, p. 3; Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzanitne, I, p. 45.

وكذلك باراكلاف: المرجع السابق، ص ١٧٨ ح، (المترجم)

(١) كانت الحكومة الرومانية منذ بداية ظـهور الديـن المسـيحى، تعتـبر اعتنـاق المسيحية جرما كبيرا فى حق الدولة. فمنعت اجتماعات المسـيحيين، وأخـذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم. وقام بهذه الموجة الاضطهادية ضدهم عدد كبير من الأباطرة الرومان الأول أمثال نيرون الذى قدم مسـيحى رومـا طعامـا للنـار الـذى أشـعلها عـام ٦٥م، وتراجـان (٩٨-١١٧م) وهادريـان (١١٧-١٣٨م) وانطونيوس بايوس (١٣٨-١٦١م). وماركوس اوريليوس (١٦١-١٨٠م) ولكـن رغـم هـذا كـان اتبـاع هـذه الديانـة فـى ازديـاد مسـتمر ممـا دفـع الإمـبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) إلى التطرف فى قمعـهم. فـأصدر عـدة مراسيم منـع فيـها صلالـة المسـيحيين وأمـر بـهدم كنائسـهم وحـرق كتبـهم، وحبـس قساوستهم، حتى راح صحية هذا الإمبراطور عـدد كبـير مـن المسـيحيين وقـد أطلق على الفترة الأخيرة من حكمة (عصر الشـهداء) ولكـن فـى نهايـة الأمـر خرجـت المسـيحية مـن جميـع هـذه المعـارك منتصـره لاسـيما بعـد أن أصـدر الإمبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلان عام ٣١٣م معترفا بها ديانة رسميـا للإمبراطوريـة: أنظـر سـعيد عاشـور: المرجـع السـابق، ص٥٠-٥٣. د، هـ=

يتمكن من جعلها ديانة الدولة الرومانية، فقد تمكن من أن يلقى بتأثيره فى خضم المحيط المسيحى كما أنـه تمكـن مـن تعليـم أولاده كمسـيحيين. وكانت حركـة الـرده التـى ابتدعـها جوليـان[١] قصـيرة الأجـل لم تعمـر طويلاً، عادت بعدها الإمبراطوريـة أكـثر ممـا كـانت فـى قبضـة الحكـام المسيحيين حتى ختام القرن الرابع. وكان ثيودوسيوس الأكبر[٢] حراً فـى

=بارو: الرومان - ترجمة د. عبد الرازق يسرى، ص ١٨٣-١٩٦. ومن المراجع الأجنبية أنظر:

Holt & Cho·lorow, op. cit., pp. 28-36; Duchesne, op. cit., I, pp. 110-115.

(١) تـولى عـرش الإمبراطوريـة عـام ٣٦١م لـدة عـامين وكـان متمسـكاً بـأهداف الحضارة اليونانية أعلن ارتداده عن المسيحية وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من تعاليم المسيحية، فأمر بفتـح معـابد الوثنيـة وزينـها. ولكـن فـى النهايـة فشـلت محاولتـه فـى القضـاء علـى المسـيحية وإعـادة الوثنيـة مـرة أخـرى إلى الإمبراطورية لأن المسيحية كانت قد تأصلت جذورها فى كيان العالم الأوروبى بشكل لا يسمح لأحد حتى ولو كان الإمبراطور نفسـه أن يعـود بـها إلى المـاضى الوثنى.

(المترجم)

(٢) حكم هذا الإمبراطور فى الفترة من ٣٧٩ حتى ٣٩٥م. ويرجع إليه الفضل فـى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه عام ٣٩٤، ووضع حداً فى جعـل المسـيحية هى ديانة الإمبراطورية قـد قسـم الإمبراطوريـة إلى قسـمين بـين ولديـه فكـان القسم الشرقى من نصيب ابنه اركاديوس، فى حـين صـار القسـيم الغربـى مـن نصيب ابنه هونوريوس. وأصبح كل منهما مسـتقلاً عـن الآخـر وأسـس لنفسـه دولة وأسرة قائمة بذاتها راجع:

Vasil iev op. cit., t, I, p. 82-83.

إعلان المسيحية كدين رسمى للدولة الرومانية الارثوذكسية. وأما أوغسطين (موضوع هذه الدراسة) فقد ولد فى منتصف القرن الرابع الميلادى عام ٣٤م فى طنجة، وهى إحدى المقاطعات الرومانية فى أفريقيا. وكانت مونيكا **Monica** مسيحية، أما أبوه فكان وثنياً. وانتقل أوغسطين من طنجة إلى مادورا **Madaura**[١] حيث أتم دراسته الأولى. وعند ذلك انتقل للدراسة الجامعية فى قرطاج. وفيها تعلم علم البيان والبلاغة وبعد ذلك ترك أفريقية وقضى كل حياته كقس وأسقف. وكانت كنيسة أفريقيا الشمالية ممزقة لانشغالها عن الدين المسيحى، فقد ادعت جماعة الدوناتيين[٢] الذين انتسبوا (..Donatus) فى هذه التسمية إلى دوناتوس (Donatus) مؤسس مذهب الانشقاق بأنها فقط المثلة لكنيسة المسيح الحقيقية، وإن كاكيليان (Caecilian) الأسقف الكاثوليكى لقرطاج قد عين فى هذا المنصب بواسطة أحد الخونة وهو أحد الذين

---

(١) تقع على بعد ٢٠ ميل من طنجة، وكانت فى هذا الوقت تضم نخبة كبيرة من الرومان المحنكين. (المترجم).

(٢) ينتسبون إلى دوناتوس أسقف قرطاج، وكانوا يقيمون فى شمال أفريقية وكانوا هراطقة من وجهة نظر الكنيسة المسيحية الكاثوليكية وقد خصص البابا جريجورى جزءاً من نشاطه لمحاربتهم والقضاء عليهم. وكانوا يرون أن الأساقفة الذين تخلوا عن الكنيسة خلال فترة الاضطهاد أن يسمح لهم بالعودة إلى مراكزهم السابقة. وكانوا يشترطون سمو مركز الأسقف الذى يقوم بتقديم القرابين المقدسة وإلا اعتبر ما قام به باطلاً أنظر:

Hoyt, op. cit., pp. 35-36, 46.

تركوا الكتاب المقدس لسلطة الدولة وقت الاضطهاد الكبير. ومن كنيسة غير شريفة هكذا انسحب الدوناتيون. ورغم الإغراءات والاضطهادات استمروا في انشقاقهم، ولم تؤثر هذه الأمور كلها على جهود أوغسطين في العمل لصالح الكنيسة الكاثوليكية ليجبر - الدوناتيين على الدخول مرة أخرى في حظيرة المجتمع المسيحي الكاثوليكي[1]. وقد مر بذهن أوغسطين في فترة طفولته أثناء تعلمه المسيحية أشياء شريرة ولكنه اعرض عنها واهتدى إلى الإيمان بعد قراءته لمؤلف شيشرون المفقود واسمه هورتنسيوس[2] وأصبح فيلسوفاً، ثم اجتذب لفترة إلى الديانة المانوية Manichaens[3] ولكن خابت آماله فيها. وتأكد من أنها كانت مجرد هفوة عاد بعدها إلى عقيدة أمة، وإلى الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية. وعرف أوغسطين كلا العالمين الوثني والمسيحي.

وعندما سقطت روما، المدينة الخالدة، مركز الحضارة العالمية أمام القوط، بدأ هذا في أول الأمر وكأنه الضربة المميتة للحضارة نفسها[4] وأخذ الناس يتساءلون عما إذا كانت هذه الكارثة المدمرة قد حدثت في روما من قبل؟ فقد كانت روما خلال القرون العديدة السابقة

---

(١) فيما يختص بالدوناتيين أنظر:

Poul Monceallx, Histoire litteraire de, I'Afrique (Paris, 1912).

(٢) انظر ما سبق، ص ١٥١ (المترجم).

(٣) CF. F. C. Burcitt, The Religion of the Monicheres (Cambridge university press, 1925).

(٤) انظر ما سبق عن سقوط روما، ص ١٤-١٥٥. (المترجم).

منذ عصر الجمهورية فى تقدم مستمر، ونسب الرومان تقدم روما واتساع حضارتها وانتصاراتها الناجمة عن قوتها إلى إخلاصها لآلهتهم المحلية واضطهادهم لعابدى الأوثان. وظن الأهالى أن هذه الكارثة يجب أن تـؤدى إلى حنق الآلهة وسخطها خاصة وقد اهمل الأهالى عبادتها داخـل الدولـة المسيحية فكـان المسيحيون مسئولين عـن سقوط رومـا، موحـدة العـالم البرى، فكان هذا الكتاب "مدينة الله" رداً "للتحـدى عـل مـا حـدث فـإن تعدد الآلهة لم يسبب عظمة رومـا، فإنـها كـانت أضعـف مـن أن تجلـب السعادة إلى الناس سواء فى هذا العالم أو فى العالم الآخر. وهكـذا يكـون الجزء الأول من الكتاب سلبياً فـى حـواره العـام ومـن مجادلـة الوثنيـين تجول أوغسطين فى الجزء الثانى من نضاله الإيجـابى: فـهو يصـور لنـا مدينتـين - مدينـة الله - مدينـة الشـيطان - ومـن خـلال دراسـة هـاتين المدينتين تكون المسيحية الضمان والمصدر الوحيد للبركة.

ولا نرى الآن الذى يعطيه أوغسـطين لكلمـة المدينـة معنـى ثابتـاً متماسـكاً. فـهى يمكـن أن تعنـى "مدينـة"، وفـى بعـض الأحيـان نـراهـا تستخدم فى المعنى "كولاية" ويرى البـاحثون أنـه ليـس هنـاك أى كلمـة يمكن ان توضح فى المعنى صلاحية الفكر الأساسى الذى يعنيه أوغسطين. ولعل أفضل تفسير يمكن ان يثبت هذا الفكر مثـل كلمـة "مجتمـع" فـهى توضح تاريخ مجتمعين وهما فحوى الموضوع الذى تحدث عنه ولـن يكـون أى من هذين المجتمعين كاملاً ومتحداً فـى أى مجتمـع مـن المجتمعـات الأرضية. وتتكون مدينة الله من الملائكة والقديسين بينما يكون الشـياطين مدينة الشيطان وابتداء من استعمال كلمة مدينة يكون الأمر مجازيـاً، إذ

استخدمت كما يقول أوغسطين نفسه "كعالم روحاني". ولكن عندما فسـر اوغسطين النظرية المتعلقة بأفكاره عن تاريخ المدينة الأرضية ذكر مجتمع الأرض وليس الولاية: ولم يكن المجتمع السماوى وهـو الكنيسـة. ولكـن عندما يصـل إلى ممثلـة هذيـن المجتمعـين علـى الأرض - وعندمـا يعـالج الموضوع بالخبرة. فإن الدولة الرومانيـة تصبـح ممثلـة للمدينـة الأرضيـة والكنيسـة بمثابـة المجتمـع السـماوى وهكـذا يمكـن أن نـرى العصـور الوسطى فى صورة مجتمعى الدولة والكنيسة.

وتأتى فكرة المدينتين أخيراً من الإنجيل حيث التعـارض الواضـح فى صفة بيت المقدس تلك المدينة المقدسة ومدينة بابل القديمـة[1]. ولكـن أحدث البحوث اتجهت مباشرة لإظهار أوغسطين بأنه اشتق مقالتـه مـن تيكونيوس (Tichonius) الدوناتى والذى تخيل نهاية الحياة وشـرحها فى كتاب الوحى، وهو قريب الشبه إلى حد كبير بخطوط الموضوع، الـذى نحن بصدد دراسته هنا ولعلنا هنـا نجـد اختلافـاً كبـيراً بـين المدينتـين مدينة الله ومدينة الإنسان. فالأخـيرة تبحـث فـى خدمـة العـالم، بينمـا تبحث الأولى لخدمة المسيح. إحداهما ترغب فى حكـم هـذا العـالم بينمـا الأخرى ترغب فى الهرب منه إحداهما تقتل والأخرى مقتولة. إحداهما

---

(١) لعل المقصود من هذا أنه فى الوقت الـذى كـانت تتصـف فيـه المدينـة المقدسـة بالطهارة والإيمان، كـانت مدينـة بـابل يملؤهـا الفسـاد النـاتج عـن الازدهـار الحضـارى الـذى يتفـق مـع طبيعـة الحيـاة المعـاصرة لتلـك الفـترة الزمنيـة (المترجم).

لا تهتم بعذاب الآخرة والأخـرى تكـافح للتخلص منـه. وهكـذا قـد لاح لأوغسطين أن يقتبس من المنشقين عن الدين وذلك التعارض الكبـير الـذى بنى عليه مؤلفه. فإن مدينة الإيمان معارضه لمدينة الكفرن فالإيمان يقف ضد الكفر. وقد اتصفت المدينة السماوية بالخضوع والطاعة بينما اختصت مدينة الأرض بالكبرياء وشهوة الحكـم. ويضيـف أوغسطين فـى مقدمـة كتابه هذا النص من الكتـاب المقـدس "لا يستجيب الله للمتكبر، ولكنـه يعاون المتواضع ويصفـح عنـه"[1]. هـذا هـو وجـه الخـلاف بـين الخضـوع والكبرياء وبين المادية والروحانية.

وسيطر هذا التعارض بين المادة والـروح علـى فكـر أوغسطين لأن الصـراع بينـهما كـان مسيطراً علـى كـل حياتـه. ولعـل قـراء كتـاب الاعترافات[2] سوف يتذكرون الجهد الكبير الذى بذله أوغسطين فى هذا البحث من أجل إبـراز الحقيقـة وكذلـك حالـة اليـأس التـى أحـاطت بـه وبخاصة فى التحرر منها بفضل خضوعها لسلطة الكنيسة. فلم يتـم هـذا عن طريق العقل وإنما من خلال الإلهام وكان من فضل الله أن يأتى الحـل. فلم يكن إنجازاً بشرياً وهكذا، لأن فكر أوغسطين كان يتجه فى كل مكان فى هذا الازدواج ضعف الإنسـان وإذا مـا جـاء فضـل الله ورحمتـه فليـس هناك مفر من مقاومتهما. وهنا يكون أصل التشاؤم العميق لدى أوغسـطين عن حياة وخلق الإنسان. فالبؤس والموت من نصيب الإنسان على الأرض،

(١) I Peter V. , cf. James IV. 6.

(٢) سبق أن تحدثنا عن هذا الكتاب. ص ١٥١. (المترجم).

فالإنسان إذا ما علم بموعد الموت لاحقه بـالضرر والبـؤس؟ ومـهما كـانت بلاغة وفصاحة المناقشات التى يحضرها فلن تكفيه للخـروج مـن تعاسـة هذه الحياة؟. فالشيء الوحيد النافع للإنسان فى حياتـه هـو صلتـه بـالله. فحياة الإنسان فى أى مكان قصيرة الأجـل وبصـدد المـوت فـى أى وقـت. فعليه فقط ان يقوم بخدمة الله؟ ويقول – أن شـخصية الإنسـان هـى التـى تحدد وتبنى فلسفته. ولاشك كانت سبباً فى الإيحاء له بفكرة المدينتـين. وهنـاك نوعـان مـن الحـب كـان لكـل منـهما أساسـاً فـى تكويـن هــاتين المدينتين. فالمدينة الأرضية مبنية على حـب الـذات إلى حـد امتـهان الله. والمدينة السماوية مبنية على حب الله إلى حد امتـهان الـذات ولذلـك فـإن أحد هذين المجدين لذاته والآخر لله.

لم تلازم الحياة الاجتماعية أى شر داخلى. فالله قد خلق الإنسـان ليكون أساس المجتمع ففى الجنة شكل الإنسان ووهبـه زوجـة لمرافقتـه. وكان ثمرة هـذا مجـيء النسـل الحقيقـى للجنـس البشـرى. مكونـاً نـواة الحياة العائلية التى تعتـبر بذاتـها العمـود الفقـرى للمجتمعـات كلـها. وكان التناسل أراده الله عملاً نقياً خالياً مـن الرغبـة المضطربـة. وقـد أدى سوء استعمال الإنسان لرغبته الحرة إلى الوقوع فى الخطأ، فحلـت عليـه لعنته أدم فورث خطأه، فكان هذا بداية لرحلـة عـذاب الإنسـان وذريتـه من بعده. وكان هذا سبباً فى فساد تلك الحياة الاجتماعية الحرة التى من أجلها خلق الله الإنسان، وقد أسست الدولة أو المدينة بواسطة قابيل قاتل أخيه. ويعتبر خضوع الإنسان للآخـر ثمـرة رديئـة تبحـث عـن خطيئـة آدم. تماماً مثل بداية العبودية فهى ثمرة ناتجة عـن نفـس هـذا الخطـأ.

وكانت نظرية أوغسطين عن الدولة لا تتمثل فــى الفرديــة، فالدولــة هــى الأفـراد التـى يتكـون منــهم الشـعب وتتجـدد شـخصيتها طبقـاً لســلوك مواطنيها: وإن لم يكن هناك عدل بين الأفـراد المكونـين للدولـة، فبـدون شك ليس من الممكن أن يتوافر العـدل فـى الدولـة نفسـها. هـذه الخلفيـة يجب أن يتداركها كل فرد يقبل على المناقشة فى موضوع "مدينة الله" من التعريف الحقيقــى للدولـة. ويـأخذ أوغسـطين بتعريـف شيشـيرون عـن الجمهورية – الدولة: هى اجتماع عام يتم فيه إقرار القانون والاعـتراف بمصـالح المجتمـع وتقدمـه. ويشـرح شيشـيرون بتوسـيع مـا يعنيـه مــن الاعتراف العام بالقانون. فهو يرى أنه لايمكن إدارة أى جمهورية بدون عدل. وطالما انه لا يتواجد عدل حقيقى، فـلا يمكـن ان يتواجـد القـانون. وعلى ذلك لا توجد جمهورية حيث لا يوجد عدل. فـالعدل هـو الفضيلـة التى تعطى كل إنسان حقه. ولكــن كمـا هـو واضح عنـد أوغسـطين، فـإن نهاية الإنسان هى العبـادة الحقيقيـة لله، فـأين إذا يكـون عـدل الإنسـان عندما يبتعد تمامـاً عـن الله ويـترك نفسـه إلى الشياطين النجسـاء؟ فـهل سيعطى هذا كل فرد حقه؟ أم هذا الذى يسلب قطعـة أرض مـن صاحبـها ويعطيها إلى رجل لا يملك فيها أى حق على الإطـلاق، ولا يكتفـى بـهذا وإنما يواصل ابتعاده عن الله الذى خلقه، ويقوم بخدمة الأرواح الشريرة. فـهل هـذا الوضـع يعتـبر صحيحـاً؟ وهكـذا يجـد أوغسطين نفسـه أمـام خيارين من الأفكار. هل الدولة الرومانية كانت جمهورية على الإطلاق؟ أم إسقاط العدالـة مـن تعريـف الدولـة. فـنراه قـد اختـار إنكـار الطريـق الثانى، ووضع مقدمة من عنده لتعريف الدولة فهى اجتماع أفراد الشعب

العقلاء على أن تربطهم معاً اتفاقيــة عامـة الهـدف منـها إيجـاد المجـد بينـهم". فلنتوقف لحظة ونطبق تأثير هذه المناقشة على نظـرة أوغسـطين عن شخصية الدولة. فكان يوجد فى الكنيسة المبكـرة عـادات قويـة وكـان الاحتفاظ بالعدل جـزء أساسياً مـن أهـداف الدولـة: وقـد حـث القديـس بولـس علـى طاعـة الدولـة علـى الأرض علـى أن تكافأ الدولـة المحســن وتعاقب الشرير. وقد عرف كليمنت السكندرى[1] الملك بأنـه أحـد هـؤلاء الذين يحكمون طبقاً للقانون. بينما أوضح امبرواز أستاذ أوغسطين أن، العدل والإحسان هما الفضيلة الحقيقية الهامة لأى مجتمع، وإنهما قـوة الدولة بينما بسـبب الظلـم فسـادها. وكـانت هنـاك محـاولات توضـح أن أوغسطين لم يكن يعنـى حقيقـة إسـقاط العـدل مـن تعريـف الدولـة فـهو يتحدث هنا ويقول انه الهام من العدالة الإلهية. وإن يظل عدل الإنسـان فى الدولة. ويضيف مستر كارليل Carlyle – القـول المأثور لأوغسـطين "أن تنحى العدل فلن تكون الممالك إلا لصوصية كـبرى"[2]. ولعنـا نعتـبر من خلال هذا القول أن النقطة الوحيدة للتمييز بين عصابـة لصـوص وأى

---

(١) ولد فى أثينا فى القرن الثانى الميلادى، وقد اختلف الكثـيرون حـول تحديـد وفاته فى اعوام ٢١١، ٢١٥، ٢١٦ ولكن من المؤكد أنه عاش فـى الإسـكندرية وعمل أستاذاً بها وكاتباً وواعظاً. فكانت الإسكندرية بالنسبة له الموطن الثـانى أنظر:

(المترجم) Claude Mondesert, Clement d'Alexandrie, p. 27.

(٢) مدينة الله، الكتاب الرابع، الفصل الرابع.

مملكة أن الأخيرة لها صفة العدل[1]. ولكن كما كتب مستر كريستوفر داوسون "أن المعنى الحقيقى لهذه العبارة يعنى عكس ذلك". ويواصل القديس أوغسطين مناقشته فيقول أنه لا يوجد اختلاف بين الغازى والسارق إلا فى التخطيط لعملياتهم. ويستمر فى الجدل قائلاً "ماذا تكون اللصوصية غلا مملكة صغيرة؟" ويبرهن على ذلك الرد فى قول القرصان إلى الإسكندر الأكبر (لأننى أفعل هذا مع مركب صغير فيطلق على لص، ولكنك تفعل هذا مع أسطول كبير فيطلق عليك إمبراطور[2]. ولم يكن هناك أدنى شك فى أن أوغسطين كان يعنى ما ذكره. ويقول مستر كارليل "إن كان أوغسطين قال هذا فلا يمكننى قوله وأنه لخطأ كبير يرثى له لا يجب أن يصدر عن معلم مسيحى كبير". ولكن بعد كل هذا جاءت خاتمة أوغسطين كنتيجة طبيعية لتلك المقدمات التى أخذت فى الاعتبار وكان لنظرة أوغسطين صدى وقوة كبيرة عند الكاردينال نيومان (New man)[3]. فقال لم تنشأ الممالك الأرضية بالعدل ولكنها تأسست

---

(١) لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة انظر:

Carlyle, op. cit., I, p. 176. (المترجم)

(٢) توضيحاً للرؤية فإن أوغسطين لم يقصد انكار تملك الدولة الوثنية للعدل. أنظر اصطلاحاته المتكررة حول افتقار عدالة الإمبراطور الوثنى جوليان المرتد أنظر على سبيل المثال:

Contra litt petiliani, II, p. 203, 205, EP. 105, 9.

(٣) From "Sanctity the Token of the Christian Empire", in Sermons on subjects of that Day, p. 273 (First edition). Cited by Mr. Dawson.

بالظلم وإنـها خلقت بالسيف والسرقة والطغيـان والحنـث فـى اليمـين والحيلة والخيانة. فلم توجد أى مملكـة لم تقع فـى الخطـأ غـير مملكـة المسيح التى لم تولد بعد. ولم يكن هناك دولة علـى الإطـلاق وانمـا كـانت جمعيـة تضـع قواعـد للحكـم فكـان ولابـد وأن يصيبـها الدمـار. (وأخـذ يتسـأل) أى الممـالك الموجـودة لم تبـدأ بـالغزو أو بالاغتصـاب؟.. وأى الثورات التـى لم تتـم بـدون إصـرار، وعنـف أو ريـاء (وأى الحكومـات الشعبية التى لا تتعرض لهزات كما لو أنها لا ضمير لهـا ولا مسئولية؟ وأى حكومة أقلية لا تتسم بالأنانية وكثرة الشك فين حولها؟ وأيـن تلـك القوة العسكرية التى تخوض الحرب بدون اهتمام.

وأين تلك التجارة الرابحة بدون جشع وحب المـال الحـرام الـذى هو أساس كل شهره؟إن هذه التساؤلات كلها إنما تعبر عن تشـاؤم عميـق تماما مثل ما بداخل أعماق أوغسطين..

وحتى إذا لم تتمكن الدولة الأرضية من تحقيـق العدالـة كامتيـاز لها وحتى بالرغم من أنها تأسست بمعرفة قايين وساد فيها الفسـاد منـذ البداية عن طريق وراثة خطيئة أدم، فهى مع ذلـك مـا زالـت جـزءاً مـن العناية الإلهيـة. ويتم اختيار الحكام بمعرفة الله ويـأتمرون بـأمره. وقـد تبنت الكنيسة البكرة النظرية اليهودية فى السـلطة الأرضيـة والمذكـورة فى العهد القديم. فلم يكن فقط الملوك الذيـن عبـدوا يـهووه (Jehouah) الذى منحهم عروشهم ممالك وثنية التى اضطهدت اتباع يهوه قـد عينـوا بمعرفته. ويتحدث دانيال إلى نبوخد نصر "أنـت يـا ملـك الملـوك والـذى

منحك الله الموجود فـى السماء المملكـة والقـوة والعافيـة والمجـد" (سـفر دانيال، اصحاح ٢ آيـة ٣٧). ونقـرأ فـى كتـاب حكمـة سـليمان والحـاكم والأكبر من كـل شـىء" حكمـة سـليمان الاصحـاح ٦، آيـة ٣) وقـد تذكـر المسيحيون أن سيدهم المسـيح – أمـر بطـرس بـأن يـأخذ قطعـة مـن المـال كجزية "وأعطيها لهم عنى وعنك" متى، اصحاح ١٢، آية ٢٦) وقـد ردد المسيحيون كلماته أمام بيلاطوس الحاكم الرومانى "أنك لـن تملـك اتخـاذ أى قوى ضدى ما لم تعط لك من الله" (حنـا، اصحـاح ١٩، آيـة٢). ومثـل هـذه النصـوص قـد أوحـت إلى فكـر القديـس بولـوس الرسـول، وجعلـت المسـيحيين يتمسـكون بتصريحـه: "لاتوجـد قـوة غـير قـوة الله وإن وجدت فلابد وأن تكون موهوبة من الله. ولذلـك فمـن يقـاوم القـوة يعتـبر مخالفاً لشريعة الله. وفى هـذه الحالـة عليـه أن يتلقـى العقـاب" (رسـالة بولوس للرومان، اصحاح ١٣، آية ١–٢)[1]. ولم تكن فيه الله الأصليـة أن يخلق الإنسان ليفرض خضوعه على غيره مـن بنـى البشـر. فكـانت هـذه نقطة البداية عنـد أوغسـطين. ولكـن هـذه النيـة قـد تم مخالفتـها بخطـأ الإنسان.

فكان على الله أن يواجه هذه الحالة المغايرة. إذن لابـد وأن تكـون هناك حكومـة إجباريـة لتقـابل هـذا الخطـأ، ويكـون لهـا حـق العقـاب والإصلاح. وكرد فعل مضاد للخطأ لابد وأن يكـون للدولـة الأرضيـة سـنداً

---

(١) انظر كتاب المؤرخ الألمانى (Franz Joseph Dolger) المسيحية المبكرة، جـ٣، ص١١٧–١٢٧، (١٩٣٢).

مؤيداً لها وأن تتحكم فى زمام الأمور - واخيراً فإن طرق الله أعلــى مــن مفهومنا فهو يختار نوعية الحكام حسب ما يستحق الإنسان.

وهكذا فطاغية مثل نيرون[1] وهــو المثـل التقليـدى لأسـوأ نمـونج للحكم قد تم تعيينه بمعرفة العناية الإلهية. فعلى اتباع المسيح التسـامح حتى مع أسوأ وأفسد دولة. وعليهم أن يفهموا جيداً أنهم بمثابة الحجاج علـى الأرض، وأن مكانــهم لم يكـن فـى الأرض وإنمـا فـى السـماء وهــذا لايوجد فى دولة وثنية ويمكن للمسيحيين أن يتوقعــوا ان يجـدوا تحققـاً لآمالهم.

وتمثلـت المدينــة الأرضيــة فـــى تعــاقب الإمبراطوريــات التـــى سـيطرت علـى العـالم القديـم. ومنــها أخـذ أوغسـطين مثلـين تطبيقـــين. الإمبراطورية الآشـورية كمثـل للشرق ورومـا كخليفـة لهـا فـى الغـرب ولكـن الحديـث عـن رومـا يكـون أكـثر واقعيـة ويفـى أهدافنـا الحاليـــة فى إظهار تـاريخ المدينــة الأرضيــة وقـد وجـد سالوسـت Sallust – فـى مقدمة مقالته عن مؤامرة كاتيليبا ريان أن ازدياد الـترف كـان سـبباً فـى انــهيار الجمهوريـة الرومانيـة خـلال الفـترة التـــى أعقبــت الحـــروب

---

(١) حكم هذا الإمبراطور روما فى الفـترة الواقعـة بـين عـامى ٥٤، ٦٧م، واتسـم حكمه بالقسوة والحنـق الشـديد ضـد المسـيحيين. فكـان لا يتـورع فـى ابتكـار وسائل عديدة ووحشية لتعذيبهم حتى يرتدوا عن دينهم. واستمر هـذا الحـال فى عهد خلفائه من بعده حتـى تـولى قسطنطين العـرش واعترافـه بالمسـيحية دينياً رسمياً للدولة (المترجم).

البونية[1] ويضيف أوغسطين مقتطفات من مقالة سالوست ولكنه يعود إلى الوراء فـي التـاريخ القديـم أكـثر مـن هـذا إلى الصـورة المتشـائمة للدولـة الرومانية تلك الدولة التي تأسست كما تأسست مدينة قايين قاتل أخيه. وفي الحال بعد طرد ملوك روما الأول بدأ حكم النبلاء بقوة. فكان المجد هو هدف الرومان في فترة حكم الجمهوريـة[2]. فمـن أجلـه كـان لديـهم

(١) بعد أن ثبتت روما نظامها السياسي الداخلي أخـذت تتوسع تدريجيـا حتـى أصبحت سيدة إيطاليا ثم بسطت سيادتها على حوض البحر المتوسـط بأكمله. وكانت أكبر عقبة في طريق توسع روما الخارجي هي قوة قرطاجـة فـي شـمال أفريقيـة حتـى انتـهى التنافس بين القوتـين بقيـام حـروب طويلـة تعـرف بالحروب البونية. وهي الحروب التي مـرت بـأدوار عديـدة انتـهت بهزيمـة قرطاجة في موقعة زاما عام ٢٠٢ق.م ثـم تدميرهـا عـام ١٤٦. وبانتصار رومـا على قرطاجة أصبحـت أعظم قـوة فـي البحـر المتوسط. ممـا مكنـها مـن قيـام الإمبراطورية الرومانية الكبرى أنظر: سعيد عاشور: المرجع السابق، ص١٦-١٧. (المترجم).

(٢) بدأت روما تاريخها بالنظام الملكي عام ٧٥٣ق.م واستمر هذا النظام مطبقاً بها حتى عام ٥١٠ق.م عندما طرد منها آخر ملوكها تركوينيوس سـوبر بـوس. ما لبثت أن حل النظام الجمهورى محل النظام الملكى فى رومـا واسـتمر بـها مـن ٥٠٩ق.م حتى عام ٢٧ ق.م وهى الفـترة التـى وطـدت فيـها رومـا مركزهـا فـى إيطاليا ثم فى البحر المتوسط وهى العهد الـذى اكتسـبت فيـه رومـا عـن طريـق النصـر والهزيمـة تجاربـها السياسـية والإداريـة. واقتبسـت مــن حضــارات الشعوب الأخرى. واعتباراً من عام ٢٧ ق.م تبدأ الفترة الثالثـة والأخـيرة مـن تاريخ روما والمعروفة بعهد الإمبراطورية. أنظر: بـارو: الرومـان، ترجمـة =

حب الرغبة فى الحياة وكانوا لا يترددون فى الإقبال على الموت. ولكن بعد الحرية الآمنة التى انتشرت بطرد الملوك أخذوا يبحثون عن السلطة. ولقد كانت اللهفة للمدح والرغبة فى الشهرة عاملين هامين جعلتهم يقومون بأعمال مذهلة - وهى أمور تستحق بدون شك، الشكر والمجد طبقاً لحكم الإنسان. ولكن هذه الانجازات كانت من قبل قلة من الرجال الصالحين وهؤلاء الرجال كانوا منحة من الله لروما لتحقيق هدفه فى جعل الإمبراطورية الرومانية أكبر من الإمبراطورية الآشورية السابقة عنهما. ومن خلال الرغبة فى المجد عالج الرومان الكثير من أخطائهم فالخطأ يتواجد بمجرد الرغبة فى المجد الذاتى. وبالتالى لم يساعد هذا فى خلق القداسة الرومانية. وإنما جعلهم أقل مجداً عما كانوا يرغبون. ولم يكن الهدف الحقيقى للفضيلة أن يلمسها الناس وإنما تمجيد للرب الموجود فى السماء. وكذلك كان الناس قد ابتعدوا من أجل فضيلتهم عن الانشغال فى مصالحهم الخاصة حباً فى الجمهورية وآخذوا يقاومون الطمع أملاً فى ملىء خزائن الدولة. كما دأبوا بوحى من الحرية على الأخذ برأى الآخرين فيما يفيد الصالح العام لبلادهم فكانت النهاية لصالحهم فجنوا ثمار كل هذا بأن تمكنوا من فرض قوانين إمبراطوريتهم على شعوب عديدة.. وفى هذا اليوم يقول أوغسطين فى كل من الأدب والتاريخ بأنهم كانوا ممجدين تقريباً أمام جميع الأمم.

=د. عبد الرازق يسرى، تعليق د. سهير القلماوى، مجموعة الألف كتاب، ص٢٠-٢١. (المترجم).

وكان الحكم على الدولة الرومانية قد بقى فعلاً، بأنه لا توجد فضيلة حقيقية فيما عدا تلك التى تتجه نحو المصلحة العليا للإنسان. وبذلك فقد ساعد الله الرومان طبقاً للحالة التى عليها المدينة الأرضية فكانوا أناساً طيبون وكان الله يرى فى مكافأتهم هدفاً أبعد وهو أن الرومان يجب أن يكونوا فى مستواهم مثلاً وإلهاماً للمسيحيين. فما هذا الذى لم يحتقره الرومان وماذا هو الذى لم يتحملوه، وما هى تلك الشهوات التى لم يتغلبوا عليها من أجل مجد الإنسان. وهل هؤلاء الذين يعرفون المعانى الحقيقية للفضيلة ويقومون على خدمة الرب الحقيقى وسوف يفعلون من أجل هدفهم أقل مما كان يفعله الرومان فى الدولة الوثنية؟.. إن أغوسطين مستعد ليقبل أن الحروب الرومانية لا غبار عليها وإن الرومان كانوا يقاتلون للدفاع عن النفس منذ أن كان جيرانهم أقل منهم فى الفضيلة.

وإنى لأعرف صورة أخرى لأخطاء روما موجودة فى الكتب الثلاثة الأولى من مجلد مدينة الله حيث تقام أثناء احتفالات تمجيد الآلهة الرومانية. ولكن يجب أن نتذكر أن إزالة تلك الأخطاء المتواجدة فى تاريخ الحروب المتتابعة إنما تكون جزء من الهجوم الصحيح لأوغسطين ضد الوثنيين. ولكن يتضح لنا قليل أن هناك هجوماً غير متوازن على تلك الألعاب الوحشية لعله مستلهم من تلك الأحداث المعاصرة (لتلك الفترة) لأن كثيراً ممن تمكنوا من الهرب إلى أفريقيا بعد استيلاء القوط على روما قد اندفعوا نحو الألعاب متنافسين كل شىء آخر يذكرهم بهذه المناظر المؤذية. وقد أحس أوغسطين بالعار والاشمئزاز

بسبب ذلك. تلك هي أخطاء الناس في أيامه والتي دفعته إلى مرارة كتبه الثلاثة الأول: وكلما تذكر تاريخ روما خلال حكم الجمهورية المبكر عندما لم يكن النظام الروماني قد تهدم بعد، كان يكتب الحقيقة كأحد الأساقفة المسيحيين وأيضاً كروماني يدرك تلك التضحيات الكثيرة التي تمت من أجل بناء الإمبراطورية الرومانية. فإن روما مازالت ممثلة في المدينة الأرضية، أهدافها دنيوية ولكن من خلال تلك التحديدات فقد أثبت الرومان أنهم يستحقون أن تكون لهم إمبراطورية.

فالمدينة الأرضية مثل المعادلة الجبرية. فكما قال بعض النقاد أن أوغسطين في مدينة الله لم يدن فقط الدولة الوثنية وإنما أدان أيضاً كل دولة على هذا النمط. والآن يجب أن نسلم من القراءة الأولى لمؤلف أوغسطين بأن هذه هي النهاية الطبيعية. وسيكون من الصعوبة بمكان ان تشك بأن هذا خطأ ويجب أن تتذكر دائماً أن الدولة الوثنية فقط هي المثلة للمدينة الأرضية وأن مدينة الله أكبر كثيراً منها بما تحويه من مجتمع الملائكة الغير مرئي، والموتى والذين سوف يولدون. ويهاجم أوغسطين في مؤلفه مدينة الله، الوثنيين فهو ينتقد للدولة الوثنية والعناصر الأساسية الوثنية الموجودة في الدولة المعارة له. فلم تدخل الدولة المسيحية مباشرة في هذه المناقشة وأحياناً جاءت معالجته للدولة في مؤلفه "مدينة الله" لصالح سكانها طالما أن سلوك الدولة كان مختلفاً عن سلوك روما الوثنية. حقاً لعل ثمة تحريض في أن يرفض أوغسطين إدخال فكرة العدالة في تعريفه لهذه الدولة. لأنه عندما أشار إلى الدولة الوثنية كان واثقاً تماماً في اختلافها مع مثاليته عن الدولة المسيحية

حيثما يستمر العدل. كما أنه رأى عدم امتداد هذا إلى كل دولة لأن ما يقال عن الملكة المسيحية يعتبر امتيازاً خاصاً بها وكما رأينا أن الإنسان فى نظر أوغسطين هو صنيعة الله كمخلوق اجتماعى. فالعائلة مرتبطة بروابط الحب وتبادل الخدمات فهى جمعية طبيعية. وهنا يكون قد اختفى تماماً حب السلطة والسيطرة اللتين اختصت بهما الإمبراطوريات الأرضية. ونحن نرى علاوة على هذا فى تعريف أوغسطين للدولة والذى جاء به استبدالاً عما أعطاه لنا شيشيرون بأنه لابد وأن يكون مواطنوها متحدين يجمعهم الحب العام. ولو تم هذا واستبدل حب السيطرة أو التملك بحب خدمة الرب الحق فلن يكون هناك مجال للتساؤل عن سبب حكم أوغسطين لصالح سكان مثل هذه الدولة، ومن وجهة نظره الشخصية التى تميل للنظر للدولة بأنها كيان مستقل للمواطنين المكونين لها وإن سلوك هؤلاء المواطنين هى التى تحدد سلوك الدولة[1]. وإن حدث تغيير فى سلوك المواطنين فلابد ان يتغير سلوك الدولة. وفى نف الوقت يكون هنا مجالاً لتغيير الحكم الصادر على الدولة. ويقول أوغسطين فى الفصل ١٧ من المجلد ١٩ لكتاب "مدينة الله" فى الوقت الذى كانت فيه المدينة الأرضية تعبد آلهة متعددة كانت المدينة السماوية تعرف أن الله واحد فقط وهو الذى يجب عبادته. وهكذا ليس من المكن أن يكون

---

(١) ربما كى تتلاشى روما. ربما أنها تستحق العقاب ولكن ليس التدمير، ربما لن تتلاشى لو لم يبدها الرومان. وأنهم لن يبدوها إذا حق الرب. وسوف يكونوا سبباً فى إبادتها إذا قللوا من شأنه أنظر:

Sermo: 81, 9.

للمدينتين قوانين دينية عامة. وكانت المدينة السماوية مجبرة في هذا الصدد أن تتفرد وتصبح عدواً لهؤلاء الذين يفكرون بطريقة مخالفة. وتستمر في معركة غضبها وكرهها واضطهادها. ولعل هذا التعارض كان موجهاً ضد السياسة الدينية للدولة الوثنية. فالمدينة الأرضية تطلب سلاماً أرضياً بينما تعوض المدينة السماوية هذا السلام الأرضي في الحج ناحية السلام السماوي. وقد سلم أوغسطين بأن هناك توافقاً بين المدينتين على أساس أن السلام الأرضي هو الهدف. وهذا التناسق في الهدف الأدنى لا يبعد إمكانية الدولة في أن تتبنى الهدف الأعلى. ومن أجل إعلان اوغسطين تأييد الدولة المسيحية. يجب ان نلقي نظرة على كتاباته الأخرى الموحاة من مناقشاته مع الدوناتيين[1]. فالإمبراطورية المسيحية جاءت نتيجة إحدى النبوءات. وإن الحكام الآن. مطيعين لعبودية الله وسيدهم[2]. ووجد أوغسطين في سفر دانيال ان الأخير قد تنبأ بالتغيير

---

(١) لم أضف أياً من الرسالة المدرجة في البترولوجيا اللاتينية، جـ٤٣، ٣٩١-٤٤٦ الموجهة إلى الكاثوليك ضد الدوناتيين من اجل وحدة الكنيسة. وذلك لعدم التأكد من حقيقة ما جاء عن يها. أنظر ا كتبه OK. Adam عن مذكرات أوغسطين عن وحدة الكنيسة، جـ٤، ص٨٦-١١٥ عام ١١٠٩.

(٢) Contra cresconium ٣ فقرة ٥١، الرسالة ١٠٥ فقرة ٥. القوى الخفية الممنوحة من الله إلى المسيح طبقاً للنبوءة. رسالة ٩٣ فقرة ٣ تقديم الشكر لله فإنه الهم ملوك وهم خدام المسيح، بالمعجزات النبوية للمسيح إلى سيأتي بها (انظر المزمور السابع السطر ١١) الرسالة ٨٧ فقطرة ٧، رسالة ١٠٥، فقرة ٦، رسالة ١٨٥ فقرة ٢٠. مزمار ١٠١. وعظ ٢. فقرة ٩ أنظر: contra litt petiliant و ٢. فقرة ٢١١.

الكبير من الدولة الوثنية إلى الدولة المسيحية. ففى البداية أمر نبوخد نصر[1]، المؤمنين ليعبدوا الإله الوثنى وهددهم بالرمى فى النار إذا رفضوا هذا. ثم أمر نفس الملك بعد فترة بأنه إذا لم يعبد أى من رعاياه الإله شادراش (Shadrach) ميشاش، (Meshach) ابيدنيجو (Abedenego) سوف يقاسى كثيراً حتى الموت. (دانيال، أصحاح ٣، آية ٢٩-٣٠). فبالنسبة للأمر الأول يصور الفترة التى قاسى خلالها الرسل والشهداء بينما أوضح لنا الأمر فى مدى ما قاساه غير المؤمنين[2]. فمن قبل كان الملوك قد تجمعوا ضد الله. وضد المسيح[3]. والآن نراهم يعبدون الله خوفاً منه. فأوامرهم هى أوامر المسيح[4]. وقبلهم فى يد الله[5]. فإنهم الأطفال المولودين فى الكنيسة الكاثوليكية حسب الإنجيل[6]. وقد زالت كثير من الممالك التى وضعت ثقتها فى الشياطين[7] وهذا لايمكن أن يقال عن أى سلطة دينية لم يكن السيف وسيلة للعقاب

---

(١) هو أحد ملوك بابل عاش فى القرن السابع ق. م (المترجم).

(٢) رسالة ٩٣ فقرة ٩ رسالة ١٨٥ فقرة ١٩، رسالة ١٠٥ فقرة٧، contra cresconium ٣، فقرة ٥٦.

(٣) مزامير ٢ سطر ١١، رسالة ٩٣ فقرة ١٨، رسالة ١٨٥ فقرة ١٩.

(٤) رسالة ١٠٥ فقرة ١١ (تتضمن اوامر الأباطرة ما جاء به المسيح لأنه فقط صاحب لأنه فقط صاحب الأوامر الطيبة) أنظر كذلك: Contra litt Petiliani، ٢/فقرة ١٣٢.

(٥) رسالة ١٠٥ فقرة /١٢.

(٦) رسالة ٥١، فقرة ٣.

(٧) كان هناك اعتقاد بأن سبب هذا الزواج هو تأديب الشياطين لهما. رسالة ١٠٥ فقرة ١٥ .

وسيلة للعقاب بالنسبة لرجال الدين. إنما كـان هنـاك عقاباً روحيـاً هـو الحرمان[1]. ولعل هـذا يتضـح مـن سـياق الكـلام[2]. فالسـيف هـو سـيف قيصر. وكان المسيح قد أمر اتباعه أن يعطوا قيصر ما لقيصـر فالإمـبراطور الآن يجب ان يكـون أكـثر النـاس تقـوى وإخلاصـاً[3]. وأن يكـون رحيمـاً بالغير ومتمسكاً بالديانة المسيحية[4]. وتتركز وظيفته فى خدمة المواطـن العادى ليعيـش حيـاة مخلصـة ووجيـه نشـاطه فـى الحفـاظ علـى عدالـة القـانون بصفتـه مانحـه الأول لـيزيد مـن قـوة الصـالحين والقضـاء علـى الوثنيين والضلال[5]. وكانت الكنيسة حسب الكتاب المقدس ترشد الملـوك

---

(١) استخدمت الكنيسة المسيحية فى العصور الوسطى أنواعاً عديدة من العقوبـات الرادعة ضد معارضيها. فمنها عقوبة الحرمان وتعنى الحرمـان مـن الاشـتراك فى قداس الكنيسة ومن جميع امتيازاتها. وهناك أيضاً عقوبة اللغنـة ومعناهـا تخلى الشعب والجيش عن طاعـة الإمـبراطور. أمـا عقوبـة القطع فتعنـى شـل حركة الكنيسة إذ تغلق الكنائس أبوابها وتوقف الصلوات على الموتى ويوقـف تعميد الأطفال وعقود الزواج إلى آخره. لمزيد من التفصيلات أنظر:

Encyc. Of Religion and Ethics, IV. Pp. 715-717. (المترجم)

(٢) Contra Dpist Patmeniani.. ، فقرة ١٦ (انظر الرسالة ٨٧ فقرة). هنـا كمـا فى مكـان آخـر. (انظـر رسـالة ١٠٠ فقـرة ١، رسـالة ١٣٤ فقـرة ٣. ويضيـف أوغسطين رسالة القديس بطرس للرومان فصل ١٣.

(٣) رسالة ٩٧، فقرة ٢.

(٤) رسالة ٩٧ فقرة ٣.

(٥) رسالة ١٨٥ الفقرتـين ١٩، ٢٠، Contra litt Petillani، ٢ فقـرة ٢١٠، ٣، فقرة ٥٦.

وتبدى لهم النصائح/ كن حكيماً. وأنتم يا ملوك تقبلوا المشــورة وأنتـم يـا حكام الأرض اعبدوا السيد بخوف وفرح وارتجاف[1].

وإذ حاول القارئ البحث فى كتاب "مدينة الله" عن أساس الملكيـة المسيحية فسيكون ذلـك سـدى. ولكننـا نـرى فـى نهايـة فصـول الكتـاب الخامس أن أوغسطين قد أوضح أن مكمن ســعادة الأمـراء المسـيحيين تلـك السـعادة الموجـودة فـى عدالـة حكمـهم وفـى التخلـص مـن الكبريـاء وإن هدفـهم يجـب أ يكـون "صانعـاً لقوتـهم ولحبـهم فـى إعــلان العبوديـة الحقيقية لسيادة الله". ويجب ألا يكون عملهم من أجل المجـد الزائـف، وإنما من أجل حب السعادة الأبدية.

وعن واجبات الخاضعين كتـب أوغسـطين فـى خطابـه الموجـه إلى مارسللينوس (Marcellinus) "دع هؤلاء الذين يقولون أن عقيدة المســيح متناقضة مع رفاهية الدولة يعطو مثالاً لأحد الجيوش على مذهب المسـيح يحتاج إلى جنـود ليبقـى، اتركـهم يعطونـا أمثلـة للخضـوع مثـل الأزواج والزوجات والآباء والأبناء، والسادة والعبيد، مثـل الملـوك ومثـل القضـاه وكذلـك مثـل دافـع الضرائـب وجابيـها بـل وفضـلاً عـن هـذا اتركـهم ألا يترددوا فى الاعتراف بأن هذه العقيدة لو كانت مطاعــة لكـان فـى انقـاذ للدولة". ومع هذه المقارنة فقرة من الكتاب الثانى من مؤلـف مدينـة الله" لو ملوك الأرض وكـل اتباعـهم ولـو كـان أمـراء وقضـاه الأرض، الشـباب والعذارى والمسنين، وكل الأعمار من كلا الجنسين لو كل هــؤلاء خـاطبوا

---

(١) Contra litt Petiliani ، الفقرتين ٢١٠، ٢١١ (الدرس من بنوخد نصر).

الشعب والجنود، لأصبح الجميع معاً متحدين فى الإنصات ومراقبة وصايا الديانة المسيحية فيما يختص بسلوك العدل والفضيلة.

"وعند ذلك تزيد الجمهورية العالم فى الحياة الحاضرة بسعادتها وترتفع إلى أعلى لتحكم فى سعادة عبر حياة أبدية".

وهكذا يكون أوغسطين قد بحث بثبات نفوذ وتأثير حكام الإمبراطورية وقد أضاف فى كتاباته إلى حد أعضاء مجلس السناتو تصريحاً لشيشيرون في أنه ليس هناك حد ولا نهاية لجهود الرجال الصالحين من أجل خدمة بلادهم وقد جال فى ذهن أوغسطبن فى هذا الخطاب مقالة كتبة الأولى فى مؤلف مدينة الله: فإنها كانت عن الوثنية وفجور الآلهة الوثنية التى كانت أعداء المجتمع[1].

أترك الناس ليهتدوا إلى عبادة الله الحق، وعندئذ فإنك سوف ترى بلادك مزدهرة وتصبح أجزاء من ذك البلد الذى شهد ميلاد ايماننا.

وبأى ممن يجب نفى المتكبر والمحب للسلطة والتملك لأنه يمثل الخطأ الكبير لإمبراطورية روما الوثنية. وقام أوغسطين كذلك بتعليم كل ما هو مفضل لديه إلى عدد من الدول الصغيرة التى لا تعيش معاً فى سلام، وذلك أفضل من إعطائها لإمبراطورية واحدة كبيرة. ورأى أوغسطين أن القانون يجب أن يكون موضع موافقة ورضاء الخاضعين له.

(١) أصبح الإنسان المؤمن فى هذا الوقت لا يستطيع أن يعيش فى الفساد الذى كان معاصراً للوثنية.

وعند ذلك تصبح الدولة الصغيرة أشبه ما تكون بعائلة بشرية كبيرة.

ولم يقدم أوغسطين نظرية الدولة المسيحية في "مدينة الله". وفي نفس الوقت لم يعمل على إدانة الدولة عما عليه. ولم يبعد احتمال قيام الدولة على الأساس المسيحي.

وعن الكنيسة الأرضية نعود إلى "مدينة الله" من الدولة إلى الكنيسة ولا يكون من المفهوم أن أوغسطين قد أثبت شخصية الكنيسة في "مدينة الله" ولكن في الأصل فإن مدينة الله أفضل من الأخرى. وفي نفس الوقت أقل شبها في بعض الأحيان أنه مذهب القديسين فالكنيسة جسد هؤلاء الذين هم في الطريق إلى المدينة السماوية. "وهي عضو وممثلة في العالم الأبدى لمدينة الله" (داوسون).

وكانت الكنيسة الكاثوليكية عالمية وليست كمقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية. وعن طريق الكنيسة حلت نعمة الله على العالم كما يقول (Figgis) "الكنيسة المرئية تعتمد في وجودها على التعميد. والسر المقدس. وتحكم بواسطة الأساقفة. فهي العائلة الحقيقية لله. فالمسيحية تعني الانتماء إلى هذه العائلة"[1]. وإذا تساءلنا عن العلاقة بين الكنيسة المرئية والدولة الأرضيـة. فيكون من المهم أن نتذكر تماماً أن المدينة الإلهية ليست لها شأن مباشر مع هذه المشكلة. ومرة أخرى في هذا

---

(١) "الكنيسة هي مركز الأمر الروحي السامي والذي منه يدخل الفرد إلى عالم المادة وهي الجسر الوحيد الذي يعبر منه الإنسان من الدنيا إلى العالم الأبدي" (داوسون).

الصدد يجب أن نعرف أن أوغسطين لم يضيف مطلقاً نظرية كاملة عن هذه العلاقة. أما النظرية التى أظهرتها العصور الوسطى فربما يكون قد تم استنتاجها من كتابات أوغسطين وواجبنا أن نتحقق فيما كان يفكر فيه أوغسطين نفسه فى هذا الصدد...؟ فهناك اختلاف ووضوح فى بيئة على من الدول والكنيسة وأن هذا الوضوح لا يمكن ان نحافظ عليه تماماً، لن الدولة منذ حكم قسطنطين كانت قد طلبت من الكنيسة أن تساعدها فى تنظيماتها المدينة، وعلى الأخص فيما يتعلق بحماية وتربية اليتامى.

كما أنها فرضت على الكنيسة فض المنازعات المدنية فى محاكم دينية وكذلك قامت بتعيين اساقفه كمدافعين عن المدن لتسيطر على إدارة موظفيها. فتلك مسئولية صعبة وشاقة. "فإننا لا نريد أن يكون هناك تعاملاً مع القوى الموجودة..؟ وهذا ما قاله أوغسطين فى إحدى المرات ضمن مواعظه عندما كان منهك القوى فى المهام التى كانت تبعده عن عمله الحقيقى. وقد أوضحت الكنيسة من جانبها أن الدولة يجب أن تعمل كل ما فى وسعها للوصول إلى العبادة الحقه لله... وكان أوغسطين موافقاً ومؤيداً لفكرة إبعاد الدولة عن الطقوس الدينية المتعلقة بالوثنية، وأن من واجب الكنيسة أن تصمم على أن الدولة يجب عليها أن تدافع عن الإيمان الحقيقى. وفى نفس الوقت طالما ان إيمان المسيحيين لم ينتهك فعلهم، ان يطيعوا قوانين الدولة، وأن يدفعوا الضرائب، فيجب أن يعطوا قيصر ما لقيصر. وهنا كانت حرية الدولة غير محدودة وقد رأينا من قبل أن أوغسطين كان مستعداً للخضوع والطاعة للدولة بدون حد.. ولكن تأتى المسألة شديدة الصعوبة عند تحديد علاقة الكنيسة بالدولة فى

الـرد علـى عمـا إذا كـان مـن واجـب الدولـة اضطـهاد المـهرطقين وكذلـك المنشقين عن الدين مـن عدمـه؟... وفـى مناقشـات أوغسـطين المبكـرة مـع المانوية أجاب برد قاطع بالنفى: "إن الدولة لا تتمكـن مـن إجبـار رغبـة الإنسان الحر فى مسائل الإيمان".... وكـان هـذا فـى بدايـة طريقـة عنـد مناقشه الدونانتين[1]. وأن هذا لأمر هام جداً لمراقبـة دراسـة مفصلـة عـن كتاباته لأنه سيتضح من خلالها كيف أنه غير من آرائه تدريجياً.

وفى النهاية أوضح بأنـه ليـس فـى كثـير مـن الأحيـان أن يكـون للدولة حق اضطهاد – الدوناتيين وإنما كان من حق الكنيسـة فقـط فـى أن تطلب من الدولة هـذه الخدمـة. – وعندئـذ كـانت دعـاوى أوغسـطين فـى الدفاع عن استعمال القوة توحى بأنه كان يبحث فى إقنـاع نفسـه بتـأييد مثل هذه الاضطهادات "أجبرهم ليدخلوا فيها".. وكـان هـذا النـص أمـراً مـهلكاً فـى تـاريخ الكنيسـة ولم يكـن هـذا بشـىء سـار للتفكـير فـى أن أوغسطين هو الأب الروحى لهذه الاضطهادات.

وكان لكل من الدولة والكنيسة عند أوغسطين كيانها المسـتقل فـى العمل حقيقة ولكن من خلال رأيه.. الدنيوى الآخر فى تـاريخ البشـرية. يكون للكنيسة حق الأسبقية فى الانتماء إليها. وأن ما يعنيه أساساً فـى هذه الصدد ان تكون الدولة خادمة للكنيسة فى المسائل الدينية.

وإنى أكرر بأن أغوسطين لم يكن فى نظريتـه السياسية فيلسوفاً

(1) أنظر الرسـالة ٢٣ فقـرة ٧ "وينبغـى الفـهم أن مـا هـو مذكـور لم يكـن دعـوة لإجهاد الإنسان على الإيمان".

متعنتاً فكان على استعداد لتغيير أفكاره. وأن المرء لايمكن أن تخرج من كتاباته بأى ثغره في أفكاره سواء ما يتعلق منها بالدولة أو بالكنيسة. وقد كتب أوغسطين هذه الكتابات مع ما يتفق وطبيعة الوقت المعاصر له. وعندما استولى الأريك على روما، وقع مغبة هذا العمل على المسيحيين وأوضح أوغسطين بأن هذا الهجوم ضد الدولة الوثنية. وقام الدوناتيون بالتحريض ضد التحالف الأخير الذى تم بين الكاثوليك والأباطرة الرومان. ويدافع أوغسطين عن هذا التحالف ويرى أنه نظراً لأن الأباطرة يمتلكون ثروات الإمبراطورية. ففى استطاعتهم خدمة الرب بطريقة لايتمكن بها المواطنون العاديون خدمته. وهكذا فالقارئ الذى يبحث عن الرأى المتكامل لأى موضوع خاص عند أوغسطين، يقابل صعوبات ويجد نفسه فى دائرة مفرغة. ويمكن استخراج كثير من الجمل الملفته للنظر فى ثنايا مناقشات أوغسطين. ولكن هناك فئة من الناس قد فهموا تلك الجمل بشكل آخر بعيد عن المعانى والنظريات التى قالها هو. ويقول أوغسطين أن الكنيسة الموجودة الآن هى مملكة الألف عام[1]. وقد نازع أوغسطين هؤلاء الذين أعلنوا تاريخ المجىء الثانى للمسيح فى المستقبل القريب. ولو كان هذا حق لناقش المفكرون الآخرون فيما بعد. الرأس

---

(١) ساد الاعتقاد خلال أمد طويل بأن البشرية كانت تتوقع نهاية العالم فى سنة ١٠٠٠ ميلادية أو حواليها. وكان الناس وقتذاك يترقبون بشغف هذا الحدث. ولكن مضت السنون بعد سنة ١٠٠٠، ولم يبق شىء سوى التوقع العام "للعودة الثانية للمسيح وذلك حسب اعتقاد المسيحية" أنظر كولتون: المرجع السابق، ص١٧٣. (المترجم).

الأرضية (أى الملك) لهذه المملكة بأنه يجب أن يكون لها قوى ملكية. ومن ثم يمكن انتزاع الادعاءات حول بابوية العصور الوسطى. ولكن بابوية العصور الوسطى لم تكن فى عهد أوغسطين. ولو كانت الدولة مبنية على أساس العدل فيجب أن نعترف بعبادة الله الحقيقى - ويمكن مناقشة أنه طالما كانت الكنيسة تحمى الإيمان الحقيقى فلابد وأن تخضع الدولة لها. ولكن أوغسطين كان قد أعلن استقلال كل منهما عن الآخر. وأنه لمن السهل جداً أن نجعل أوغسطين مسئولاً عن الآراء التى أخرجها الآخرون من كتاباته.

ولكن فى النهاية إذا ألقينا نظرة على أفكار أوغسطين عن الدولة سوف نلاحظ فى هذا المجال أنه من أجله يكون الإنسان بالضرورة مخلوقاً اجتماعياً كما خلقه الله، وأن كل البشر جاء وآمن زوج واحد آدم وحواء. وكل الناس من وراء هذه الحقيقة يكونوا مرتبطين برباط عام. ولم يكن أوغسطين يفضل جنس على آخر فالناس جاءوا من مصدر واحد وأب واحد فى السماء.

ومرة أخرى فلأن أوغسطين كان خبيراً فى معرفة الأمور الصحيحة وعاجزاً عن تحقيقها فيمكن القول بأن الإرادة هى السبب الأساسى فى حياة البشر. والكلمة الأخيرة لم تكن فى العقل وإنما فى الإحساس - مع ماذا يجب الفرد. ولم تكن أشكال الحكومة مقبولة عند أوغسطين. فسلوك الدولة مرتبطة مع سلوك المواطنين المكونين للدولة. والمدينتان الكبيرتان كما يراهما أوغسطين متميزتان بحبين: "وهنا الحبان هما اللذان كونا المدينتين حب النفس إلى حد الامتهان بالله،

وحب الله إلى حد امتهان النفس. فالدولـة هـى اجتمـاع أشـخاص عـاقلين مرتبطين معاً اتفاق عـام يتعلـق بـأهداف حبـهم". ولـو أنـك تريـد إتمـام الموضوع، فليس بكاف أن يعـرف أن المعلومـات يجـب أن تكـون مسـلحة بالإحساس، وأن تاريخ البشرية له معان لأنـه يشـكل جـزءاً مـن الخطـة الكبرى التى كانت قد أوحيـت قبـل خلـق الزمـن (أى العـالم).. فـالخلق والزمن بدأ معاً وسينتهيان عندما لا يكـون هنـاك زمـن. ولم يكـن تـاريخ البشرية – كما اعتقد الفلاسفة دائرة مكررة. فالتاريخ البشرية هـدف، ه الفكر الموجود فى مضمون كتاب "مدينة الله".

ومن أجل هذا السـبب فالدولـة الوحيـدة التـى تكـون أبديـة هـى المملكـة التـى يكـون فيـها المسيح الحـاكم الأعلـى. فلـم تكـن رومـا عنـد أوغسطين المدينة الخالدة. "فالأشياء التى فعلها الله الحاكم الأعلى نفسه سوف تزول وعلى رأسها زوال مـا خلقـه رومولـوس[1]. وكـان أوغسـطين متيقناً عندما أدرك مـا بعـد سـقوط رومـا – مركـز ومصدر الحضـارة فـى عهده– لأنه كان هناك مدينة أكبر من أى دولة أرضية، فقد بقيت مدينة الله، أنه لنصر الإيمان، وإنها كانت الثقة الكبرى التـى مكنـت الكنيسـة لتكمـل رسـالتها للغـزاة الـبرابرة، ولرومـا عندمـا كـانت الإمبراطوريـة الرومانية الغربية قد أصبحت ذكرى طيبة، فاقت ذكرى الوحدة المفقودة التى ترددت فى أحلام رجال أوروبا فى العصور الوسطى.

---

(١) المقصود رومولوس أوجستولوس (.Romulus Augstulus) آخـر أبـاطرة رومـا الضعاف الذى قضى عليه أدواكر الجرمانى سنة ٤٧٦م. (المترجم).

قائمة المراجع

أولاً: المراجع الأجنبية:

Attwater, D, Saints, London, 1978.

Augustin, St., Confessions, Translated from the original by R.S., Pinecoffin, London, 1976.

Barker, E., Principales of Social and political Theory, London, 1963.

Baynes, N., Constantine the Great and the Christian Church, London, 1929.

Bury, J. B.; History of the later Roman Empire, 2 Vols, New York, 1958.

Carlyle, r., Medieval political theory in thewest, 2 Vols, London, 1930.

Chadwich., H., The Early Church, New York, 1976.

Duchesne., L.; Histoire ancienne de l'Eglise, 3 Vols, Paris, 1923.

Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1979.

Hardwick, Ch., Ahistor of the Christian church in the Middle Ages, london. 1871.

Hoyet, R., & Chodorows. S., Europe in the Middle Ages, New York, 1967.

Jackson, F. J., History of the chirstian church, London, 1909.

La Monte, J., The World of the Middle Ages, New York, 1979.

Ludolph, Von Sochems, Description of the Holy land, CF. Palestine pilgrims Text Society, p.p. 1-176, London, 1895.

Maurice, K., The Pelican History of Medieval Europe, New York, 1976.

Mondesert, C., Clement D'Alexandrie, Paris, 1944.

Painter, S., A History of the Middle Ages, New York, 1966.

Russel, B., History of Western philosophi, London, 1979.

Srephenson, C., Medieval History New York, 1943.

Thompson, J., History of the Middle Ages n, London, 1931.

Vasilieve, A., History, t. I, VI., Cambridg, 1911-1936.

Encyclopaedia Britanica, t. II, London, 1968.

Encyclopaedia of Religion and Ethics, t. IV, New York, 1935.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

باراكلاف (جوفرى):

الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف – الإسكندرية ١٩٦٦.

بارو (و . هـ):

الرومان – ترجمة عبد الرازق يسرى، مراجعة د. سهير القلماوى مجموعة الألف كتاب. القاهرة، ١٩٦٨.

حسن حنفى حسين (الدكتور):

نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط، القاهرة ١٩٦٩.

سباين (جورج):

تطور الفكر السياسى – ترجمة د. حسن جلال العروسى – ٥ ج، القاهرة ١٩٦٩.

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور):

اوروبا العصور الوسطى ، ٢ ج، القاهرة ١٩٧٧.

عبد الرحمن بدوى:

فلسفة العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٢.

على عبد المعطى (الدكتور):

الفكر السياسى الغربى، الإسكندرية، ١٩٧٥.

كاسيرو (أرنست) الدولة والأسطورة، ترجمة د. أحمد حمدى محمود. القاهرة ١٩٧٥.

كولتون (جورج):

عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة د. وجوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية، ١٩٦٤.

محمد محمد الشيخ (الدكتور):

الممالك الجرمانيــة فـى أوروبـا فـى العصـور الوسـطى. الإسـكندرية، ١٩٧٥.

نجيب ميخائيل (الدكتور):

مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٦، الإسكندرية ١٩٦٧.

يوسف كرم:

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٥٧.

البحث السادس

اللومبارديون وعلاقاتهم السياسية
بالقوى المجاورة
فى ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس

اللومبارديون وعلاقاتهم السياسية بالقوى المجاورة
فى ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس

قام اللومبارديون بدور كبير فى التاريخ الأوروبى الوسيط منـذ أن وطأت أقدامهم إيطاليا عام ٥٦٨م بقيادة ملكهم البوين حتى قضـى عليـهم شارلمان عام ٧٧٤م أيام الملـك دذيدريـوس **Desiderius**، ويعتـبر المـؤرخ اللومباردى بولس الشماس **Paul the deacon** من أبرز مؤرخى العصور الوسطى المتخصصين فى تاريخ اللومبارديين منـذ وصولهـم إيطاليـا حتـى وفاة الملك ليوتبراند **Liutparnd** عام ٧٤٤م[1]. وقد اعتمدنا علـى كتـاب هذا المؤرخ المعنون "تاريخ اللومبارديين" **History of the Lombard** فى استخلاص الحقائق التاريخية المتعلقة بموضـوع البحـث. ويستحسـن التعريف بهذا المؤرخ وكتابه بإيجـاز قبـل الخـوض فـى تفـاصيل تـاريخ اللومبارديين:

ولد بولس الشماس من أبوين لومبارديين، ونال حظه من التعليـم فى البلاط الملكى اللومباردى فى بافيا أثناء حكم الملـك ليوتـبراند (٧١٢-٧٤٤م) الذى غـدا لـه بمثابـة الأب الروحـى. وظـل يتـدرج فـى المنـاصب المتعددة فى البلاط الملكى طوال حكم هـذا الملـك ومـن خلفـه علـى العـرش حتى سقطت مملكة اللومبـارديين عـام ٧٤٤م علـى يـد شـارلمان فـاعتكف بولس الشماس فى دير مونت كاسينو **Monte Casino** بناء على أوامـر

---

(١) Deanesly, M., A History of early medieval Europe, London, 1956, p.247.

شارلمان لمدة تسعة أعوام[1]. وفى عام ٧٨٣م كتب إلى شارلمان يستأذنه فى الخروج من الدير والمثول بين يديه. فسمح له بذلك ثم عرض عليه البقاء فى البلاط الملكى والانضمام إلى المفكرين والعلماء أمثال بطرس البيزى والكوين وثيودولف للعمل معهم فى مدرسة القصر التى اهتم بها شارلمان. فوافق شارلمان على ذلك، وظل هناك ما يقرب من عامين قرر بعدها العودة مرة أخرى إلى الدير، وظل به حتى وفاته عام ٧٩٩م[2].

شغل بولس قبل وفاته بثلاثة أعوام بكتابة مصنفات ثلاثة. أولها تجميع وطبع مراسلات البابا جريجورى الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) إلى صديقة أدلهارد رئيس دير كوربى Dalhard وثانيها تاريخه عن حياة هذا البابا. وأخيراً ختم أعماله بالكتابه عن تاريخ اللومبارديين[3].

ويعتبر كتابة المدون باللاتينية والمعنون Historia Langobardorum مصدراً رئيسياً لأخبار اللومبارديين من حيث أصولهم ونشأتهم وتحركاتهم تجاه شبه الجزيرة الإيطالية وتأسيس مملكتهم ونموها حتى وفاة الملك ليوتبراند عام ٧٤٤م[4]. وجرى ترجمة هذا الكتاب من اللغة اللاتينية إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة، فقام

---

(١) Peters, E., the Lombards and the Lombrd Laws, cf. The Lombard Laws, translated by katherine fiseher Drew, Philadelphia, 1973, (pp. V-xxll), pp. XI – Xll.

(٢) Ibid., P. x11, Deanesly, op. cit., p. 248.

(٣) Peters, op. cit., p. x 111.

(٤) Deanesly, op. cit., loc. Cit.

د. أوتو آبل Otto Abel بنقله إلى الألمانية تحت عنوان:

Paulus Diakonus Und die Ubrigen Gesehichtscbreit er der Langobarden.

وتم طبعه فى ليبزج عام ١٨٨٨م. وكذلك ترجم إلى اللغة الإيطالية بمعرفة الأستاذ أوبرتى جيانسفرو Auberti Giansevero بعنوان:

Polo Diacono Dei Fatti de Langobardi

ونشر فى روما عام ١٨٩٩م[١]. وأخيراً ترجم إلى اللغة الإنجليزية بمعرفة الأستاذ وليم دادلى فولك Wlliam Dudley Folk تحت عنـوان Paul the Deacon, History of the Lombards وتم طبعـه فـى فيلادلفيا عام ١٩٧٤. وهى النسخة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث.

وجدير بالذكر أن بولس الشماس كان شاهد عيان لكل ما كتبه عن تاريخ اللومبارديين فى أواخر حياته. ويبدو أن المنية قـد وافتـه قبـل أن يكمل تاريخه فقد توقف فى كتاباته عند عام ٧٤٤م[٢]. وكـان يعتمـد فـى تاريخه علـى الكتابـات الأصليـة المسجلة والمكتوبـة دون الاعتمـاد علـى غيرها مـن الروايـات الشـفهية المتناقلـة بـين الأفـراد ومـن هنـا اتسـمت كتاباته بالصدق والأمانة[٣].

---

(١) Peters, op. cit., p. v.

(٢) Ibid., pp. Xlv – xv.

(٣) Deanesly, op. cit., Loc. Cit.

وينقسم كتابة إلى ستة فصول، الأول يتناول أصل اللومبارديين وتحركاتهم فيما قبل القرن السادس الميلادى. بينما يوضح القسم الثانى مرحلة دخولهم إيطاليا بقيادة البوين، ثم تضمن القسم الثالث الصعوبات التى واجهت اللومبارديين فى تأسيس مملكتهم بزعامة أوثارى Authari أما بالنسبة للأقسام الثلاثة الباقية فقد تناولت أحداث المملكة أيام أقوى ملوكها الشرعيين روثير Rothair (٦٣٦-٦٥٢م)، وجريموالد Grimwald (٦٦٢-٦٧١م)، وليوتبراند Lintprand (٧١٢-٧٤٤م)، ثم تعرض من خلال حديثة عن هؤلاء الملوك الثلاثة إلى شرح كثير من مواد القانون اللومباردى الصادر فى عصر كل منهم. هذا عن حياة بولس الشماس. وفيما يتعلق باللومبارديين فى شبه الجزيرة الإيطالية، نعرف أن العالم الرومانى تعرض اعتباراً من القرن الثالث الميلادى لأزمات عنيفة هددت كيانه. إذ عاث الجرمان البرابرة فى أراضى الإمبراطورية الرومانية. وكثرت إغارتهم عليها حتى نجحوا آخر الأمر فى الانسياب إلى جوف الإمبراطورية، وقضوا تماماً على الجزء الغربى منها عام ٤٧٦م. وأقاموا على أنقاضها الممالك الجرمانية: القوط الغربيين فى أسبانيا وجزء من جنوب غاله (٤١٥-٧١١م)، ومملكة الوندال فى شمال أفريقيا (٤٣٩-٥٣٤م)، ومملكة القوط الشرقيين بإيطاليا (٤٩٣-٥٥٢م)، ومملكة الفرنجة فى شمال غاله وغربيها عام ٤٨٦م[1]. غير أن القوات البيزنطية نجحت فى عهد

---

(١) =Peters, op. cit; pp. V – v111.

جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) فى القضاء على بعض هذه الممالك الجرمانية وإعادة سيطرة الإمبراطورية من جديد على شبه الجزيرة الإيطالية[١]. ولكن تلك الانتصارات العظيمة التى حققها الإمبراطور جستنيان لم تدم طويلاً فلم تكد الإمبراطورية الرومانية تلتقط أنفاسها حتى تعرضت إيطاليا لغزو اللومبارديين اللذين مثلوا آخر الهجرات لجرمانية التى اقتحمت الإمبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها، حيث كونوا مملكة كبيرة شملت معظم أنحاء إيطاليا ما عدا الجزء الجنوبى منها وصقلية وحزام يمتد عبر وسط إيطاليا من رافنا إلى روما[٢].

واللومبارديون من الشعوب الجرمانية التى أتت من جرمانيا إلى أطراف الإمبراطورية الرومانية فى القرن الأول الميلادى والتاريخ القديم لم يكن قد طوى صفحته بعد[٣]. وكانوا أكثر تلك الشعوب تخلفاً فى تلك الفترة المبكرة، وأقلها تأثراً بالنواحى الحضارية لأنهم عزفوا عن ثقافة وحضارة الرومان قبل وصولهم إلى حدود الإمبراطورية

= انظر كذلك السيد الباز العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٨، ص ١٣١.

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، بيروت ١٩٧٢، ص١٠٩.

(٢) سالفيان: ورثة الإمبراطورية الرومانية، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ٥٢. راجع أيضاً:

Masterman, H.; The Dawn of Medieval Europe, London, 1911, p. 81.

(٣) **Paul the Deacon History of the Lombards, translated by William Doudley Fculk, philadelphia, 1974, p. 3 cf. Also.**

الرومانية[1]. أما بعد دخولهم إيطاليا فقد نجحوا فى التآلف مع الشعب الرومانى وبقايا الحضارة الرومانية القديمة فسرعان ما أخذوا عن الرومان ألقابهم القديمة وأنظمتهم وحكومتهم، كما اعتنقوا المسيحية على المذهب الكاثوليكى الغربى فى عهد ملكهم أجيلولف Agilulf (٥٩٠-٦١٥م) بعد أن كانوا يعتنقون الآريوسية[2]. كما سمحوا لمدن الشمال الإيطالى أن تتطور وأن تنتج حضارة تفوق تلك التى عاش فى ظلها معظم جيرانها من الجرمان البرابرة[3]. ويختلف اللومبارديون عن القبائل الجرمانية الأخرى فى طريقة حياتهم. فبينما كانت تلك القبائل تعيش فى القرى الصغيرة والمزارع، كان اللومبارديون يفضلون الحياة فى المدن على الإقامة فى السهول المنزرعة[4]. وكانوا يعرفون باسم وينيلس Winniles[5]. وهناك أسطورة قديمة تكشف عن سبب تسميتهم باللومبارديين، خلاصتها أن هذه القبيلة عندما رحلت

---

(١) Oman, ch; The Dark Ages (476-918), London. 1923, p. 181; Oman, op. cit., p. 182.

(٢) جوزيف نسيم: تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، الإسكندرية ١٩٨٤، ص٨٤، راجع أيضاً:

Dury, v; The History of the Middle Ages, New York, 1891, p. 39.

(٣) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٤) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص٨٣.

(٥) Secundus of Trent, Orgio Gentis Langobardorum, cf. paul the Deacon, History of the Lombards, translated by William Dudley, Philadelphia, 1974 (pp. 315-321), p. 316.

مـن موطنـها الأصلـى باسـكيندناوه اتجـهت نحـو إقليـم سـكورينجا Seoringa[1]. واستقرت هناك بضـع سنوات ثـم مـا لبثـت ان تعرضـت لهجمات عنيفة من قبيلة الونـدال Wandals فـاندلعت حـرب ضـروس بين القبيلتين[2].

وطلـب قـائد جيـش الونـدال أمـبرى Ambri مـن الإلـه جـودان Godan[3]. أن يمنحـه النصـر علـى أعدائـه. ولكـن الإلـه أبـى أن يكـون النصر إلا لمن يراه من القبيلتين أولاً عنـد شـروق الشـمس وعندمـا علمـت جامبارا Gambara ملكة قبيلة وينيلس بهذا الأمر قد توصلت بدورهـا إلى فراى Frea زوجة الإله جودان لكى تساعدها فى النصـر علـى قبيلـة الوندال خاصة وأن المحاربين من رجالها كانوا قلة ضئيلة جداً بالنسـبة للوندال. فوافقت فراى Frea ونصحت الملكة جامبارا بالتنبيه على نساء القبيلة أن يجدلن شعورهن اسفل ذقونـهن حتـى تبـد مـن بعيـد كمـا لـو

---

(١) تقع على بعد أربعة وعشرون ميلاً جنوب شرق مدينة هامبورج أنظر:
Paul the Deacon, op. cit., 11, n. 1.

(٢) Secundus of trent, op. cit; Loc. Cit.

(٣) هو أحد الآلهة القديمة، وهو معروف باسم هرمس Hermes عنـد الإغريـق، وباسم مركوريوس عند الرومان Mercurius وهو أحد الآلهة المشهورة عند كل الشعوب الجرمانية. وقد ذكرت الأساطير أنه مبعوث الآلهة، وكان يصور وهو يحمل عصا الرسول ويرتدى خوذة الاختفاء، وعرف بأنه رب التجـار وحـامى الطرق وقائد الأرواح عبر سـراديب العـالم الآخـر وحـامى الحـدود. لمزيـد مـن التفصيـلات. أنظـر: سـيد النـاصرى: الإغريـق، تاريخـهم وحضارتـهم وحضارتهم، القاهرة ١٩٨٤. ص١٧-١٨.

كانت لحى أرخاها أصحابها، وأن يخضعن مع أزواجهن ليقف الجميع في مواجهة نافذة بيت الإله جودان حتى يراهم جميعاً عندما يطل منها. وعند شروق الشمس أدارت فراى وجه الإله ناحية النافذة، ثم أيقظته فوقعت عيناه على المحاربين من قبيلة وينيلس فسأل: من هؤلاء أصحاب الذقون الطويلة؟ فردت زوجته قائلة: طالما انك أطلقت عليهم هذا الاسم فأمنحهم أيضاً النصر فأجابها إلى طلبها. ومنذ ذلك الحين عرفت هذه القبيلة باسم اللومبارديين **Longobardi**(١).

ومهما يكن من أمر، فإن كل ما يهمنا أن اسم اللومبارديين أطلق على قبيلة ونيليس نسبة إلى ذقونهم الطويلة. وهي كلمة تتكون من مقطعين، الأول **Longo** ويعني "طويل"، والثاني **Bardi** ويعني "ذقون" والمقطعان معا يرمزان إلى "أصحاب الذقون الطويلة"(٢). وطالما أن المصادر لم تفدنا بالتاريخ الذى أطلقت فيه هذه التسمية عليهم، فمن المحتمل أن يكونوا قد عرفوا بهذا الاسم مع بداية رحيلهم من موطنهم الأصلي باسكيندديناوه للإغارة على المناطق المجاورة، وعزمهم في نفس الوقت على إطلاق ذقونهم لتضفي على هيئتهم سمة المحاربين الأشداء فيدخلون الرعب في قلوب أهالي تلك المناطق، مما يسهل عليهم سرعة الاستيلاء على الممتلكات.

---

(١) Paul the Deacon, op. cit; p. 16; Secundus of Trent; op. cit: pp. 316-316.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., p. 17; cf. also: Masterman, op. cit., p. 81.

على أية حال، أخذ اللومبارديين ينسابون ببطء فى حوض نهر الراين نحو نهر الدانوب وظلوا طويلاً على الضفة الغربية لنهر الدانوب بين Moravia, Theiss ثم ظهروا فى بانونيا Pannonia فى أوائل القرن السادس الميلادى واستقروا هناك لبضع سنوات(١). ثم تحركوا بعد ذلك إلى أواسط الدانوب، وأصبحوا يجاورون كلا من الجيبداى Gepidae والقوط الشرقيين Ostrogoths(٢).

ويبدو أن اللومبارديين لم يشكلوا فى هذه المرحلة خطراً على الإمبراطورية البيزنطية لأنهم عملوا كنجد مرتزقة فى جيوش الإمبراطور جستنيان تحت قيادة نارسيس Narsis عام ٥٥٢م لمساعدته ضد بدويله ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا وذلك مقابل ما بذل لهم من أموال. وقد أبلوا بلاء حسناً فى القتال وكانوا عاملاً مساعداً فى القضاء التام على مملكة القوط الشرقيين فى

---

(١) Secundus of Trent, op. cit., pp. 318-319; Paul the Deacon, op. cit., p. 62; cf also: Jenkins, Medieval European history, London, 1929; Also: Om an, op. cit., p. 182.

انظر كذلك سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) Procopius, History of the Wars, translated from the original Greek by H.B. Dewing. 7 vols, London, (1910-1940), t. 111, p. 409; cf. Also: Om an, op. cit., p. 182.

راجع كذلك: محمد الشيخ، الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى الإسكندرية، ١٩٧٥، ص٢٣٨.

إيطاليا[1]. ويبدو أن هذه الحرب هي التي أوضحت للومبارديين مدى ثروة إيطاليا وغناها وفي نفس الوقت كشفت لهم عن مواضع ضعفها وتفككها[2]. ولذلك كان من الأنفع للإمبراطورية البيزنطية أن تصادق أولئك القوط فعلاً لتدرأ بهم شر عنصراً أكثر بربرية وهو اللومبارديين طالما أن القوط الشرقيين كانوا أكثر الشعوب المتبربرة حفاظ على الحضارة والنظم الرومانية، وأنه لو لم تتصدع دولتهم في إيطاليا لما حدثت الغزوات اللومباردية[3].

على أية حال، تأخر غزو اللومبارديين لإيطاليا ما يقرب من خمسة عشر عاما بعد ذلك بسبب حروبهم الطاحنة مع الجبيداى من ناحية، ولكبر سن ملكهم أدوين Audoin من ناحية أخرى[4]. فبعد وفاة هذا الملك عام ٥٦٥م خلفه على مملكة اللومبارديين ابنه البوين Alboin، وفي عهده زادت العلاقات سوءا بينه وبين قبيلة الجبيداى، واشتعلت نيران الحرب أكثر مما كانت عليه أيام حكم

---

(١) Procopius, op. cit., v, p. 331; Paul the Deacon, op. cit., p. 53, cf. Also: Hodkin, Italy and her invaders, 6 Vols, Oxford, (1890-95), v, pp. 61-65; Oman, op. cit., p. 182.

(٢) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص٢٤٠ راجع كذلك:
Oman, op. cit., Loc. Cit.

(٣) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٤) Oman, op. cit., Loc. Cit.

الملك ادوين مما اضطر البوين إلى طلب مساعدة ملك الأفار خان بايان Khan Baian وعقد معه معاهدة تحالف تعهد بموجبها بدفع عشر ما يمتلكه اللومبارديين من الطيور، وتقسيم الغنائم مناصفة بينهم وبين الأفار، وأن يحصل الأفار على الأراضي التى كانت خاضعة للجبيداى[1]. وقد نجح اللومبارديون فى إحراز انتصار كبير وقام الجبيداى وألحقوا الخراب والدمار بمملكتهم عام ٥٦٧م بعد مقتل ملكهم وتحويل أسراهم إلى عبيد[2].

والواقع أن هذا الانتصار الذى أحرزه البوين على قبينة الجبيداى قد ثبت نفوذه فى المنطقة إلى حد بعيد، وجعله يقرر غزو إيطاليا. ولكنه فكر قبل القدوم على هذه الخطوة فى الاتصال بأصدقائه القدامى من السكسون والبلغار لمزيد من العون ضمانا إحراز النصر فى أسرع وقت ممكن. فما لبث أن جاء إليه أكثر من عشرين ألف رجل مع زوجاتهم وأطفالهم[3].ثم قاد البوين قومه فى أبريل عام ٥٦٨م ناحية الجنوب فاجتاز بهم جبال الألب واختراق الأراضى الإيطالية عن طريق شبه جزيرة استريا، ونزل بهم سهول الشمال الفسيحة دون مقاومة تذكر[4].

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., pp. 50-52, cf also Schmidt, Zur Geschichte der langobarden, Leipsic, 1895, pp. 63-64.

(٢) Geechichte, Italin lmmittelalter, 2 vols, Gotenburg, 1903, 11, p. 31 Deanesly, op. cit: p. 24, OmaN, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Paul the Deacon; op. cit., p. 61; Deanesly; op. p. 246; peter, E. Europe, the World of the Middle Ages, New Jersey, 1977, p. 136.

(٤) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٤١. انظر كذلك:

بل سارعت بعض المدن مثل أكويليا Aquileia وميـلان Milan وفيرونـا Veronaبالاستسـلام والترحـاب بـهؤلاء الغـزاة[1].لأنـه كـان عليــهم الاختيـار بـين الاندمـاج فـى المملكـة الجرمانيـة الجديــدة أو الخضـوع واستسـلام وأداء الضرائـب الباهظـة للإمبراطوريـة البيزنطيـة فاختـاروا الطريق الأول اعتقادا منهم بأن اللومبارديين لـن يكونـوا بأيـة حـال مـن الأحوال أسوأ من البيزنطيين[2]. وكانت الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت على عهد جستين الثانى (٥٦٥ – ٥٧٨م) فى حالـة لا تسـمح لهـا بإرسـال جيـوش لوقـف توغـل اللومبـارديين داخـل الأراضـى الإيطاليـة بسبب انشغالها ضد الفرس[3]. وبالتالى لم يصادف اللومبـارديون مقاومـة إلا المدن ذات الأسوار العالية القوية والموجود بـها الحاميـات البيزنطيـة ولكن حتى هـذه المدن لم تسـتطيع الصمـود طويـلا، وسـرعان مـا انتشـر اللومبارديون فوق سهل نهر البو Po الذى عرف بسهل لومبارديا نسـبة إليهم منذ ذلك الوقت[4]. وقد عانى أهالى تلك المدن كثـيرا نتيجـة أعمـال

Masterman; op. cit., p. 81.

(١) Oman, op. cit., p. 184.

(٢) Katherin, F D; The Lombard State and Lombard Laws, cf. the Lombard Laws, Philadelphia, 1973, (pp. 14-37), p. 14.

(٣) Idem.

(٤) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١١٠، راجع أيضاً:

Oman, op. cit., Loc. Cit., Stephenson, Mediaeval History, U.S.A., 1965, p. 95.

القسوة والعنف التى لاقوها من البوين بسبب تجديهم له ورفضهم الاستسلام[1]. ولكن اللومبارديين تمكنوا أخيرا من اخضاع كثير من هذه المدن، وفى مقدمتها بافيا Pavia التى استمر حصارها ما يقرب من ثلاث سنوات، ثم اتخذها اللومبارديون عاصمة لمملكتهم الجديدة[2].

ولقد حكم البوين ثلاث سنوات ونصف ثم اغتيل غدرا بيد أحد غلمانه عام ٥٧٣م ويرجع السبب فى ذلك أنه بعد أن انتصر على قبيلة الجبيداى وقضى على مملكتهم وقتل زعيمهم ووقعت ابنة هذا الزعيم المسماه روزماند Rosemund فى أسر اللومبارديين طلب البوين بعد مضى فترة من الوقت الزواج من روزماند فوافقت رغم الكره الشديد الذى كانت تكنه له. ولكنها فضلت أن تكون ملكة عن كونها مجرد أسيرة. وفى احد الأيام بينما كان الملك البوين جالساً فى إحدى المآدب فى فيرونا يتناول شراب النبيذ فى كأس مصنوع من جمجمة رأس والد زوجته روزماند أخذ يتهكم أمامها على هذا الموقف وتمادى فى سخريته وطلب أن تشرب معه فى نخب والدها. ولذا فقد ضاقت ذرعاً بتصرفاته وإهاناته لها وصممت على الانتقام منه. فدبرت مؤامرة مع خادمة للتخلص منه أثناء استغراقه فى النوم. وتم ذلك بالفعل ولكن الملكة روزماند أرادت التخلص من شريكها فى ارتكاب الجريمة، فدست له السم فى شرابه وعندما شرب حتى منتصف الكأس أدرك بتحرك السم فى أحشائه فسحب سيفه

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 81.

(٢) Dury, op. cit., p. 38, Thather and Schwill, European in the Middle Ages, London, 1907, p. 83.

وسلطة على رقبة الملكة وأرغمها على شرب ما تبقى منه ففعلت مضطـرة وانتهى الأمر بموتهما معا وتحققت عدالة السماء[١].

ويبـدو أن مقتـل البويـن لم يؤثـر كثـيرا علـى حركـة توسـع اللومبارديين داخل شبة الجزيـرة الإيطاليـة، فسـرعان مـا اختـار أدواق اللومبارديين كلف **Cleph** ملكا عليهم، وبالرغم من عـدم استمراره فـى الحكم أكثر من عام ونصف لمقتله بيد أحـد غلمانـه، إلا أن اللومبـارديين نجحوا تحت زعامته فى السيطرة على الأجزاء الشـمالية لإيطاليـا حتـى حـدود توسـكنيا الجنوبيـة[٢]. ثـم واصـل أدواق اللومبـارديين بعـد ذلـك مسيرة الغزو حتى نجحوا فى الاستيلاء على الأجزاء الوسطى من إيطاليا حتى بنفنتو **Benevento**، ثـم قـاموا بتأسـيس دوقيتـين كبـيرتين همـا دوقية بنفنتو، ودقية سبولتو **Spoleto**[٣]. وبذلك يكون قد اقتسم إيطاليا ثلاث قوى: اللومبارديون فى الشـمال، والبـيزنطيون الذيـن اتخـذوا مـن رافنا عاصمة لهم فضلا عن اجزاء لهم فى الجنوب، ثم مدينـة رومـا ومـا يتبعها من البلاد التى يتولى أمرها البابوات[٤].

وجدير بالذكر، أنه على الرغم من توغل اللومبارديين داخل شبه الجزيرة الإيطالية واستيلائهم على المدن العديدة إلا أنهم لم يتمكنوا مـن

---

(١) **Paul the Deacon, op. cit., pp. 82-86; Secunds of trent, op. cit., p. 319, cf also: Hodkin, op. cit., v. p. 170, Schmidt, op. cit., p. 72.**

(٢) **Paul the Deacon, op. cit., p. 86, Oman, op. cit., p 186.**

(٣) **Thatcher and Schwill, op. cit., Loc. Cit.**

(٤) السيد الباز العرينى: المرجع السابق. ص ١٣٧.

السيطرة على المدن الساحلية. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى افتقارهم للأساطيل وعدم خبرتهم بالشئون البحرية(١).

وبعد مقتل كلف أجمع أدواق اللومبارد على عدم تعيين ملك عليهم وأن يظل العرش خالياً فيستأثر كل منهم بالحكم داخل دوقيته(٢). وكان سبب التفكير فى ذلك نابعاً من شعورهم بعدم الحاجة إلى ملك يحكمهم هذا الوقت على الأقل(٣). وقد وجد فى آن واحد فى هذه الفترة الزمنية ست وثلاثون من الدوقيات اللومباردية، كل منهم يسعى للاستحواذ على السلطة والنفوذ. فعادوا بذلك مرة أخرى إلى نطاق الحكم الذى كانوا يخضعون له قبل دخولهم إيطاليا(٤). وقد أدى ذلك الوضع إلى تمزق القوى اللومباردية مما شجع أعدائها البيزنطيين على التطاول ومحاولة استعادة بعض الأراضى فى إيطاليا(٥). ففى عام ٥٨٢م أرسل الإمبرطور البيزنطى موريس (٥٨٢-٦٠٢م) إلى الملك الفرنجى تشيلدبرت Childpert مبلغاً كبيراً من المال والهدايا مقابل مساعدة جيش بيزنطة

---

(١) Thatcher and Schwill, op. cit., p. 448; Mastermann, op. cit., p. 82.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., p. 86; Deanesly, op. cit., p. 249; Peter, op. cit., p. 136.

(٣) Oman, op. cit., Loc. Cit.

(٤) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص٨٣-٨٤. راجع أيضاً:
Dury, op. cit., p. 93; Thatcher and chwill, op. cit., p. 83, Oman, op. cit., pp. 186-187; Mastermann, op. cit., Loc. Cit.

(٥) Deanesly, op. cit., p. 249.

ضد اللومبـارديين فـى إيطاليـا. فاسـتجاب ملـك الفرنجـة لهـذا النـداء، وخرج على رأس جيش كبـير تجـاه إيطاليـا، ومـا أن علـم اللومبـارديون بذلك حتى أخذوا يسـتعدون بتحصـين مدنـهم وقلاعـهم، ولكـن بمجـرد وصول الملك تشيلدبرت إلى حـدود مملكـة اللومبـارديين، تبدلـت الرسـل والهدايـا والأمـوال بـين الطرفين، وانتـهى الأمـر بعقـد معـاهدة سـلام بينهما. وعاد الملك الفرنجـى إلى بـلادة. وأصبـح اللومبـارديون منـذ ذلـك الحين أصدقاء وحلفاء للفرنجة[١]. وعلى الرغـم مـن أن المصـادر لم تفصح عن السر فى إنهاء الموقف بين الفرنجة واللومبارديين على مـا تم عليـه. فـإن المـؤرخ جريجـورى التـورى Gregory of Tours يـرى أن اللومبارديين أظهروا الخضوع لسـلطان الفرنجـة وأن تلـك الأمـوال التـى تسلمها تشيلدبرت تمثل جزءاً من الجزية المفروضة عليهم[٢].

ومـهما كـان الأمـر، فقـد أدرك أدواق اللومبـارد بعـد هـذا الموقف مدى احتياجهم الشديد لتوحيد كلمتهم من جديـد تحـت زعامـة واحـدة تسـاعدهم فـى القضـاء علـى الفوضـى والاضطـراب فـى مختلـف الدوقيـات مـن ناحيـة، وفـى التخطيـط لصـد أى عـدوان خـارجى يـهدد كيانهم من ناحيـة أخـرى. وهكـذا وبعـد مضـى عشـرة أعـوام مـن مقتـل الملك الأسبق كلف تم اختيـار ابنـه أوثـارى Authari ملكـاً عليـهم عـام

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 117, Gregory of Tours, the history of the Franks, Translated by Lewis Thorpe, New York, 1974, p. 375.

(٢) Gregory of Tours, op. cit., Loc. Cit.

٥٨٤[1]. وحدث ذلك فى الوقت الذى كـان فيـه قلـة مـن الأدواق يشـكلون مراكز قوى كبيرة بين باقى الدوقيات اللومباردية. ولا أدل على ذلك مـن موقف دوقيتى بنفنتو وسبوليتو حيث رفضنا تقديم الطاعة الفعلية للملك الجديد، وظلتا خاضعتين له من الناحية الشكلية والإسمية فقط. وهذا مـا سبب للملك أوثارى كثيراً من المشاكل والصعوبات فى حكم مملكته[2].

ولعل أهم ما يميز عهد الملك أوثارى تلك الانتصارات لتى حققتها جيوشه ضد الفرنجه فى معركتين متتـاليتين عـامى ٥٨٨و ٥٩٠م وسـبب المعركة الأولى أن الملـك أوثـارى كـان قـد أرسـل سـفارة إلى ملـك الفرنجـة تشيلدبرت لطلب الموافقة على زواج ملك اللومبارديين مـن أختـه تدعيمـاً لأواصر الصداقة والمحبة بين الطرفـين وقـد رحـب ملـك الفرنجـة بـهذه السفارة وأبدى موافقته على إتمام هذا الزواج، غير أنه فى نفـس الوقـت وصلت سفارة من ريكارد ملك القوط الغربيـين فـى أسـبانيا (٥٨٦-٦٠١) يطلب زواج نفس الفتاة من ملكهم. فاضطر الملك تشـلدبرت الموافقـة علـى العرض الأخير ضارباً بموافقته السابقة لملك اللومبـاردين عـرض الحـائط بسبب تحول القوط الغربيين فى ذلك الوقت إلى المسـيحية الكاثولوكيـة، بينما كان الملك أوثارى يدين بالأريوسية[3]. ولذلك ساءت العلاقـات بـين

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., pp. 113-114; Secundus of Trent, op. cit., p. 30, cf also: Dury, op. cit., p. 39; Deanesly, op. cit., p. 250.

(٢) Thatcher and Schwill, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Paul the Deacon, op. cit., pp. 136-137; Gregory of Tours, op. cit., p.512.

الفرنجة واللومبارديين. الأمر الذى جعل الملك تشيلدبرت يعرض على الإمبراطور البيزنطى موريس التعاون معاً للقضاء على اللومبارديين وإخراجهم من إيطاليا، واندلعت الحرب ضاربة بين الجانبين التى انتهت لصالح اللومبارديين[١]. الأمر الذى جعل الملك الفرنجة يرسل جيشاً كبيراً للمرة الثانية عام ٥٩٠م لتحقيق نفس الهدف، ولكن محاولاته باءت بالفشل وانهزم جيشه مرة ثانية رغم نجاحه فى تدمير بعض المعاقل والحصون اللومباردية[٢]. وثمة تطور آخر هام حدث فى عهد اوثارى هو زواجه من تيودلند Theudelinda ابنه دوق بافيا عام ٥٩٠م. وهى أميرة كاثوليكية. الأمر الذى نجم عنه اعتناق أوثارى للمذهب الكاثوليكى وانتشار الكاثوليكية بين الشعب اللومباردى[٣]. ولكن هذه الأميرة لم تمكث معه فترة طويلة. إذا وافته المنيه فى الخامس من سبتمبر من نفس العام[٤]. وقد انتهز أدواق اللومبارد فرصة وفاة مليكهم وأرسلوا سفارة إلى ملك الفرنجة لإعادة السلام معه. فاستقبل الملك هذه السفارة استقبالاً حسناً ووعد بتحقيق السلام مستقبلاً[٥].

---

(١) Idem., Hodkin, op. cit., v., pp. 260-261; Hartmann, op. cit., p. 83.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., pp. 141-143.

(٣) كانت هذه الفتاة خطيبة سابقة لتشلدبرت ملك الفرنجة. وكانت أخت زوجة الدوق اللومباردى أيوين Euin دوق ترنت Trent أنظر:

Paul the Deacon, op. cit., p. 137, n. 3., Oman, op. cit., p. 260.

(٤) Paul the Deacon, op. cit., p. 137; Hodkin, op. cit., V, p. 275

(٥) Paul the Deacon, op. cit., pp. 149; Gregory of Tours, op. cit., [illegible]

ورأى الأدواق بعد ذلك رغبتهم فى تفويض ثيودلندا لاختيار أحدهم ليكون زوجا لها وملكا على اللومبارد. فوقع اختيارهم على أجيلولف Agilulf دوق تورين Torin وابن أخ الملك الراحل[1]. فحكم نحو خمسة وعشرين عاماً (٥٩٠-٦١٦م) تحسنت خلالها العلاقات مع الفرنجة. وعقد معاهدة سلام مع ثيودريك Theuderic ملك الفرنجة[2]. وقد شجع ذلك أجيلولف على أن يخوض حروباً عديدة ضد الإمبراطورية البيزنطية. وينجح فى انتزاع أجزاء جديدة من أملاكها فى إيطاليا مثل أورت Orte وتدر Tudre وبيروجيا Perugia. وغيرها من مدن جنوب توسكانيا. وظلت الحروب مستمرة بين الطرفين حتى تدخل البابا جريجورى الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) لإقرار الصلح بينهما عام ٥٩٩م تعهد بمقتضاه نائب الإمبراطور فى رافنا بدفع خمسمائة قطعة ذهبية سنوياً إلى اللومبارديين[3]. وكان للملكة ثيودلندا دور كبير فى إقناع زوجها الملك أجيلولف لعقد هذا الصلح. ولذلك أرسل إليها

---

(١) Idem.

(٢) Idem.

(٣) لم يتدخل البابا فى إقرار الصلح من تلقاء نفسه وإنما بعد إلحاح شديد من قبل الإمبراطور موريس بعد ان أدرك صعوبة ما تعانيه الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت من جراء حروبها ضد الأفار والسلاف على حدود الدانوب إلى جانب ثورات العبيد. أنظر:

Paul the Deacon, op. cit., pp. [illegible]-155, cf also: Deanesly, op. cit., p. [illegible]

البابا خطابا يشكرها فيه، ويؤكد مباركة الكنيسة لها ورضاها عنها[1]. وفى نفس الوقت أرسل البابا أيضاً خطابا مماثلاً إلى الملك أجيولف يعبر عن امتنانه وحبه وتقديره لموافقته على إتمام الصلح مع بيزنطه[2]. ولكن

---

(١) ورد نص هذا الخطاب ضمن كتاب بولس الشماس وترجمة:

من جريجورى إلى ثيودلندا ملكة اللومبارديين:

علمنا من تقرير ابننا بروبوس Probus أنكم كرستم أنفسكم من أجل تحقيق السلام. ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليكم لأننا عهدنا فى شخصكم العظيم الحماس الشديد وحب الخير. ولم يكن ذلك نابعاً من إخلاصكم للمسيحيين فحسب، وإنها من نواياكم الطيبة تجاه السلام. ولذا فإننا نتوجه بالشكر إلى الرب القدير الذى يملأ حبه قلبكم، فإنه لم يمنحكم الإيمان بنصرة الحق فحسبن بل ساعدكم أيضاً على تكريس أنفسكم للأعمال الطيبة التى تزيد من سروره. ونشكركم يا خير البنات لرغبتكم الصادقة فى تحقيق السلام ونتضرع إلى الرب أن يضاعف لكم الجزاء والثواب ويطهر روحكم فى الحياة الدنيا والأخرى. نكرر تحيتنا مع مزيد من الحب الأبوى لمسيرة السلام التى خضتها مع زوجك العظيم الذى وافق على التحالف مع دولتنا المسيحية. ونعتقد، وأنت أيضاً تعلمين، أنه ينبغى على زوجك أن يظل فى كل الأحوال راغباً فى صداقة دولتنا. ولكى يتحقق ذلك لابد وأن تشغلى نفسك كما تعودت دائماً، بالتوفيق بين مختلف الأطراف لتصبح جهودك الطيبة أكثر كمالاً أمام الرب القدير وتفوزى بالجزاء الكبير المرتقب به.

راجع: **Paul the Deacon, op. cit., pp. 155-156.**

(٢) جاء هذا الخطاب فى كتاب بولس الشماس وترجمته:

من جريجورى إلى أجيللف ملك اللومبارديين، نتوجه بالشكر إلى عظمتكم لاستجابتكم للنداء الذى وجهناه لكم لتحقيق السلام الذى سوف ينتج عنه=

لم تلبث وأن تجددت الحرب بين الطرفين عندما تجرأ النائب الإمبراطورى جاليكينوس Galicinus على أسر ابنة الملك أجيلولف وزوجها وأطفالها أثناء عبورهم أراضى الإمبراطورية عام ٦٠٢ فى عهد الإمبراطور فوكاس (٦٠٢-٦١٠م) [١]. فاستولى اللومبارديون فى هذه المرة بالتعاون مع حلفائهم الأفار على مادوا ومانتوا، فضلاً عن بعض القلاع القوية على ساحل البندقية[٢]. وانتهى الأمر بعقد معاهدة سلام أخرى بين الطرفين تعهدت فيها الإمبراطورية البيزنطية بدفع جزية سنوية إلى اللومبارديين تعادل ألف ومائتى قطعة ذهبية بجانب التنازل عن

=مزايا كثيرة لكلا الطرفين. ولذا فإننا نمدح حصافة سموكم وطيبتكم. وقد اتضح لنا من حبكم للسلام انكم تحبون الرب صاحب السيادة العليا. ولو لم يتم السلام، لا قدر الله، لحدث سفك لدماء المزارعين التعساء من كلا الطرفين. ولذا فإننا نمدح حصافة سموكم وطيبتكم. وقد اتضح لنا من حبكم للسلام أنكم تحبون الرب صاحب السيادة العليا. ولو لم يتم السلام، لا قدر الله، لحدث سفك لدماء المزارعين التعساء من كلا الجانبين، ولأدى ذلك إلى الوقوع فى الخطيئة. ولكننا نشعر الآن بمزايا ذلك السلام الذى حققتموه. إننا نصلى من أجلكم، ونرسل لكم تحيتنا المشفوعة بالحب الأبوى. ويمكنك أن تبعث برسائلك إلى أدواق اللومبارد فى شتى الأنحاء، خاصة أولئك الموجودين فى الأطراف، مذكراً إياهم بضرورة الحفاظ على هذا اللام عند نقضه".

انظر:

Paul the Deacon, op. cit., pp. 157-158.

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 165, cit., also: Oman, op. cit., Loc. Cit.

(٢) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص٢٤٧.

جنوب توسكانيا[1]. وظل السلام سائدا بينهما فترة من الزمن بسبب انشغال الإمبراطورية بحروبها ضد الفرس[2]. وتحولت الأمور فى صالح اللومبارديين. فانتهز أجيلولف هذه الفرصة وأخذ يستكمل سيطرته على إيطاليا[3]. ولكن فى نفس الوقت واجهته صعوبات أخرى من جانب الأفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية. فلقد أصبح السلاف جيرانا لإيطاليا ومصدر قلق لها. أما الأفار فكانوا أكثر نشاطاً وخطراً حيث لم يقيموا وزناً للمعاهدات المبرمة مع أجيلولف. وأخذوا يشنون هجماتهم على شمال إيطاليا[4]. ففى عام ٦١١م حشد كاجان ملك الأفار جيشاً كبيراً وخرج على رأسه قاصداً الأراضى اللومبارديه فاتجه إلى البندقية فتصدى له جيسولف Gisulf دوق فروم جولى Forum Jolii مع عدد قليل من مقاتلى اللومبارد. ورغم ما أبداه هؤلاء اللومبارد من شجاعة فى مواجهة الأفار إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود طويلاً لقلة عددهم، فحاصرتهم قوات الأفار من كل جانب ودمرتهم عن آخرهم وقتل جيسولف،وواصل الأفار تقدمهم عبر اراضى دوقية فوروم جولى واستولى على المدينة نفسها. وأشعلوا الحرائق فى كل مكان. وقتلوا كثيراً من أهالى اللومبارد، وسبوا النساء

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 174-17, 177.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق. ص ١١٢. أنظر أيضاً:

Oman, op. cit., pp. 194-195

(٣) Idem.

(٤) Idem.

والأطفال[1]. وأمام خطر الأفار المتزايد اضطر أجيلولف فى عـام ٦١٢م إلى عقد معاهدة سلام مع الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠-٦٤٨م) لمدة عام. وفى نفس الوقت جدد المعاهدة المبرمة مع الفرنجة[2]. غير أن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً بسـبب انشـغال الأفـار بمشـروعاتهم فـى شـبه جزيـرة البلقان[3].

على كل حال، رغـم أن كـثرة الاضطرابـات التـى صـاحبت حكـم جيلولف، إلا أننا نعتبر عصر هـذا الملـك نمـو واتسـاع ونضـوج حضـارى للمجتمع اللومباردى. وفى نهاية حكمه كانت المسيحية الكاثوليكيـة قـد انتشرت وتأصلت بين أفراد المجتمـع اللومبـاردى، فـأخذ اللومبـارديون يهتمون ببناء الكنائس بدلاً من تدميرها[4].

وبعـد وفـاة أجيلولـف عـام ٦١٦م خلفـه ابنـــه الوحيـد أدالولـد Adaloald تحت وصاية أمه ثيودلنـدا لصغـر سـنه، لأنـه لم يبلـغ مـن العمر وقتها أكثر من أربعة عشر عاماً. وظل الوضع على هـذا الحـال لـدة عشر سنوات، ثم تنحى بعدها عن العرش لإصابته بـالجنون[5]. فاختـار اللومبارديون أديالود Arialod دوق تورين ملكاً عليهم وظـل يحكـم لـدة

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 179-180.

(٢) Ibid., p. 189.

(٣) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٤) Oman, op. cit., Loc. Cit.

(٥) Paul the Deacon, op. cit., p. 190, cf also: Oman, op. cit., p. 196.

اثنتى عشر سنة اتسمت أحوال المملكة خلالها بالهدوء والاستقرار النسبى[1]. وبعد وفاته تولى حكم اللومبارديين أشهر ملوكهم وأهمهم فى التاريخ وهو روثير Rothair (٦٣٦-٦٥٢م) دوق برسيكا Brescia[2]. وقد تم تتويجه على عرش المملكة اللومباردية بموافقة جميع نبلائها[3]. وبالرغم أنه كان يتصف بالشجاعة والعدل وقوة الشخصية وكثير من الصفات الأخرى الطيبة، إلا أنه كان قاسياً جداً فى معاملة الغير. وخاصة أولئك النبلاء الذين أظهروا التمرد والعصيان. فقام بقتلهم. وفى نفس الوقت كان حانقاً على زوجته جانديبرجا Gumdiperga أرملة الملك السابق بسبب اعتناقها المسيحية الكاثولوكية فى الوقت الذى كان يدين هو فيه بالأريوسية فقام بحبسها فى إحدى غرف القصر الملكى حتى تكون بمعزل عن الآخرين[4]. وقد نجح روثير فى إتمام غزو شمال إيطاليا بعد أن استولى على الإقليمين الذين كانا لا يزالان خاضعين للإمبراطورية البيزنطية وهما الساحل الليجورى Ligurian Coast الممتد من نيس Nice إلى لونا Luna ومدينة أودرزو Oderzo آخر ممتلكات البيزنطيين ناحية البندقية[5]. وقد حصل روثارى على هذه

---

(١) Ibid.

(٢) Idem, Deanesly, op. cit., p. 250.

(٣) Hodkin, op. cit., vl, p. 165.

(٤) Idem.

(٥) Paul the Deacon, op. cit., pp. 199-200, cf. Also: Oman , op. cit., Loc. Cit., Hodkin, op. cit., vl, p. 168.

الجهات بعد قتال شاق ضد البيزنطيين[1] وكان من أهم المعارك التى خاضها اللومبارديون ضد القوات البيزنطية تلك الغارة الوحشية التى قاموا بها ضد أهالى مدينة رافنا بالقرب من نهر اميليا **Emilia** وحققوا فيها انتصاراً كبيراً، وقد راح فيها ما يقرب من ثمانية آلاف مقاتل بينما لاذ الباقون بالفرار[2].

ولا ترجع أهمية روثير فى التاريخ إلى أمجاده الحربية وانتصاراته السابقة فحسب وإنما ترجع أيضاً إلى جهوده وإخلاصه فى العمل من أجل رفع شأن المجتمع اللومباردى بين باقى المجتمعات الأخرى المعاصرة آنذاك. وقد اتضح ذلك فيما أصدره من مجموعة القوانين اللومباردية فى ٢٢ نوفمبر عام ٦٤٣م والتى لم يسبق تدوينها من قبل على الإطلاق، فكانت العدالة قبل إصدار تلك القوانين تقتص من المخطئين فى حق المجتمع من خلال العرف والعادات والتقاليد القديمة والمحفوظة شفهيا والمتوارثة عن الأجداد والأباء[3]. وبالرغم من أن هذه القوانين والتشريعات التى أصدرها روثارى تعد بدائية إلى حد كبير تصور أحوال شعب جرمانة تعيش على الفطرة أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب إيطاليا، إلا أنها كانت عملا هاما حفظ تراث هذا الشعب من

---

(١) سيد عاشور: المرجع السابق، ص١١٤.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., p. 200.

(٣) Ibid., p. 195; Hodkin, op. cit., Loc. Cit.

الضياع[1]. وتتكون هذه المجموعة القانونية من ٣٨٨ مادة تولى صياغتها وكتابتها العل أنسوالد **Answald**[2]. وقد نظمت المواد القانونية في جملتها العلاقة بين أفراد المجتمع اللومباردى من ناحية، وبينهم وبين السلطة الحاكمة من ناحية أخرى ضمانا لنشر السلام والطمأنينة والأمن في قلوب اللومبارديين[3].

وقد عالج قانون روثير قضايا متعددة، يتعلق بعضها بأمن الملكة والحفاظ على حياة عاهلها[4]. بينما يتعلق البعض الآخر بأمن الأفراد واستقرارهم والحفاظ على حياتهم بكامل هيئتهم وحواسهم دون إصابتهم بأى من العاهات المستديمة. ويتضح ذلك من خلال ما جاء بالمواد القانونية المختلفة[5]. كما نظم القانون أيضا عمليات البيع

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١١٤. محمد الشيخ: المرجع السابق، ص٢٤٩.

(٢) Hodkin, op. cit., vl. P. 175.

(٣) Ibid., p. 176.

(٤) تنص المادة الأولى من قانون روثير على أن "كل من يتآمر ضد حياة الملك أو حتى يشترك مع الآخرين بتقديم مشورة في ذلك الأمر يعاقب بالقتل وتصادر أملاكه". أنظر:

Rothair, King Rothair's Edict, cf. The Lombard Laws, translated from the original Latinby katherine Fischer Drew, philadelphia, 1973. Titles, 1, 7, 8.

(٥) كل من جدع أنف الآخر يدفع له فديه توازى نصف القيمة المقدرة لطبقته أما إذا قطع إحدى شفتيه يتحمل دفع تعويض مالى يعادل ١٦ صلديا (ما يقرب=

والشراء وأكد على ضرورة الرفق بالحيوانات. ففرض عقوبات مشددة لمن يخل بهذا العمل الإنساني، كما فرض عقوبات صارمة على جرائم الأفراد المختلفة من سرقة وقتل واختطاف وزنا وانتهاك حرمة بيوت الغير[1].ولم ينس المشرع وضع المرأة في المجتمع اللومباردي،

=من ثماني جنيهات استرليني). أما إذا إصابة بكسر ثلاث أسنان أو أقل فتصل قيمة التعويض إلى عشرين صلداً. لمزيد من التفصيلات راجع:

Rothairs Edict, titles, 46-47, 377, 382-385.

(١) "إذا أمر أحد الرجال الأحرار ابنه أو عبده بارتكاب جريمة السرقة ثم اكتشفت الأمر فيما بعد، يلتزم بدفع تسعة أضعاف قيمة المسروقات إلى المالك الأصلي لها. ثم يدفع مبلغاً مساوياً إلى خزينة الملك". راجع:

Rothair's Edict, title, 259.

"أما إذا كان السارق عبداً مملوكاً لأحد السادة وارتكب جريمته دون علم سيده يلتزم هذا السيد بتنفيذ أحد أمرين: أما أن يدفع الغرامة الموضحة بعالية او قتل هذا العبد" راجع نفس المصدر، المادة ٢٥٤.

أما فيما يختص بجرائم القتل فعلى سبيل المثال تنص المادة العاشرة من هذا القانون على أنه "إذا تآمر أحد الأحرار ضد حياة رجل آخر ولم يمت، يتحمل الجاني دفع عشرين صلداً كتعويض لما اقترفه من شروع في القتل. أما إذا مات المجني عليه وكان مع الجاني شريك آخر فيدفع أحدهما أو كلاهما معاً تعويض يقدر بـ ٩٠٠صلداً، تحصل أسرة القتيل على نصف المبلغ بينما يؤول النصف الآخر إلى خزينة الملك باعتباره مسئولاً عن تحقيق العدالة. أما إذا كان الجناه أكثر من فردين يدفع كل منهم قيمة الضحية طبقاً لمركزه الاجتماعي" راجع:

Rothair's Edict; titles, 10, 14.

فحظيت باهتمام كبير منـه عندما أدخـل كثـير مـن النصـوص القانونيـة المنظمة لأحوالها وأوضاعها داخل المجتمع من حيث حقوقها، واجباتها وكيفية الحفاظ على ممتلكاتها والتصرف فيها، والوصاية عليـها وحقـها فـى الميراث.فضـلا عـن تنظيـم شـئون زواجـها بـدءا مـن الخطبـة حتـى الزواج[1]. ويتضح أيضا من قانون روثير أن المجتمع اللومبردى قد عـرف النظام الطبقى[2]. فهناك طبقة الأحرار المكونة من النبلاء ورجـال الديـن ثم طبقـة نصـف الأحـرار[3]. وأخـيراً طبقـة العبيـد وهـى أقـل الطبقـات الاجتماعية مرتبة فى ذلك المجتمع[4]. وقد أباح هـذا القـانون للأجـانب

---

(١) لمزيد من التفصيلات، أنظر على سبيل المثال:

Rothair's Edict, titles, 178-179, 185, 195, 197, 204-222, 235. Oman, op. cit., p. 197.

(٢) Oman, op. cit., p. 197.

(٣) فيما يتعلق بطبقة نصف الأحرار راجع: أسامة زيد: المـرأة اللومبارديـة فـى ضوء قوانين اللومبارد، الإسكندرية ١٩٨٦، ص ٣٠.

(٤) كانت هذه الطبقة تنقسم إلى نوعين، عبيد المنازل ،أى عبيد الخدمة المنزلية) وتراوحت دية الفرد منهم ما بين ٢٠، ٥٠ صلداً طبقاً لإمكانياته ومهاراته. ثم عبيـد المـزارع وقـد اختلفت ايضـاً ديتـه وتراوحـت مـا بـين ١٦ و ٢٠ صلـداً. وبطبيعة الحال لم يكن لأولئك العبيد أهلية لمارسة حقوقهم وإنمـا كـان ذلـك من خلال سادتهم. وكان يحق للسيد أن يرفع العبد أو الأمـة إلى مرتبـة نصـف الأحرار أو الأحرار. ففى الحالة الأولى يظل تحت حماية سيده، أما فى الحالة الثانية فيمكنه أن يعيش فى حرية تامة بين طبقة الأحرار. راجع:

Kathrine, op. cit., pp. 30-31.

من العناصر اللومباردية حق المعيشة داخل حدود المملكة اللومباردية طبقا لقوانينهم الخاصة بشرط موافقة الملك على ذلك[1]. تلك هي أهم السمات الرئيسية التي تضمنها قانون روثير.

وبوفاة روثير عام ٦٥٢م عمت الفوضى والاضطرابات أنحاء المملكة وغرق اللومبارديون في الحروب الأهلية[2] ونتج عن ذلك أن تولى عرش المملكة خلال فترة لا تزيد عن عشر سنوات أربعة ملوك هم ودوالد بن روثير الذى حكم خمسة شهور وسبعة أيام ثم أريبرت Aripert (٦٥٣-٦٦١م) ثم ابنه بركتاريت Perctarit وجودبرت Godepert اللذان حكما معا[3] وكان ذلك في الوقت الذى كانت الإمبراطورية البيزنطية تحاول أن تستعيد نفوذها الضائع في إيطاليا في عهد الإمبراطورية البيزنطية تحاول أن تستعيد نفوذها الضائع في إيطاليا في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني (٦٤١-٦٦٨) ونجحت بالفعل في استرداد بعض المدن والتزم اللومبارديون من ذلك الوقت بسياسة الدفاع[4] وكان الصراع الدائر بين الأخوين الحاكمين على أشده فانتهز جريموالد

ولمزيد من التفصيلات عن التحرر من العبودية راجع: أسامة زيد: المرجع السابق. ص ٣٢.

(١) Hodkin, op. cit., vl, p. 231.

(٢) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٣) Paul the Deacon, op. cit., pp. 201-202; Hodkin op. cit., VI, pp. 241; Masterrmann, op. cit., p. 93; Oman, op. cit., pp. 272-273.

(٤) Ostrogrsky, History of the Byzantine state, Oxford, 1956, p. 109.

دوق بنفنتو هذه الفرصة وأخذ يخطط من أجل الاستيلاء على عرش المملكة لإعادة توحيدها من جديد وتعويض ما فاتها في السنوات العشر السابقة وقد ساعدته الظروف كثيراً عندما أرسل إليه جودبرت احد رسله ويدعى جاريبلد **Garipald** دوق تورين يطلب منه الحضور إلى تيكينوم مع قواته لمساعدته ضد أخيه بركتاريت. وعندما وصل المبعوث دوق تورين يطلب منه الحضور إلى تيكينوم مع قواته لمساعدته ضد أخيه بركتاريت. وعندما وصل المبعوث إلى جريموالد أخذ يحثه على ضرورة الاستئثار بالسلطة والتاج اللومباردى بدلاً من هذين الآخرين الذين أضعفا المملكة بسبب صراعهما وتنافسهما على السلطة. ولما اختمرت الفكرة في ذهن جريموالد قرر الخروج إلى الملك جودبرت، ونجح هو في طريقة من بنفنتو إلى تيكينيوم ا يستميل حكام المدن الواقعة بينهما ليكونوا حلفاء مساندين له في الوصول إلى العرش. وعندما وصل إلى حدود تيكنيوم أرسل جاريبالد إلى الملك ليعلن قدومه. ولكن يبدو أن هذا المبعوث كان لايريد خيراً للملكة اللومباردية لأنه بمجرد أن قابل الملك أخذ يحذره من جريموالد ويوسوس له ويحرض كل منهما ضد الآخر. وانتهى بمقتل جودبرت على يد جريموالد وتولى هذا عرش مملكة اللومبارديين دون أن يراعى حقوق بركتاريت في العرش[1]. فخاف الأخير على حياته وغادر البلاد متنكراً والتجأ إلى كاجان ملك الآفار

---

(1) Paul the Deacon, op. cit., pp. 205-209; cf. also Hartmann, op. cit., p. 275; Hodkin, op. cit., vl, pp. 242-243; Mastermann, op. cit., p. 93.

طالبا حمايته. وعندما علم جريموالد بـهذا الأمـر أرسـل سفارة إلى ملك الأفار يطلب منه تسليمه بركاريت حتى لا ينهار السلام القائم بينـهما. ولكن كاجان رفض في بداية الأمر أن يتخلى عـن حمايـة كتـاريت خوفا من غضب الآلهة فساءت العلاقات بينه وبـين ملـك اللومبـاردين فارسـل الأخير سفارة أخرى إلى كاجان يهدده بالحرب. فاضطر كاجان أخـيرا إلى أن يتخلـى عـن وعـده بحمايـة بركتـاريت، فطلـب منـه مغـادرة حـدود مملكته. فلم يجد الأخير بدا من الذهاب إلى جريموالد والخضوع لطاعتـه وطلـب العفـو والأمـان منـه[1]. ولكـن يبـدو أن العفـو الـذى حصـل عليـه بركتاريت كان مؤقتا لأن جريموالد دبر مؤامرة لقتلة بالسم عندمـا شـعر بحب أهالي بافيـا لـه وتـأييده فـأدرك أن وجوده علـى قيـد الحيـاة إنمـا يـهدد عرشـه وطموحـه. ولكـن مؤامراتـــه لم تنجـح وانكشـف أمرهــا أمام بركتاريت ممـا جعلـه يـهرب للمـرة الثانيـة إلى أرض الفرنجـة[2]. وكان ذلك في الوقت الــذى خرجـت فيـه جيـوش الفرنجـة مـن مقاطعـة بروفانس في طريقها إلى إيطاليا للقضاء على اللومبـارديين. وعندمـا علـم جريموالد بذلك خرج بنفسه على رأس جيش كبير لملاقاة الفرنجـة وآثـر استخدام الحيلة والدهاء ضد أعدائه، فتظاهر بالفرار مـع قواتـه أمامـهم وترك معسكره، كما هو عليه بعد أن وضع في الخيــام كثـيرا مـن النبيـذ وألذ وأشهى الأطعمة. وعندما وصـل الفرنجـة ناحيـة المعسـكر. ووجـدوه

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., pp. 209-210.

(٢) Ibid., p. 213.

خاليـا اعتقـد قادتـهم أن اللومبـارديين قـد لاذوا بـالفرار خوفـا منهم. فاستولوا على المعسكر وبينما هم منغمسين فى الشراب والطعام احتفالاً باستيلائهم على ما وجدوه فى معسكر اللومبارديين اندفع نحوهم الجيش اللومباردى وقضى على معظمهم، ولم يـهرب إلا شـرذمة قليلـة منـهم[1]. ورغـم ذلك. فإن العلاقـات بـين مملكتـى الفرنجـة واللومبـارديين قـد تحسـنت كثيراً فـى أواخـر ايـام جريموالـد فعقـدت معاهدة سلام بين الطرفين وكان اهم بنودها أن يوافق ملك الفرنجـة علـى طرد كتاريت خارج حدود بـلاده وعندئـذ اضطـر الأخـير أن يغـادر بـلاد الفرنجة واتجه إلى مدينة كنـت Kent بـالجزيرة البريطانيـة وظـل فـى حماية السكسون بها[2].

مهما كان الأمر. نجح جرموالد فـى نهايـة الأمـر فـى أن يعتلـى عرش اللومبارديين بتأييد معظم نبلاء المملكة عام ٦٦٢م ورغم قصر المـدة التى حكم فيها (٦٢٢-٦٧١م) إلا أنـها كـانت مليئـة بـالأحداث الهامـة والصراعات ضـد بيزنطـة الأمـر الـذى أدى إلى تمجيـده مـن قبـل شـعراء اللومبارديين[3]. ولقد واجه اللومبارديون أثنـاء حكمـه خطريـن كبـيرين من قبل الإمبراطورية البيزنطية من ناحية. والأفار مـن ناحيـة أخـرى. فقدر خرج الإمبراطور قنسطانز من القسطنطينية على رأس جيـش كبـير

---

(١) Ibid., p. 217.

(٢) Ibid., p. 237.

(٣) Hodkin, op. cit., VI, p. 239

بهدف استعادة نفوذ الإمبراطورية فى إيطاليا، فاتخذ طريق الساحل حتى وصل أثينا، ومنها عبر البحر وعسكر عند تارنتوم[1]. ثم غادرها وواصل طريقة حتى وصل إقليم بنفنتو فاستولى على معظم مدنه، ثم شدد حصاره على المدينة نفسها حتى كادت تسقط فى يده ولكن حاكمها الدوق روموالد Romuald ارسل إلى أبيه الملك جريموالد فى تيكينيوم Ticinum يطلب النجدة، فخرج هذا مسرعاً على رأس جيشه، وعندما اقترب من المدينة المحاصرة أرسل أحد قادته يدعى سيسوالد Sesuald ليطمئن ابنه ويحثه على الصمود حتى وصوله. ولكنه وقع أسيراً فى قبضة البيزنطيين. وعرف الإمبراطور منه باقتراب جريموالد وجيشه من مدينة بنفنتو. فأخذ بنصيحة مستشاريه وعقد معاهدة سلام مع روموالد. ولكن هذا السلام كان مؤقتاً لأنه بمجرد وصول الجيش اللومباردى أمام مدينة بنفنتو اشتبك فى معارك ضارية مع القوات البيزنطية انتهت بانتصار اللومبارديين وانسحاب القوات البيزنطية[2].

وكان جريموالد قد أناب عنه فى إدارة شئون المملكة الدوق لاباس Lupus أثناء غيابه فى المعركة السابقة. ويبدو أن هذا الدوق قد أساء التصرف فأظهر وقاحة وجشعاً معتقداً بعدم عودة الملك، ولكن خاب ظنه. فما لبث أن علم بقرب وصول الملك إلى تيكنيوم، حتى خشى على نفسه فهرب إلى دوقية فورم جولى Form Julii وكون جبهة معارضة

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., pp. 174-175, 177.

(٢) Ibid., pp. 220-224; Ostrogoreskey, op. cit., Loc. Cit

ضد الملك جريموالد[1]. ولما كان الأخير لا يرغب فى قيام حرب أهلية بين اللومبارديين فكر فى الإستعانة بكاجان ملك الأفار للقضاء على تمرد لاباس واستجاب هذا للنداء وتحرك بجيش كبير تجاه دوقيه فوروم جولى، ونجح فى قتل لاباس، والقضاء على باقى المتمردين، ولكنه رفض بعد ذلك مغادرة الأراضى اللومباردية فاضطر جريموالد إلى حشد قواته والتحرك لطرد الأفار بالقوة. وعندئذ أدرك الملك كاجان عدم قدرته على مواجهة اللومبارديين، واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بلاده[2]. وهكذا نجحت المملكة اللومباردية بقيادة جريموالد فى أن تحافظ على حدودها وأن تثبت أقدامها فى إيطاليا وأن تبعد عنها كل الأخطار.

وبعد تسعة أعوام وافت المنية الملك جريموالد فى التاسع من شهر مايو عام ٦٧١م خلال رحلة من رحلات الصيد التى كان يقوم بها عندما كان يوجه قوسه إلى حمامه. فانفجر أحد شرايين ذراعه فأصيب بنزيف حاد راح ضحيته. ويقال أن الأطباء المكلفين بمعالجته خلطوا السم بالأدوية المعالجة للنزيف فمات مسموماً[3]. ولكن يبدو أن هذا القول قد خالف الحقيقة وتجاوزها. فقد أحرز جريموالد نجاحاً كبيراً فى صراعه ضد البيزنطيين وضد الأفار فى الفترة الأخيرة، فأكسبه ذلك شعبية

(١) Paul the Deacon, op. cit., pp. 227-228, cf. also: Hodkin, op. cit., vl, p.286.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., pp. 229-230, cf. also: Hodkin, op. cit., vl, p. 286-287.

(٣) Paul the Deacon, op. cit., p. 230, cf. Also: Hodkin, op. cit., p. 291.

كبيرة بين اللومبارديين على حد قول المؤرخ الإنجليزى شارل أومان[1]. ومن المستبعد أن يتآمر ضده فيتيح الفرصة لأعداء الملكة لتهديدها والأمر لا يعدو حدوث تلوث بالجرح الناتج عن انفجار شرايين ذراعه مما أدى إلى تسممه وكان ذلك سبباً فيما راج من قصص واتهامات.

على أية حال، ظلت ذكرى الملك جريموالد خالدة فى تراث الشعب اللومباردى. لأنه ترك إنجازاً حضارياً كبيراً بإصداره تسعة قوانين فى يوليو عام ٦٦٨ عدت إضافة على تشريعات روثير[2]. ولعل أهم ما يميز هذه القوانين النظرة الإنسانية للحفاظ على الروابط الأسرية والعلاقات الزوجية وتدعيمها والتشدد فى ضرورة عدم الجمع بين زوجين فى آن واحد[3]. كما أكد على حق الأحفاد فى وراثة أجدادهم بعد وفاة الآباء فى حياة الأجداد[4].

وتولى عرش المملكة اللومباردية بعد ذلك بركتريت بن اريبرت عام ٦٧٢م الذى كان هارباً من جرموالد ومستتراً عن عيوبه. ولكن لما بلغه نبأ وفاته وصل إلى بافيا فالتفت حوله أنصاره القدامى من اللومبارديين وأجمعوا على تنصيبه ملكاً عليهم، وظل يحكم ما يقرب من سبعة عشر عاماً (٦٧٢-٦٨٩م) بعد أن أشرك معه فى الحكم ابنه

(١) Oman, op. cit., p. 274.

(٢) Paul the deacon, op. cit., p. 236.

(٣) Grimwald, king The Laws, op Grimwald, translated from the original Latinby katherine fischer Drew, Philadephia, 1973; title, 8.

(٤) Ibid., title, 5.

كانينكــبرت Canincepert منــذ العــام الثــامن لحكمـــه[1] وعـــاش اللومبارديون طوال هذه الفترة فى سلام وأمان باستثناء ذلك التمرد الذى تزعمه الأهيس Alahis دوق ترنت ضد الملك كانينبرت الذى سـرعان مـا قاد جيشه ناحية مدينة ترنت وحاصرها مــن كـل جـانب ولكـن الجنـود الموجـودون داخـل المدينـة المحـاصرة نجحـوا فـى عمـل ثغـرة فـى سـور المدينة، واندفعوا فى هجوم غير متوقـع ضـد قـوات بركتـاريت وحققـوا انتصاراً كبيراً عليها مما عجــل بانسحابها فــرارا مــن الملــك بركـنريت ولكن يبدو أن الدوق الاهيس قـد نـدم علـى مـا فعـل. فذهـب الى صديقـه كانينكبرت ابن الملك ليشفع له عند أبيه فتـم ذلـك وأصبـح الاهيـس منـذ ذلك الوقت مخلصاً للملك وولى عهده. ولكن يبـدو ان هـذا الإخـلاص كـان لفترة محدودة. فبعد وفاة الملك بكتاريت وتولى ابنـه كانينكـبرت عـرش اللومبارد. عاد الدوق الاهيـس إلى التمـرد والعصيـان مـرة أخـرى. ولكـن انتهى الأمر بالقبض عليه وقتله[2]. وظل الملك الجديد يحكم اثنتى عشـر سنة إلى أن وافته المنية عام ٧٠٠م فحزن اللومبـارديون كثـيراً لأنـه كـان محبوباً من الجميع[3] وقد عانى اللومبارديون كثيراً بعـد ذلـك مـا يقـرب من اثنتى عشرة سنة من جراء المنافسات المستمرة بـين الأدواق مـن أجـل السيطرة على التاج اللومباردى. منتهزين فرصة وجود طفل صغـير علـى

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 263, cf. also: Hodkin, op. cit., pp. 315-320.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., pp. 239-240, 249.

(٣) Ibid., p. 263, cf. Also Hodkin, op. cit., vl, 320.

العرش هو ليوتبرت Liutpert ابن الملك الراحل. فتكالب الجميع على السلطة، كل منهم يرغب فى الفوز بالوصاية عليه. وظلت الفوضى ضاربة أطنابها فى أنحاء المملكة. وأصبح الأمر يتطلب ظهور شخصية قوية تعمل على لم الشمل من جديد. فتحقق ذلك على يد ليوتبراند Liutprand الذى تربع على العرش المملكة عام ٧١٢م وظل يحكمها حتى عام ٧٤٤م[١]. وكان هذا الملك من أقوى ملوك اللومبارديين وأكثرهم صيتا بسبب النجاح الكبير الذى وصل إليه حيث بلغت المملكة أوج عظمتها وقوتها في عهده بشكل لم يعرفه اللومبارديون من قبل في ظل ملوكها السابقين[٢].

وجرت محاولتان للتخلص من ليوتبراند والإطاحة به، أولاهما عندما دبر أحد أقاربه ويدعى روثارى مؤامرة لقتلة[٣]. وثانيها ذلك التمرد الذى تزعمه بيمو Pemmo حاكم دوقية فوروم جولى ضد الملك

---

(١) لمزيد من التفصيلات المتعلقة بهذه الفترة أنظر:

Paul the Deacon, op. cit., pp. 265-281, cf. also: Hodkin, op. cit., vl, pp. 320-387; Oman, op. cit., pp. 27-282.

(٢) Mastermann, op. cit., p. 120.

(٣) كان هدف روثارى السيطرة على مقاليد الحكم. فأعد مأدبة في منزله في تيكينيوم دعا إليها الملك ليوتبراند، واستعان ببعض الرجال الأقوياء الملحين ليتولوا أمر اغتيال الملك أثناء تناوله الطعام. وشاءت الصدف أن علم الملك بتفاصيل هذه المؤامرة فاستدعى روثارى في قصره وكشف له حقيقة خيانته، فأدرك روثارى خطورة موقفه فحاول سحب سيفه وقتل الملك ولكن وثب عليه في الحال أحد أعوان الملك وقتله. راجع. Paul the Deacon, op. cit., p. 281.

بعد عزله عن حكم هذه الدوقية[1]. ولكن الملك نجح فى القضاء على هاتين المحاولتين وأنقذ نفسه وعرشه من الدمار. وكان ليوتبراند مشغولا بصفة مستمرة فى تثبيت أقدامه ونفوذه فى أنحاء المملكة. فنجح فى فرض سيطرته على الأدواق اللومبارد فى الشمال[2]. كما استأنف العمل ضد الدولة البيزنطية منتهزا فرصة انشغال الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧-٧٤٠م) بمسألة مناهضة عبادة الصور والأيقونات ونزاعه مع البابا جريجورى الثانى (٧١٧-٧٣١) [3]. فسار ليوتبراند ناحية المدن البيزنطية فى إيطاليا وأخذ يستولى عليها الواحدة تلو الأخرى بما فيها رافنا عام ٧٢٧م[4]. أما بالنسبة لعلاقة ليوتبراند بالفرنجة فكانت طبيعية للغاية خاصة بعد أن أرسل دوق الفرنجة شارل مارتل مبعوثية عام ٧٣٧ إلى الملك ليوتبراند يطلبون المساعدة منه ضد المسلمين بعد توغلهم فى جنوب غاله ووصولهم مقاطعة بروفانس ولم يتردد ملك اللومبارد فى مد العون إلى الفرنجة، فجهز جيشه وقادة لمساعدة حليفه. ولكن يبدو أن المسلمين فى هذه المرة أدركوا خطورة استمرار القتال ضد جيوش الفرنجة واللومبارديين معا، فآثروا

---

(١) Ibid., p. 295.

(٢) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٣) راجع حول هذا الموضوع: جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٣-١٣٣، حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٠٢-١٥٥.

(٤) Paul the Deacon, op. cit., p. 289, cf. also: Oman, op. cit., p. 282; Hodkin, op. cit., vl, p. 392; Mastermann, op. cit., p. 121.

الإنسحاب، فقفل الملك ليوتبراند عائدا إلى إيطاليا[1].

وهكذا انشغل الملك ليوتبراند بمساعدة أصدقائه وحلفائه الفرنجة من ناحية والتصدى للأعداء الطامعين فى السيطرة على التاج اللومباردى من ناحية أخرى. فقد حدث فى عام ٧٣٨م أن قام ترانسيماند Transimand دوق سبولتو بحركة عصيان وتمرد ضد الملكة. ورغم أن ليوتبراند نجح فى القضاء على هذه الحركة، إلا أنها كانت السبب فى توتر العلاقات بينه وبين البابا جريجورى الثالث (٧٣١-٧٤١م) لأن هذا الدوق نجح فى الهروب إلى روما متخذا منها ملجأ، ومعتمدا على عطف البابا وتأييده له ولما علم اللومباردى بهذا الأمر طلب من البابا تسليم ترانسيماند إليه وإلا تعرضت ممتلكات البابوية فى وسط إيطالية للهجوم[2]. ولما لم يستجب البابا لهذا التهديد اضطر ليوتبراند إلى تجهيز جيش كبير وزحف به ناحية روما وشدد الحصار عليها بعد ان استولى على مدينتى أورتو Orto وبومازو Bomazo وغيرهما من المدن جنوب توسكانيا[3]. فأصبح البابا فى موقف لا يحسد عليه، لأنه إذا

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., pp. 296-297, cf. also: Hodkin, op. cit., vl, p. 475; Oman, op. cit., p. 285.

(٢) Oman, op. cit., Loc.

(٣) Liber Pontificialis, cf. Pullan, B; (ed), Sources history of Medieval Europe From the Mid-Eight to the thirteenth Centurym Oxford, 1971, p. 4; Chronicarum quae dicuntur Fredegarii Scholastici Continuations, ed. By Krusch in M. G H; 11, pp. 178-9 cf. pullan, B: (ed), Sources History of Medieval Eurore From Mid-Eight to the Mid thirteenth century, Oxford, 1971, p. 5.

كانت البابوية تعتمد من قبل على حماية أباطرة بيزنطية ضد اللومبارديين فى إيطاليا فقد اختلف الأمر الآن وأصبح التعاون بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية امرا مستحيلا خاصة بعد ان أدانت البابوية الحركة اللايقونية التى أقرها بعض أباطرة بيزنطة[١] فعندما واجه البابا جريجورى هذا الموقف تحول إلى طلب المساعدة من شارل مارتل. فأرسل إليه عام ٧٣٩م مفاتيح القبر المقدس مع اثنين من اتباعه احدهما الأسقف انستاسيوس Anestasius والثانى القس سرجيوس Sergius ليسلماه إياها راجين منه التدخل لمناصرة البابوية ضد اللومبارديين فى إيطاليا حفاظا على مكانة البابوية وهيبتها ودفاعا ع المدينة المقدسة[٢] ورغم أن شارل مارتل استقبل مبعوثى البابا استقبالا حسنا ومنحهما الهدايا القيمة لحملها إلى البابا إلا أنه لم يوافق على طلب البابا[٣]. وطلب منهما إبلاغ البابا بأنه لا يمكنه أن يرد جميع اللومبارديين بالإساءة إليهم. فلولا مساعدة ليوتبراند له فى محنته ضد المسلمين لما تمكن من الانتصار[٤]. وعرض على البابا أن يتدخل لفض النزاع بينه وبين اللومبارديين بالطرق السليمة. ولكن البابا رفض ذلك

---

(١) Pullan, Sources for the history of Medieval Europe. Oxford, 1971, p.3.

(٢) Liber Pontificalis, p. 4, cf. Also: Oman, op. cit., p. 286.

(٣) Chronicaroum quae dicuntur fredgarii Scholastici Continationes, P.5.

(٤) Oman, op. cit., p. 287.

مما أدى إلى سوء العلاقات بينه وبين الفرنجة. ثم جاءت وفاة كل منهما عام ٧٤١م راحة كبيرة لجميع الأطراف[1]. ورغم ما حدث، إلا أن ليوتبراند نجح إلى حد كبير فى تحسين علاقاته مع البابوية على عهد البابا زكريا (٧٤١-٧٢م)[2].

جدير بالذكر، أنه على الرغم من كثرة انشغال ليوتبراند فى أمور السياسة والحرب إلا أنه لم ينس العمل من أجل استقرار الأوضاع الاجتماعية فى مملكته. فأصدر مجموعة قانونية كبيرة على نمط تلك التى أصدرها روثير من قبل ليسد بها جميع الثغرات القانونية التى ينتج عنها اى إجحاف والتى ظهرت عند تطبيق قوانين أسلافه. ففى أول مارس عام ٧١٣م أصدر الجزء الأول من هذه المجموعة القانونية ثم أصدر باقى الأجزاء بالتتابع على مر سنوات حكمه المختلفة حتى صدر الجزء الأخير عام ٧٣٥م فى نهاية العام الثالث والعشرين من حكمه[3].

---

(١) Idem.

(٢) Hodkin, op. cit., vi, p. 491.

(٣) Liutprand, King, The Laws of king Liutprandm cf. The Lombard Laws, translated from the Original latin by katheine Fischer drew, Philadelphia, 1973, pp. 144-145.

اكتملت هذه المجموعة القانونية خلال ثلاثة وعشرين عاما من حكم ليوتبراند، وظهرت فى أجزاء وفق الأعوام التالية، الأول، الخامس، الثامن، ثم فى سنوات متتالية من العاشر إلى السابع عشر، ثم فى العام التاسع عشر ثم من الحادى والعشرين حتى الثالث والعشرين.

ولقد أحدث ليوتبراند تغييرا كبيرا فى هذه القوانين يوضح ازدياد قيمة الحياة البشرية فى المجتمع اللومباردى آنذاك، فى الوقت الذى كانت تفتقر فيه القوانين السابقة إلى تلك النظرة الإنسانية. ولعل ذلك يتضح من تغيير العقوبة التى كانت توقع على جريمة القتل فقد كان الجانى يتمل فقط دفع دية القتيل حسب درجته الاجتماعية لكن أصبح الآن بموجب قانون ليوتبراند يفقد ممتلكاته وتتحول هذه الممتلكات إلى ورثة القتيل. وإذا لم يكن لديه ممتلكات يصبح عبدا لدى الورثة[1]. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على رغبة الملك فى أن يكون الناس جميعا سواء أمام القانون تحقيقا للعدالة الاجتماعية. وقد اتسم هذا القانون أيضا بميزة جديدة لم تكن معروفة من قبل، هى توقيع عقوبات مختلفة على القضاة الذين يتراخون فى تنفيذ العدالة[2]. على أية حال، تولى عرش

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 62.

(٢) عرف المجتمع اللومباردى فى هذا الوقت نوعين من القضاة أحدهما معروف باسم Sculdahis والثانى Judex. فإذا أخر القاضى الأول القضية المنظورة أمامه أكثر من أربعة أيام يدفع غرامة قدرها ٦ صلدات إلى صاحب الدعوى، ومثلها القاضى الآخر. أما إذا كان سبب التأخير يرجع إلى صاحب الدعوى، ومثلها للقاضى الآخر. أما إذا كان سبب التأخير يرجع إلى صعوبة القضية، فيتم تحويلها إلى القاضى الثانى (judex). وفى هذه الحالة يجب النظر فيها قبل مرور سبعة أيام، وإلا دفع هذا القاضى غرامة ١٥ صلدا إلى صاحب الدعوى. وإذا كانت الحالة تستدعى تحويلها إلى البلاط الملكى للنظر فيها ولكن القاضى تباطأ فى تحويلها يدفع غرامة قدرها ١٢ صلدا إلى صاحب الدعوى و ٢٠ صلدا إلى الملك. راجع: The Laws of King Liutprand, title, 28.

اللومبارد بعد وفاة ليوتبراند عام ٧٤٤م ابن أخيه هيلدبراند Hildbrand، ولكنه لم يحكم أكثر من ثمانية اشهر ثم وافته المنية[1]. ثم انقسم اللومبارديون على أنفسهم إلى فريقين: أحدهما يؤيد راتشيس Ratshis، بينما يناصر الفريق أخيه استولف Aistulf، ولكن انتهى الأمر بتولية الأول عرش المملكة، اللومباردية وظل يحكمها خمسة أعوام من ٧٤٤ حتى ٧٤٩م[2]. ويرجع إليه الفضل فى إصدار تشريعات قانونية جديدة فى عامى ٧٤٥ و ٧٤٦م تتكون من أربع عشرة مادة، تختص معظمها بإجراءات التقاضى، فضلا عن أمور أخرى تتعلق بالعبيد ونصف الأحرار[3] ويبدو أن هذا الملك لم يكن جديرا بتولية أمور المملكة. حيث أجمع أدواق اللومباردية على عزله وتعيين أخيه استولف

---

(١) Paul The Deacon, op. cit., p. 330, cf. Also: Hodkin, op. cit., vl, pp.401-402.

ولم يكن هيلدبراند غريبا على إدارة دفة الأمور فى المملكة، لأنه كان يحكمها مشاركة مع ليوتبراند منذ عام ٧٣٥م عندما أجمع اللومبارديون على اختياره فى هذا المنصب أثناء المرض الخطير الذى أصاب الملك ليوتبراند مما أنذر بقرب نهايته. راجع:

Paul the Deacon, op. cit., p. 306, cf. Also, Hodkin. Op. cit., vl, p. 473.

(٢) Paul the Deacon, op. cit., p. 306, cf. Also: Mastermann, op. cit., p.122.

(٣) Ratchis, King, The Laws of of king Ratchis, cf. The LombardLaws, translated from the Origin Latin by Katherine Fischer drew, Philadelphia, 1973, pp. 215-225.

بدلا منه وقد تم ذلك بالفعل عام ٧٤٩م. وانتهى الأمر بالملك راتشيس أن انخرط فى سلك الرهبنة واعتكف فى دير مونت كاسينو وظل به حتى وفاته[1]. وانتهز استولف فرصة انشغال الإمبراطورية البيزنطية على عهد الإمبراطور قسطنين الخامس بالمنازعات الداخلية والحركة اللاأيقونية والتصدى للبلغار والعرب، فاستولى على مدينة رافنا فى إيطاليا بعد أن استردها البيزنطيون من قبل. وبالتالى يكون وضع نهاية للنفوذ البيزنطى فى شمال ووسط إيطاليا[2]. ولكن ازدياد نفوذ البابوية فى تلك لفترة خلال عهد البابا ستيفن الثانى (٧٥٢-٧٥٧م) لم يرض الملك اتولف ولهذا صمم على ضم بعض أملاك البابوية وحينئذ لم يجد البابا إلا الاتجاه إلى بيبن القيصر ملك الفرنجة طالبا حمايته، ففكر البابا فى أن يتوجه بنفسه لمقابلته حاملا الهدايا الثمينة. وعندما علم الملك بيبن بقدوم البابا بادر باستقباله، وأرسل ابنه شارلمان وجماعة من نبلائه للقاء البابا ومصاحبته أما هو فقد استقبل البابا على مسافة ثلاثة أميال من قصره. وقد ترجل عن جواده وجثا على ركبتيه هو وزوجته وأبناؤه ونبلائه وسار الموكب حتى وصل القصر. وهناك تضرع البابا إلى الملك بيبن وقد امتلأت عيناه بالدموع وهو يطلب مساعدة الفرنجة لاستعادة ممتلكاته التى استولى اللومبارديون عليها، فوعده الملك بيبن

---

(١) Paul the Deacon, op. cit., p. 311 , n. 1.

(٢) محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٥١، حسنين ربيع: المرجع السابقن ص ١٢١، راجع أيضا:

Holister, C; Medieval Europe, U.S.A; 1974, p. 83.

بالمساعدة[1]. وكان لهذا اللقاء أهمية كبيرة فى تاريخ العصور الوسطى، إذا أكد انصراف البابوية عن الدولة البيزنطية وتحالفها مع مملكة الفرنجة[2]. وعندئذ أرسل بيبن القصير سفارة إلى الملك ايستولف يطالبه بضرورة إعادة الممتلكات البابوية إلى البابا، ولما لم يجد استجابة من ملك اللومبارد شن هجمات سريعة على اللومبارديين فى حملتين عسكريتين عامى ٧٥٥ و ٧٥٦م[3]. ورغم أن بعض قادة الفرنجة كانوا ضد رغبة الملك فى القضاء على اللومبارديين لدرجة أنهم أعلنوا صراحة تخليهم عن الملك فى هجومه على الأراضى اللومباردية، إلا أنه نجح فى إنزال الهزيمة بجيوش اللومبارديين حتى اجلاهم عن البلاد التى استولوا عليها منذ وفاة ليوتبراند بعد أن حاصرا بافيا عدة أيام وأجبر استولف على احترام البابوية وإعادة ما أخذه منها من أملاك بعد أن أقسم وتعهد

---

(١) Annales Mettenses priores, cf. Pullan, B;(ed), Sources history of Medieval Europe From the Mid – Eight to the Mid – thirteenth Century, Oxford, 1971, p. 6; Notker the Stammerer, Charlemagne, cf the two lives of Charlemagne, translated from the origin Latin by Lewis Throp, Penguin Books, London, 1969, p. 159; Chronicon moissiacense, cf. Pullan, b: (ed), Sources Hitqry of Medieval Europe from the Mid-Eight to the Mid thirteenth century, Oxford, 1971, p. 6. Cf. Also: Holister, op. cit., pp. 83-84; Stephenson, op. cit., p. 150.

(٢) حسنين ربيع: المرجع السابق، ص ١٢١.

(٣) Chronicon moissiacense, op. cit., p. 7.

راجع أيضا: ساليفان. المرجع السابق، ص ١٠٨.

بعد تهديد ممتلكات البابوية مـرة أخـرى[1]. وعلـى الرغـم مـن انشـغال استولف بكل هذه الأمـور، فقـد أصـدر نصوصـاً قانونيـة جديـدة لتنظيـم المجتمع اللومباردى ففى عام ٧٥٠م ظهر الجزء الأول منها ويتكـون مـن تسع مواد يتناول بعضـها تنظيـم أوضـاع التجـار، بينمـا تنـاول البعـض الآخر أثر الزواج غير الشرعى فى المجتمع. أما الجزء الثانى منـــها فقـد ظـهر عـام ٧٥٥م، ويتعلـق بـالتحرر مـن العبوديـــة وتنظيـــم الكنـــائس اللومباردية وأمور الميراث[2]. وتعد هـذه القوانـين آخـر عمـل قـانونى تم انجازه فى المجتمع اللومباردى.

وكان موت استولف عام ٧٥٦م إيذاناً بتفكيك مملكة اللومبارديين فى إيطاليا، وعاملاً هاماً فى ازدياد نفـوذ البابويـة[3]. ولقـد تـولى عـرش المملكة من بعده دذيدريوس **Deiderius** وظل يحكمها حتى عـام ٧٧٤م. وبدأ فى إزعاج البابوية من جديد حيث استولى علـى ممتلكاتـها منتـهزاً فرصة اختفاء بيبن القصير من مسرح الأحداث وكان شارلمان قد تزوج عام ٧٧٠م من ابنه دذيدريوس لتوطيد العلاقات بينهما حرصاً علـى اسـتقرار

---

(١) Einhard, The Life of Charlemagne cf. The two lives of Charlemagne. Translated From the Origin Latin by Lewis Throp, penguin books, London, 1969, p. 60.

(٢) Aistulf, King, The Laws of king Aistulf, Translated from the originLatin by Katherin Fischer Drew philadelphia, 1973, titles, 1-9.

(٣) محمد الشيخ: المرجع السابق. ص ٢٥٢.

الأمور والسلام فـي المنطقـة[1]. ولم يقـدر لهـذا لـزواج ان يسـتمر طويـلاً فانفصل الزوجان وساءت العلاقات بين الطرفـين. وكـانت تصرفـات ملـك اللومبارديين تجاه البابوية بداية لحرب جديـدة فـي المنطقـة. فاسـتنجد البابا هدريان الأول (٧٧٢–٧٩٥م) بشارلمان عام ٧٧٣م فمـا لبـث الأخـير أن جاء إلى إيطاليا على رأس قواته تلبية لرغبة البابا كما لباها أبـوه مـن قبـل وحـارب اللومبـارديون وانتصـر عليـــهم واســتطاع طـرد الجيــش اللومباردى الى ما وراء اسوار العاصمة بافيا مما اضطـر الملـك دذيدريـوس ى الاستسلام بعد حصار طويل. وكان النصر الذى احـرزه شـارلمان نصـرا تاما[2] حتى بلغ الامر أنه خلع الملك دذيدريوس عن عرشـه وطـرده مـن إيطاليا وامر ان يذهب إلى احد الأديرة ليقضى به بقيـة حياتـه. واسـتولى على التاج لنفسه وضم أراضى اللومبـارديين إلى أملاكـه، وأعـاد إلى البابـا هارديان ممتلكات البابوية التى استولى عليها دذيدريوس من قبل[3].

وهكذا تم إسدال الستار على مرحلة هامة من مراحل تاريخ أوربا فى العصور الوسطى بصفة عامة. وفـى تـاريخ البيـت اللومبـاردى بصفـة

---

(١) Notker the Stammere, op. cit., p. 182.182; cf. Also: Bryce, J; The Holy Roman Empire, London, 1968, pp. 41-42.

(٢) ساليفان: المرجع السابق، ص ١١. جوزيف نسـيم: تـاريخ العصـور الوسـطى الأوربية، ص ١٤. راجع أيضاً:

Claster, N; The Medieval Experience, London, 1982. p. 119.

(٣) Einhard, op. cit., p. 61; cf. Also: Hlolister. op. cit.. p. 88; Stephenson, op. cit., Loc. Cit.

خاصة بعد أن حكم ملوكه معظم إيطاليـا مـائتين مـن السـنين. وإن كـانت مملكة اللومبارديين قد اختفت من مسـرح الأحـداث إلا أن بصماتـها فـى إيطاليا ظلت موجودة ردحا طويلاً من الزمن من خـلال انجـازات ملوكـها مـن ناحيـة، ونجـاح دوقيـة بنفنتـو فـى الاسـتقلال عنـها فـى أيامـها الأخيرة. وفشل الفرنجة فى الاستيلاء عليـها مـن ناحيـة أخـرى. فظـل أدواق بنفنتو حفظة لتراث الشعب اللومباردى. وكذلـك اللغـة الإيطاليـة متأثرة بكثير من الكلمـات ذات الأصـل اللومبـاردى. وكذلـك المؤسسـات القانونية فى الشمال الإيطالى بقيت متأثرة بالنفوذ اللومباردى مـا يقـرب من قرنين من الزمان بعد القضاء على مملكة اللومبارديين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية:

Aistulf, King, The Laws of King Aistulf, cf. The Lombard laws, translated from the original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Annales Mettenses Priores, cf. Pullan, B; (ed), Sources history of Medieval Europe from the Mid-Eight to the Mid-thirteenth century Oxford, 1971.

Chronicon Moissiacense, Pullan, B; (ed), Sources History of Medieval Europe from the Mid Eight to the Mid thirteenth century, Oxford, 1971.

Chronicarum quae dicuntur Fredegarii Scholastici Continuationes, cf. Pullan, B; Sources History of Medieval Europe from the Mid-Eight to the Mid thirteenth century, Oxford, 1971.

Einhard, the life of Charlemagne, translated from the original latin by Lewis Throp, London, 1969.

Gregory of Tours, The history of the Franks, translated from the original Latin by Throp, London, 1974.

Grimwald, King, The Laws of King Grimwald, cf. The Lombard Laws, translated from the original latin by Katherine Fischr Drew, Philadelphia, 1973.

Liber pontificialis, c. Pullan, B. (ed); Sources history of Medieval Europe from the Mid – Eight to the thirteenth centur, Oxford, 1971.

Liutprand, King, The Laws of King Liutprand, cf. The Lombard Laws, translated from the original Laitn by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Notker the Stammerer, Charlemagne, cf. The two Lives of Charlemange, translated from the original Latin by Lewis Throp, London, 1969.

Paul the Deacon, History of the Lombards, translated by william Dudkwey Foulk, philadelphia, 1974.

Patchis, History of the Wars, translated from the original Greek by Dewing, H. B; 7 Vols, London, (1910-1940).

Ratchis, King, The Laws of King Ratchis, cf. The Lombard Laws, translated from the original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Rothair, King, Rothair's Edict, cf. The Lombard Laws, translated from the original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Secundus to Trent, orgio Gentis Langobardorum cf. paul the Deacon, History of the Lombards, translated by william Dudley (pp. 315-321) philadelphia, 1974.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

Bryce, J, The Holy Roman Empire, London, 1968.

Chlaster, N; The Medieval Experience (300-410), London, 1982.

Deanesly, M; A History o Early Medieval Europe (476-911), London, 1956.

Dury, V; The history of the Middle Ages, New York, 1891.

Hartman, L. M; Geschichte Italiens Immittellter, 2 vols, Gotenburg, 1903.

Hodkin, T; Italy and her invaders. 6 vols, Oxford, 1985.

Holister, C; Medievl Europe, U.S.A., 1974.

Jenkins, C; Medieval European history, London, 1929.

Katherine Fischer Drew, The Lombard state and the Lombard Laws, cf. The Lomard Laws, (pp. 14-37) philadelphia, 1973.

Masterman, H; The Dawn of Medieval Europe (476-918). London, 1911.

Oman, ch; The Dark Ages (476-918), London, 1923.

Ostrogorsky, G; History of the Byzantine state, Oxford, 1956.

Peter, E; (1) The Lomard and the Lombard Laws, cf. The Lombard Laws, translated by Katherine Fischer Drew, (pp. V-xxll) Philadelphia, 1973.

(2) Europe, The World of the Middle Ages, New Jersey, 1977.

Schmidt, Zur Geschicvhe der Langobarden, Leipsig, 1895.

Slephenson, C; Medieval History, U.S.A; 1965. Thatcher and Schwill, Europe in the Middle Ages London. 1907.

Real Encyclopedia der Altertum Wissenschoft, Sub, Wergeld, Gotenburg, 1910.

ثالثا: المراجع العربية والمعربة:

السيد الباز العرينى (الدكتور):

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى. بيروت. ١٩٦٨.

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور):

تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها. الإسكندرية، ١٩٩٤.

تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٤.

حسنين محمد ربيع (الدكتور):

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣م.

ريتشارد ساليفان:

ورثة الإمبراطورية الرومانية، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية، ١٩٨٥.

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور):

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨٢.

سيد أحمد الناصرى (الدكتور):

الإغريق: تاريخهم وحضارتهم، القاهرة، ١٩٨٤.

الرومان من القرية إلى الإمبراطورية، القاهرة، ١٩٧٦.

محمد محمد مرسى الشيخ (الدكتور):

الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى. الإسكندرية. ١٩٧٥.

البحث السابع

المرأة اللومباردية فى ضوء قوانين اللومبارد

(٦٤٣-٧٥٥م)

المرأة اللومباردية فى ضوء قوانين اللومبارد

(٦٤٣-٧٥٥م)

لاشك أن الكتابة عن المرأة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى من الموضوعات الصعبة التى لاتزال تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة. وذلك بسبب قلة المصادر المترجمة إلى اللغات الحديثة من ناحية. وتناثر المعلومات عن هذا الموضوع فى شكل شذرات مبعثرة هنا وهناك من ناحيه اخرى. وربما كان الأمر سهلا وميسورا إلى حد ما عند الكتابه عن المرأة الأوربيه بصفة عامة. دون الحديث عنها فى مجتمع بعينه من المجتمعات الأوربية البدائية فى العصور الوسطى المبكرة. ولعل هذا هو السبب الذى جعل كثيراً من المؤرخين الحديثين يبتعدون عن هذا الموضوع. ولا يولونه ما هو جدير به من اهتمام. ولقد تم العثور على قوانين اللومباردين كاملة والتى أصدرها خمسة من ملوكهم فى فترات متباعدة فيما بين عامى ٦٤٣ و ٧٥٥م. قامت بنشرها وترجمتها من لغتها الأصلية إلى اللغة الإنجليزية الأستاذة كاترين فيشر درو **Catherine Fischer Wrew** بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٣ تحت عنوان "القوانين اللومباردية" **"The Lombard Laws"** وتتكون هذه القوانين من مجموعتين رئيسيتين: الأولى أصدرها الملك روثير **Rothair** عام ٦٤٣م وتتألف من ٣٨٨ مادة. أما المجموعة الثانية أصدرها الملك ليوتبراند **Liutprand** فيما بين عامى ٧١٣ و ٧٣٥م. وتتكون من ١٥٣ مادة. وبجانب هاتين المجموعتين القانونيتين صدرت عدة إضافات قانونية أخرى.

ففى عام ٦٦٨م أصدر الملك جريموالد Grimwald قانوناً يتألف من تسع مواد وفى عام ٧٤٥ و ٧٤٦ أصدر الملك راتشيس Ratchis قانوناً يشتمل على اربع عشر مادة، ثم صدرت آخر إضافة قانونية عامى ٧٥٠ و ٧٥٥م أيام الملك ايستولف ISTULF وتحتوى على ثلاث وعشرين مادة. وترجع أهمية جميع هذه القوانين إلى أنها الوحيدة التى صدرت فى تاريخ مملكة اللومبارديين لتشكيل إطار العلاقات العامة بين أفراد هذا المجتمع. وعندما تصفحت هذه القوانين شعرت برغبة ملحة فى معرفة المزيد عن وضع المرأة فى المجتمع اللومبادى من خلال القوانين المذكورة من حيث حقوقها وواجباتها والتغيرات التى طرأت على مركزها فى المجتمع قرن من الزمان، منذ صدور أول مجموعة قانونية ايام الملك روثير عام ٦٤٣م، وحتى صدور المجموعة القانونية الخيرة عام ٧٥٥ فى عهد الملك ايستولف ورأيت أن يكون عنوان بحثى هو:

المرأة اللومباردية فى ضوء قوانين اللومبارد:

ورأيت ألا اقتصر على مجرد ترجمة المواد القانونية المتعلقة بالمرأة وإنما حاولت توضيح مركز المرأة فى ذلك المجتمع الجيرمانى معتمداً فى ذلك على ما جاء فى مختلف المصادر، والمراجع، مع الاستشهاد وأحياناً بمواد بعينها من تلك القوانين[١].

---

(١) تناولت أحوال اللومبارديين ومملكتهم فى إيطاليا فى بحث لى بعنوان: "اللومبارديون وعلاقاتهم السياسية بالقوى المجاورة فى ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماسى (٥٦٨-٧٧٤م)". الإسكندرية. ١٩٨٧.

لم تحتل المرأة عند شعوب العالم القديم مركزاً مرموقاً. بل وضعت ضمن قوانين المشرعين القدامى فى مرتبة متدنية. ولم تكن هذه القسوة على المرأة بالشىء الغريب فى ذلك الوقت. بل كانت معظم الشرائع القديمة تبدى مثل هذه القسوة حيال المرأة. ومن ذلك تقول شرائع الهندوس "ليس المصير القدر والريح والموت والجحيم والسم لأفاعى والنار أسوأ من المرأة" كما جاء أيضاً فى التوراة فى سفر الجامعة "المرأة أمر من الموت وأن الصالح أمام الله ينجو منها"(١) وقد أعطت شرائع السونان والرومان للرجل سلطانا مطلقاً على زوجته. فهى بالنسبة له أمة لا قيمة لها فى المجتمع. فلزوجها حق حياتها أو موتها والتصرف فى ممتلكاتها(٢) كذلك كان هو حال المرأة فى المرحلة المبكرة من العصور الوسطى عندما كانت السكينة اللاتينية تسيطر على المجتمع سيطرة تامة. فنادت بأن المرأة أداة من أدوات الشيطان باعتبارها المحرضة لآدم على المعصية والخطيئة. ولذا فهى لا تستحق إلا الاحتقار والازدراء(٣). وقد ظلت المرأة على هذا الحال فى الغرب الأوربى دون إدخال أى تغيير على مركزها فى المجتمع، حتى تولى جستنيان أمر الإمبراطورية البيزنطية فأعد تشريعاته ومراسيمه المشهورة ليضيف بعض البنود

---

(١) سهام أبو زيد: الإسلام والعالم القديم، القاهرة، ١٩٨٢، ص ص ٧٧٨.

(٢) سيد الناصرى: تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨٨-٨٩.

(٣) أسمنت غنيم. المرأة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص١٥.

الخاصة بالمرأة، وقرر فيها أحقيتها فى الملكية الخاصة، والوصاية على أطفالها بعد موت زوجها. وكان ذلك بدون شك تقدماً كبيراً بالنسبة للقانون الرومانى القديم.

وقد أكد بعض المؤرخين الحديثين أن اتجاه جستنيان إلى تحسين أوضاع المرأة إنما كان بتأثير زوجته ثيودورا[1]. وقد أثر ذلك إلى حد كبير على القوانين اللومباردية فيما بعد وخاصة ما يتعلق منها بالمرأة[2]. أما المرأة العربية فى العصر الجاهلى فلم تكن بأحسن حال. فكانت ضمن ممتلكات الرجل، ويكفى الإشارة إلى مسألة لجوء بعض قبائل العرب إلى وأد البنات لإلقاء الضوء على مكانة البنت فى هذا العصر[3]. أما المرأة العربية المسلمة فقد كرمها القرآن الكريم ومنحها من الحقوق ما لم تحصل عليه المرأة الغربية، وجعلها تتبوأ مكانة عالية وتتمتع بمركز اجتماعى ممتاز وبقسط وافر من الحرية. ولا أدل على ذلك من النشاط الذى كانت تقوم به السيدة خديجة زوجة الرسولﷺ داخل الجزيرة العربية كما كان للنساء خلال الفتوحات الإسلامية نصيب وافر من ألفى والغنائم وكن يختلطن فى عهد الخلفاء الراشدين بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء[4].

---

(١) عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٧٢، ص٨٢.

(٢) لمزيد من المعلومات عن قوانين جستنان فى هذا المجال راجع:

Justinion, the Digest of Foman Law, translates by C.. Kolber, p. nguin books, London, 1979, op. 54-60.

(٣) سهام أبو زيد: المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، القاهرة، ١٩٦٤، ص٥٤٦.

وفى نفس الوقت أعطى الإسلام المرأة الحق فى الميراث وفى الزواج بمن ترضاه وعدم إرغامها على الزواج بمن تأبى. وقد جاء فى الحديث الشريف "لا تنكح الآيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن، والمعروف أن الرسول ﷺ كان يستشير بناته فى أمر زواجهن[1]. وخير ما يقال فى هذا المجال عن تكريم القرآن الكريم للمرأة قول الله تعالى "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" صدق الله العظيم[2].

أما المرأة فى المجتمع اللومباردى فلم تكن أسعد حظاً من نساء أوربا فى العصور الوسطى، فلم تكن تتمتع بأى حق من الحقوق، فمهما بلغت من العمر فهى قاصرة ولابد ان تكون تحت وصاية الرجل. ونظراً لأهمية الوصاية على ممتلكاتها وميراثها وما يمكن ان يترتب عليه من أوضاع اقتصادية هامة قد تؤثر فى كيان المجتمع اللومباردى، ونظراً لأهمية الزواج باعتباره النواة الأولى لتكوين أسر هذا المجتمع، فقد اهتم القانون اللومباردى بتنظيم كل هذه الأمور جيداً وتدارك خطأ قد ينجم عن سهو فى التطبيق[3].

لقد كان القانون اللومباردى ينظر، فى جميع مراحله، إلى المرأة

---

(١) اسمت غنيم: المرجع السابق، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) سورة الروم: آية ٥.

(٣) F. D. Katherine, The Lombard State And The Lombard Laws, cf. The Lombard Laws, Philadelphia, 1973, (pp. 14-37), p. 31.

على انها ليست أهلا لتحمل مسئولية السيطرة علـى تصرفاتـها، ويجـب ان تكـون تحـت وصايـة رجـل، والدهـا فـى البدايـة و أخيـها أو أقـرب أقربائها في حالة عدم وجود الأب او الأخ. ثم تنقل الوصاية بعد ذلك إلى زوجها. فإذا مات تصبح تحت وصاية سيده الإقطاعي. أمـا إذا كـان حـراً فيمكن أن يتولى أكبر أبنائها البالغ من العمر مـا يزيـد عـن ثمانيـة عشر عاماً أمر الوصاية عليـها. إن لم يكـن لديـها أبنـاء ذكـور تعـود الوصايـة عليها إلى نفس الشخص الذى كان يتولى أمرها قبل زواجها بعد أن يدفـع مبلغاً إلى أقارب الزوج مقابل نقل الوصايا منهم. وذلك مـا لم تـتزوج مـن رجل آخر. وإذا افتقدت المـرأة مـن يتـولى أمـر الوصايـة عليـها فيتحـول أمرها إلى البلاط الملكى[1]. وقد عرف الوصى فى القانون اللومباردى باسـم "مونديم" **Mundium**[2]. وأكدت جميع القوانـين اللومبارديـة الأخـرى هذا المبدأ بعدم تضمنها أى نصوص قانونية تفيد عكـس ذلـك، أو إدخـال أى تعديـلات عليـه. وبنـاء علـى ذلـك كـان لا يحـق للمـرأة اللومبارديـة التصرف فى ممتلكاتها سواء كـانت عقاريـة أو منقولـة بأيـة صـورة مـن الصور إلا برضاء وقبول الوصى[3]. ومما يستحق الذكر فى هذا المجال أن

---

(١) Rothairs, King, Rothair's Edict, cf. The Lombatd Laws translated from the Original Latin By Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973, titles. 182, 183, 199, 204; cf. also: T., Hodkin, Italy and her invaders, 6 vols, Oxford, 1985, vl, p. 180.

(٢) Hodkin, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Rothair's Edict; Titles, 204, 235.

القوانين الجرمانية الأخرى التى تعرضت لموضوع الوصاية لم تراع الدقـة التامة فى معالجتها لهذا النظام مثلما تم فى قوانـين اللومبـارد[1]. ربمـا يرجع ذلك إلى أن اللومباردين كانوا أكثر تحضراً من العناصر الجرمانيـة الأخرى حيث أنهم يقيمون فى المدن وليس فى القرى ومع ذلك كان قانون الملك ليوتبراند أكثر وضوحاً من سائر القوانين اللومبارديـة الأخـرى فـى تحديد عمليات بيع ممتلكات المرأة، لأنه فـى الوقـت الـذى سـكتت فيـه باقى القوانين اللومباردية عن إيضاح كيفية إتمام هذه العمليات نرى نصاً صريحاً فى هذا المجال تضمنته المادة ٢٩ من ذلـك القـانون حيـث نصـت على انه:

"إذا أبدت المرأة رغبتها فى بيع أى شىء مما تملك فـلا يجـب أن يتم ذلك سراً، وإنما لابد وأن يكون فى حضور أى مـن الملـك أو القـاضى، واثنين أو ثلاثة من أقاربها ليكونوا شهوداً عليها. وعندئذ تقول للقـاضى أو الملك (أرغب فى بيع ممتلكاتى) فإذا وافقها الوصـى الموجـود فـى هـذا الاجتماع تصبح عملية البيع نافذة وصالحة للتنفيذ، أما إذا أبـدى رفضـه فلا يمكن أن يتم البيع"[2].

علـى أيـة حـال، وفـى الوقـت الـذى نـرى فيـه تـهاون القوانـين اللومباردية فى استيفاء إجراءات بيع ممتلكات المرأة على الوجه المنصف

---

(١) Hodkin, op. cit., vl. P. 197.

(٢) Liutprand, King, The Law of King Liut Prand, cf The Lombard Law, translated from the Original Latin by Katherin Fischer Drew, Philadelphia, 1973, title, 29.

لها بمعرفة الوصى، نجد أنها قد ألزمته بحسن معاملتها، وعدم الإساءة إليها بالضرب أو السب، ما لم تكن طفلة، وأن يكفل لها كل سبل الراحة والمعيشة من مأكل وملبس بما يتفق مع حجم ثروتها ومكانتها الاجتماعية. وإذا ثبت على الوصى إخلاله بأبسط هذه الحقوق تجاه المرأة الموصى عليها يلزم بدفع تعويض مالى مساو للقيمة المقدرة لطبقتها ومركزها الاجتماعى (Worgeld) مقابل ما أصابها من أضرار. ثم يفقد وصايته عليها[1]. أما إذا ثبت عليه أنه لم يحترم رأى الفتاة أو الأرملة الوصى عليها فى اختيار زوجها واستعمل أية وسيلة من وسائل الضغط عليها وإجبارها على الزواج من شخص ترفضه فقد أكدت تشريعات كل من روثير وليوتبراند بأن تطبق عليه نفس العقوبة السابقة[2]. وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى احترام المشرع اللومباردى لرغبات

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 120.

كان التمييز بيت أفراد طبقة الأحرار يعتمد على ملكيتهم للأراضى الزراعية فالذى كان يملك ارضا قدرت الدية عنه بثلاثمائة صلدة بينما الذى كان يفتقر إلى هذه الميزة كانت ديته مائة وستين صلديا. ولقد عرفت هذه القيمة المالية عند اللومبارديين باسم Wergeld. راجع:

Katherine, op. cit., p. 29.

وهذه الكلمة تتكون من مقطعين الأول Wer وهى تعريف الذكر الرجل، والثانى Geld ومعناها "الفدية" وبذلك يكون معناها الإجمالى "فدية الرجل" أو القيمة الموازية لدرجته الاجتماعية. راجع:

Real Encyclopcedie der Altertum Wissencheft, Sub. Wergeld.

(٢) Rothair's Edict, title, 193.

المرأة فى الزواج ممن ترضاه حفاظاً عليها وعلى كيان المجتمع من التفكك والانهيار. وفى نفس الوقت كفلت قوانين اللومبارد للمرأة حق حمايتها من المؤامرات الدنيئة التى قد تدبر ضدها من قبل الوصى عليها. فلو اتهم بمحاولة قتلها أو تحريضها على ممارسة أعمال السحر والشعوذة يفقد وصايته عليها ويصبح حق الاختيار فيمن يتولى الوصاية عليها سواء كان أحد من أقاربها او من البلاط الملكى حيث يتولى الملك بنفسه أحياناً الوصاية عليها. وقد أعطى القانون للوصى فى مثل هذه الحالة حق الدفاع عن نفسه فى إنكار التهمة المنسوبة إليه عن طريق القسم ببراءته وبحسن نواياه تجاه الموصى عليها. وعندئذ ممكن أن يستعيد وصايته على هذه المرأة مرة أخرى، كما كان عليه الوضع من قبل[1]. ويلاقى نفس المصير إذا اتهم فى محاولة انتهاك عرض من تحت وصايته ما لم يلجا إلى القسم لإثبات براءته[2].

وجدير بالذكر. أنه فى الوقت الذى حاول فيه المشرع حماية المرأة من النوايا السيئة التى قد تظهر تجاهها من جانب الوصى، تجد تساهلاً كبيراً وتسيباً من نفس المشرع عندما اكتفى بقسم الوصى كوسيلة لإثبات براءته فالمفروض ألا يفترض المشرع حسن النية وصدق القسم فى الوصى، وإنما كان يجب اتخاذ إجراءات أخرى حاسمة يستدل منها بالدليل القاطع على حسن النية لديه وبأنه أهل لتحمل مسئولية الوصاية. ومع ذلك ألا ننسى أن هناك فارق بين النظرية والتطبيق فى

(١) Rothair's Edict., titles; 195, 197.

(٢) Ibid., title, 196.

العصور الوسطى في غرب أوربا فهو مجتمع يقوم على التناقض الاجتماعي والاقتصادى، الأمر الذى لم يكن يسمح بوجود عدالة مطلقة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة.

وإذا كانت قوانين اللومبارد قد تهاونت بعض الشيء في الحفاظ على حقوق المرأة في بعض المسائل وفق ما توضح، إلا أنها راعت حمايتها في أهم شيء يتعلق بها وبكيان المجتمع اللومباردى وهو موضوع الخطبة والزواج ولا أدل على ذلك مما أكدته تلك القوانين من عدم إجبار الفتاة أو الأرملة على الزواج من شخص لا ترضى به حسبما أسلفنا[1]. فيبدو أن المشرع قد وضع نصب عينية أن الفتاة تتحمل المسئولية الأسرية المقبلة، ولابد وأن يكون رضاها عن شريك حياتها في مقدمة الأمور التى ينظر إليها المشرع بعين الاعتبار. وقد فرق المشرعون في تنظيمهم لهذا الموضوع بين فتيات وأرامل الطبقة الحرة وبين من دونهن من طبقتي نصف الأحرار والأمات. وسوف تتناول كل على حده.

لقد اختص قانون ليوتبراند دون غيره من سائر القوانين اللومباردية الأخرى في المادة الثانية عشر منه بتحديد السن القانونية للزواج للفتاة فجعله خلال عامها الثاني عشر. هذا في الوقت الذى سكتت فيه باقي القوانين عن ذكر شيء يتعلق بهذا

---

(١) "لا يجب على الوصى أن يجبر من يتولى أمر الوصاية عليها بالزواج م الغير حتى ولو حراً وإلا فقد وصايته عليها" راجع:

The Lawe of Liutpransd', title. 120.

الموضوع[1]. ولكن مشرعو هذا القانون نفسه عادوا وأكدوا فى المادة الثانية عشرة بعد المائة ضمن عدة مواد قانونية أخرى صدرت بعد مرور اثنتى عشرة سنة على صدور التشريع الأول عام ٧١٧م أنه لا يجوز زواج الفتاة قبل أن تتم بالفعل العام الثانى عشر من عمرها مستندين فى ذلك إلى أن الفتيات لا يبلغن ولا ينضجن قبل إتمام هذه السن[2]. فيبدو أن التطبيق العملى لنص المادة التى صدرت أولاً فى قانون ليوتبراند قد أدت إلى خطأ مما أسفر عن حالة من الفوضى والارتباك الاجتماعى الأمر الذى جعل ليوتبراند يقدم على تأكيده بعد اثنى عشر عاماً فى المادة ١١٢ هذا بالرغم من ان المادة الثانية عشر التى صدرت فى البداية كانت صارمة، وحددت عقوبات مشدودة لمن يخالفها، فكان الزوج ملتزماً بدفع تعويض مالى كبير قدره ٩٠٠ صلدى تتمتع الفتاة بنصف هذا المبلغ تعويضاً لما أصابها من وراء زواجها المبكر بينما يؤول باقى المبلغ إلى خزينة الملك. وفى نفس الوقت تلتزم الفتاة بالعودة إلى بيت أسرتها وتظل به حتى تبلغ بالفعل الثانية عشرة من عمرها. أما بالنسبة للوصى فيقع عليه العبء الأكبر من الذنب فيفقد وصايته على الفتاة ويحول أمرها إلى البلاط الملكى لنقل الوصاية إلى الملك، فضلاً عما يلتزم به الوصى من دفع غرامة مالياً قدرها ثلاثمائة صلدى إلى الملك[3].

كذلك عالج قانون ليوتبراند الشق الآخر من مشكلة زواج القاصر

(١) Ibid., title 12.

(٢) Ibid., title, 112.

(٣) Ibid., title, 129.

وهو المتعلق بـزواج أحـد النسـاء البالغـات الناضجـات مـن أحـد الذكـور الصغار الذين يم يبلغوا بعد الثامنة عشر من العمر حيث السن القانونيـة لزواج الرجال[١]. فلقد نادى المشرعون ببطلان هذا الزواج واعتباره زواجا غير شرعي، ورأوا ضرورة انفصال كل من الطرفين عـن الآخـر. ولا يحـق للمرأة الزواج من أى رجل آخر حتى يبلغ زوجها الصبى السن القانونيـة المباح له فيها بالزواج. فإذا رغب أن يتخذها زوجة لـه فعـل. وأن أبـدى اعتراضه فيكون من حقه عند ذاك الزواج من رجل آخر[٢].

وبالرغم من أن المشرع لم يوضح لنا سبب عدم أحقية المرأة فى هذه الحالة فى الزواج من آخر طالما أنها انفصلت عن الـزواج القـاصر. فيبـدو أنه أراد معاقبتها لما ارتكبته من جرم فى حق المجتمع عندما فكرت فى الزواج من صبى قاصر. أو لعله أراد تجميد الزواج لحين بلوغ الـزوج سـن الرشد القانونية. فاعتبرها المشرع فى حكم من سافر زوجها وتغيب عنها عدة سنوات دون أن يعود فلا يحق لهـا الـزواج إلا بعد مضـى ثـلاث سنوات من غيابه[٣].

وهكذا إذا تقدم أحد رجال اللومبارد الأحـرار لطلـب الـزواج مـن إحدى الفتيات ووافق كل من العروسين والوصى على ذلك يتم تحديد يوم

---

(١) Ibid., title, 19.

(٢) Ibid., title, 129.

(٣) يحق للزوجة بعد مرور ثلاث سنوات من غياب زوجـها أن تذهب إلى القصر الملكى لتحصل على الموافقة للزواج من رجل اخر راجع:

Ibid., title, 18.

للاحتفال بالخطبة وكتابة عقد بين الطرفين يتضمن موافقتهما على ذلك. وطبقا للعرف المعمول به آنذاك كان على العريس أن يقدم مبلغاً من المال إلى والد العروس عند كتابة العقد أطلق عليه المشرع اسم Meta وهو خلاف الصداق المتفق عليه. ورغم أن هؤلاء المشرعين لم يحددوا بوضوح سبب منح هذا المبلغ. فيبدوا أنه كان فى بداية الأمر بمثابة تعويض لوالد العروس عن ابنته أو لاستخدامه في تجهيز العروسين. ثم أصبح بعد ذلك عرفا يدفع إلى أى وصى على العروس استمرار لما كان يتم من قبل أو قد يكون مقابل نقل الوصاية إليه بعد الزواج[٢]. وقد حدد للقانون فترة الخطبة بعامين يجب أن يتم خلالها الزواج[٣].

أما إذا أظهر الخطيب نوعاً من المراوغة أو المماطلة لتأخير الزفاف دون أن يكون لديه أسباب قهرية تتطلب التأجيل، يحق للوصى مطالبته بضرورة إتمام الزواج قبل نهاية العامين. فإذا استمر فى المماطلة يصبح من حق الوصى إنهاء العلاقة به وإعلان خطبتها إلى رجل آخر، وعندئذ يفقد هذا الخطيب كل ما دفعه للوصى من متا Mete أو مهر أو هدايا للعروس[٤]. أما إذا كانت المماطلة من جانب أقارب العروس وحاولوا فسخ الخطبة لعقدها على رجل آخر يلتزمون بأن يدفعوا للخطيب تعويضاً مالياً موازياً لقيمة الصداق المحدد بينهما، ويحق له

---

(١) Hodkin, op. cit., vl. Pp. 199-200.

(٢) Katherine, op. cit., p. 31.

(٣) The Law of Liutprand, title, 119.

(٤) Rothair's Edict; title, 178.

آنذاك أن يسترد كل ما دفعه من قبل. ويلتزم كـل مـن الوصـى والخطيـب الجديد بدفع غرامة مالية إلى خزنة الملك تعادل فـى قيمتـها درجـة كـل منهما الاجتماعية[1]. وفى بعـض الأحيـان يدعـى الخطيـب فـى مماطلـة لتأجيل الزفاف بعدم عفة وطهارة العروس. ولا شك أن هذا الموقـف إنمـا يشكل خطورة كبيرة على مستقبل العروس من ناحية، وكيان أسرتها من ناحية أخرى، ولذا كان ينبغى على والديها إثبات براءتها بأن يحضـروا أثنى عشر شاهداً من أقاربها أو جيرانها ليشهدوا ويقسموا أمـام القـاضى على طهارتها وحسن سلوكها. فـإذا تم هـذا اسـتردت للعـروس سمعتـها وكرامتها ومن ثم يلتزم خطيبها إما إتمام الزواج بالشـروط المتفـق عليـها من قبل مع الوصى أو دفع مبلغ مضاعف لقيمة الصداق المسمى بينه وبـين الوصى يوم إتمام الخطبة عقاباً له على التشهير بسمعة العروس وإتهامه الكـاذب المضلـل[2]. وإذ لم يتمكـن أقـارب العـروس مـن إثبـات براءتــها وألصقت التهمة بهـا، يحق الخطيب أن يسترد كـل مـا قدمـه إلى عروسـه من أموال وهدايا[3]. وفى هــذه الحالـة يلـتزم الشـخص المتـهم بارتكـاب الفاحشة مع تلك العروس بأن يتزوجها تجنباً للمنازعات التى قد تنجـم من وراء خطئه. ثم عليه أن يدفع تعويضـاً ماليـاً قـدرة أربعـون صلـداً إلى الوصى على العروس، فضلاً عن مبلغ من المال يساوى ضعف قيمة الصداق إلى الخطيب المخدوع[4].

---

(١) The Laws of Lintprand, title, 119.

(٢) Rothair's Edict, title 197.

(٣) Idem.

(٤) Ibid., title, 190.

وهناك أيضاً ظروفاً قد تطرأ وتؤدى إلى فسخ الخطبة بين العروسين بأن تصاب العروس أثناء فترة الخطبة بأحد الأمراض المزمنة مثل الجذام أو الجنون أو فقد البصر وغير ذلك من الأمراض التى يستحيل معها استمرار الحياة الزوجية. فيصبح من حق الخطيب المطالبة باسترداد المتا Meta وكل ما قدمه إلى عروسه. اللهم إلا إذا قبل بمحض إرادته إتمام الزواج شفقة ورحمة بها وبأهلها[1]. أما إذا وافتها المنية فله الحق فى استرداد كل ما قدمه لها[2].

أما إذا اتفق الوصى سراً مع أحد الرجال تحت أى ظرف من الظروف على خطبة الفتاة التى تحت وصايته، سواء كان برضاها أو بغير رضاها رغم خطبتها لرجل آخر، يكون قد ارتكب جرماً كبيراً ليس فى حق هذا الخطيب فحسب وإنما فى حق المجتمع اللومباردى كله. لأنه بهذا الاثم يفقد أفراد المجتمع الثقة بعضهم ببعض، ولذا وجب على الوصى أن يدفع إلى الخطيب مبلغاً مالياً كبيراً يعادل ضعف قيمة الصداق المتفق عليه عندما تقدم للاقتران بابنته أو بمن تحت وصايته تعويضاً عما أصابه من أضرار ولا يحق له المطالبة بمبالغ أكبر من ذلك حتى ولو عن طريق القضاء[3]. أما إذا كان الاتفاق قد عقد بين الفتاة ذاتها رغم خطبتها وبين أحد الرجال الراغبين فى الزواج منها دون موافقة الوصى. فيكون عقابها شديداً وهو حرمانها من نصيبها فى الميراث الذى

(١) Ibid., title, 180.

(٢) Ibid., title, 215.

(٣) Ibid., title, 192.

تستحقه سواء من والدها أو من أقاربها ويبدو أن المشرع قد قصد الشدة معها لتكون عبرة غيرها من الفتيات الأخريات. أما بالنسبة للرجل الذى تجرأ على إغرائها بالزواج وسلب حق من حقوق خطيبها، فكان عليه أن يدفع إلى الخطيب الأول مبلغاً مضاعفاً لقيمة الصداق، فضلاً عن ذلك المبلغ الذى يدفعه إلى خزينة الملك الموازى لدرجته الاجتماعية. أما بالنسبة للعقاب الذى تستحقه تلك الفتاة فهو حرمانها من نصيبها فى الميراث المستحق لها آنذاك أو فيما بعد سواء كان من والدها أو من أحد أقاربها. وقد شدد المشرع هذه العقوبة لكى يسود العدل بين الناس(١).

ومما هو جدير بالذكر، فى هذا المجال أن القوانين اللومباردية حرمت حالات معينة من الزواج حفاظاً على كيان الأسرة والمجتمع ككل. ووضعت عقوبات مشددة لمن يخالف ذلك. فلا يجوز للمرأة أن تتزوج من ابن زوجها سواء كانت مطلقة أم أرملة، كما لا يجوز لها أيضاً أن تتزوج من زوج أمها أو زوج أختها أو من أخى زوجها. وإذا تم الزواج بهذا الشكل يصبح زواجاً غير شرعى(٢). فهو لا يتفق مع ما تقره الشرائع السماوية أو غيرها من القوانين الوضعية وإذا حدث ذلك يكون كل من الزوجين قد ارتكب إثماً خطيراً فى حتى المجتمع اللومباردى بصفة خاصة والإنسانية بصفة عامة. وفى مثل هذه الحالة يدفع الرجل مائة صلدى غرامة إلى خزينة البلاط الملكى تكفيراً عما ارتكبه. وفى نفس

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 19.

(٢) Rothair's Edict, title, 186.

الوقت ينفصل عن زوجته فى الحال. أمـا بالنسبة للمـرأة فيوقـع عليـها أقصى أنواع العقوبة حيـث تفقـد نصـف ممتلكاتـها ويـؤول إلى الخزينـة الملكية[1]. ولكن يبدوا أن مشرعى قانون روثير كانوا متساهلين كثيراً فى توقيع العقوبة على الرجل فى مثل هذه الحالـة. فكنـا ننتظـر ألا تقتصـر العقوبة على مجرد أموال تدفع لخزينة الملك. فما أسهل ذلـك خاصـة إذا كان الرجل ثريا. وبعقد مقارنة بين هـذه المـادة القانونيـة وشـبيهها فـى قانون ليوتبراند نجد أن المشرعين كانوا أكثر صلابـة وشـدة فـى العقوبـة التى فرضوها على كل أرملة تتزوج مـن ابـن عـم زوجـها المتوفـى أو ابـن خالته فهما ضمن الرجال المحرم زواجها منهم. ورغم أن درجة القرابـة هنا تكاد تكون بعيدة وأقل بكثير منها فيمـا حـدد قـانون روثـير، إلا أن العقوبة على مخالفة ذلك وصلت إلى أن يفقـد الرجـل كـل ممتلكاتـه، ولا يحق لأولاده ثمره هذا الزواج أن يرثوه لأنهم فى نظر القانون أولاداً غير شـرعيين. فتتحـول ثرواتـه إلى أقـرب أقربائـه. وإن لم يكـن لـه أقـارب فيتحول ذلك الميراث بأجمعه إلى خزينـة البـلاط الملكـى[2]. أمـا بالنسـبة لعقاب المرأة فى هذه الحالة فهو ثابت كمـا نـص عليـه قـانون روثـير[3]. لاشك أن هذه العقوبة كـانت رادعـة وتجعـل الشـخصين أن يفكـران عـدة مرات قبل أن يخالفا القـانون خاصـة أن ذلـك العصـر كـانت تتحـدد فيـه مرتبـة الرجـل الحـر ومركـزه الاجتمـاعى بقـدر مـا يمتلــك مـن أراض

---

(١) Idem.

(٢) The Laws of King Liutprand, title, 32.

(٣) Ibid., title, 33.

وممتلكات. ومثــل هـذه العقوبـة كافيـة لأن يفقـد الرجـل الحـر مكانتـه الاجتماعية ويصبح فى قاع المجتمع[1].

وقد حرم أيضاً على المرأة الزواج من الرجــل الـذى قـام بتعميدهـا ورفعـها مـن حـوض المعمـودى فـى طفولتـها، حيـــث اعتـــبره القـــانون اللومباردى بالنسبة لها بمثابة الأب وترتب على هـذا أن أصبـح لا يحـق أن تتزوج من ابن هذا الرجل لأنه بمثابة الأخ لها وألا يتم معاقبتها وفق العقوبة المشار إليها فى نفس المادة الثالثـة والثلاثـين مـن نفـس القـانون السابق الإشارة إليها[2].

ونخلص من كل هذا أن القانون اللومباردى قد تأثر إلى حـد كبـير بما أقرته الديانة المسيحية فى تشريعاتها، وبروح القوانـين الرومانيـة. ولقد شدد قانون ايستولف فى مادته الثامنة علـى ضـرورة إنـهاء حـالات الزواج غير الشرعى بأقصى سـرعة بمعرفـة القـاضى، وإذا ثبـت تراخـى القضاء فى تنفيذ ذلك توقع عليهم غرامة كبيرة تدفـع إلى خزينـة البـلاط الملكى تعادل القيمة المحددة للطبقة الاجتماعية لكل منهم[3].

وإذا كـان الأمـر كذلـك، فـإن قوانـين الـزواج المبعـثرة فـى شـتى التشريعات اللومبارديـة إنمـا تعـبر عـن الجـانب الاجتمـاعى للعلاقـات

---

(١) أنظر ما سبق، ص ٦، ج ا ز

(٢) Ibid., title, 34.

(٣) Aistulf, King The Laws of King Astulf, cf. The Lonbard Laws. Translated from the original Latin by Katherine Fischer Drew, Philad elphia, 1973, title, 8.

القائمة بين الرجل والمرأة. فى تلك الفترة السحيقة من الزمن ولذلك فقد انتبه مشرعوا هذه القوانين إلى بعض حالات الزواج التى قد تتم بدون رضاء الفتاة أحياناً أو بدون موافقة أقاربها أو الوصى عليها أحيانا أخرى. ووضعوا لها حلولاً تحد منها إلى حد تستوى الأمور والأوضاع بين أفراد المجتمع اللومباردى وعلى ذلك إذا استعمل أحد الرجال الأحرار الشدة والعنف لإجبار إحدى الفتيات الأحرار على الزواج منه رغماً عنها يلتزم بدفع ٤٥٠ صلداً إلى أقاربها ومبلغاً مماثلاً إلى خزينة البلاط الملكى وإن اتضح عدم وجود أقارب لها فيكون المبلغ كله من نصيب الملك[١]. ومع هذا يحق لهذا الزوج أن يتولى أمر الوصاية عليها وعلى ممتلكاتها. أما اذا استخدمت هذه الزوجة فى مثل هذه الحالة حقها فى الابتعاد عنه لما بدا منه من نوايا سيئة عندما أجبرها على الزواج. فيمكنها عندئذ الذهاب إلى منزل أسرتها حاملة معها كل ممتلكاتها وعليها أن تختار وصياً عليها إما من أحد أقاربها أو الملك شخصيا. وإذا قدر لهذه المرأة الوفاة قبل ممارسة الوصى حقوق الوصاية عليها ينبغى عليه أن يدفع تعويضاً إلى أقاربها لأنه من المحتمل أن يكون زواجها بالطريقة التى تم بها قد أثر على صحتها مما عجل بوفاتها[٢]. أما إذا تم زواج الفتاة أو الأرملة الحرة برغبتها من رجل حر بدون مراعاة أى اعتبار لرضاء أقاربها أو الوصى عليها. يلتزم الزوج بدفع تعويض قيمته أربعون صلداً إلى هؤلاء الأقارب تجنباً للمنازعات التى قد تنجم من وراء ما فعله

---

(١) Rothair's Edict; title, 186.

(٢) Ibid., title, 187.

الزوج عنوة معهم وإذا ماتت العروس قبل أن يكتب زوجها حق نقل الوصاية عليها فتؤول كل أملاكها إلى الرجل الذى كان يتولى أمر الوصاية عليها من قبل[1]. أما إذا مات الزوج قبل كتابة الوصاية عليها، فلن تتمكن هذه المرأة من المطالبة بحقها فى هدية الصباح طالما أن علاقاتها بأقاربها أصبحت سيئة منذ ان أهملت حقهم فى الموافقة على زواجها، خاصة وأن إجراءات المطالبة بحقوق الزوجة فى مثل هذه الحالة لا تتم إلا عن طريق الأقارب[2].

على أية حال، إذا استمرت الخطبة وفق الظروف العادية التى أقرتها القوانين اللومباردية دون أن يتخللها أية عقبات أو مشاكل يترك لكل من أقارب العروسين الحرية فى تحديد يوم الاحتفال بالزفاف. وينبغى على الخطيب أن يقدم الصداق المتفق عليه إلى الوصى عليها قرب موعد الزفاف أو عشية تلك الليلة بحد أقصى[3]. وبمجرد انتهاء حفل الزفاف تذهب العروس إلى بيت الزوجية، وتنتقل إليه مسئولة الوصايا عليها[4]. وكان من حق الزوجة أن تتسلم من زوجها فى صباح اليوم التالى للزواج إحدى الهدايا القيمة عرفت باسم هدية الصباح "Morgincap" بحيث كانت لا تتعدى فى قيمتها ربع ممتلكات الزوج. وتصبح هذه الهدية فيما بعد من الحقوق المكتسبة

---

(١) Ibid., title, 188, 214.

(٢) The Laws of King Liutprand, title, 114.

(٣) Hodkin, op. cit., vi, p. 200.

(٤) Rothair's Edict; title, 183.

للزوجة[1]. وقد تكون الهدية فى هيئة أموال سائلة إذا رغب الـزوج فـى ذلك، طالما أنه سيكون ملتزماً بالحد الأقصى المصرح له فـى قيمتـها، وإلا اعتبر المبلغ الزائد عن ذلك غير شرعى ولا يعتمد بـه أمـام القضـاء إذا مـا طالبت به الزوجة بعد وفـاة الـزوج[2]. ورغـم أن هـذه الهديـة، كمـا هـو واضح من تسميتها، كانت تقدم صباح اليوم التـالى للزفـاف، إلا أنـه فـى كثير من الأحيان كان يقدمها الزوج إلى عروسه قبل موعدهـا بأيـام قليلـة فى حضور بعض الأقارب والأصدقاء ثم يعلم أمام الجميع من واقع وثيقـة مكتوبة وموقع عليـها منـه ومـن بعـض الشـهود بمعرفتـه بأنـه قـدم إلى زوجته الهداية المستحقة لها المذكور مواصفاتها بهذه الوثيقة وفـى هـذا الموعد بدل من موعدها المحدد[3]. ولعل المقصود من وراء ذلك هو تثبيـت حق الزوجة حتى لا تفقدها بعد وفاة زوجها لمجرد إنكار ذلك مـن قبـل الورثـة تحـت أى ظـروف مـن الظـروف بالاستعانة بشـهود الـزوج. أو الحنث باليمين. على أن المشرع لم يوضـح لمـن يكـن حـق الاحتفـاظ بـهذه الوثيقة المكتوبة. إلا أننا نفهم من روح النـص أنـها تظـل محفوظـة عنـد الزوجة أو أحد أقاربها لتقديمها إلى القضاء وقت الحاجة إليـها لتثبيـت حقها.

وكانت سعادة المرأة فى حياتـها الزوجيـة متوقفـة إلى حـد كبـير على الحظ فربما سعدت بـهذا الـزواج وحـدث نـوع مـن الألفـة والمحبـة

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 7.

(٢) Ibid., title, 89, 103.

(٣) Ibid., title, 7.

والرحمة بينها وبين زوجها وربما ظلت شقية بهذا الزواج بسبب خلو قلب زوجها من العطف والحنان. ويبدوا أن المشرع كان واعياً لكل ذلك فقد حمى الزوجة من ظلم زوجها واستبداده خاصة إذا فكر في هجرها أو الزواج بغيرها. فإذا تغيب تحت أى ظرف من الظروف سواء كان داخل البلاد أو خارجها لمدة تزيد على ثلاث سنوات، يحق للزوجة حفاظاً على كرامتها وسمعتها وخشيت على نفسها من الفتنة أن تذهب إلى القصر الملكى لتحصل من الملك على الموافقة على الانفصال عن زوجها الغائب. والزواج بغيره لأنه لا يجوز لها ان تفعل ذلك دون موافقة الملك. فإذا أجيبت إلى طلبها ثم عاد زوجها يعاد عرض الموضوع من جديد على الملك ليتخذ القرار الذى يراه مناسباً لجميع الأطراف[1]. أما إذا هجر الزوج زوجته بدون أسباب شرعية وتزوج من امرأة أخرى فقد حفظ القانون لزوجته الأولى تعويضاً مالياً كبيراً قدرة خمسمائة صلداً يذهب نصفه إلى خزينة الملك، بينما يكون النصف الآخر من حق الزوجة، وفى نفس الوقت يفقد الزوج حق الوصاية عليها وتنقل الوصاية مرة أخرى إلى أبيها أو أخيها أو أى من أقاربها ممن هم على قيد الحياة[2]. وهناك حالة أخرى أكثر خطورة وضرراً على المجتمع كله وهى أن تهب امرأة نفسها إلى رجل متزوج، وتحتل جزءاً من منزله وتسند إليه مسئولية

---

(١) Ibid., title, 18.

(٢) Grimwald, King, The Laws of King Grimwald, cf. The Lombard Laws, translated from the original Latin by Jatherine Ficher Drew, Philadelphia, 1973 title, 122.

الوصاية عليها وعلى ممتلكاتها رغم علمها التام بزواجه من امرأة أخرى وإقامة الزوجة بالمنزل. ففى هذه الحالة تفقد هذه المرأة اللعوب كل ما تمتلك فتؤول نصف ممتلكاتها إلى البلاط الملكى بينما يحصل أقارب الزوجة المطعونة فى كرامتها عن النصف الآخر. يكون الزوج ملتزماً باسترجاع زوجته إلى بيت الزوجية من بيت عائلتها لتعيش معه فى أمان واطمئنان لأنها الزوجة الشرعية ولا بديل عنها إلا بموتها[1]. ويبدو أن هناك تناقضاً كبيراً بين هاتين الحالتين الأخيرتين. ففى الوقت التى توقع فيه عقوبة على الزوج لمجرد زواجه بامرأة أخرى غير زوجته. نجد أن المشرع قد آثر السكوت فى الحالة الثانية ولم يلزم الزوج بتحميل أى نوع من أنواع العقوبات رغم أنه يعتبر فى نظر القانون زانياً ومرتكباً للفاحشة ومقترفاً إثماً كبيراً فى حق زوجته.

أما إذا كانت المرأة المتزوجة هى التى قد ارتكبت إثماً فى حق زوجها وقبلت خطبتها من أحد الرجال وثبت عليها ذلك بالفعل. فيحق لزوجها أن يفعل بها كيفما شاء ما عدا القتل أو الأذى الجسمانى. وفى نفس الوقت يلتزم هذا الخطيب بدفع تعويض مالى يعادل قيمة مكانته الاجتماعية إلى الزوج للخسائر التى أصابته والتشهير بسمعته[2]. وهناك جرائم عديدة يمكن أن يرتكبها كل من الزوجين تجاه الآخر لم يغفل عنها المشرع اللومباردى وإنما وضع لها عقوبات رادعة لحماية المجتمع

---

(١) Ibid., title, 8 .

(٢) The Laws of King Lutprand, title. 122.

من أمثالها فلو تآمرت الزوجة بمفردها أو مع شريك لها للتخلص من زوجها وقتلته بالفعل تصادر كل ممتلكاتها وتحول إلى ورثة الزوج. ثم يطبق ضدها القصاص ما لم يكن لديها أطفال من هذا الزوج[1]. أما إذا فعلت المؤامرة ونجا الزوج فيصبح له الحق فى ان يفعل بها وبأملاكها ما يشاء ومع ذلك يحق للزوجة فى هذه الحالة أن تثبت براءتها عن طريق القسم الذى يؤديه أقاربها أمام القاضى[2]. ويبدوا أن باقى مشرعى القوانين اللومباردية الصادرة بعد قانون روثير لم يكن لها موقف آخر من هذه العقوبة لأننا لم نعثر على إضافات أخرى تفيد عكس ذلك.

أما إذا راحت الزوجة ضحية مؤامرة زوجها دون أن ترتكب أى ذنب فى حقه وإنما بناء على شكوك دارت فى ذهنه، فيلتزم بدفع ألف ومائتى صلداً توزع مناصفة بين خزينة البلاط الملكى وأقارب المجنى عليها، ويحق لأبنائها منه الاستيلاء على الهدية التى قدمت إلى أمهم فى صباح اليوم التالى لزواجها فضلاً عن كل ممتلكاتها. أما إذا لم يكن لديها أولاد فتكون هذه الممتلكات من نصيب أقاربها أو خزينة الملك فى حالة عدم وجودهم[3]. أما إذا كان قتله إياها بسبب وجود دليل قاطع لا يحتمل الشك على خيانتها فلا يصبح الزوج القاتل مداناً أمام القانون

---

(١) Rothair's Edictitle, 203.

وتنص هذه المادة على "إذا أقدمت المرأة على قتل زوجها ينبغى قتلها ما لم يكن لديها أطفال. ويحق لأقارب المجنى عليه الاستيلاء على كل ممتلكاتها".

(٢) Ibid., title, 202.

(٣) Ibid., title, 200.

حتى ولو قتل شريكها معها لما ارتكب من فاحشة الزنا[1]. ونفس الشيء إذا تجرأت المرأة المتزوجة على الزواج من شخص آخر غير زوجها تطبيقاً لنص المادة ٢١١ من قانون وثير:

"إذا تزوج رجل حر أو عبد من إحدى النساء المتزوجات يجب قتلهما معا"[2].

أما إذا اتهم الزوج زوجته بالخيانة دون ان يكون لديه دليل يثبت ذلك فلا يكون قد ارتكب فى حق زوجته فحسب وإنما أيضاً فى حق أسرتها معاً بعرض حياتهما الزوجية للانهيار ولذا يجب عليه أن يتحمل دفع تعويض مالى إلى أسرتها يعادل نصف القيمة المقدرة لمركزها الاجتماعى بينما يؤول النصف الآخر إلى خزينة البلاط الملكى. وعندئذ يجب عليه أن يقسم مع اثنى عشر من أقاربه على أن اتهامه هذا لم يكن نابعاً عن شر أو حقد أو خبث، وإنما بنى على شك فقط، وإنه كان مخطئاً فى حق زوجته[3].

وإذا كانت كافة القوانين والشرائع قد حتمت على الزوجة طاعة زوجها. فلا يجب ان تعتمد هذه الطاعة إلى ارتكاب الرذيلة. وإنما يجب أن تتماشى هذه الطاعة مع ما تحث عليه مكارم الأخلاق والفضيلة حتى يتم النهوض بالمجتمع ورفع شأنه بين سائر المجتمعات. فأحياناً كان

---

(١) Ibid., title, 212.

(٢) Ibid., title, 211.

(٣) The Laws of King Liutprand, title, 130.

الرجل اللومبـاردى يتعـرض لظـروف تجعلـه يضحـى بشـرفه وكرامتـه مقابل مصالحه الشخصية الأخرى وما قد يجنيه مـن وراء هـذا مـن ربح وفير ومكانة عالية بين طبقات المجتمع فيأمر زوجته بأرتكاب الفاحشة مع أحد الرجال من ذوى المكانة العالية أو مع رجل له مصالح معـه حتـى يتمكن من تحقيق مآربه عن هذا الطريق. وفى مثل هذه الحالة كان يحكم على الزوجة بالقتل. بينما يلتزم الزوج بدفع تعويض مـالى يعـادل قيمـة زوجته الاجتماعية، وتؤول أملاكها إلى أولادها. وإن لم يكن لديـها أولاد تتحول هذه المتلكات إلى أقاربها. أما بالنسبة للرجل الزانى فبالرغم من رضاء الزوج وعلمه بما حدث، إلا أنه مدان أمام المجتمع ويحـق لأقـارب الزوجة أو الوصى عليها التصـرف معـه كيفمـا شـاءوا لأنـه كـان السـبب المباشر فى موت ابنتـهم. أمـا إذا عـارضت الزوجـة زوجـها ورفضـت أن تسير معه فى طريق الرذيلة وفضحت أمره، فيلتزم فى هذه الحالة بدفع تعويض مالى يصل إلى خمسين صلداً إلى أقارب الزوجة[1]. وواضح أن حكم هذه المادة القانونية لم يكن منصفاً ولا صارمـاً علـى الإطـلاق، ولا يتمشـى مع ما يجـب أن يحـث عليـه القـانون أفـراد المجتمـع بضـرورة التخلـى بالأخلاق الحميدة. ففى الوقت الـذى تقتـل فيـه المـرأة وهـى فـى الواقـع مجنياً عليها من زوجها نجد الزوج المحرض على الفسـق والفسـاد حـراً طليقاً دون عقاب رادع يثنيه عـن تكـرر فعلتـه الشـنعاء مـرة أخـرى مـع زوجة ثانية أو ثالثة. ولهذا كان يجب على المشرع ان يضع نصب عينيـه

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 130.

كل هذه الظروف والملابسات متفهماً لوضـع المـرأة، وأن يكـون عنيفـاً مـع زوجها. هذا وإن كنا نرى أن هذا النوع مـن الجرائـم لم يكـن يحـدث إلا نادراً. ثم يجب أن ندخل فى الحسبان أوضاع هذا المجتمع وظروفه التـى كانت تتيح مثل هذه المفارقات والمتناقضات. هـذا، وإذا اسـتمرت الحيـاة الزوجية فى طريقها المعتـاد ثـم توفـى الـزوج كفـل القـانون اللومبـاردى للمرأة الأرملة فى هذه الحالة الحياة الشريفة إذ خيرها بـين أمريـن أمـا أن تعود إلى بيت أقاربها تحت وصاية من كان يتولى أمرها قبل الزواج أو أقرب أقاربها اللهم إلا إذا لم يكن لها أقـارب شـرعيين يحـق لهـم تـولى أمرها، فيتولى ذلـك الأمـر البـلاط الملكـى. أمـا الأمـر الثـانى فلـها مطلـق الحرية فى الـزواج للمـرة الثانيـة، ولكـن بشـرط أن يدفـع العريـس مـن ممتلكاته الخاصة نصف الصداق المقدم لهذه المـرأة فـى زواجـها الأول إلى أقرب وريث لزوجها المتوفى. فإذا رفض هذا الشحص أن يأخذ ما قدم إليه يصبح هذا المبلغ من حق هذه الأرملة وتحصل عليه فى صباح اليوم التـالى لزواجها الثانى مع باقى الهدايا المقدمة إليها من قبل زوجها الجديـد[1]. وقد استثنى قانون ليوتبراند هذا العريس من دفـع نصـف قيمـة الصداق المذكور فـى حالـة مـا إذا كـان الـزوج المتوفـى رومـانى الأصـل. لأن هـذه الأرملة رغم أنها كانت لومباردية الأصل فقد أكسبها زواجها من رومانى وضعاً قانونياً جديداً، فأصبحت وأولادها ينتمون إلى الرومـان ويخضعـون طبقاً لقوانينهم[2].

---

(١) Rothair's Edict; title, 182.

(٢) =The Laws of King Liutprand, title, 127.

وإذا كانت القوانين قد أضفت حمايتها على المرأة الحرة كما هو واضح، فإن المشرع لم ينسى أيضاً معالجة شئون المرأة من الطبقات الأخرى وحمايتها أيضاً. ولذا فقد أباحت القوانين اللومباردية التزاوج بين أفراد طبقتي الأحرار ونصف الأحرار[1]. فإذا تزوجت امرأة حرة من

= وقد نصت هذه المادة على ما يلى: "إذا تزوج رجل رومانى من سيدة لومباردية اصبح له حق الوصاية عليها. وإذا مات وتزوجت ارملته من آخر لا ينبغى على الزوج الجديد أن يدفع تعويضا ماليا إلى ورثة زوجها أسوة بما هو متبع إذا كان الزوج المتوفى من اللومبارديين وذلك لن هذه الأرملة أصبحت وأولادها من الرومان ويحق لهم ان يعيشوا طبقاً للقوانين الرومانية التى لا تنص على أن يدفع الزوج الثانى اى مبالغ مالية إلى ورثة الزوج الأول".

(١) هم سكان إيطاليا الأحرار، سواء كانوا من الرومان أو من أى جنس لآخر، وهم الذين عاصروا قيام دولة اللومارديين فى إيطاليا ثم فضلوا العيش والاندماج فى المجتمع اللومباردى الجديد. وتم إنزالهم من مرتبة الأحرار إلى درجة وسط بين البيد والأحرار وأطلق عليهم اسم half free men (aldius) وقدرت حياة الفرد منهم بستين صلدا وكانوا غالباً ممن يشتغلون فى الزراعة. وكان يحق لأفراد هذه الطبقة الزواج من النساء الأحرار، وكانوا يعاملون من قبل الغير معاملة تفوق بكثير تلك المعاملة التى عومل بها العبيد والأمات. فكانوا لا يتعرضون للإذلال والتحقير أو الضرب البدنى مثلما يتعرض له العبيد. ورغم ذلك لم يكن الفرد منهم يتمتع بأهلية كاملة فى ممارسة حقوقه بمعنى أنه ليس من حق الدخول فى معاملات مالية باسمة أو عقد اتفاقات وإنما كان يتم من خلال سيده وكان يحق لسيدة أن يرفعه إلى مرتبة الأحرار. أنظر:

Hodkin op. cit., vi, pp. 181-206; Katherine, op. cit., p.p. 29-30.

أحد الرجال المنتمـين إلى طبقـة نصـف الأحـرار تصبـح تحـت وصايتـه. وتستمر الحياة الزوجية بينهما بالطريقـة العاديـة مثـل زواج الأحـرار. وإذا مات زوجها يصبح لها الحق أما البقاء فى منزلـه لرعيـة أطفالهـا أو العودة إلى منزل أسرتها. وفى هذه الحالة تفقد هدية الصباح، فضلاً عمـا يلتزم به الوصى الذى يتولى أمر الوصاية عليها قبل الزواج برد قيمة المتا Meta إلى من كان يعولهم الزوج قبل وفاته. ولا يحق لها أن تحمل معها سوى أمتعتها التى أتت بها عنـد الـزواج. وإذا رغـب أولادهـا حمـل مـا يخـص أبيـهم فيجـوز لهـم ذلـك عـن طريـق الشـراء من أقـارب أبيـــهم المتوفى[1]. وجدير بالذكر أن هؤلاء الأبناء يعتبرون ضمن نصف الأحـــرار الخاضعين لسيد ابيهم طبقاً للقاعدة العامة فى القوانين اللومبارديـة التـى تحتم انتماء الأبناء إلى نفس طبقة آبائـهم[2]. أمـا إذا رغـب أحـد رجـال طبقة الأحرار الزواج من امرأة نصف حرة أو أمة سواء كانت تابعة له أو لغـيره مـن السـادة الأحـرار. فينبغـى عليـه أولاً أن يتخـذ إجـراءات تحريرها ورفعها إلى طبقة الأحرار[3]. إلا إذا فقد أولاده من هذه الزوجة

---

(١) Rothair's Edict, title, 216.

(٢) Ibid., title, 218, 222.

(٣) كان يحق للسيد أن يرفع من يعمل تحت خدمته إلى مرتبة نصف الأحرار. أو مرتبة الأحرار. ففى الحالة الأولى يظـل تحـت حمايـة سيدة أمـا فـى الحالـة الثانية فيمكنه ان يعيش فى حرية تامة بـين طبقـة التحـرر مـن العبوديـة أو نصف العبودية طبقاً للخطوات التالية.

يأخذ السيد بيد العبد أو الأمة ويسلمه إلى رجل حر آخر. فيقوم هذا الرجـل=

حق ممارسة حقوقهم القانونية التى لا تتيحها إلا بالحرية التامة الناجمة عن زواج الأحرار بعضهم ببعض[1]. ولكن يكاد الأمر يختلف تماماً إذا ما فكرت المرأة وأقدمت على هذا الفعل يفقد زوجها العبد حياته أما هى فيحق لأقاربها بيعها خارج المقاطعة التى يقيمون بها إلى جانب مصادرة كل مصالحهم. وإذا تأخروا عن تنفيذ هذه الأمور يتولى البلاط الملكى أمرها بان ينزلها إلى طبقة الأمات ويضمها إلى باقى آمات القصر[2]. وجدير بالذكر أن هذا العقاب ظل على أية امرأة حرة تتزوج من عبد منذ صدور قانون رثير المنظم لهذه العملية عام ٦٤٣م حتى عام ٦٦٨م عندما صدر قانون جريموالد ونصت إحدى مواده على عدم إنزال أى فرد إلى مرتبة العبودية إذا قضى أكثر من ثلاثين عاماً متمتعاً

= بتسلمه إلى رجل حر آخر، فيسلمه إلى ثالث وهذا بدوره يسلمه إلى رجل حر رابع الذى يقوده من يده إلى مفترق طرق أربعة مسلماً إياه بسهم وسوط ويقول له "لك أن تختار بحرية تامة الذهاب فى أى اتجاه من هذه الطرق الأربعة" ومنذ تلك اللحظة يصير العبد أو النصف عبد حراً يتمتع بكافة مميزات طبقة الأحرار ولا يحق للسيد فيما بعد أن يكلفه أو أولاده بعمل شىء. ولهذا الحر أن يختار بين العيش مع سيدة السابق كأخ حر أو صديق وبين المعيشة بمفرده. أما إذا أراد السيد أن يرفع العبد إلى مرتبة نصف الأحرار فقط فيقوم بنفس الخطوات السابقة دون أن يخيره فى السير فى أحد الطرق الأربعة. وينطبق ذلك تماماً على الأمات نصف الأحرار من النساء راجع:

Rothair's Edict; title. 224.

(١) The Laws of king Liutprand, title, 106.

(٢) Rothair's Edict; title, 221.

بالحرية[1]. وبناء على ذلك لا يمكن إنزال هذه الزوجة بعد صدور هذا القانون إلى درجة العبودية إلا إذا كان عمرها أقل من ثلاثين عاماً وبالتالى تطبق عليها عقوبة مصادرة أملاكها. وعندما صدرت المجموعة القانونية للملك ليوتبراند حدد مدة عام كحد أقصى ينفذ خلاله أقارب المرأة الحرة المخالفة للقوانين العقاب الذى تستحقه، وإلا يتحول أولادها إلى عبيد يخدمون فى البلاط الملكى[2]. ولكن عندما صدر قانون راتشيس عام ٧٤٦م ضيق الخناق على المرأة فى مثل هذه الحالة عندما ضاعف المدة التى اشترطها جريموالد فى قانونه فيما يتعلق بعدم جواز انزال الحر إلى مرتبة العبودية فجعلها ستين عاماً[3]. ولا شك أن هذا يدل على مدى شدة القوانين اللومباردية وتطورها من حين لآخر بالشكل الذى يقوى حياه المجتمع اللومباردى ويعمل على تماسكه ولا شك أن مضاعفة المدة لابد وأنها حدت كثيراً من الظاهرة الخطيرة لأن متوسط الأعمار فى تلك الفترة الزمنية كانت لا تصل إلى سن الستين فى عصر انتشرت فيه الأوبئة والطواعين مع قلة الإمكانيات الطبية. ولو افترضنا جدلاً أن امرأة حرة قد بلغت هذا السن فلا اعتقد أن تكون صالحة للزواج والإنجاب وبالتالى ستفكر جيداً دون هذا السن أن تقدم على زواجها من أحد عبيده

---

(١) The Laws of king Grimwald, title, 1.

(٢) The Laws of King Liutprand, title, 24.

(٣) Ratchis, King, The Laws of King Ratchis, cf. The Lombard Laws translated from the original Latin by Katherine Fischer Drew. Philadelphia, 1973, title, 6.

بعكس الحال فى قانون جريموالد الذى يمكن للمرأة الحرة الراغبة فى الزواج من العبد أن تؤجل زواجها حتى تصل إلى سن الثلاثين لتفادى عقوبة إنزالها إلى مرتبة الأمات.

أما إذا تزوجت المرأة نصف الحرة من أحد العبيد فقد أعطى القانون لسيد العبد الحق فى إنزالها إلى مرتبة الآمات، فإذا أهمل هذا السيد فى اتباع الإجراءات المعروفة فى ذلك الشأن يكون من حقها بعد موت زوجها أن تعيش كإحدى نساء طبقة نصف الأحرار كما كانت من قبل[١].

أما بالنسبة لزواج الآمة فكان مقيداً أيضاً من قبل القانون اللومباردى ببعض القيود، فلا ينبغى لها أن تفكر فى الزواج من عبد متزوج وإلا تكون قد ارتكبت إثماً كبيراً وتعتبر زانية، فتتعرض لعقاب شديد من قبل سيدها فى حضور سيد العبد الذى تزوجته[٢]. ومما يؤسف له أن مشرعى ليوتبراند الذين قننوا لهذه الحالة لم يوضحوا نوع هذا العقاب. وإنما اكتفوا بأن أقروا العقوبة المفروضة على هذا العبد وفق ما جاء بقانون روثير وهى أن يلتزم سيد هذا العبد بدفع عشرين صلداً إلى السيد التابع له الزوجة الثانية[٣].

وهناك حالة أخرى من زواج العبيد عالجها قانون ليوتبراند وهى رفع الأمة المتزوجة من أحد العبيد إلى مرتبة الأحرار بمعرفة

---

(١) Rothair's Edict, title, 217.

(٢) The Laws of King Liutprand: title, 104.

(٣) Rothair's Edict, title, 119.

سيدها. ففى مثل هذه الحالة تفقد حريتـها للمـرة الثانيـة، وتلحـق مـع آمات البلاط الملكى ما لم تنفصل عن زوجـها فـى الحـال. ويلـتزم سـيدها الذى أعتقها بأن يسلم البـلاط الملكـى أمـة أخـرى غيرهـا عقابـاً لـه لأنـه تسبب فى تدمير تلك الحياة الزوجية عندما اختارت الزوجـة الانفصـال عن زوجها لتعيش ضمن طبقة الأحرار[1].

أما بالنسبة للميراث فقد حفظ المشرعون اللومبارديون حـق المـرأة فى الميراث سواء كـان عـن أبيـها أو أخيـها. أمـا بالنسـبة للمـيراث عـن زوجها فإننا لم نعثر من خلال القوانين اللومباردية على ما يفيـد حقـها فى ميراث زوجها مما يدل علـى عـدم أحقيتـها فـى ذلـك. وقـد اختلـف نصيب المرأة فى الميراث من حالة لأخرى، فإذا كانت هى الابنة الشرعية الوحيدة لأبيها المتوفى مع عدد من لأخوة الذكور فيحق لهـا الثلـث فيمـا ترك، ويوزع الباقى بالتساوى بين باقى الأبناء الذكـور والأقـارب. وفـى حالة عدم وجود الأقارب فيؤول نصيبهم إلى خزينة البلاط الملكـى[2]. أمـا إذا لم تكن هى الابنة الوحيدة ولها أخوات أخريات وأخوة ذكور فيصبـح من حق البنات معاً نصف الثروة، بينما تؤول ثلثـها إلى الأخـوة الذكـور والبـاقى للأقـارب[3]. وإذا كـان للرجـل المتوفـى أخـوات بنـات فيعتـبرن مشاركات لبناته فى النصف ويوزع بينهن جميعاً[4]. وإذا كـانت البنـات

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 98.

(٢) Rothair's Edict, title, 158.

(٣) Ibid., title, 159.

(٤) Ibid., title, 160; The Laws of King Liutprand title, 4.

دون أخوة ذكور فيحق لهن ميراث كل الممتلكات فتقسم بينهن بالتساوى سواء المتزوجات منهن أو اللائى لم يتزوجن بعد[1]. وقد استحدث المشرعون اعتباراً من عهد ليوتبراند نصاً يجيز الحق فى ورثة المرأة لأختها[2].

وقد ميز القانون اللومباردى الأرملة عن باقى أخواتها فإذا توفى والدها او أخوها بصفته وصياً عليها يصبح لها الحق دون باقى أخواتها. فى الاحتفاظ بهدية الصباح وبقيمة الصداق الذى كان قد دفع للوصى عليها عند زواجها. وتدخل شريكه فى الميراث مع باقى الأخوة والأخوات وأقرب الأقارب فى ضوء القواعد المنظمة لذلك والسابق توضيحها[3].

وكان مشرعو قانون ليوتبراند حكماء عندما حافظوا على نصيب المرأة فى الميراث من الضياع. فمنعوا المورث من التصرف فى أكثر من ثلثى ممتلكاته بأية صورة من الصور حتى ولو كان للاحتفاظ بها لنفسه وذلك فى حالة إذا كانت ابنته غير متزوجة وتقيم معه فى البيت ليصبح الثلث الأخير المتبقى من نصيبها بعد وفاته. وإذا حدث وتصرف فى كل ممتلكاته عن طريق الهبة او الوصية معتمداً على عدم وجود بنات له ثم حدث وأنجب بعد ذلك طفلة فلابد وأن يقوم بتعديل الهبة أو الوصية

---

(١) The Laws of King Liutprand, titles, 1 , 2.

(٢) Ibid., title, 14.

(٣) Rothair's Edict, title, 199.

ويجعلها فى حدود ثلثى ممتلكاتـه فقط ويحتفظ بالثلث الأخير لهـذه الابنة. وإذا شاءت الأقدار فأنجب طفلـة أخـرى فلابـد أيضـاً مـن تعديـل الوصية أو الهبة للمرة الثانية لتصبـح فـى حـدود نصـف ممتلكاتـه فقـط حتى يظل النصف الثانى من نصيـب بناتـه فـى المـيراث وفـق مـا أقرتـه القوانين السابقة[1].

ولاشك ان هذا النظام إنما يعبر عـن الرغبـة فـى المحافظـة علـى حقوق المرأة. ولعله راجع إلى إدراك المشرع لضعف المرأة بصفة عامة وعدم قدرتها على تذليل الصعاب التى قد تواجهها بنفس الدرجة التى يواجه بها الرجل المصاعب. فإذا مات والدها وهى مازالت بكر ليس لهـا مصـدر رزق تعيش منه فلربما انحرفـت عـن الطريـق المستقيم فـأراد المشـرع أن يضمن لها مصدر رزق تعيش منه يمثـل ثلـث ثـروة أبيـها هـذا، بعكـس الحال بالنسبة للرجـل، فمـن السـهل عليـه أن يدبـر أحوالـه ومعيشـته بالعمل والكفاح ومن أجل هذا كان حرص المشرع واضحاً فـى حفـظ حقـها بالنسبة لأخيها فى الميراث.

وعلى الرغم من ذلك فإن القانون اللومباردى كان صارماً مـع المـرأة إذا شقت عصا الطاعة على أبيها أو أخيها. فأجاز القانون لكليـهما الحـق فى التصرف فى ممتلكاتها بالطريقة التى تحرم هذه الفتاة العاصيـة مـن الميراث إذا ما بلغ الأمر فعلاً حد العصيان[2].

---

(١) The Laws of King Liutprand, 65.

(٢) Ibid., title, 5.

وجدير بالذكر أنه في الوقت الذى حفظ فيه مشرعو القوانين اللومباردية حق أقرب الأقارب من الجنسين فى الميراث منذ عهد روثير حتى راتشيس، إلا أن المشرعين فى قانون ايستولف رأو بعد سنوات طويلة من التطبيق العملى لقانون المواريث أن يمنعوا حق الأقارب فى الميراث وقصره على العمات والخالات غير المتزوجات واللائى كن يقمن مع المورث قبل وفاته. وذلك فى حالة عدم وجود ورثة من أبنائه الذكور أو الإناث(١). كما أن هناك تغيراً كبيراً أضيف إلى قوانين المواريث، فبعد أن كان حق الرجل فى الوصاية قاصراً على أبنائه الذكور، أجاز المشرع فى قانون راتشيس المساواة بين الجنسين فى هذه الناحية فمنح الإناث حق التمتع بهذه الميزة(٢).

ومن الأهمية بمكان أن تعرف أنه إذا كان مشرعوا اللومبارد قد منحوا المرأة حقوقاً متنوعة فى مجالات متعددة، فلم ينسوا أيضاً أن يشرعوا من أجل حمايتها ضد ما قد تتعرض له من اعتداءات الغير. وقد بدا ذلك بشكل واضح فى قوانين كل من روثير وليوتبراند. فإذا اعترض رجل طريق امرأة حرة وأحدث لها مضايقات تعدت إلى حد ضربها يحق لها أن تطالبه بتعويض عما أصابها من إهدار لكرامتها قيمته ٤٥٠ صلداً. ويكون ملزماً أيضاً بدفع مبلغ مماثل لخزينة البلاط الملكى. أما إذا كانت هذه المرأة دون طبقة الأحرار، فلا تزيد قيمة التعويض عن عشرين صلداً(٣).

---

(١) The Laws of King Aistulf, title, 10.

(٢) The Laws of King Ratchis, title, 13.

(٣) Rothair's Edict; title, 26, 28.

وإذا نجم عن عمليـة الضـرب ان أصيبـت المـرأة الحـرة أو غيرهـا بعاهات مستديمة أو بعدة جروح تحصل أيضا على تعويض مـالى بجـانب التعويـض الأول، وتتفـاوت قيمتـه حسـب حالـة الجـروح، فضـلا عمـا يتحمله الجانى من مصاريف الطبيب المعالج[1]. وإذا وصل الأمـر إلى حـد القتل العمد يدفع ستمائة صلدا كتعويض إلى أقاربـها، ومبلغـا ممـاثلا إلى خزينة البلاط الملكى. وإذا لم يكـن لديـها أقـارب يـؤول قيمـة التعويـض كاملا إلى خزينـة البـلاط الملكـى[2]. أمـا بالنسـبة للمـرأة المجنـى عليـها المنتمية إلى طبقة نصف الأحرار أو الأمة فيقدر قيمـة التعويـض لأقـارب الأولى أو لسيدها بستين صلـدا[3]. ولأقـارب الثانيـة أو لسـيدها بخمسـين صلدا[4]. وإذا أصيبت المرأة عفوا بدون تعمد أثناء مرورها عبر أحد الطرق الموجودة به مشاجرة بين بعض الأفراد، فيلـتزم الجـانى بدفـع تعويـض مالى إلى الوصى عليها أن كانت من طبقة الأحـرار أو إلى سـيدها إن كـانت دون ذلك[5]. وإذا كانت المرأة الحـرة حـامل ونتـج عمـا تعرضـت لـه مـن إصابات موت الجنين داخـل الرحـم يدفـع لهـا الجـانى تعويضـا معـادلا لنصف القيمة المقدرة لمركزها الاجتماعى وإذا حـدث أن مـاتت هـى أيضـا يحصل الوصى على التعويـض كـاملا. أمـا إذا كـانت دون طبقـة الأحـرار

---

(١) The Laws of King Liutprand, title, 124.

(٢) Rothair's Edict, title, 201.

(٣) Ibid., title, 121.

(٤) Ibid., title, 130.

(٥) The Laws of King Liutprand, title, 123.

فيستحق تعويضا قدرة ثلاثة صلدا عن فقدها الجنين ومبلغا مماثلا إذا ماتت[1]. وإذا كانت الحادثة التى تعرضت لها المرأة الحرة قضاء وقدرا، يتحمل البلاط الملكى دفع التعويضات المقررة[2]. هذا، فى الوقت الذى لم نعثر فيه بين النصوص القانونية للومباردية على ما يفيد تعويض الأمة أو نصف الحرة من قبل البلاط الملكى فى حادثة القضاء والقدر.

وإذا كان القانون اللومباردى دائما يفرق فى المعاملة بين نساء طبقة الأحرار وما دونهن من الطبقات الأخرى، إلا أننا نعجب من توحيد المعاملة بينهن فيما إذا تعرضت أية امرأة من هذه الطبقات الثلاث لحادث اغتصاب من قبل أى رجل ينتمى إلى أى طبقة من طبقات المجتمع. فقد توحدت قيمة التعويض بالنسبة لهن جميعا حيث يدفع الجانى تعويضا ماليا قدرة عشرون صلدا[3]. أما إذا كانت المرأة التى تعرضت لحادثة الاغتصاب ممن وهبن أنفسهم للانخراط فى سلك الرهبنة فيصبح التعويض مائتى صلدا. لأن الجريمة حينئذ تتعلق بانتهاك حرمة القائمين على أمور الدين[4]. وفى نفس الوقت لم ينس مشرعو هذه القوانين أن يعالجوا ظاهرة خطف النساء لغرض ما، إذا ألزموا الجناة بدفع تعويض قدرة ٤٠ صلدا مناصفة بين أقارب المجنى عليها وبين خزينة البلاط الملكى فى حالة ما إذا كانت من طبقة الأحرار.

---

(١) Rothair's Edict, title, 334.

(٢) Ibid., title, 75.

(٣) Ibid., title, 205, 207.

(٤) The Laws of King Liutprand, title, 76.

أما إذا كانت من الطبقتين الأخرتين، فتخفض الغرامة إلى النصف[1].

وجدير بالذكر أن العصر الذى نحن بصدد دراسته كان يميزه فى كثير من الأحيان الفوضى والاضطرابات الناتجة عن كثرة الحروب بين اللومبارديين وأعدائهم أما دفاعا عن المناطق التى استولوا عليها فى شمال إيطاليا أو محاولة منهم للتوسع لكسب مزيد من المدن والمقاطعات ولذا فقد عمت الجرائم المتنوعة بين أفراد هذا المجتمع فى بداية استقرارهم وتأسيس مملكتهم دون أن يكون لها عقاب رادع محدد يحول دون وقوعها ولكن بعد صدور أول مجموعة قانونية على يد الملك روثير رأى المشرعون ضرورة بث الأمن والطمأنينة فى قلوب أفراد المجتمع اللومباردى من خلال فرض عقوبات صارمة تحد من هذه الجرائم. وكان للمرأة نصيب وافر فى هذه القوانين. ولكن نظرا لأن المرأة بطبيعتها مخلوق ضعيف فكانت الجرائم التى ترتكبها تكاد تتفق مع إمكاناتها مثل القتل باستخدام السم أو السرقة. ولذا لم يغفل المشرعون هذه الأمور ووضعوا لكل نوع من هذه الجرائم عقابا مناسبا. فإذا تعمدت المرأة الحرة دس السم فى الشراب أو طعام لأحد الأشخاص بنيه القتل وتم اكتشاف هذه الجريمة قبل وقوعها تلتزم بدفع غرامة مالية قدرها عشرون صلدا إلى ضحيتها[2].

أما إذا كان الشخص قد تناول السم وتم إسعافه ولم يمت تعتبر المرأة مدانة أمام القانون وتلتزم بدفع تعويض مالى إلى هذا الشخص

(1) Rothair's Edict, title, 208, 209.

(2) Ibid., title, 139.

يعادل نصف القيمة المحددة لمركزه الاجتماعى[١]. أما إذا مات فيصبح التعويض موازيا لقيمته الاجتماعية كاملة[٢]. وإذا كانت المرأة المتهمة لا تنتمى إلى طبقة الأحرار فيتحمل سيدها دفع هذا التعويض. ثم ينفذ فيها حكم الإعدام لتكون عبرة لغيرها[٣]. ويبدو أن المشرع هنا لم يكن عادلا عندما فرق بين المتهمات فى جريمة واحدة فأنقذ المتهمة الأولى من الإعدام لمجرد كونها حرة مكتفيا بإلزامها بالتعويض المالى الذى تدفعه إلى أقارب المجنى عليه. فأباح بذلك لأفراد طبقة الأحرار ازهاق أرواح الغير مقابل دفع الفدية المقررة. فى الوقت الذى لم يفعل نفس الشىء مع الطبقات الأخرى. ولكن فى ظل الطبقة الاجتماعية التى سادت هذا المجتمع كان طبيعيا أن يتفاوت العقاب المقرر عند اقتراف مثل هذه الجريمة.

أما بالنسبة للسرقة فقد عالج مشرعو قانون روثير هذه الجريمة التى تقع بمعرفة المرأة حيث فرض عقوبة مشددة عليها. فإذا كانت المتهمة حرة عليها إعادة المسروقات مع دفع تعويض مالى يبلغ تسعة أضعاف قيمة الأشياء المسروقة. ويفضح أمرها فى أنحاء المقاطعة[٤]. أما إذا كانت المرأة المتهمة من غير طبقة الأحرار فيتحمل سيدها دفع نفس قيمة التعويض المذكور بجانب أربعين صلدا إلى خزينة البلاط الملكى

---

(١) Ibid., title, 140.

(٢) Ibid., title, 141.

(٣) Ibid., title, 142.

(٤) Ibid., title, 257.

جزاءا لما ارتكبته من إثم على أموال الغير(١). وعلـى الرغـم أن المشـرع لم يوضح الحل البديل فى حالة امتناع السيد عن دفع التعويـض المطلـوب إلا أنه يبدو أنه كان يطبق على المتهمة فى هذه الحالة عقوبة القتل أسوة بما نص عليه المشرع فى الحالات التى يكون الجانى فيها أحد العبيد(٢).

وجدير بالذكر، أنه كانت هناك فئـة مـن الفتيـات اخـترن حيـاة التنسك والرهبنة لإشباع الناحية الدينية فى نفوسهن، ولذلك فقـد اهتـم مشرعو الملك ليوتـبراند بتنظيـم هـذا الناحيـة دون غـيرهم مـن القوانـين اللومباردية الأخرى. فأعطوا المرأة الحق فى الانخراط فى سـلك الرهبنـة ابتغاء مرضاه الله بشرط موافقة الوصى، وألا تعود مرة أخرى بأى وسـيلة من الوسائل إلى الحياة الدنيوية والانغمـاس فـى شـهواتها(٣). كمـا حـرم المشرعون على المـرأة الراهبـة التفكـير فـى الـزواج. فـإذا تزوجـت تفقـد ممتلكاتها وتتحول إلى خزينة البلاط الملكى، بينما يدفع زوجـها غرامـة مالية قدرها ٦٠٠ صلدا باعتباره محرضا لها على خـرق تعـاليم وقوانـين الأديره. وإذا ثبت أن هذا الـزواج قـد تم بموافقـة الوصـى، يدفـع غرامـة مالية يتقاسم مع الملك قيمة الغرامة المالية التى دفعها الزوج(٤). كما نص

---

(١) Ibid., title, 28; The Laws of King Grimwald, title, 9.

(٢) "يقتل العبد إذا امتنع يده عن دفع التعويض المطلوب عن جريمة السرقة التى ارتكبها هذا العبد" راجع:

Rothair's Edict, title, 254.

(٣) The Laws of King Liutprand title, 30.

(٤) Idem.

قانون ليوتنراند أيضا على عدم جواز الأرملة الدخول فى سلك الرهبنة قبل مضى عام على وفاة زوجها حتى ولو وافق الوصى عليها. أما إذا أصرت هذه الأرملة وأبدت رغبتها الجادة فى الرهبنة قبل انقضاء المدة المحددة يجب عليها أن تحصل على موافقة الملك. وإذا لم يلتزم الوصى بمراعاة هذا النظام بدفع غرامة مالية مساوية لقيمته الاجتماعية إلى خزينة البلاط الملكى[1]. وقد خول المشرعون للمرأة التى تدخل سلك الرهبنة بعد زواجها الحق فى تحويل نصف ممتلكاتها لصالح الدير الذى اعتكفت فيه، طالما لم يكن لديها أطفال. أما إذا كان لديها أطفال فلا يحق لها أن تتصرف فى أكثر من ثلث ممتلكاتها لهذا الغرض[2].

على أية حال. وبعد هذا العرض للقوانين اللومباردية المنظمة لأحوال المجتمع اللومباردى وما حفلت به من تنظيمات خاصة بالمرأة اللومباردية المنتمية إلى جميع طبقات المجتمع يمكن القول انه إذا كان مشرعو تلك القوانين قد وضعوا قيودا على المرأة لا يمكنها الخروج عليها أو إغفالها، إلا أنهم فى نفس الوقت منحوها كثيرا من الحقوق وضمنوا لها الطمأنينة. ورغم أنهم قد أولو المرأة اهتماما كبيرا. خاصة الحرة دون نساء الطبقات الأخرى. إلا أن هذا الوضع لم يكن غريبا بالنسبة لسائر المجتمعات المعاصرة سواء فى الشرق أو الغرب على حد سواء فى هذه الفترة الزمنية المبكرة من التاريخ الوسيط.

---

(١) Ibid., title, 100.

(٢) Ibid., title, 101.

وجدير بالذكر فـي هـذا المقام أننـا لم نعـثر مـن خـلال دراسـتنا للقوانين اللومباردية على ما يفيد حق المرأة فى ممارسة أى نوع من أنواع النشاط التجارى المعروف آنذاك بما تحويه هذه الكلمة مـن معـان. وإنمـا كان هذا الحق مخولا فقط للرجال. ففـي الوقـت الـذى لا تجـد فيـه نـص قانونى خاص بالمرأة فى هذا المجـال، نجـد العديـد منـها تحـدد الطـرق القانونية للرجال لممارسة النشاط التجارى بالقدر الذى لا يضر الغـير[1]. وفضلا عن ذلك، كان لا يسمح للمرأة بالإدلاء بشهادتها أمام القضاء وإنما كـان هـذا الحـق قـاصرا أيضـا علـى الرجـال. أضـف إلى هـذا أن القـانون اللومباردى كان حريصا على حفظ كرامة المرأة عندما ترك لها الحـق فـى إقامة الدعوى القضائية أمام الملك أو القاضى ضد زوجها للانفصال عنه إذا ثبت عليه تهمه ارتكاب الزنا مع أمته[2]. وكذلك عندما أباح لها الـزواج من الجنسيات الأخرى. فإذا تزوجت من أحد الرجال الرومان وأصبحـت تحت وصايتـه، فإنـها تعـامل تماما وكأنـها رومانيـة الأصـل. وتعيـش أولادها داخل المجتمع اللومبـاردى طبقـا للقـانون الرومـانى لاكتسـابها الجنسية الرومانية بهذا الزواج[3]. كما يبدو أن المسيحية ساعدت إلى حد ما على صقل القوانين المتعلقة بـالمرأة ولكـن ليـس بـالقدر الكـافى. إذا أن العادات الوثنية القديمة كانت تظهر بوضوح فى بعض تلك القوانين.

---

(١) Rothair's Edict; title, 227-230, The Laws of King Asitulf, title, 3, 4,6.

(٢) The Laws of King Liutprand, title, 130.

(٣) Ibid.. title. 127.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر الأجنبية:

Aistulf, King, The Laws of king Aistulf, of. The Lombard Laws, translated from the Original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadephia, 1973.

Grimwald, king, the Laws of King Grimwald, of. The Lombard Laws, translated from the Original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Justinian, Emperor, The Digest of Roman Law, translated by Kolber, c.f. peguin books, London, 1979.

Liutprand, king, The Laws of king Liutprand of. The Lombard Laws, translated form the Original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Ratchis, King, The Laws of King Ratchis, of The Lombard Laws, translated from the original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

Rothair, King Rothair's Edict, of. The Lombard Laws, translated from the Original Latin by Katherine Fischer Drew, Philadelphia, 1973.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

Hodkin, T; Italy and her invaders, 6 Vols, Oxford, 1895.

Katherine, F.; the Lombard State and the Lombard Laws, of. The Lombard Laws. Philadelphia, 1973, (pp. 14-37).

Real Encyclopedia der Altertum wissenschoft, Gotenburg 1910.

ثالثا: المراجع العربية:

اسمت غنيم (الدكتور):

المرأة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣.

حسن إبراهيم حسن (الدكتور):

تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة. ١٩٦٤.

سيد أحمد الناصرى (الدكتور):

تاريخ الرومان من القرية إلى الإمبراطورية، القاهرة، ١٩٧٦.

سهام أبو زيد (الدكتور):

الإسلام والعالم القديم، القاهرة، ١٩٨٢.

عمر كمال توفيق (الدكتور):

تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٧٢.

البحث الثامن

الغزو الدانى للجزيرة البريطانية فيما بين عامى ٩٧٨-١٠١٦م فى ضوء الوثائق الإنجليزية

الغزو الدانى للجزيرة البريطانية فيما بين عامى ٩٧٨-١٠١٦م في ضوء الوثائق الإنجليزية

كان لقرب الجزيرة البريطانية من القارة الأوربية، فضلاً عن وجود عدد من الموانىء الصالحة لرسو السفن على شواطئها، وعدد من الطرق النهرية الصالحة للملاحة أثر كبير فى إغراء الغزاة عبر القرون الطويلة بمحاولة النزول فيها واحتلالها. فتعاقب الغزاة عليها. منهم الكلت والرومان والانجلوسكسون والنورمان وغيرهم[1].

والدانيون Danes، كما أطلق عليهم أهل انجلترا من السكسون، وهم فرع من الفيكنج أو الشماليين Northmen الذين يقطنون شبه جزيرة اسكنديناوه وحوض البحر البلطى وهم فى جملتهم يتكونون من

---

(١) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص٧.

(٢) محمد الشيخ: الممالك الجرمانية فى أوروبا فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٧٥، ص٢٥٧، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٨٨.

والمعروف أن الفيكنج ينتمون إلى العنصر التيوتونى أو الجرمانى، وأدت عزلتهم فى موطنهم الأصلى إلى كثير من الاضطرابات والاختلافات بينهم وبين عناصر الجرمان الأول الذين غزوا أوروبا من قبل. فالفيكنج ظلوا برابرة خالصين محافظين على أوضاعهم التيوتونية البدائية حتى أواخر القرن التاسع الميلادى دون أن يتأثروا بالمؤثرات اللاتينية التى لعبت دوراً هاماً فى تطور الجماعات الجرمانية الأولى. لمزيد من التفصيلات أنظر سعيد عاشور: =

الدانيـين والنرويجيين والسـويديين وقــد بـدؤا اغاراتــهم على الجزيــرة البريطانية فى أواخر القرن الثامن الميلادى بين عامى ٧٨٧ و ٧٩٤ بقصـد عمليـات السـلب والنـهب ولاسـيما علـى سـواحلها الشـرقية والشـمالية الشـرقية والجنوبيـة الغربيـة[١]. ومنـذ حـوالى منتصـف القـرن التاســع الميـلادى دخلـت هجمـات الدانيـين مرحلـة جديـدة، واتخــذت طابعــاً مغايراً، فازداد ضغطهم بشكل ملحوظ على السواحل الجنوبيــة الشـرقية للجزيرة عام ٨٥١م، واستولوا على لنـدن وكانـتربرى. وأخـذوا ينتقلـون مـن دور الهجـوم الخــاطف والعــودة السـريعة إلى دور الاســتقرار[٢]. واجتـاحوا فـى الفـترة الواقعـة بـين عــامى ٨٦٦ و ٨٧١ معظـم المــالك الإنجليزية ولاسيما نورثمبريا ومرسـيا وانجيليـا الشـرقية. ولم يسـتطع أحد التصدى لهم سوى الملـك الفـرد العظيـم ملـك وسـكس (٨٧١-٩٠٠)، وألحق بهم عدة هزائم. وأجبرهم علـى الصلـح معـه وفقـاً لشـروطه التـى أملاها عليهم[٣]. فأنقذ مــن تبقـى مـن إنجلـترا مـن غـزو الدانيـين. وقـد حرص خلفاؤه على استرداد البلاد الدانية بإنجلـترا حتـى انتـهى الأمـر

=المرجـع السـابق، ص١٧٤، السـيد البـاز العرينـى: تـاريخ أوروبـا العصــور الوسطى، بيروت ١٩٦٨، ص ٣٥١، محمد الشـيخ: المرجـع السـابق، ص ٢٥٨ وما بعدها.

(١) السـيد البـاز العرينـى: المرجـع السـابق، ص ٣٥٥؛ محمـد الشيخ: المرجــع السابق، ص ٢٦٤.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٣) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ١٩٠؛ محمد الشيخ: المرجـع السـابق، ص ٢٦٥-٢٦٦.

بتوحيدها تحت حكم ملك واحد هو إدجار (٩٥٩-٩٧٥) الذى يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكاً على إنجلترا[١].

وقد حدث أثناء تلك الفترة من حكم ملوك وسكس تقدم كبير في عملية الامتزاج بين العناصر الأنجلوسكسونية والدانية لتكوين شعب واحد حتى اكتملت مقوماته فى عهد هذا الملك[٢]. الذى لم يتخلله أى حروب حتى عرف باسم ادجار المحب للسلام Edger the Peacful[٣]. ذلك السلام الذى لم يكن نابعاً من ضعف وإنما من قوة ومقدرة على مواجهة التحديات التى كان يواجهها سواء من داخل المملكة أو من خارجها[٤].

وقد تخللت الفترة التى أعقبت وفاة الملك ادجار أحداثاً خطيرة

---

(١) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٣٦٠-٣٦١؛ محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٢) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص١٦٥.

(٣) The Anglo Saxon Chronicle, cf. E.H.D., t. I, pp. 205-206; cf. also: Campbell, J., The Anglo Saxon, Oxford, 1982, p. 160.

وقد وتولى ادجار حكم إنجلترا فى أكتوبر ٩٥٩ بعد وفاة أخيه ابدونج وكان يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، وكان مسيحياً مخلصاً يعمل من أجل رفع شان رعاياه. وكان أكثر الملوك السابقين عنه جهاداً من أجل السلام لمملكته،ولذا فقد خضع له الملوك والايرلات طائعين دون إكراه. وقدظلت ذكراه عالقه فى أذهان الرعايا الإنجليز. ومات فى الثامن من شهر يوليو عام ٩٧، راجع:

The Anglo Saxon Chronicle, pp. 205-208.

(٤) Brook, ch., The Saxon and Norman Kings, London, 1963, p. 126.

فى تاريخ البلاد حالت دون تحقيق الوحدة الإنجلزية التى بدأ ملوك وسكس – منذ عهد الملك الفرد – فى وضع لبناتها الأولى. فقد تجددت هجمات الدانيين من ناحية، وقامت الحروب الداخلية وضعف السلطة الملكية المركزية من ناحية أخرى. ذلك أن الملك ادجار كان قد تزوج مرتين وترك أولاداً من كل هاتين الزوجتين، وعند موته اختلفت الآراء بين كبار رجال المملكة ونبلائها حول اختيار الملك الجديد فرأى البعض اختيار ادوارد الابن الأكبر للملك المتوفى. بينما أيد البعض الآخر ابنه الثانى اثلرد لما عرف عن ادوارد من القسوة والعنف فى معاملة الآخرين[1]. ونظراً لحدة الخلاف، فقد اجتمع كل من دونستان Duntan رئيس أساقفة كانتربرى وأوزوالد Oswald رئيس أساقفة يورك مع الأساقفة ورؤساء الأديرة والنبلاء واختاروا ادوارد (٩٧٥-٩٧٨م) ليكون ملكاً عليهم تحقيقاً لما كان يوحى به الملك ادجار قبل وفاته[2]. فضلاً عن أن ادوارد كان قد بلغ السن المناسبة لاعتلاء عرش البلاد دون أخيه اثلرد الذى كان صبياً صغيراً لا يزيد عمره يومئذ عن عشر سنوات[3]. غير أن ادوارد لم يعمر طويلاً فى الحكم إذ دبت الغيرة

---

(١) Anonymous, Life of st. Oswald archbishob of york, cf. E.H.D., t. 1, p. 841, cf also: Brook, op. cit., pp. 127-129, corbette, W., England from A.D. 954 to the death of Edward the confessor, cf. cam. Med. Hist, cambridg, 1972, t. 111, (pp. 371-409), p. 380.

(٢) Roger of wendover, flowers of history 2 vols, translated from the Latin by J. A., Gilles, London, 1849, t. I, p. 265.

(٣) Campbell, op. cit., p. 192.

فى قلب زوجة ابيه الستريثا **Alstritha** وقد دبرت مؤامرة قتل فيها الملك ادوارد وانتزعت الحكم لإبنها اثلرد الذى ظل يحكم ثمانية وثلاثون عاماً من ٩٧٨ حتى ١٠١٦م[١]. الذى اشتهر فى التاريخ باسم اثلرد القاصر **Ethelred the unready** لصغر سنة من ناحية، ولأنه كان قاصراً عن اتخاذ القرارات الحاسمة الصحيحة من ناحية أخرى وذلك بسبب سوء تصرفه، وسماعه النصائح السيئة من قبل

---

(١) The Anglo Saxon, Chronicle, p. 210; Melrose, chronicle of Melrose, cf. The church historians of England, translated from the original text by J. Joseph Stevenson, London, 1856, (pp. 77-243), pp. 101-102.

وهناك روايتان حول مقتل الملك ادوارد، فيرى المؤرخ المجهول صاحب كتاب "حياة القديس اوزوالد رئيس أساقفة يورك" أن المتآمرين أحاطوه من كل جانب عند عودته من إحدى رحلات الصيد. ورغم أنه كان بديناً إلا أنه وقف على حصانه لمناقشتهم دون أن تظهر على وجهة علامات الخوف ولكنه أصيب بسهم مسموم أفقده حياته فى الحال. راجع:

Anonymous, op. cit., p. 842.

بينما يروى روجر اوف وندوفر أنه أثناء عودته من إحدى رحلات الصيد ترك أتباعه يتبعون كلاب الصيد وذهب لرؤية أخيه اثلرد وزوجة أبيه فى قرية صغيرة على مقربة منه تسمى كورند جت Corvedgate فى إقليم دورست Dorset. وعندما قابلته زوجة أبيه أخذت تلاطفه وتزيد من الترحيب به حتى آمن لها. وبينما كان يروى ظمأه من كوب قدمته له قام أحد اتباعها بطعنه فخر صريعاً فحملته على حصانه ميتاً ليلحق بأتباعه. أنظر:

Roger of Wendover, op. cit., t. I., p. 266.

مستشاريه[1]. بينما يرى المؤرخ الإنجليزى بروك أن هذه التسمية مشتقه من الكلمتين الإنجليزيتين القديمتين **Etherl** ومعناها "المستشار النبيل" و **Unready** وتعنى "لايقبل النصيحة". وبهذا يكـون مضمـون التسـمية "الملك الذى لا يقبل نصيحة مستشاريه النبلاء"[2].

وكان اثلرد، كما وصفـه المؤرخـون، ملكـاً ضعيفـاً، أحمقـاً، غـير مخلص لمن حوله، يميل إلى الغدر والخداع، حاد الطبع، غير قـادر علـى مواجهـة منافسيه مـن ايـرلات الملكـة. ولـذا فقـد اعتـبرت الفـترة التـى حكمها من أسوأ الفترات التى حلـت بتـاريخ انجلـترا[3]. فسـار بـهـا إلى الخراب والدمار[4]. وفق ما سوف يتضح فيما بعد فـى مـر صفحـات هـذا البحث.

وكيفما كان الحال. فبإعتلاء اثلرد عرش إنجلترا خرجت السلطة من ايدى الملك إلى أيدى كبـار النبـلاء والأشـراف الذيـن أخـذوا يفرضـون

---

(١) Trease, G., London, Aconcise history, London, 1975, p 22; Bryant, A., A thousand years of British Monarchy, London, 1975, p. 15; Orton, p., Foundation of the northern kingdoms, cf. the short cam. Med. Hist., Cambridge, 1971, t. I., p. 395.

(٢) Brook, op. cit., p. 130.

(٣) Trevelyan, G., History of England, London, 1943, p. 95; Feiling, K., A History of England, London, 1959; p. 77; Bryante, op. cit., p. 15 Orton, op cit., Loc. Cit.

(٤) Thatcher and Schwill, Europe in the Middle Ages, London, 1967, p.198.

إرادتهم على الملك الصبى بشكل أضر بسلطان الملكيـة الأنجلـو سكسـونية مما ساعد على تجدد إغارات الدانيـين علـى أنحـاء الجزيـرة البريطانيـة بعد أن أدركـوا أن البـلاد تحـت حكـم هـذا الملـك أصبحـت لقمـة سـائغة وغنيمـة سـهلة المنـال[1]. فبـدأت موجـة جديـدة مـن غـزوات الدانيــين للجزيـرة اختلفـت فـى طابعـها وتنظيمـها عـن الموجـات السـابقة لأنــها أصبحت غزوا منظما تحت قيادة ملـوك الدانيـين أنفسـهم بعـد أن كـانت قبل ذلك تتم تحت قيـادة رؤسـاء القبـائل الدانيـة والنبـلاء الذيـن كـانوا يحاولون التخلص من سيطرة الملكية فى تلك البـلاد بعـد ازديـاد نفوذهـا على حساب سلطاتهم وحريتهم[2].

أصبح اثلرد فى موقف لا يحسد عليه أمام تزايـد هـذه الهجمـات الدانية بسبب سوء الأوضاع الداخلية وغياب الوحـدة الوطنيـة والافتقـار إلى القيادة العسكرية الحكيمة، فضلا عن عدم إخلاص وولاء معظم اتباعه والمقربين إليه. هذا فى الوقت الذى كـانت اسـتعدادات الدانيـين تجـرى على قدم وساق إذ أعدوا اساطيلهم. وشحنوها بالمقاتلين الأكفاء فضلا عمـا أظهره قادتهم من براعة فائقة فى أساليب الحرب والقتال[3].

على أية حال، بدا الدانيون الهجوم على الجزيرة البريطانيـة،

---

(١) Brook, ch., Europe in the central Middle Ages, Bristol, 1975, p. 216; Orton, op. cit., Loc. Cit.

(٢) جوزيف نسيم: المرجع السابق. ص ١٧٠. راجع أيضا:
Brook, ch., from Alfred to Henery 111, (871-1272), London, 1961, p. 59.

(٣) Brook, The Saxon and Norman Kings, p. 131.

فأخذوا يتدفقون على سواحل الجزيرة اعتباراً من سـنة ٩٨٠م(١)، فوصـل في ذلـك العـام أسـطول دانـي إلى سـاوثمبتون Southampton، ونجـح الدانيون في النزول براً واشتبكوا في قتال عنيف مع الأهالي فسقط عدد كبير من أهالي الجزيرة بين قتلى وجرحى وأسرى. ثم واصلـوا هجومـهم على جزيرة ثـانت وشيشـير Cheshire وسـيطروا عليـها بعـد أن قـاموا بكثير من عمليات السلب والنهب(٢). وكرروا هجومـهم فـي العـام التـالي على ساوثمبتون في ثـلاث سـفن، ثـم واصلـوا طريقـهم بطـول السـاحل، فأغاروا على دفون Devon وكورنوول Cornwall. وعانت البلاد كثـيراً من هذا الهجـوم وتكبـدت خسـائر فادحـة فـي الأرواح والعتـاد(٣). وقـام الدانيون بتكرار هجومهم علـى السـاحل الإنجلـيزي عـام ٩٨٢م فدمـروا دورست(٤). ثم وصلوا طريقهم تجاه لندن، وأشعلوا النيران فيها بعـد أن يأسوا من الاستيلاء عليها لشدة حصانتها، ثم عادوا إلى سفنهم(٥).

وفي زحمة هذه الأحداث كـانت هنـاك بعـض الأمـور الداخليـة تشغل بال الملك اثلرد وتصرفه على التفرغ التام لمواجهة الهجوم الداني

---

(١) Mawer, M., The Vikings, cf., cam. Med. Hist, Cambridge, 1922 (pp. 309-338), t. 111, p. 324.

(٢) The Anglo Saxon Chronicle, p. 211; cf. also: Lyon H., The Vikings in Britain, London, 1977, p. 82.

(٣) the Anglo Saxon chronicle, p. 211; Anonymous, op. cit., p. 843; Roger of wendover, op. cit., t. 1, p. 268; cf. also: Lyon. Op. cit., Loc. Cit.

(٤) The Anglo Saxon chronicle, p. 211; Rogr of wendover, op. cit., Loc. Cit.

(٥) Trease, op. cit., p. 22; Lyon, op. cit., Loc. Cit.

لسواحل الجزيرة البريطانية. ففى عام ٩٨٣ خرج اثلرد على رأس قواتـه وحاصر مدينة روشستر Rochester بسبب تجاهل دونستان رئيس أساقفتها للتحذيرات التى وجهها إليه الملك للكف عن إثارة القديس أندرو حامى المدينة. ورغم أن الحصار لم يستمر طويلاً إلا أن الجانبين عانا كثيراً بسببه ولم ينته إلا بعد أن دفع رئيس الأساقفة غرامة مالية إلى الملك اثلرد قيمتها مائة جنيه، مع تعهده بعدم التعرض مرة أخرى لحامى المدينة[1].

ولعل ذلك يؤكد ما ذهب إليه المؤرخون من أن ذلك الملك كان ضيق الأفق لا يتصف برجاحة العقل، ولا يقدر الأمور حق تقديرها فى وقت يطلب منه ذلك. فكان عليه أن يدرك خطر الغارات الدانية المتكررة على سواحل البلاد، وما قد يترتب عليه من مخاطر. فكان لابد من عمل الاستعدادات الحربية لصد أية اعتداءات جديدة قد تتعرض لها المملكة من جانب الدانيين. وكان عليه أن يلم الشمل لتطهير البلاد من الدانيين. ولكن يبدو أنه لم يكن واعياً لكل ذلك.

وحدث أيضاً أن انشغل الملك اثلرد لفترة وجيزة عن الاهتمام بالدفاع عن مملكته بسبب نزاعه مع رتشارد دوق نورمانديا رغم المصاهرة الموجودة بينهما والناتجة عن زواج الملك من ايما Emma ابنه هذا الدوق. ومن بين أسباب النزاع بين الرجلين تصرفات اثلرد السيئة مع زوجته ولإهمالها وجرح كبريائها وكرامتها. فأخذت تقلل من شأنه

(١) Roger of wendover, op. cit., t. I. p. 269.

وتحط من قدرة بالمقارنة بين أبيها الذى كان شديد التأثر بآرائها. فما كان من رتشارد إلا أن قام فى عام ٩٩٠م بالقبض على عدد من الرجال الإنجليز الموجودين فى نورمانديا وقتل بعضهم، وسجن البعض الآخر انتقاماً من اثلرد. مما زاد من حدة النزاع بين الطرفين[١]. بينما ارجع المؤرخ الإنجليزى اريك سبب النزاع إلى سماح دوق نورمانديا للدانيين باستخدام موانيه فى أغراض مختلفة ضد السواحل الإنجليزية[٢].

ومهما كانت الأسباب. فقد تدخل البابا حنا الخامس عشر (٩٨٥-٩٩٦م) وحاول أن يصلح بين الطرفين. فأرسل فى اول مارس عام ٩٩١م إلى كل من طرفى النزاع يحثهما على ضرورة الصلح فاستجاب الطرفان له، وعاد الصفاء مرة أخرى بينهما[٣]. وتدعم هذا الصلح بعقد معاهدة بين الطرفين أكد فيها الدوق رتشارد تعاطفه وتأييده للملك اثلرد ضد هجمات الدانيين معلناً عدم منحهم أية تسهيلات ومنعهم من استخدام الموانئ النورماندية[٤].

---

(١) Idem, p. 271.

(٢) Eric J., war and society in the tenth century: The Battle of Maldon Camprign, cf. R.H.S., Vols, 27, London, 1977, (pp. 173-195), p. 188.

(٣) Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit.

للرجوع إلى خطابات البابا راجع:

John XV, (Pope), Letter of all the faithful, concerning the reconciliation of Ethelred king of England and Richard Duke Normandy, cf. E.H.D., t. I, pp. 823-824.

(٤) Campbell, op. cit., p. 194; Eric, op. cit., Loc. Cit.

وكيفما كان الحال، شهد عام ٩٩٢ معركة هامة وحاسمة في التاريخ الإنجليزى تلك التى دارت رحاها بالقرب من مدينة مالدون Maldon (١) بين القوات الإنجليزية من جانب والدانيين والنرويجيين من جانب آخر. وقد أمدتنا أنشودة مالدون، وهى أحد الأعمال الأدبية فى أواخر القرن العاشر الميلادى، بصورة رائعة من صور البطولات التى أداها المقاتلون الانجلوسكسون، ومدى استماتتهم فى الدفاع عن أراضيهم (٢).

---

(١) تقع مدينة مالدون فى وادى نهر المياه السوداء، يحيط بها سهل منبسط كئيب موحش. وتقع المدينة على تل وسط هذا السهل ويجرى شمال المدينة نهران هما شلمر Chelmar. ونهر المياه السوداء الذى يتصل بفرع التل المقام عليه المدينة. وعندما يقترب النهر الثانى من المدينة يدور تجاه الشمال بينما يدور النهر الأول تجاه الجنوب مكوناً بينهما شبه جزيرة تقع شمال مالدون. لمزيد من التفصيلات راجع:

Laborde, E., The site of Maidon, cf. E.H.R., XL, 1925, (pp. 161-173), pp. 162-164.

راجع أيضاً الخريطة رقم (١) من هذا البحث.

(٢) **Kames, F., The Pageant of Mediéval England, London, 1975, p. 26.**

وهذه الأنشودة كتبت باللسان الانجلوسكسونى خلال بضع سنوات من انتهاء معركة مالدون. وتعد مصدراً رئيسياً عما دار فى هذه المعركة من أحداث. وتتكون من ١٢٣ سطراً راجع:

Anonymous, Poeme on the Battle of Maldon, cf. E.H.D., t., I, pp. 293-297, cf. also: Burne, A.: More Battlefield of England, London, 1974, p. 61, Gordon, E., The Battle of maldon, Manchester, 1973, p. 5.

وكان الملك النرويجى أولاف تريجفسون Olaf Tryggvasson قد جاء فى مقدمة أسطول ضخم يتكون من ثلاث وتسعين سفينة لمعاونة الدانيين فى عمليات السلب والنهب للسواحل الإنجليزية. فبعد أن نجحوا فى تدمير معظم أنحاء الساحل الشرقى للجريرة الريطانية وقاموا بعمليات القرصنة فى تلك المناطق واصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى مصب نهر المياه السوداء Black water بالقرب من مدينة مالدون، فسيطروا على المنطقة وأسسوا قاعدة لهم فيها[1]. وأما الجيش الإنجليزى فقد وصل الى المنطقة بقيادة بيرثنوث ايرل اسكس[2]. وكان يتكون من قوات

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 213, cf. also: Mawer, op. cit., 324; Gordon, op. cit., P. I, Lyon, op. cit., p. 83.

ورغم ان حولية الانجلوسكسون قد ذكرت حضور اولاف فى هده المعركه إلا أن هناك خلاف فى الرأى حول هذا الموضوع. والرأى الراجح انه لم يأت من النرويج فى هذا العام، وانما فى عام ٩٩٤ طبقا لما اشارت إليه المصادر الاسكندنافية. ولمزيد م التفصيلات أنظر:

Gordon, E., The Date of Ethelred's treaty with the Vikings, cf. Mod. Lang. Rev, XXXII, 1937, (pp. 24-37). Pp. 24, 26, 27.

(٢) ينتمى إلى إحدى الاسرات الإنجليزية ذات المركز الاجتماعى الهام فى إنجلترا، وهو أحد كبار وعظماء جيله. وكانت له مكانته الاجتماعية بين سائر الايرلات بصفة عامة، وعند الملك اثلرد بصفه خاصه. وكان يتصف بالورع وعمق الإيمان. وبحماسه فى الدفاع عن وطنه ورجال الدين. عين ايرلا على اسكس عام ٩٥٦ وكان عمره ثلاثين عاماً. وسقط صريعاً فى ميدان معركة مالدون عام ٩٩١ن راجع:

Gordon, op. cit., pp. 15-16; Burne, op. cit., Loc. Cit.

اسكس فقط واتباع القائد بيرتنوث مـن رجـال الاقطـاع وكذلـك الفلاحـين المسلحين، وذلك دون مشاركة بقية الممالك الإنجليزية الأخـرى[١]. وكـان نهر المياه السوداء حداً منيعاً بين الجيشين المتحاربين. ورغم وجود أحـد الجسور عند نقطة معينة من النهر إلا أنـه كـان يسـتحيل علـى القوتـين المتعاديتين استخدامه فى العبور إلى الضفة الأخـرى لعلـو منسـوب الميـاه وقتئذ بسبب حركات المد والجـزر. فـأصبح الجيشـان كـل منـهما يواجـه الآخـر. لا يسـتطيعان إلا تبـادل النـداءات الاسـتفزازية ورمـى السـهام والرماح لضيق مجرى النهر الذى لم يكن يتجاوز اثنا عشر قدماً[٢].

وجديـر بـالذكر. هنـاك تعـارض فـى أقـوال بعـض المؤرخـين الحديثين فى تحديد مكان المعركة ولا سيما أن المصادر المعاصرة والمتأخرة زمنياً للفترة موضوع البحـث لم تشر إليـه علـى وجـه التحديـد. فـيرى الأسـتاذ فريمـان Freeman أن الفريقـين المتحـاربين التقيـا عنـد هـاى بريدج Heybridge التى تبعد ميـلاً واحـداً عـن شمـال مدينـة مـالدون. حيث نزل الدانيون فى شبه الجزيرة الموجودة شمال مالدون. حيث نـزل الدانيون فى شبه الجزيرة الموجـودة شمـال مـالدون بينمـا جـاءت قـوات بيرتنوث لتكون فى مواجهتهم بحيث كان نهر المياه السوداء فاصلاً بـين القوتين. ولم تبدأ المعركة إلا بعد انحسار ميـاه المـد عـن الجسـر الموجـود هناك فسمح للفريقين المتحاربين بالعبور[٣].

---

(١) James, op. cit., p. 27.

(٢) Burne, op. cit., p. 62; Laborde, op. cit., p. 17; James, op. cit., p. 29.

(٣) =Laborde, op. cit., p. 164; Burne, op. cit., p. 63.

هذا فى الوقت الذى يؤكد فيه ثلاثة من كبار المؤرخين الإنجليز وهم لابورد Laborde وبيورن Burne وجوردون Gordon أنه لايمكن ان تكون المعركة قد حدثت فى المكان المشار إليه، وإنما أبحر الدانيون حتى وصلوا مصب نهر المياه السوداء ومنه تقدموا إلى جزيرة نورثى Northey وعسكروا فى غربيها بعد أن تركوا سفنهم فى فرع نهر المياه السوداء فكانت الجزيرة مأمنا لهم من هجمات الانجلوسكسون لأن الطريق الوحيد الموصل إلى هذه الجزيرة مخاضة موجودة عند موضع يسمى ساوث جريك South Greek[1]. وكانت حافة هذه المخاضة قد أصابها المد بعد عبورهم بشكل لا يسمح باستخدامها فى العبور إلا إذا انخفض منسوب مياه المد من جديد، وبعد ردمها بكمية كبيرة من الحجارة[2]. وقد

=راجع أيضاً الخريطة رقم (١) من هذا البحث. وليس من المعروف تماماً الطريق الذى سلكته القوات الإنجليزية للوصول إلى ميدان القتال. أنظر:

Burne, op. cit., p. 68.

(١) Laborde, op. cit., p. 165.

وجزيرة نورثى مثلثة الشكل، ورأسها يأخذ تجاه الجنوب الغربى، تفصلها الملاحات والمستنقعات عن اليابس من كل جانب. وتضيق فى بعض الأماكن وتتسع فى البعض الآخر. وتربتها حمراء ثابتة ومناسبة لرعى الماشية، وهى منحدرة قليلاً ناحية شاطىء النهر. راجع:

Laborde, op. cit., p. 170; Burne, op. cit., p. 64; Petty, G. Geology and the Battle of Maldon, cf. Speculum, 1, 1976, (pp. 435-445), p. 444.

راجع أيضاً الخريطة رقم (١).

(٢) Grodon, op. cit., p. 3.

زار الأستاذ بيورن المنطقة وتحقق بنفسه من ذلك عندما حاول عبورها بعد انحسار مياه النهر فلم يخط أكثر من عدة ياردات ثم توقف بسبب وصول المياه إلى منتصف جسده(١). وكان يوجد أيضاً فى الطرف الجنوبى الغربى لجزيرة نورثى طريق غير مرصوف وأيضاً جسر يربط الجزيرة باليابس عرضه عشر أقدام وهو من الحصى والأحجار الصغيرة. وعند المد المنخفض يغوص هذا الطريق دون الجسر الذى تغطيه فقط مياه المد العالى بما يقرب من ستة أقدام(٢). ولهذا كان لا يمكن أن يستخدم الدانيون سفنهم فى عبور هذه المخاضة لضحالة المياه فيها حتى عند حدوث المد إلى أقصى ارتفاع. ولذلك تمسك الدانيون بالبقاء فى هذا المكان لحصانته(٣).

ويستند المؤرخون الثلاثة المشار إليهم فى رفضهم لرأى الأستاذ فريمان على اعتبارات عديدة يأتى فى مقدمتها أن مدينة مالدون كانت تابعة للانجلوسكسون، ومحصنة تحصيناً جيداً ولا يمكن للدانيين أن يعسكروا عندها ليكونوا محاصرين بين حامية المدينة جنوباً وقوات بيرتنوث شمالاً(٤). كما أنه لا يوجد دليل يؤكد وجود جسر قديم عند

---

(١) Burne, op. cit., 66.

(٢) Ibid., p. 65, Petty, op. cit., p. 445.

وبقياس المسافة بين الياب حتى جزيرة نورثى بحذاء الساحل اتضح أنها ٢٢ ياردة بينما ازدادت ٢٠ ياردة عند عملية المد المرتفع، لمزيد من المعلومات راجع: Petty, op. cit., p. 439.

(٣) Gordon, op. cit., p. 4.

(٤) Laborde, op. cit., p. 164; Burne, op. cit., p. 64.

موضع المسمى هاى بريدج وقت حدوث المعركة. وحتى إذا فرض وجوده فلابد وأن يكون قد أصابه التلف بفعل الحركات الدائمة للمد والجزر التى كانت تحدث فى المنطقة[1]. وفى حالة صلاحيته للاستخدام كان لايمكن عبوره فى أى وقت من أوقات المد إلا بعد انحسار المياه عن هذه المنطقة كل عام إلا فى وقت لاحق للتاريخ الذى حدثت فيه المعركة وهو العاشر من أغسطس عام ٩٩٢م[2]. هذا فضلاً عن أن الدانيين كانوا دائماً يفضلون اتخاذ الجزر مقراً لعملياتهم الحربية، ويتضح ذلك من معاركهم السابقة التى خاضوها[3].

ويضيف لابورد دليلاً جديداً إلى جملة الأدلة السابقة يتعلق بما قيل عن هروب القوات الإنجلوسكسونية عقب هزيمتهم فى موقعة مالدون إلى الغابات لمجاورة. فقد ثبت من دراسة الموقع أن الغابات لاتوجد عند مكان "الهاى بريدج" وإنما بالقرب من جزيرة نورثى[4].

وفضلاً عن هذا وذاك فقد جاء فى أنشوده مالدون أن الدانيين قد عبروا نهر المياه السوداء فى اتجاه الغرب، ولا يتحقق ذلك إلا فى حالة وجودهم فى جزيرة نورثى، على خلاف رأى فريمان الذى يجعلهم يعبرون تجاه الشمال لملاقاة القوات الإنجليزية عند هاى

---

(١) Burne, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Laborde, op. cit., p. 173.

راجع أيضاً النظر الموجود، ص ٦٠ من هذا البحث، وهو يوضح حالة الجسر أثناء حركة المد.

(٣) Burne, op. cit., Loc. Cit.

(٤) Laborde, op. cit., Loc. Cit.

بريدج[1]. كما جاء أيضاً فى سطور الأنشودة "تفيض المياه وتلتحم معاً". وقد تحقق الأستاذ بيورن من ذلك عندما زار المكان وشاهده بنفسه، فوقف على المخاضة وقت بداية فيضان النهر وشاهد تلاحم مياهه فيما بين الضفتين تدريجياً، وذلك ما لم يشاهده فى الموقع الذى حدده فريمان[2].

كيفما كان الأمر، انتهز القائد الإنجلوسكسونى بيرتنوث فرصة توقف القتال أثناء عملية المد وأمر مقاتليه أن يتركوا خيولهم بعيداً ويأتوا إليه مترجلين، بينما امتطى هو صهوة جواده وبدا يتفقد صفوفهم ويمدهم بالنصائح، وأشعل فى قلوبهم الحماسة للقتال من أجل الحفاظ على أراضيهم. وأمرهم بحمل دروعهم وأسلحتهم ثم نزل بعد ذلك ووقف بينهم حتى تزداد ثقتهم فى أنفسهم[3].

أما الدانيون فقد بعثوا مندوباً عنهم وقف على شاطىء النهر، وأخذ يصيح بصوت عال لا يخلو من المفاخرة والعجرفة موجهاً كلامه إلى الايرل بيرثنوث قائلاً "لقد أرسلنى رجال البحر الشجعان وأمرونى أن أخبركم أنه من الأفضل أن ترسلوا لنا الأموال فداءاً لكم على وجه السرعة فى مقابل منحكم السلام، ولن الأفضل لكم أن تدفعوا الأموال المطلوبة عوضاً عنيفاً لا هوادة فيه. وأننى أرى أنه لا حاجة لأى منا أن

---

(1) Ibid., p. 166; Burne, op. cit., Loc. Cit.

(2) Burne, op. cit., p. 66.

(3) Anonymous, op. cit., p. 293; cf. also: James, op. cit., p. 28.

يدمر الآخر. فإذا دفعتم الأموال فإننا مستعدون أن عقد معكم اتفاق السلام على الفور. وعندئذ تكون أيها القائد قد افتديت شعبك بالمال. وسوف نستقل مراكبنا تاركين لك الأمان والصداقة"[(1)].

وعندما سمع بيرتنوث هذه الكلمات ثارت ثارئته، وقبض على درعه بشدة، وأخذ يهز رمحه والغضب يملأ وجهه قائلاً بصوت مرتفع "أنكم هنا قراصنة، ولا نعطيكم سوى ضربات سيوفنا المسمومة ورماحنا، وعليك الآن أن تعود إلى اتباعك وتخبرهم بأنك وقفت أمام رجل يتمتع بسمعة طيبة وعلى أهبة الاستعداد لحماية أرض مملكة اثلرد وشعبها. وأنه لمن الجهل أن تتوقعوا سقوط مملكتنا فى أيديكم أو منحكم الكنوز والأموال لتدخل جيوبكم بدون قتال وفى يسر وسهولة"[(2)]. وفى نفس الوقت صاح البعض الآخر من رجال بيرتنوث قائلين بأننا سوف ندفع لكم الجزية بالمعدن وليست بالذهب كما ترغبون[(3)].

وقد أثار هذا الرد سخط الفيكينج وراحوا يستعدون لعبور الجسر فور انحسار مياه النهر من فوقه. وفى نفس الوقت أمر بيرتنوث قواته بالاستعداد وأن يحتشدوا جميعاً على ضفة النهر فى انتظار عبور أعدائهم. فى الوقت الذى اسند فيه مهمة حماية الجسر إلى فرقة من جنده على رأسها ثلاثة من قادته الأكفاء وهم وولفستان Wulfstan،

---

(1) Anonymous, op. cit., pp. 293-294.

(2) Ibid., p. 294.

(3) Laborde, op. cit., p. 171.

آلدر Alder وماكوس Maccus[1].

ويبدو أن الايرل بيرتنوث كان مصمماً على إنهاء الموقف لصالحه ومدركاً تماماً لأهمية المعركة التى أوشكت ان تندلع والتى تتوقف عليها مصير مملكة اثلرد. كما أنه أراد أن يستفيد مما بدا من حماس شديد لدى جنده ورغبتهم الصادقة فى القتال. فبمجرد انحسار مياه النهر عن الجسر الموصل بين الطرفين، واتضحت معالم الطريق بينهما راح ينادى بصوت عال يستدعى الدانيين للقتال قائلاً لهم:

"أصبح الطريق الآن مفتوحاً أمامكم تقدموا إلى مصيركم التعس فى معركة لا يعلم مصيرها إلا الله، فهو وحده يعلم إلى من ستكون السلطة والأرض"[2]. وعندئذ تقدم الدانيون فى الحال، وعبروا الجسر، واشتبكوا فى معركة حامية ضد الانجلوسكسون الذين لم يتمكنوا من الصمود طويلاً، أو من حماية الجسر. وكانت الدروع تتطاير من أيديهم وسقط عدد كبير منهم بين قتلى وجرحى وأسرى. بينما اضطر البعض الآخر إلى الفرار متخذين من الغابات المجاورة ملاذاً لهم عن عيون الدانيين[3]. وسقط بيرتنوث من فوق حصانه أثر طعنه رمح طائر،

---

(١) Anonymous, op. cit., p. 294; cf. also; Burne, op. cit., p. 62, James, op. cit., p. 29; Laborde, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Anonymous, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Ibid., p. 295, Anonymous, Life of St. Oswald Archbishob of york, cf. E.H.D., t. 5, p. 843; cf also: Laborde, op. cit., p. 172.

فالتفت حوله جماعة من الدانيين وأخذوا يطعنونه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ثم قاموا بجز رأسه بالسيف[1]. وعندئذ أحاط بجثته بعض أتباعه المخلصين خوفا من التمثيل بها حتى حضر بعض الرهبان وحملوها، وقاموا بدفنها بعد أن صنعوا كرة من الشمع لتحل محل الرأس المقطوعة[2]. أما بالنسبة لهؤلاء المخلصين لبيرتنوث فقد حزنوا حزنا شديدا على مقتل قائدهم وأصروا على عدم الاستسلام بل مواصلة القتال حتى النهاية انتقاما لقائدهم ولكن الهزيمة لاحقتهم، وانتصر الدانيون، وسيطروا على المنطقة[3].

وجدير بالذكر. أن الملك اثلرد كان في موقف لا يحسد عليه بعد الهزائم المتتالية التي كانت قد أصابت الممالك الإنجليزية على التوالي، ولكنه بدلا من أن يسرع في توحيد بلاده وتقوية جيشه ليخرج من المحنة إلى وضع نفسه ومملكته فيها بسبب سوء تصرفه، سار في ركاب سيراكيوس **Siracus** رئيس أساقفة كانتربري، وبعض نبلاء المملكة، وأعضاء مجلس الويتان[4]. وأخذ برأيهم وفرض على الأهالي الإنجليز

---

(١) Anonymous, poem on the Battle of Maldon, p. 296; cf. also: Gordon, op. cit., p. 20.

(٢) Burne, op. cit., p. 63; Gordon, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Burne, op. cit., Loc. Cit., James, op. cit., p. 31.

(٤) هو تنظيم سياسي في المجتمع الإنجلوسكسوني، يتكون من مجموعة من الايرلات، من أهم اختصاصه انتخاب الملك، وإبداء النصح والمشورة إليه في كل ما يتعلق بمشاكل الدولة الهامة مثل شن الحرب وعقد الصلح وما شابه ذلك.=

ضريبة جديدة عرفت باسم "ذهب الدانيين" danegeld ليدفع عشرة آلاف جنيه كجزية للدانيين حتى يشترى السلام منهم ويوقفوا عملياتهم الحربية على الساحل الإنجليزى[1]. وقد عقد معهم معاهدة تعهد

=وكانت موافقة المجلس ضرورية فى كثير من الحالات. أنظر: جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٨٤-٨٥.

(١) The Anglo Saxon Chronicle, p. 213; Roger of wendover, op. cit., p. 271; Melrose, op. cit., p. 203; cf. also: Robert, M., A concise history of Britain, London, 1951, p. 20; Mawer, op. cit., p. 324.

وقد فرضت هذه الضريبة على الأهالى لأول مرة عام ٩٩١ عقب معركة مالدون وكان ضمن مصادرها تلك التبرعات التى كان يدفعها الملك اثلرد من إيراده الخاص. فضلاً عن الهبات التى كان يتبرع بها بعض القديسين أمثال القديس البان عندما باع جزءاً من أرضه الزراعية وتبرع من ثمنها لهذه الضريبة. وكان اثلرد يضطر أحيناً إلى استخدام القسوة فى جبايتها، وتهديد المخطئين بمصادرة أملاكهم إن لم يزيدوا من تبرعاتهم كما كان يجبر الأثرياء على أن يتبرعوا لسد حاجة هذه الضريبة كل حسب مقدرته. وقد ظلت هذه الضريبة الركيزة المالية الكبرى فى عهد الملك كانوت (١٠١٧-١٠٣٥م) ووليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م) ومن جاء بعده من ملوك النورمان لفترة غير قصيرة من الزمن ولكن مع الفارق فى سبب جبايتها، ففرضت أيام الملك كانوت وهو فى موقف القوة، واطلق عليها اسم "ضريبة الحرب" وكان المقصود بها الدفاع عن المملكة. اما أيام الملك وليم الفاتح فكانت مصدراً من مصادر دخل المملكة الإنجليزية. لمزيد من التفصيلات راجع:

Campbell, S., Observation on English Government from the tenth to twelfth century, cf. R.H.S., Vols. 25, London, 1972, (pp. 39-54), 1. =

بموجبها الدانيون فرض الأمن والسلام داخل الجزيرة البريطانية، واحترام ما جاء ببنود هذه المعاهدة. مع عدم التعرض لسفن التجار الخاضعين لنفوذ الملك اثلرد سواء كانوا من الإنجليز أو من الأجانب. وأن يدفعوا التعويضات اللازمة إذا أخلوا بوعدهم[1].

مما لاشك فيه أن ضريبة "ذهب الدانيين" أثرت في الحياة الاقتصادية في الجزيرة البريطانية، وكانت سبباً في التطور الاقطاعي والعبودية الزراعية في إنجلترا[2]. كما أنها أوضحت للدانيين مدى ضعف شخصية اثلرد وعدم قدرة الإنجليز على مقاومتهم، وشجعهم هذا في السنوات التالية على الحضور إلى الجزيرة طمعاً في المزيد من هذه الجزية[3].

=44f; Lawsn, M., The collection of danegeld and hergeld in the reign of Ethelred 11 and cnut, cf. E.H.R., 1984, (pp. 721-738), pp. 725-727; Trevelyan, op. cit., p. 96.

وكانت هذه الضريبة بداية معاناة لآلاف الفلاحين الذين كانوا يتحملون قدراً كبيراً منها حيث كان اثلرد يلجأ إلى هذه الوسيلة عند كل اعتداء جديد يقع على إرجاء المملكة من قبل الدانيين. ولم تكن قيمة الضريبة ثابتة في كل مرة وإنما كانت تزداد في كل مرة عن الأخرى حتى بلغ مجموع ما أخذه الدانيون من هذه الجزية ما يقرب من نصف مليون جنيه انجليزي فيما بين عامي ٩٩١ و ١٠١٨، راجع: Lawsn, op. cit., p. 736; Feiling, op. cit., p. 78.

(١) Anonymous, quadripartitus, cf. E.H.D., I, pp. 401-402.

(٢) جوزيف نسيم: المرجع السابق. ص ١٧٠.

(٣) Corbette, op. cit., Loc. Cit.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة مدققة على أحداث المعركة يمكـن القـول أن حالات التمـزق والانـهيار والفرقـة التـى كـانت تعـانى منـها الممالك الإنجليزيـة عندئـذ هـى التـى أدت إلى حـد كبـير إلى هزيمـة القـوات الإنجليزيـة فـى معركـة مـالدون. فـإذا كـان هنـاك نـوع مـن الروابـط الاجتماعية والسياسية والحربية بـين سـائر هـذه الممـالك لتبـدل الحـال وتكون جيـش موحـد أمكنـه مواجهـة ضربـات الدانيـين وإلحـاق النصـر عليهم. فضلاً عما اتصفت شخصية اثلرد مـن كبريـاء وتعسـف. كـل ذلـك أفقده حب وولاء اتباعه له مما جعلهم ينفضون من حوله.

ويبدو أن اثلرد كان يشعر بكل هذه النواحى فأراد أن يقوم بعمـل يحفظ عليه ماء وجهه فقرر فى العام التالى ٩٩٢م تجـهيز جميـع السـفن الراسية على شواطئ نهر التيمس فى لنـدن وحشـدها بالمقـاتلين. لتكمـن للأسطول الدانى فى أماكن مختلفة بطول السواحل الإنجليزيـة لمحاولـة الإيقاع به. وعهد بقيادة هذه العملية لبعض الرجال ممن يثق فيهم أمثال الفريك ايرل انجليـا الشـرقية: إيسـويج Easwig اسـقف دورشيسـتر والفستان Alfestan اسقف لندن[1]. ولكن يبدو أن الغدر والخيانة كانت من خلق الايرل الفريك الذى لم يكن أهلاً لثقة اثلـرد. فقـام هـذا الخـائن بإخبار الدانيين بنبأ هذه التجـهيزات البحريـة ممـا جعلـهم يسـتعدون لها. فما لبثـوا أن قـاموا بحصـار السفن الإنجليزيـة. واندلعـت معركـة بحرية دامية انضـم فيـها الايـرل الفريـك وقواتـه إلى جـانب الدانيـين،

---

(1) The Anglo Saxon Chronicle, p. 213, Roger of wendover, op. cit., t. 1., p. 271, cf. also: Lyon, op. cit., p. 84.

وحارب معهم ضد بنى جلدته[1]. ورغم ذلك فقد ابلى الإنجليز بلاءاً حسناً فى تلك المعركة مما أدى إلى انسحاب السفن الدانية وابتعادها عن ميدان المعركة. وفى مقدمتها سفن الايرل الفريك وقواته فطاردتها سفن قادة الملك اثلرد المخلصين، ونجحوا فى الإيقاع بإحدى السفن الدانية، وقتل جميع بحارتها. كما نجحوا أيضاً فى الاستيلاء على سفينة الايرل الفريك بما فيها من عدة وعتاد حربى. أما الفريك نفسه فقد نجح فى الفرار ولم يعثروا له على أثر[2]. وعندما علم الملك اثلرد بما حدث ثار وانزعج ولكن لم يكن أمامه وسيلة للانتقام من الخائن الفريك سوى أن قبض على ابنه اجلور Aglor وسمل عينيه[3].

وفى عام ٩٩٣م وصل جيش كبير للدانيين إلى الأجزاء الشمالية من الجزيرة البريطانية. وقاموا بعمليات التخريب والسلب والنهب بدءاً من بومبوروت Bomborough حتى مصب نهر هامبر Hamber جنوباً. فأغار على ليندسى Lindsey ونورثمبريا Northumbria وألحقوا بهذه الجهات خسائر فادحة[4]. ولم يستكن الأهالى لهذه الإغارات التخريبية وإنما جمعوا قواهم وحملوا السلاح وخاضوا معارك ضارية ضد القوات الدانية. ولكن النصر لم يحالفهم أمام سرعة ضربات

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 213.

(٢) Roger of wendover, o. cit., t. I, p. 272.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 213; cf. also: Lyon, op. cit., p. 85.

(٤) The Anglo Saxon chronicle, p. 213; Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit.

الدانيين وكثرة عددهم فضلاً عن انسحاب بعض القادة الإنجليز من ميدان القتال لانحدارهم من أصل دانى وانضمامهم إلى بنى جنسهم[1]. ولم يكتف أولئك بذلك بل أخذوا يروجون خبر انسحابهم بين القوات الإنجليزية مما أثر على الروح المعنوية للأهالى والمقاتلين فأدى ذلك إلى هزيمتهم[2].

ولم يكن الهدوء يخيم على أنحاء الجزيرة حتى جاءت حملة بحرية جديدة ومنظمة تتكون من أربع وتسعين سفينة بقيادة كل من سواين ملك الدانمرك وأولاف ملك النرويج. وأغارت على لندن فى الثامن من سبتمبر عام ٩٩٤م. وأخذوا يشعلون النيران فى كل مكان وحاولوا السيطرة على المدينة ولكنهم لم ينجحوا لشدة تحصينها وتفانى الأهالى فى مقاومتهم بشكل لم يعهدوه من قبل عند حصارهم المدن الأخرى. فاضطروا إلى التراجع بحذاء جنوب شرق الساحل[3]. وقبل أن يغادروا المكان حاولوا تدمير الجسر المقام على نهر التيمس الذى يربط بين شفتى النهر فاحضروا حبالاً متينة وربطوا طرفها فى الدعائم الخشبية المقام عليها الجسر، بينما ربطوا الطرف الآخر فى سفنهم وحاولوا بواسطة التجديف الشديد أن يسيرا بسفنهم مع اتجه التيار المائى ليحطموا

---

(١) Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit; cf. also: kapelle, w., The Norman conquest of the North, London, 1979, p. 15.

(٢) Lyon, op. cit., p. 85.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 214, Roger of wendover, op. cit., Loc. Cf. also: corbette, op. cit., p. 38; Mawer, op. cit., p. 324.

الدعامات الخشبية فينهار الجسر ولكن محاولاتهم باءت بالفشل[١]. فأخذوا يشعلون النيران ويدمرون ويقتلون ويسلبون في كل مكان تطأه أقدامهم. فدمروا كنت واسكس ووسكس ساوثمبتون وهامنبشير[٢].

وأمام هذه الفوضى التى ضربت أطنابها فى أنحاء مختلفة من الجزيرة قرر الملك اثلرد ومستشاره من أعضاء مجلس الويتان إرسال سفارة برئاسة الفج Elfeg أسقف ونشستر الدوق اثلوولد Ethelwod إلى الملكين الاسكندنافيين سواين وأولاف يعرض عليهما أن يدفع لهما جزية قدرها ١٦ ألف جنيه وكمية من المؤن والزاد مقابل إحلال السلام وليكفوا عن أعمال العنف والتخريب[٣]. فوافقا دون تردد وقضيا مع جنودهما فصل الشتاء فى ساوثمبتون وتسلما الجزية المقررة ثم تبادل الطرفان الأسرى وعاد الملك سواين وأولاف إلى بلادهما[٤]. ويبدو أن موافقتهما على عقد السلام كان مرجعه القلق الشديد الذى سيطر عليهما بسبب الاضطرابات والفوضى وتوطيد ملكهما والقضاء على الفتن والاضطرابات هناك[٥]. وقبل أن يغادر اولاف البلاد التقى بالملك اثلرد فى اندوفر

---

(١) Bryant, op. cit., p. 16.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 214; Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit; cf also: Eric, op. cit., p. 173; Lyon, op. cit., p. Loc. Cit.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 214, Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit, cf. also: Lyon, op. cit., Loc. Cit.

(٤) The Anglo Saxon chronicle, p. 214.

(٥) Corbette, op. cit., Loc. Cit.

Andover واعتنق المسيحية على يديه. وتعهد به بعدم القتال مع الدانيين ضده مرة أخرى[1]. وفي نفس الوقت عقد معاهدة ثنائية معه[2]. وقد حافظ على وعده ولم يغزو إنجلترا مرة أخرى[3]. وظل الهدوء مخيماً على إرجاء الجزيرة لمدة عامين تمتع الإنجليز خلالها بالراحة والاستقرار وأتيحت الفرصة لهم لتعمير ما تم تخريبه وإقامة الاستحكامات الحربية والتحصينات اللازمة. ولكن ما لبث ان عاد الدانيون من جديد عام ٩٩٧م يشنون هجماتهم الوحشية في ويلز ومقاطعات دورست ودفون، ثم نزلوا براعند ووتشث واتجهوا إلى أقصى الجنوب وداروا حول مصب نهر تامار Tamar وكورنوول. ولم يتركوا مراكبهم مرة أخرى إلا بعد أن جعلوها خراباً وسلبوا كل ما فيها، ثم عادوا إلى مراكبهم مرة أخرى محملين بالغنائم والأسلاب. التى لا يمكن وصفها أو عدها على حد وصف حولية الانجلوسكسون. ثم قضوا فصل الشتاء في كورنوول[4]. ومما سهل للدانيين ارتكاب هذه الأفعال ضعف

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 214, cf. also: campbelle, The Anglo Saxon, p. 199; Eric, op. cit., p. 183.

(٢) اختلف المؤرخون حول تاريخ عقد هذه المعاهدة، فيرى البعض أنها كانت عام ٩٩١ عقب معركة مالدون، بينما يرى البعض الآخر أنها كانت عام ٩٩٤ قبل مغادرة أولاف البلاد ولكل من الرأيين وجاهته.لمزيد من التفصيلات راجع:

Gordon, The date of Ethelred's treaty with the vikings, pp. 24-32.

(٣) Orton, op. cit., p. 395; corbette, op. cit., Loc. Cit.

(٤) The Anglo Saxon chronicle, pp. 214-215. Melrose, op. cit., 104; Roger of Wendover, op. cit., t. I. p. 273.

مقاومة الأهالى، وعدم اكتراث القادة بالمصالح العليا للجزيرة، وانشغالهم بمصالحهم الخاصة[١].

وقد عاد الدانيون فى العام التالى وأغاروا على المنطقة حول مصب نهر فروم Frome ثم هبطوا أرضا وانتشروا فى الأماكن المحيطة به، وأخذوا يدمرون ويخربون ويسلبون دون أن تتمكن القوات الإنجليزية من وقف تقدمهم. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى جزيرة ويت واستقروا بها فترة من الزمن، وكانت الإمدادات التموينية تأتيهم من هامبشير ووسكس[٢].

ولم يلبث الدانيون أن عادوا مرة أخرى فى عام ٩٩٩ للإغارة على أنحاء الجزيرة، فوصلوا إلى مصب نهر التيمس، وأخذوا يتقدمون حتى وصلوا إلى روشستر وحاصروها عدة أيام. وعندئذ وصلت أعداد كبيرة من مقاتلى مدينة كنت لنجدة أهالى المدينة المحاصرة، وخاضوا معركة ضد الغزاة. ولكن كفة الدانيين رجحت فلاذ الإنجليز بالفرار فى النهاية لقلة الإمكانيات وضعف الروح المعنوية فسيطر الدانيون على المنطقة. وقرروا الانتقام من أهالى مدينة كنت فأرسلوا إليه جزءا من جيشهم نجح فى تدمير الجانب الغربى منها[٣]. ولم يقف اثلرد عندئذ ساكنا فجمع مستشاريه وناقشوا تطور الأحداث، استقر الرأى على مواجهة الموقف بشكل حاسم. فأمر الملك الإنجليزى بأعداد القوات البحرية والبرية معا لمواجهة الغزاة. ولكن يبدو أن المقاتلين الإنجليز كانوا

---

(١) Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 215; Melrose, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Idem, Roger of wendover, op. cit., t. I. p. 275.

يفتقرون للجدية والحماسة والرغبة في القتال. فبعد إعداد السفن وحشدها بالمحاربين تسبب مقاتلوا إحدى السفن في تأخيرها عن الخروج عدة أيام ثم غادروها في النهاية مما أدى إلى استياء وتذمر المقاتلين في السفن الأخرى وجعلهم يبرحون سفنهم. فتركت يد الدانيين حرة تعبث بأمن البلاد، وأمعنوا في السلب والنهب والتخريب لضعف واستكانه الانجلوسكسون[1]. أما القوات البرية فقد فشلت بدورها في تحقيق الانتصارات على الدانيين[2]. ولم تسفر الحملة التي أعدها الملك اثلرد عن شيء في الوقت الذي كان يعقد فيه الآمال على هذه الحملة لتحقيق النصر على الدانيين. ولم تؤد إلا إلى إضاعة الأموال وتخريب البلاد ومزيداً من آلام للشعب الإنجليزي.

وعندئذ أدرك الملك اثلرد عجزه عن مقاومة الدانيين فعمل على أن يستميل إلى جانبه أحد القادة الدانيين وهو باليج **Pallig** زوج ابنه الملك سواين. فأغراه بمبلغ كبير من المال ليخون رفاقه[3]. ونجح الملك في هذه الخطوة وأثمرت هذه المحاولة، وظهرت نتائجها في الحملة التي قادها الملك اثلرد بنفسه عام ١٠٠٠م حين اتجه إلى كمبريا **Cumberia** الخاضعة للدانيين وأعمل فيها التخريب والسلب والنهب بمساعدة باليج. ثم كرر نفس الأعمال في المناطق المحيطة بكمبريا في الوقت الذي نجحت فيه مراكبه في الوصول إلى جزيرة مان. وقامت بتخريبها

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 215.

(٢) Roger of wendover, op. t. I, p. 276.

(٣) Corbette, op. cit., Loc. T., orton, op. cit., loc. Cit.

وسلب ما بها من غنائم وخيرات[1]. ولكن لسوء حظ الانجلوسكسون أن هذه الانتصارات لم تستمر مدة طويلة، فلم يأت العام التالى حتى وصل الدانيون فى حماية برية إلى دين Dean (على مقربة من حدود هامبشير). وعندما خرج أهالى هامبشير لملاقاتهم وصد عدوانهم اندلعت معركة شديدة راح ضحيتها ما يقرب من ثمانين مقاتلاً إنجليزيا[2]. وواصل الدانيون انتصاراتهم حتى وصلوا إلى ديفون وحدث عندئذ أن توقف باليج عن خيانته لبنى جنسه وعن وعوده للملك اثلرد رغم كثرة الأموال التى تدفقت عليه من ملك الإنجليز. فجاء باليج على مقدمة سفنه وانضم إلى الدانيين عند ديفون ثم تحركوا منها إلى مصب نهر اكس Exe، وحاولوا أن يستولوا على مدينة اكسترا[3]. دون جدوى بسبب بسالة الأهالى وتفانيهم فى الدفاع عن مدينتهم[4]. فاضطر الدانيون إلى العودة إلى ديفون مرة أخرى. وقاموا بعمليات الحرق والتدمير فى المدن المجاورة. وانتهى الموقف بأن اجتماع أهالى دفون وسومرست ودورست وكونوا جبهة إنجليزية للمقاومة، وخاضوا معركة ضد الدانيين عند بينهوى Pinhoe على أنهم لم يتمكنوا من الصمود فلاذ البعض منهم بالفرار بينما سقط البعض الآخر صريعاً أثر مذبحة كبيرة أقامها لهم الدانيون[5]. ثم واصلوا طريقهم حتى وصلوا جزيرة وست، فلم يجدوا فيها من يعوق تقدمهم

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 215.

(٢) Ibid., p. 216.

(٣) Idem, Melrose, op. cit., p. 105.

(٤) Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 276.

(٥) Idem.

تقدمهم فحققوا انتصارات كبيرة فيها، وفى المناطق الأخرى التى كانوا يمرون عليها[1]. وفى العام التالى اضطر اثلرد أمام شدة الغارات الدانية ان يشترى السلام بناء على نصيحة مستشاريه. فأرسل مندوباً من قبله إلى الدانيين يعلنهم فيه موافقته على ان يدفع لهم مبلغاً من المال مقابل السلام. فتم الاتفاق على أن تكون قيمة الجزية ٢٤ ألف جنيه فضلاً عن كمية هائلة من المؤن والزاد[2].

ورغم ذلك لم تهدأ حد الغارات على الجزيرة البريطانية. فأدرك اثلرد أن الوسائل التى اتبعها لم تنقذ بلاده من الإغارات المتكررة للدانيين. بل راح المغيرون يعيشون فساداً فى الأرض. يقتلون وينهبون ويدمرون كل ما يعترض طريقهم. ولذا فقد رأى أن الأمور لن تستقيم غلا بضربة قاصمة توجه إلى الدانيين تشفى غلة انتقامه، وترفع من الروح المعنوية للمقاتلين الإنجليز. فدبر اثلرد للدانيين مذبحة كبيرة فى عام ١٠٠٢م يوم عيد القديس برايس الموافق ١٣ نوفمبر، قتل فيها كل الدانيين الموجودين فى بلاده[3]. ومن بينهم باليج وزوجته شقيقة الملك

---

(١) The Anglo Saxon chroncile, p. 216.

(٢) Idem, Melrose, op. cit., Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit. Also: Lyon, op. cit., p. 87.

وقد باع الملك اثلرد ارضاً مملوكة له. وتبرع بقيمتها ليستوف المبلغ المطلوب للجزية راجع:

Lawsn, op. cit., p. 725.

(٣) The Abglo Saxon chronicle, p. 217, cf also: corbette, op. cit., p. 382. Clark, R., East Anglia, London, 1960. P. 160, Marten, M., The Ground of british history, London, 1942, p. 43.

سواين[1]. وقد حاول بعض الدانيين الفقراء فى اكسفورد أن ينقذوا أنفسهم من هذه المذبحة فدخلوا كنيسة القديس فريدسويد Frideswide للاحتماء بها فطاردوهم فيها، وكسروا الأبواب واقتحموها عليهم وقتلوهم. وأصيبت الكنيسة بالخراب والدمار وفقدت كثيراً من محتوياتها[2].

وهكذا فإن شهوة الانتقام قد انست اتباع اثلرد حق هؤلاء المسالمين فى الحياة الآمنة الكريمة، وجعلهم ينتهكون حرمة الأماكن المقدسة. فإذا كان الدانيون قاموا من قبل بعمليات التخريب والسلب والنهب فى أنحاء الجزيرة البريطانية فقد جاء ذلك حباً فى السيطرة والنفوذ ورغبة فى توحيد الملكتين (الإنجليزية والدانمركية) تحت تاج واحد فوق رأس سواين. أما تلك الجريمة لبشعة التى اقترفها اثلرد عن عمد فكانت وصمة عار فى جبين الشعب الإنجليزى وكنا نتوقع ان يتصرف بطريقة أكثر تحضراً عما كان يفعله الدانيون.

على أية حال، يبدو ان الملك اثلرد نخوف كثيراً بعد ذلك من انتقام الدانيين فأراد أن يكسب ود رتشارد الثانى دون نورمانديا ليكون عوناً له فى حروبه ضد الدانيين فتزوج اخته إيما للمرة الثانية بعد ان انفصل عنها بسبب الخلافات الزوجية[3].

---

(١) Feiling, op. cit., p. 78, Thatcher, op. cit., p. 199.

(٢) Lyon, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Melrose, op. cit., p. 105; cf. alsoL orton, op. cit., loc. Cit., Thatcher, op. cit., 198, Feiling, op. cit., Loc. Cit., Haskins, ch. The Normans in =European history, New York, 1966, p. 73.

وما لبث سواين ان أرسل عدة حملات إلى انجلترا فى الفترة الممتدة من عام ١٠٠٣م حتى عام ١٠١٣م اتسمت بالقسوة والوحشية انتقاماً لضحايا المذبحة التى قام بها اثلرد من قبل. ففى عام ١٠٠٣م هاجم الدانيون مدينة اكسترا وخربوها عن آخرها بعد أن استولوا على خيراتها.وفى نفس الوقت كانت هناك فرقة أخرى دانية فى حملة برية تهاجم ولتشير Wiltshire ورغم شجاعة أهلها وبسالتهم فى القتال ومؤازرة أهالى هاميشير لهم فقد افتقروا للقيادة الواعية المخلصة. فقد تولى الأيرل الفريك القيادة، ولكنه أظهر الجبن منذ الوهلة الأولى، وأخذ يدعى المرض ليهرب من ميدان القتال، بل تمادى فى أفعاله وأخذ يدخل الرعب والفزع فى قلوب المحاربين معه حتى لاذوا بالفرار[1]. وما أن شعر سواين بسوء موقف الإنجليز وفرار بعضهم حتى اتجه إلى ويلتون Wilton والسبورى وخربهما وأشعل فيهما النيران، ثم عاد إلى سفنه[2]. وفى عام ١٠٠٤م أبحر الأسطول الدانى إلى نورويتش Norwitch، وأغار عليها وأحرقها بعد ان قام الدانيون بعمليات السلب والنهب. وقد أدرك يولفكتيل Ulfctil ايرل انجليا الشرقية ضرورة عقد الصلح مع الدانيين تجنباً لما قد يحدث لمقاطعته من خراب ودمار مثلما حدث لغيرها من قبل ولاسيما انهم وصلوا بالقرب

=وقد سبق أن أوضحنا أن اثلرد قد تزوج من هذه السيدة عام ٩٩٠م فى حياة أبيها رتشارد الأول دوق نورمانديا. راجع ص ٤٣٢ من هذا البحث.

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 217; Melrose, op. cit., Loc. Cit.

(٢) Idem.

من حدود مقاطعته فى وقت حرج لا يسمح له بحشد جنـوده والاستعداد للقتال[1]. وبعد ان تبودلت الرسل بين الطرفين عقد الصلح بينـهما ولكـن لفترة وجيزة لأن سواين لم يحترم وعوده ونقض المعاهدة، وترك أسطوله واتجه براً إلى ثتفورد **Thetford**، وقام بالإغـارة عليـها، وأشعل فيـها النيران فما كان من الايرل يولفكتيل إلا أن أرسل بعـض قواتـه لمحاولـة حرق السفن الدانية الراسية فى ميناء نورويتـش. ولكـن مهمتـهم بـاءت بالفشل. وعندئذ حشد الايرل قواته فى سـرية تامـة وانقض فجـأة علـى القوات الدانية فى ثتفورد ودارت معركة ضاريـة بـين الجـانبين. نجح الإنجليز من خلالها ان يلقنوا الدانيين درساً قاسياً. وكـان النصـر حليفـاً لهـم فـى هـذه المعركـة وذلـك باعـتراف الدانيـين أنفسـهم مـن أنـهم لم يواجهوا مقاومة أعنف مما واجهوها من قبل قوات انجليـا الشـرقية فـى تلك المعركة. ولو اتحد الإنجليز فى سائر الممالك لقضـوا علـى الدانيـين، وحدوا من إغاراتهم ولكـن المعركـة انتـهت لصـالح الدانيـين بعـد أن راح ضحيتها زهرة شباب انجليا الشرقية[2].

ساد الهدوء أنحاء الجزيرة لمدة عامين، لم يشن الدانيون خلالهما هجومهم السنوى المعتاد. ولعل ذلك كان بسـبب المجاعـة القاسـية التـى تعرضت لها البلاد الإنجليزية عام ١٠٠٥م بشكل لم تعرفه من قبل[3].

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 217; cf. also: Clark, op. cit., Loc. Cit.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 217; Melrose, op. cit., Loc. Cit., cf. also: Clark, op. cit., p. 161.

(٣) =Melrose, op. cit., Loc. Cit., Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit.

وفى شهر يوليو عام ١٠٠٦م وصل أسطول دانى إلى ساندوتش وارتكب الدانيون جرائمهم المعتادة، من حرق وتدمير، وقتل ونهب وسلب. ثم اتجهوا إلى كنت ووسكس. ولم يقف اثلرد ساكنا أمام هذه الهجمات، وإنما أمر بحشد المقاتلين من مملكتى وسكس ومرسيا، وأن يضعوا أنفسهم فى خدمة التاج الإنجليزى لمواجهة الدانيين طوال فصل الخريف لكن الوقت مر دون أى اشتباكات. وباقتراب فصل الشتاء تفرق الجيش الإنجليزى، وعادت كل فرقة إلى بلادها كما عادت أيضا البحرية الدانية إلى مكانها فى جزيرة ويت[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادر لم تعلل أحجام الفرقتين عن الاشتباك فى معارك. بينما كانت القوات الإنجليزية على اتم استعداد للقتال طبقا لتعليمات مليكها. فيبدو أن خلافا فى الرأى حدث بين القادة الإنجليز خلال هذه الفترة حال دون الهجوم على أعدائهم. والدليل على ذلك أنه حدث صدام بين القوتين بعد ذلك فى شهر ديسمبر نفس العام على أثر هجمات الدانيين على ولينجفورد Walingford وشولزى Cholsey واشدون Ashdown وكاكهامسلى – بارو -Cuckhamsley Barrow أسفرت المعركة عن هزيمة الإنجليز الذين لاذ بعضهم بالفرار

=جاءت هذه المجاعة لتزيد من ثورة الفلاحين الذين انهكتهم ضريبة "ذهب الدانيين" فكانوا يرون انه لولا هذه الضريبة لتمكنوا من سد حاجاتهم خلال فترة المجاعة، ولتمكنت المملكة من المساهمة فى حل هذه الأزمة. راجع:

Lawsn, op. cit., p. 727.

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 218.

ووقع البعض الآخر ما بين اسرى وجرحى وقتلى. وعاد الدانيون كالعادة إلى سفنهم محملين بالغنائم والأسلاب[١]. بينما رحل الملك سواين إلى الدانمارك تاركا القيادة في يد ثوركل الطويل **Thorkell the tall**[٢].

وما أن حل عام ١٠٠٧ حتى كان الدانيون قد انسابوا فى أنحاء الجزيرة البريطانية لا سيما فى وسكس. ولم يعد شغل الإنجليز إلا كيفية الخلاص من هؤلاء الدانيون وتحصين ما بقى من البلاد والدفاع عنها ضد ما قد يحدث من إغارات جديدة[٣]. ولتحقيق ذلك كان لابد من استتباب الأمن وتوفير الهدوء للبلاد لفترة وجيزة تتوقف فيها العمليات الحربية ويتفرغ اثلرد لجمع شمل الأمة الإنجليزية، ولعمل التجهيزات اللازمة لمواجهة أية اعتداءات أخرى على البلاد. ولذا فقد قرر الملك اثلرد ومجلس الويتان الاتصال بقادة الدانيين لإقرار الصلح فاستجابوا لهم وتسلموا جزية كبيرة مقدارها ٣٦ ألف جنيه فضلا عن المؤن والزاد[٤].

---

(١) Idem.

(٢) Feilling, op. cit., p. 78.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 219.

(٤) Ibid., Melrose, op. cit., p. 106; cf. also: corbette, op. cit., p. 382.

أشار المؤرخ لاوسن أن الملك اثلرد رفع ادريك ايرلا على مرسيا فى بداية عام ١٠٠٧م ونظرا لما كان معروفا عنه من كرهه للقتال وتكاسله فقد كان له دور كبير فى حث وتحريض اثلرد فى هذا العام على عدم واصلة القتال ضد الدانيين وطلب السلام منهم ويربط هذا المؤرخ بين واقعة الترقية وشخصية هذا الايرل من ناحية، وبين دفع جزية عام ١٠٠٧م إلى الدانيين من ناحية أخرى. فعندما شعل أدريك منصبة الجديد اصبح يتمتع بسلطة كبيرة خولته=

ويبدو أن هذا الصلح الذى تقرر بين الطرفين واستمر عامين كاملين أفاد الإنجليز إلى حد كبير فى إعداد وتنظيم قوة بحرية هائلة للدفاع عن البلاد. فأصدر ملكهم أوامره عام ١٠٠٨م فى أنحاء المملكة ببناء سفن مزودة بالعتاد الحربى ووسائل الدفاع المختلفة تتسع كل سفينة لثلاثمائة مقاتل(١). ولما تم إعداد ذلك الأسطول تجمع عام ١٠٠٩م فى ساندوتش لاتخاذها مركزا بحريا تنطلق منه القطع البحرية لحماية المقاطعات المحيطة من اى غزو دانى جديد(٢). ولكن حدث نزاع بين اثنين من قادة الأسطول الإنجليزى هما بريتريك Bryhtric أخى الايرل ادريك حاكم مرسيان وولفنوث Wulfnoth أحد وجهاء سسكس. ونتج

=حق الضغط على الأعالى لكى يدفعوا ما عليهم من ضريبة "ذهب الدانيين" وكان هو المستفيد فى كل مرة تدفع فيها الجزية إلى الدانيين، إذ كان يجنى من وراء ذلك دخلا ماليا كبيرا لأنه كان يستغل عجز الأهالى عن دفع الضريبة ويشترى منهم أراضيهم بثمن بخس حتى يستطيعوا سداد هذه الضريبة من ثمن ما باعوه له من أرض. ثم يقوم هو بدوره ببيع هذه الأراضى بسعر مرتفع، ولكى يظهر نفسه أمام الملك بمظهر الوطنى المخلص يقوم بدفع نصيب مضاعف من هذه الضريبة معتمدا على ما كسبه من فرق سعر بيع الأراضى التى باعها وهذا يفسر تأييده التام والدائم لدفع الجزية وشراء السلام من الدانيين، وعدم مواصلة القتال ضدهم. راجع:

Lawsn, op. cit., p. 733.

(١) The Anglo axon chronicle, p. 219; Melrose, op. cit., Loc. Cit; Roger of Wendover, op. cit., t. l. p. 277.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 219.

عـن هـذا أن خـرج وولفنـوث علـى رأس عشـرين سـفينـة وقـام بعمليــات تخريب وسلب ونهب فى كـل مكـان بحـذاء السـاحل الجنوبـى. ثـم قـام بريتريك ثمانين سفينة بهدف مطاردته والقبض عليه حيا أو ميتا. ولكن الرياح الشديدة التى هبت فى ذلك الوقت حطمت مراكب كل من القائدين وألقيت بهما على الساحل. اما البقية فقد أشعل فيها وولفنوث النـيران، واضطر المقاتلون فيها إلى الاتجاه إلى لندن[1].

وهكذا ضاعت الجهود التى بذلها اثلرد فى تشييد هـذا الأسـطول بسبب الأحقاد والصراع بين هذين القائدين دون النظر إلى المصلحة العامة للبلاد ممـا سـاعد علـى سـقوطها فـى نهايـة الأمـر علـى أيـدى أعدائـها الدانيين وفق ما سوف يتضح فى صفحات البحث.

على أية حال، شاءت الأقدار فى ذلك الوقت أن يصل حشد كبـير مـن المقـاتلين الدانيـين فـى أغســطس ١٠٠٩م إلى ســاندوتش ومنــها إلى كانتربرى وفى نفس الوقت وصل أيضا أطول كبير تــابع لهـم إلى جزيـرة ثـانث **Thant** مـع عـدد لا يحـصى مـن المحـاربين الدانيـين ومنــها إلى كانتربرى وضيقوا عليا الخناق حتى استسلم أهلـها. فـاضطر الأهـالى فـى شرق كنت إلى عقد صلح مع الدانيين منحوهم بمقتضاه جزية قدرها ثلاثة آلاف جنيه[2]. وقد غادر الدانيون بعد ذلك المكـان ووصلـوا مركزهـم فـى

---

(١) **Idem.**

(٢) **Ibid., p. 220, Melrose, op. cit., Loc. Cit.**

وكان الملك اثلرد قد أمر الكنائس أن تجمع بنسـا واحـدا عـن كـل مقيـاس أرض محددة للمساعدة فى سداد هذه الجزية. راجع: =

جزيرة ويت، وأخذوا يقومون من هنـاك بعمليـات تخريـب وتدمـير فـي وسكس وهامبشير[1]. وعندئذ أصدر الملك اثلرد تعليماته باستدعاء شباب الأمة الإنجليزية فى جميع أنحاء إنجلترا لمواجهة غارات الدانيـين فـى كل مكان برا وبحرا[2]. وفى نفس الوقـت أصـدر مـن بـاث Bath إعلانـا عاما موجها إلى الشعب الإنجليزى يتوسل فيـه إلى الله أن يمنحـه النصـر على أعدائه قائلا : "يجب علينـا أن نعمـل بحمـاس شـديد لنحصـل علـى رضاء الله ومساعدته ضد عدونا.

ويجب على كل أفراد الأمة الإنجليزية أن يسارعوا بتقديم التوبة التامة إلى الله، وكفارة عما ارتكبـوه مـن ذنـوب لمدة ثلاثـة أيـام متتاليـة يعيشون خلالها على الخبز والمياه والأعشاب، ويجب أيضا على كل فـرد أن يأتى إلى الكنيسة حافى القدمين دون أ يتزين بالذهب أو الحلى ليقـدم اعترافاته على أن تتعالى أصواتكم فـى مناجـاة المسيح طـوال طريقكـم إلى الكنيسة بحماس شديد يخرج من أعماقكم. كمـا يجـب علـى كـل فـرد أن يقدم بنسا واحدا أو مـا يوازيـه إلى الكنيسـة لتوزيـع هـذه الهبـات علـى الفقراء والمساكين ويعاقب أى فرد يعارض ذلك. كما يجب على السـادة أن يعفوا عبيدهم عن العمل خلال هذه الأيـام الثلاثـة ليكـون لديـهم الوقـت الكافى للذهاب إلى الكنيسة والصوم. وعلى الجميـع ان ينشـدوا الأناشـيد

= Lawsn, op. cit., p. 726.

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 220.

(٢) Idem.

الدينية خلال هذه المدة. أما القساوسة فعليهم مهمـة بث الحماسـة فـى نفوس المقاتلين وتشجيعهم"[1].

ويبدو أن هذه الكلمات لم يكن لها دوى فى نفوس الإنجليز، فلـم يظهر لها أثر فى الفترة التالية. وظل الإنجليز عاجزين عـن كبـح جمـاح الدانيـين ووقـف إغاراتـهم المستمرة علـى أنحـاء مختلفـة مـن الجزيـرة البريطانيـة مـن وقـت لآخـر. فقـد تمكـن الدانيـون فـى عـام ١٠١٠م مـن السيطرة على انجيليا الشرقية على أثر مـا قـاموا بـه مـن أعمـال العنـف والتخريب والسلب والنهب على مدى ثلاثة أشهر. ثم اتجهوا جنوبا إلى وادى نـهر التيمـس، ومنـه إلى اكسـفورد ثـم إلى باكنجـهام وبدفـورد. وأخيرا عادوا إلى سـفنهم محملـين بمـا سـلبوه مـن أهـالى هـذه البـلاد[2]. وهكذا عانت الأقاليم الداخلية أيضا معاناة شديدة لم تشهدها من قبل. إذ تركزت غارات الدانيين قبـل ذلـك علـى السـواحل وعلـى الجـزر وقـرب مصبات الأنهار ولكن المدن أصبحت من ذلك الوقت معرضة للأخطار. ولم ينهض سكانها للدفاع عنها أو بذل الجـهد لمساعدة المـدن الأخـرى. بـل نادى البعـض بعقـد السـلام مـع الدانيـين مقـابل الشـروط التـى يفرضـها الدانيون[3]. وقد شجع ذلك الدانيون على تكرار هجماتهم وإحداث مزيـد من الآلام لسكان البـلاد. فقـد وصلـوا إلى نورثمبتـون ومنـها عـبروا نـهر

---

(١) Ethelred, King, Etthelred's Edict. Cf. E.H.D., t. l, pp. 109-110.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, pp. 220-221; Roger of Wendover, op. cit., t. l, p. 278; cf. also: clark, op. cit., p. 161.

(٣) Corbette, op. cit., Loc. Cit.

التيمس إلى وسكس وكانينج Caning واستولوا على هذه الأخيرة وعادوا إلى سفنهم مرة أخرى مع اقتراب اعياد الميلاد(1). ولكن الأحوال تقـاقمت سوءا بين الجانبين مع حلول عام ١٠١١م عندما فرض الدانيـون الحصـار على مقاطعة كانتربرى ونجحوا فـى اقتحامـها وإشـعال النـيران فيـها، وأعملوا السيف فى كل من يقابلهم من ساء وشيوخ وأطفال. ثم قبضوا على الفيج رئيس أساقفة المدينة وذلك بالاتفاق غدرا مع المـار Almar رئيـس الشمامسة(2). وتعرض الفيج إلى أشد ألوان التعذيـب، إذ كبلوه بـالأغلال وأصابوه بالجراح وظل على هذا الحال سبعة أشهر. ورغم ما كان يتعرض له رفـض ان يدفـع للدانـين الفديـة التـى طلبوهـا ومقدارهـا ثلاث آلاف جنيه. فأخرجوه من السجن. وأخذوا يسحبونه على الأرض ثم قتلوه فـى النهاية بضربة فأس على رأسه(3).

لذلك كله لم يتردد الملك اثلرد وأعضاء مجلـس الويتـــان فـــى أن يعرضوا على الدانيين جزية كبيرة تزيد عما دفعـوه لهـم فـى كـل مـرة، ومقدارها ٤٨ الف جنيه مقابل السلام وتحقيق الأمـن والطمأنينـة فوافـق الدانيون، وأقسم الطرفان على احترام هذا الاتفاق الذى جـرى عقـده عـام ١٠١٢م(4). وبعـد أن تسلم الداينـون الجزيـة عـادت بعــض قواتـــهم إلى

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 221.

(٢) Melrose, op. cit., Loc. Cit., Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 278; cf also: Lyon, op. cit., p. 88.

(٣) Melrose, op. cit., Loc. Cit; Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 279.

(٤) Idem.

الدانمارك، بينما بقى الجزء الآخر تحت قيادة ثوروكول ومعه خمس وأربعون سفينة[1].

وفى شهر يوليو من العام التالى وصل الملك سواين من الدانمارك إلى السواحل الإنجليزية بعد غياب استغرق سبع سنوات، انشغل خلالها بتوطيد دعائم ملكه فى بلاده[2]. وكان وصوله إلى ساندوتش ومنها إلى مصب هامبر Humber، ثم ذهب إلى ترنت Trent وأبحر حتى وصل إلى جينزبوروت Gainsborough فاتخذها مركزا لعملياته الحربية[3]. وعندئذ خضع له آهترد Uhtred ايرل يورك وأهالى نورثمبريا ولندسى Lindsey وجميع السكان المقيمين شمال خط واتلينج ستريت Watling street وبعد أن تأكد سواين من خضوع أهالى هذه البلاد ألقى على عاتق ابنه كانوت بمسئولية حمايتها والحفاظ على الأسطول الدانى. والتحفظ على جميع الأسرى الانجلوسكسون والذين وقعوا فى قبضته خلال بعض المعارك. ثم اتجه سواين جنوبا لاستكمال سيطرته على باقى البلاد - وكانت تعليماته لجنوده تقضى بتخريب الحقول وحرق المدن وقطع الأشجار واقتحام الكنائس وأعمال السيف فى كل من يقف فى طريقهم من الرجال دون النساء لأنه يبدو أراد المحافظة على حياة النساء

---

(١) Corbette, op. cit., p. 383.

(٢) Feiling, op. cit., p. 78.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 223, Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 283; cf. also: Lyon, op. cit., Loc. Cit., Brook, The Saxon and the Norman, Kings, p. 132.

للترفيه عن جنوده. وظلوا على هذا الحال حتى استولوا على اكسفورد واخضع سكاها. ومنها اتجه إلى ونشستر فاستولى عليها، ثم واصل طريقه بعد ذلك إلى لندن[1]. وكان الملك اثلرد مقيما بها. فاتبع سواين كل وسائل العنف في حصار المدينة ولكن دون جدوى لشدة تحصينها من ناحية، وبسالة أهلها من ناحية أخرى. حتى يئس الملك الدانى من الاستيلاء عليها وانسحب إلى وولنجفورد **Walingford** ومنها إلى باث محطما فى طريقة كل ما يواجهه. وأثناء وجوده فى باث حيث أعاد تنظيم صفوفه وجدد نشاط قواته جاءه المار ايرل دفون وكل نبلاء الجزء الغربى من المملكة الإنجليزية يعلنون له فروض الولاء والطاعة خوفا من طغيانه[2].

وقد أحدثت هذه الإغارات هلعا شديدا للملك اثلرد، فضلا عما كان يعانيه من تأنيب الضمير بسبب اشتراكه فى مقتل أخيه ادوارد الأمر الذى جعله يقتنع ان ما أحدثه الدانيون من خراب ودمار ما هو إلا انتقام من السماء. كما كان يساوره الشك فى إخلاص وولاء اتباعه. ولذا قرر الانسحاب سرا من لندن إلى ساوثمبتون عابرا جزيرة ويت، ومنها إلى نورمانديا التى كان قد أرسل زوجته ايما وأولاده إليها من قبل لينعموا بحماية صهره رتشارد دوق نورمانديا[3]. أما بالنسبة لمدينة

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 223; Roger of Wendover, op. cit., Loc. Cit., cf. also: corbette, op. cit., Loc. Cit; Brook, cit., p. 133.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 223, Roger of Wendover, op. cit., Loc. Cit., cf. also: Lyon, op. cit., p. 88, Brook, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Idem., Campbell, op. cit., p. 99; Robert, op. cit., p. 20.

لندن المحاصرة من كل جانب فلم يصمد أهلها طويلا بل استسلموا للدانيين ودخلت قوات الملك سواين فاستولت عليها(1). وأصبحت بذلك معظم مدن الجزيرة البريطانية خاضعة للنفوذ الدانى، وتم الاعتراف بسواين ملكا عليها، ولكن لم يطل به العمر ليتمتع بثمرة جهوده فقد وافته المنية فى فبراير عام ١٠١٤م قبل ان يتوج ملكا على انجلترا(2). فاختار الدانيون عندئذ ابنه كانوت ليكون ملكا عليهم فى كل من إنجلترا والدانمارك(3). وكان على هذا الملك الجديد بعد ان ضمن سيطرته على إنجلترا أن يوطد نفوذه أيضا فى الدانمارك. ولذا فكر فى مغادرة إنجلترا إلى بلاده لفترة وجيزة يعود بعدها مرة أخرى إلى إنجلترا(4).

وفى غمرة هذه الأحداث استدعى مجلس الويتان والشعب الإنجليزى الملك اثلرد ليعود إلى انجلترا من جديد فرحب بذلك اثلرد كثيرا وأرسل إليه ابنه ادوارد ليعلن أنه سوف يكون عند حسن ظنهم، وأنه سوف يعفو عن كل من خذله بشرط ان تظل الأمة الإنجليزية جميعها على إخلاصها وولائها له(5). وحضر اثلرد إلى انجلترا فى ربيع

---

(1) The Anglo Saxon chronicle, p. 223; cf. also; corbette, op. cit., Loc. Cit.

(2) Corbette, op. cit., p. 384.

(3) Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 285.

(4) Orton, op. cit., p. 96.

(5) The Anglo Saxon chronicle, p. 224; Roger of Wendover, op. cit. T. I, p. 285; cf. also: campbell, op. cit., Loc. Cit; Lyon, op. cit., Loc. Cit.

عام ١٠١٥م فاستقبل من الأهالى بفرح كبير ووقفت القوات الإنجليزية فى انتظاره مبدية الاستعداد للقاء الأعداء فتحرك الملك اثلرد سريعا وفاجأ كانوت فى مدينة لندسى وانقض على الدانيين فى ضراوة شديدة حتى هرب كانوت من ساحة القتال على الدانيين فى ضراوة شديدة حتى هرب كانوت من ساحة القتال إلى ساندوتش ومعه الأسرى الانجلوسكسون حيث قرر الانتقام منهم بقطع ايديهم وآذانهم وجدع أنوفهم ثم رحل إلى بلاده ليعد قواته من جديد[1]. ويبدو لى أن كانوت لم يحسن اختيار التوقيت المناسب للعودة إلى بلاده. فقد كان الحكم الدانى لإنجلترا ما يزال فى بدايته. ولم تستقر الأمور. وكانت الفوضى ضاربة أطنابها فى البلاد والأهالى منقسمين على أنفسهم. فالبعض يؤيده كملك لإنجلترا. بينما البعض الآخر راح يستدعى اثلرد من نورمانديا ليتحالف معه على الود والولاء والطاعة من اجل طرد الدانيين من البلاد. وفضلا عن هذا وذاك كان الهجوم المفاجئ على ليندسى من قبل قوات اثلرد ثم انتصار الإنجليز على كانوت يمثل خطرا على النفوذ الدانى فى الجزيرة البريطانية. وأثبتت الأحداث التالية ذلك عندما أحرزت القوات الإنجليزية انتصارات عديدة على الدانيين فى إنجلترا واستردت مدينة لندن مرة أخرى من أيدى الدانيين. ولكن يبدو أن صغر سن مانوت الذى لم يتجاوز عندئذ الثامنة عشر من عمره، فضلا عن عدم خبرته كان السبب فى كل ما جرى.

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 224; Roger of Wendover, t. I, p. 286; cf. also: Lyon, op. cit., p. 90.

ومهما كان الأمر، فقد أبحر كانوت عائدا إلى الدانمارك ومعه معظم الأسطول الدانى. فانتهز اثلرد فرصة قلة عدد حامية مدينة لندن وضعفها وقام بمحاولة استردادها. وكان فى خدمته عندئذ اولاف هارالدسون Olaf Haraldson أحد القديسين النرويج، وكان يبلغ من العمر تسعة عشر عاما، وكان محبا للمغامرة ولديه الرغبة الملحة فى ان يقاتل مع الإنجليز ضد الدانيين. وعندما وصلت قوات اثلرد إلى لندن فرضت عليها الحصار برا وبحرا وتطوع اولاف لتنفيذ عملية تحتاج إلى شجاعة وبراعة لتحطيم الجسر الواصل بين ضفتى نهر التيمس. فقام بلف حبال متينة حول الأسقف الخشبية المرتكزة على أعمدة الجسر. ثم ثبت الطرف الآخر من هذه الحبال فى مقدمة عدد من السفن. وعن طريق التجديف الشديد فى اتجاه التيار، وتكرار هذه العملية ست مرات نجح الإنجليز فى زحزحة بعض أعمدة الجسر وهدمها مما سبب فصل الجسر وتصدعه. فإنهارت مقاومة الدانيين وسيطر الإنجليز على لندن مرة أخرى[1]. واستقر اثلرد فيها. بينما أسند إلى ابنه ادموند الحديدى Edmund the iron side قيادة الجيوش فى سائر أنحاء البلاد. فنجح هذا فى إعادة نفوذ اثلرد مرة أخرى فى كثير من الجهات، وعقد تحالفا مع نورثمبريا[2]. وفى أوائل عام ١٠١٦م عاد كانوت إلى الدانمارك على

---

(١) Trease, op. cit., p. 23.

(٢) Campbell, op. cit., Loc. Cit.

وكان ادموند ابنا لاثلرد من زوجة أخرى غير إيما. وقد اطلق عليه لقب "الحديدى" نسبة إلى قوته البدنية والعقلية. راجع: =

رأس أربعين سفينة إلى ساندوتش، ودار حول كنت حتى وصل إلى مصب نهر فروم، مخربا كل ما يواجهه وقام بأعمال السلب والنهب دون أن يعترض اثلرد طريقة بسبب ملازمته الفراش أثر الإصابة بمرض عضال، فترك لابنه ادموند مسئولية إدارة شئون الملكة[1]. وعندئذ جمع ادموند وادريك ايرل مرسيا جيشا كبيرا وسارا معا لملاقاة الدانيين عند ولتشير Wiltshire ونظرا لأن ادريك من طبعه الغدر والخيانة فقد حاول ان يكيد لادموند ويوقع به ولكن ادموند اكتشف المؤامرة في الوقت المناسب وانسحب من ساحة القتال مع قوة صغيرة[2]. ولم يكن أمام الايرل ادريك بعد أن اكتشف أمره إلا أن يتوجه إلى كانوت يعرض عليه خدماته ويعلن له خضوعه. فقام بتقديم بعض من الرهائن إليه وقام بتزويد جيشه بالمؤن والأسلحة والخيول[3]. أما أهالي مرسيا فكان موقفهم مخالفا لما قام حاكمهم فأصبحوا يظهرون له العداء ويصرون على مقاومة الدانيين[4]. ولذلك فقد اتفق كل من كانوت وادريك على قيادة جيش واحد للقيام بغزو مرسيا. وأشعلوا النيران في كل من واجههم من مدن وقرى، فضلا

= Roger of Wendover, op. cit., Loc. Cit.

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 225; Melrose, op. cit., p. 107.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 225; Melrose, op. cit., y. I, p. 287; cf. also: corbette, op. cit., p. 384.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 225; Roger of Wendover, op. cit., Loc. Cit.

(٤) Roger of Wendover, op. cit., Loc. Cit.

عما اقترفوه من السلب والنهب. وأخيرا تقدموا نحو مدينة لندن وفرضوا الحصار عليها[1]. وكان ادموند فى ذلك الوقت قد أعلن التعبئة العامة، وطلب ان ينضم إلى صفوفه الأفراد الأقوياء القادرين على حمل السلاح. وتطوع العديد من الأفراد لتلبية النداء. غير انه نمى إلى علم ادموند ان بعض أولئك المتطوعين غنما يدبرون الغدر فسارع بالتخلى عنهم وتحرك بجيشه الأصلى تجاه لندن لانقاذها من أيدى المحاصرين[2]. وعندما علم كانوت بقرب وصول جيش ادموند إلى المدينة فك الحصار عنها وعاد مع قواته إلى مرسيا لاستكمال غزوها، ثم اتجه إلى نورثمبريا ومنها إلى الجنوب، وعاد أول إبريل عام ١٠١٦م إلى سفنه محملا بما اغتنمه طوال جولاته السابقة[3]. وفى يوم الثالث والعشرين من شهر إبريل من نفس العام لفظ اثلرد أنفاسه الأخيرة فاضطربت أحوال الإنجليز، وعمت الفوضى البلاد، واجتمع معظم أفراد مجلس الويتان فى ساوثمبتون وقرروا اختيار كانوت ملكا عليهم وقدموا له الولاء والطاعة تحقيقا للسلام. وأيدهم فى ذلك رجال الدين والعلمانيين[4]. أما القلة المتبقية من أعضاء مجلس الويتان وأهالى مدينة لندن ونبلائها فقد كانوا يؤيدون أدموند مطالبين بتتويجه ملكا للبلاد لما لمسوه من حماسته الشديدة للقتال

---

(١) Idem.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 225.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., Loc. Cit.

(٤) Ibid., pp. 287-288; Melrose, op. cit., p. 107; cf. also: Trease, op. cit., Loc. Cit.

ولكفائته العالية فى قيادة الجيوش فضلا عن إصراره الشديد فى طرد الدانيين من البلاد(١). ولم يحف ادموند كثيرا بأولئك الذين كانوا يؤيدون كانوت، وقاد جيشه متوجها إلى وسكس فتغلب على حاميتها وأخضع المقاطعة لسلطانه(٢). وكان كانوت حينئذ محاصرا لمدينة لندن، وعندما بلغة نبأ انتصارات ادموند فى وسكس اضطر إلى أن يخرج على رأس قواته لملاقاته فى وسكس، بينما استمر جانب من جيشه فى حصار مدينة لندن. وقد التقى الطرفان فى مكان يسمى بنسل وود Pensel wood على حدود سومرست ودورست. وقامت معركة ضارية نجح خلالها ادموند ان يكبد الدانيين خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد(٣). ثم التقى الجيشان مرة أخرى فى معركة أشد ضراوة من الأولى عند وركستر Worcester راح ضحيتها عدد كبير من الجانبين كان النصر النهائى فى هذه المعركة فى جانب ادموند(٤).

ويبدو أن هاتين المعركتين كان لهما تأثير واضح وحاسم فى مجريات الأمور. فقد رفع الروح المعنوية للإنجليز وأدى إلى زيادة الحماسة عندهم. مما شجع ادموند على أن يخوض حربا أخرى ضد قوات كانوت حقق فيها انتصاراص رائعا. فالتقت القوات هذه المرة عند

---

(١) The Anglo saxon chronicle, p. 226; Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 288; cf. also: corbette, op. cit., p. 385; Orton, op. cit., p. 396.

(٢) Idem.

(٣) Idem.

(٤) Idem.

برودفورد Brodford فى الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ١٠١٦م، وأخذ ادموند يحث جنوده قبل بدء المعركة على الثبات والصبر ويذكرهم بمصائر نسائهم وأولادهم وميراثهم. وأمر بدق طبول الحرب، فبدأت قواته تتقدم للأمام وهو يقاتل فى الصف الأول والتحم الفريقان فى معركة شرسة. ورغم أن القوات الإنجليزية تخاذلت بعض الشيء فى اليوم الأول إلا أن ذلك لم يؤثر كثيرا على سير المعركة إذ نجح ادموند فى إلحاق الهزيمة بالدانيين فى مواضع مختلفة على الرغم من أن الدانيين التجأوا إلى المكر والدهاء لإدخال الفزع فى قلوب الإنجليز فاحضروا رأس أحد القتلى الإنجليز وأخذوا يلوحون بها منادين بصوت مرتفع "أنه لمن الباطل ايها الإنجليزى أن تفرط فى رأسك، بل عليك ان تسرع فى الهرب.. ها هى رأس الملك ادموند امسكها بيدى"[1]. وعندما سمع المقاتلون الإنجليز تلك النداءات انتابهم الهلع، واهتزوا حزنا على مليكهم. غير أنهم حاولوا معرفة الحقيقة فاتضح لهم كذب الاعداء، وأن ادموند ما زال على قيد الحياة فزادهم ذلك حماسة وشجاعة واستمروا يقاتلون بقسوة وعنف فقتلوا عددا كبيرا من الدانيين. وعند حلول الظلام توقف القتال، فانتهز كانوت ورجاله هذه الفرصة وانسحبوا سرا قبل بزوغ فجر اليوم التالى وأخذوا طريقهم ناحية لندن وفرضوا الحصار عليها. وعندما علم ادموند بما حدث عاد على راس قواته إلى وسكس ليعيد تنظيم صفوفه من جديد واستعدوا

---

(١) Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 289.

لجولة رابعة ضد الدانيين[1].

أما قوات كانوت المحاصرة للندن فقد فشلت من تحقيق اى انتصار بسبب شدة تحصينها ومقاومة حاميتها. ولذا انسحبوا مع أسطولهم إلى مصب نهر أورويل **Orowell** بحثا عن الامدادات ثم تجمعوا فى جزيرة شيبى **Sheppey** غير أن ادموند لحق بهم بجيش كبير واشتبك معهم فى معركة عنيفة وأنزل بهم هزيمة ساحقة[2]. فانسحب كانوت بأسطوله إلى نهر كروش **Crush** وترك سفنه على إحدى ضفتيه وتقدم هو بجيشه فغزا مرسيا الشمالية[3].

ومما تجدر الإشارة إليه أن أرملة اثلرد الملكة إيما التى كانت موجودة مع أبنائها فى لندن أثناء حصار الدانيين لها أرسلت للدانيين رسلها لطلب السلام، عندما ضاق الخناق على الأهالى المحاصرين فوافقوا على فك الحصار والتراجع عن المدينة بشرط أن تدفع لهم ١٥ ألف جنيه فدية عن أولادها ونفسها. فضلا عن اثنا عشر ألفا آخرين فدية عن الأساقفة ورجال الدين الموجودين بالمدينة بجانب الإفراج عن ثلاثمائة من أسراهم. فاضطرت الملكة أمام شدة الحصار وجدية تهديدات الدانيين أن ترضخ لطلباتهم[4].

---

(١) **Idem. the Anglo Saxon chronicle, p. 226.**

(٢) **The Anglo Saxon chronicle, pp. 226-227.**

(٣) **Burne, op. cit., p. 75.**

(٤) **Thietmar of Merebury, the chronicle of Thietmar of Mersebury, cf. E.H.D., t. l, London, 1968, pp. 318-321, p. 320.**

مهما كان الأمر، نجح ادموند فـي إحـراز عـدد مـن الانتصـارات المتتالية على الدانيين فى فترة قصيرة لم يتمكن غيره من القادة الإنجليز من قبل تحقيقها فى سنوات طويلة. ولعل السبب فى ذلـك يرجـع إلى مـا حدث من وحدة الصف وحسن القيادة. والحماة المتزايدة للمقـاتلين فضـلا عن حبهم وإخلاصهم وولائهم لمليكهم، ونبذ الخـداع والغـدر الـذى كـان سمة من سمات العهد السابق أيام حكم الملـك اثلـرد. كمـا كـان لشـخصية ادموند أثر كبير فى رفع الروح المعنوية للشعب الإنجليزى.

على أية حال، فبعد هذه الهزائم المريرة التى منى بـها الدانيـون اتفق ادريك – ايرل – مرسيا – مع الملك كانوت على الالتجاء إلى الحيلـة والدهاء مع ادموند لكسب الجولة الخيرة فى المعركة. فاتجــه ادريـك إلى ادموند فى دهاء وخبـث وأخـذ يسـتعطفه ويطلـب منـه العفـو والسـماح، وأقسم له على الــولاء والطاعـة. فصـدق ادمونـد ووثـق بـه. فوضـع بذلـك مسمارا فى نعشه، وتسبب فى زوال الحكم الانجلوسكسونى من الجزيرة البريطانية بعد أن امتد أكثر من أربعة قرون من الزمان[1].

واتجـه كـانوت علـى رأس قواتـه، فعسـكر عنـد تـل كــانيودون Canewdon، بينمـا القـوات الانجلوسكسـونية تطـارده بسـرعة حتــى وصلت عشية يوم ١٧ أكتوبر من نفس العــام (١٠١٦م) إلى تـل اشـنجدون Ashingdon[2]. وهو يبعد ثلاثة آلاف ياردة من كانيودون. وأخذ كل

---

(١) Roger of wendover, op. cit., Loc. Cit., cf. also: Marten, op. cit., p. 44; Corbette, op. cit., Loc. Cit.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 227.

من القائدين يتحرش بالآخر مترقبا بزوغ فجر اليوم التالى لبدء المعركة[1].

وكان ادموند قد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، فمنح قيادة جيش مرسيا وهو القسم الغربى من الجيش لأدريك ايرل مرسيا بالإضافة إلى اشتراكه مع ادموند فى القيادة العامة للجيش. ولكى يطيب خاطره ويثبت له ثقته وإخلاصه منحه شرف تبوء مركز اليمين فى قيادة الجيش حتى لا يفكر فى العودة إلى الخيانة[2]. وفى الصباح اندفع ادموند على رأس فرقته أسفل تل اشنجدون وساعد على ذلك وجود انحدار فى الأرض تساعده على الاندفاع. وبالتالى أصبح هناك فارق كبير فى المسافة والزمن بين قسمى الجيش الإنجليزى وأدرك ادموند خطورة ادريك. وتوقع منه الغدر وفكر فى إعفائه من القيادة ولكنه أيقن ان ذلك يربك الجيش ويقلل حماسة الجند. وانشغل ادموند بعد ذلك بمواصلة التقدم للقاء الدانيين. أما ادريك فقد تعمد فعلا التباطؤ فى اللحاق بالملك

وهناك اختلاف حول هذا الاسم فى المصادر اللاتينية، فتذكره حولة اشنجدون، بينما يطلق عليه كل من وليم أوف مالمسبورى وروجر أوف وندروفر وروجر ألوف هوفدن وفلورنس أوف وركستر اسندم Assendum. هذا فى الوقت الذى يطلق عليه بعض المؤرخين المحدثين اسم اشدون. لمزيد من التفصيلات راجع:

Burne, op. cit., pp. 77-78.

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 227.

(٢) Burne, op. cit., p. 73.

ادموند. وتوقف فى هايدوود يراقب المعركة من بعيد. وأصبح بالتالى جناح الملك ادموند مكشوفا يواجه ضربات الجيش الدانى. واستمرت المعركة من الساعة التاسعة صباحا حتى وقت الغروب[1]. وعندما حل الظلام أصبح لدى الطرفين الوقت الكافى لتنظيم الصفوف. ويبدو أن ادموند كان قد شعر بقوة ضربات الدانيين، ومغبة اشتراك ادريك معه بما عرف عنه من خيانة فتقهقر إلى جلوسستر لتنظيم جيشه[2] فلحق به كانوت على رأس قواته عند مكان اسمه دير هارست **Deerhurst** وكان نهر سفرن **Severn** يفصل بين القوتين المتحاربتين. فكان ادموند ورفاقه يعسكرون على الضفة الغربية للنهر، بينما كان الدانيون يقيمون على الضفة الشرقية للنهر. وأثناء استعداد الطرفين لخوض معركة فاصلة التقى ادريك بالنبلاء والرؤساء من الطرفين المتحاربين وتحدث إليهم بضرورة العمل على الحد من أطماع كل من ادموند وكانوت جميعا حفاظا على أرواح آلاف الجنود الذين يروحون ضحية أطماع الملوك. واقترح عليهم الموافقة على أن يتقاتل الملكان بمفردهما على أن يصبح الولاء والطاعة للمنتصر منهما[3].

وليس من المستبعد أن يكون هذا التصرف من جانب ادريك نابعا من اتفاق مسبق مع كانوت ومتمما للخطة التى اتفقا عليها من قبل فى

---

(١) Ibid., p. 74.

انظر كذلك الخريطة رقم (٢) من هذا البحث.

(٢) The Anglo Saxon chronicle, p. 227; cf. also: Burne, op. cit., p. 75.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 290.

استعمال الحيلة والدهاء مع ادموند لكسب الجولة الأخيرة من المعارك بين الطرفين، وفق ما أوضحنا، ولاسيما بعد أن انكشفت خيانته وتأكدت أمام ادموند عند تل أشدون. ويكون ادريك قد التجأ إلى كسب تأييد المقاتلين من كلا الجانبين بمجرد أن تأكد من تفوق القوات الإنجليزية على الدانيين ورجحان كفتها.

مهما كان الأمر، يبدو أن اقتراح ادريك قد وجد قبولا من الجميع، فبدؤوا يوالون اتصالاتهم بالملكين حتى وافقا على أن يلتقيا في جزيرة الني Alny الواقعة في منتصف نهر سفرن[1]. فارتدى الملكان ملابس القتال وعبر كل منهما النهر حتى وصلا إلى ساحة القتال. وبدأت المباراة بينهما، فتقاتلا ببراعة فائقة، وصمد كل منهما للآخر. وعندما أدرك كانوت أن كفة ادموند هي الراجحة خشي الهزيمة فطلب السلام والقى بسلاحة على الأرض فتوقف القتال واتجه إلى ادموند وقال له "أننى اشتهيت الاستيلاء على مملكتك ولكن الآن افضلك على نفسي ليس فقط على مملكة انجلترا وإنما على كل أنحاء العالم. فقد اطاعتنى الدانمرك واستسلمت النرويج وخضعت لى أما ملك السويد فهو متفق معي. وبالرغم من أن الحظ يخدمنى ويعدنى بالنصر في كل مكان فإن شهامتك وقوتك قد تغلبنى وتضطرنى أن اتخذك صديقا وشريكا في مملكتي فنحكم سويا مملكتك ومملكتي في الدانمارك"[2]. فوافق ادموند على تقسيم مملكة إنجلترا مع كانوت، فيتولى هو حكم كل من وسكس،

(١) Florence of Wercester, cf. E.H.D., t. I, p. 284.

(٢) Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 297.

اسكس، انجليا الشرقية ولندن فضلا عن كل الأراضى الجنوبية الواقعة على الضفة الجنوبية لنهر التيمس. بينما تخضع الأقسام الشمالية لإنجلترا للملك كانوت[1]. وتلى ذلك تبادل الأسرى والأسلحة ودفع الجزية للدانيين. وعاد الدانيون إلى سفنهم بما معهم من غنائم وعقد معهم مواطنوا لندن معاهدة بعد ان دفعوا لهم مبلغا من المال. وسمحوا لهم بالبقاء معهم طوال فصل الشتاء[2]. وهكذا حقق مشروع كانوت مصلحة للطرفين، فأتاح كانوت لنفسه فرصة لوصول تعزيزات بحرية وبرية من اسكندنافيا وفى نفس الوقت فتح الطريق أمام ادموند لكى يقوم بنفس الدور الذى قام به ادجار المحب للسلام فضلا عن احتفاظه بهيبة أسرته. أما بالنسبة للإنجليز فقد ارتاحوا لهذه النتيجة لأنها أنهت فترة عصيبة عاشوها على مدى نحو أربعين عاما.

ولم يمض وقت طويل حتى قتل ادموند يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٠١٦م أثناء مروره فى إحدى شوارع اكسفورد ليلا حيث هجم عليه أحد المتآمرين وطعنه بسكين حاد عدة طعنات فى بطنه أدت إلى وفاته[3]. ولما بلغ كانوت هذا الخبر دعا إلى اجتماع فى لندن حضره الإنجليز الذين شهدوا اتفاقيه السلام بينه وبين ادموند من أساقفه وايرلات ونبلاء وقادة وسألهم بذكاء وخبث، وهو أدرى منهم بالإجابة، عما إذا قد ورد فى اتفاقية السلام ما يشير إلى وراثة ابناء أو أخوة

---

(١) Florence of Wercester, p. 284.

(٢) Idem., cf. also: Lyon, op. cit., Loc. Cit.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., t. I, p. 292.

ادموند للعرش بعد وفاته وفى حياة كانوت. فأجابوا بالنفى كما شهدوا زورا أن ادموند كاد أن يجعل كانوت نائبا عنه فى الجزء الذى يحكمه، وحاميا لأولاده حتى يبلغ سن الرشد. وفى نفس الوقت كتبوا شهادة يقررون فيها بأحقية كانوت بالانفراد بحكم الجيرة البريطانية لأنه أصلح من يرعى شئونهم ويعمل على حمايتهم. ويبدو أنهم أرادوا بهذه الشهادة أن يحصلوا على مكافأة كبيرة من كانوت. ولكنهم كانوا واهمين فقد غدر ببعضهم وحصل من البعض الآخر على يمين الولاء[1]. واجتمع مجلس الويتان وقرر الموافقة على تعيين كانوت ملكا على البلاد. وعندئذ انهى الملك كانوت أعمال العنف التى كان يتبعها مع الإنجليز وأقسم أمام المجلس أنه سوف يحكم المملكة طبقا لقوانين الملك السابق ادجار ولن يفرق فى المعاملة بين الإنجليز والداني[2]. وفى عام ١٠١٧م توج كانوت ملكا على البلاد ولقب بملك الإنجليز والدانمركيين. واتخذ من لندن عاصمة لإمبراطوريته الانجلوسكندنافيا[3]، وقسم إنجلترا إلى أربعة أقسام، وسكس وقد احتفظ بها لنفسه، انجليا الشرقية ومنح حكمها إلى قائده ثوركل الطويل، ومرسيا وقد منحها إلى ادريك وأخيرا نورثمبريا ومنح حكمها إلى الايرل اريك[4]. ولكن ما لبث

---

(١) Florence of Warcester, p. 285.

(٢) Bryant, op. cit., p. 21l; Robert, op. cit., p. 20.

(٣) Trease, op. cit., p. 26; Bryant, op. cit., p. 22.

(٤) The Anglo saxon chronicle, p. 227; Florence of Werceter, p. 285; Roger of Wendover op. cit., t. l, p. 292.

أن تخلص من ادريك خوفا من خيانته[١]. ونجح كانوت فى المؤاخاة بين الإنجليز والدانمركيين ودعم روابط الود والصداقة بينهما وأصبح يحكم الإنجليز كملك وطنى وليس كغاز أجنبى حتى لا يشعر الانجلوسكسون أنهم تحت حكم ملك أجنبى عنهم[٢].

وفى عام ١٠١٨م أقدم كانوت بعد وفاة زوجته الجيفا Algiva على الزواج من ايما ارملة اثلرد أخت ريتشارد دوق نورمانديا حتى يدعم روابط الصداقة بينهما ويضمن تأييد نورمانديا له من ناحية، وليحد من أطماع أبنائها الفرد وادوارد من ناحية أخرى وكانا يتلقيان التعليم والثقافة الفرنسية عند خالهما فى نورمانديا[٣].

وظل كانوت يحكم الجزيرة البريطانية حتى عام ١٠٣٥م حيث وافته المنية. ولم يكن بين أبنائه من يستطيع الإبقاء على وحدة الدولة بعدة. فعادت انجلترا إلى سيرتها الأولى من الفوضى والاضطراب وأصبح ادوارد هو الشخص المعول عليه ليكون ملكا على إنجلترا. وقد اشتهر باسم ادوارد المعترف The confessor أو التقى لما عرف عنه من التقوى

---

(١) The Anglo Saxon chronicle, p. 228; cf. also: Marten. Op. cit., p. 44; Feiling, op. cit., p. 80.

(٢) Brook, from Alfred to Henery, p. 62; Lyon, op. cit., p. 92; Trevelyan, op. cit., p. 99.

(٣) The Anglo Saxon chronicle, p. 228; Florence of Wercester, p. 286; Roger of wendover, op. cit., t. I, p. 294; cf. also: Corbette, op. cit., p.386.

والورع[1]. وهو آخر من بقى على قيد الحياة من أبناء اثلرد. وقد مات ادوارد المعترف عام ١٠٦٦م دون أن يترك وريثا. وبموته تحركت أطماع النورمان فى نورمانديا للفوز بإنجلترا وفاز بها فعلا وليم النورمانى المعروف بوليم الفاتح سنة ١٠٦٦م.

ونخلص مما سبق ان الهزائم المتكررة التى منيت بها الممالك الإنجليزية المختلفة طوال فترة الصراع الدانى الانجلوسكسونى فى الفترة موضوع البحث إنما ترجع فى المقام الأول إلى تمزق تلك الممالك وافتقارها إلى القيادة الحكيمة، والتنظيم الجيد الذى يحقق لها الأمن والسلام فى مواجهة عدو خطير. هذا بجانب الخيانة بين صفوف القادة الإنجليز والثقة الكبيرة التى يمنحها أولوا الأمر للخونة دون التأكد من أهليتهم للثقة. فجاءت خيانة ادريك ايرل مرسيا تأكيدا لهذا القول. هذا فضلا عن تسامح اولوا الأمر مع أولئك الخونة دون توقيع العقوبة الرادعة التى تحد من هذه الظاهرة.

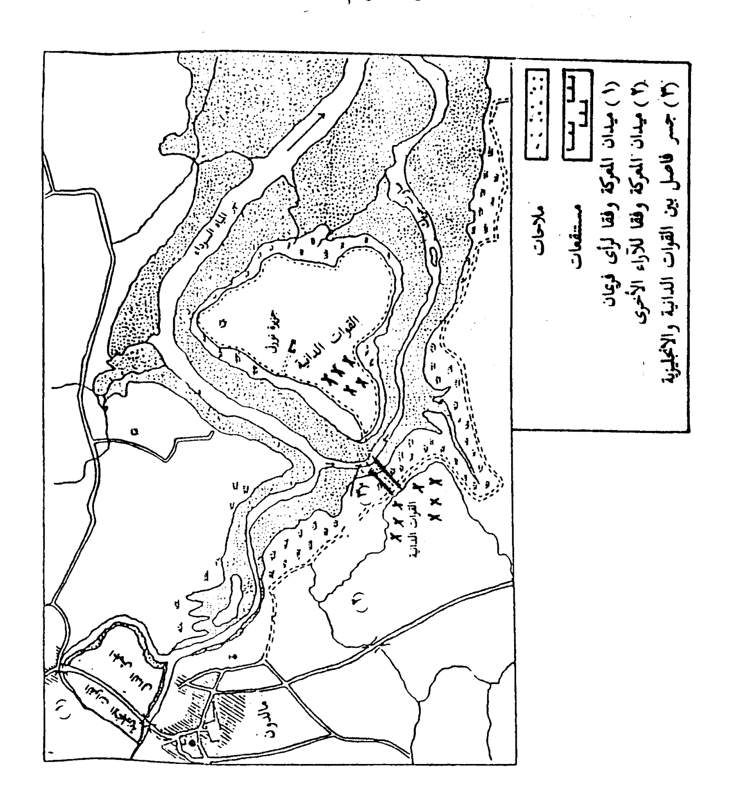
وعرفت انجلترا الهدوء نسبيا عندما تولى ادموند الحديدى مقاليد الأمورفيها خلفا لأبيه اثلرد. غير ان كانوت جد فى تحقيق الأمن والطمأنينة والسلام وفرض النظام على البلاد وخلصها من الكوارث والفوضى التى حدثت على أيام الملك اثلرد. ولكن الأمور ما لبثت أن عادت سيرتها الأولى مرة أخرى بعد وفاة كانوت عام ١٠٣٥م. وظلت هكذا حتى الفتح النورماندى عام ١٠٦٦م.

---

(١) راجع أيضا: محمد الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٦٨.

Haskins, op. cit., p. 74.

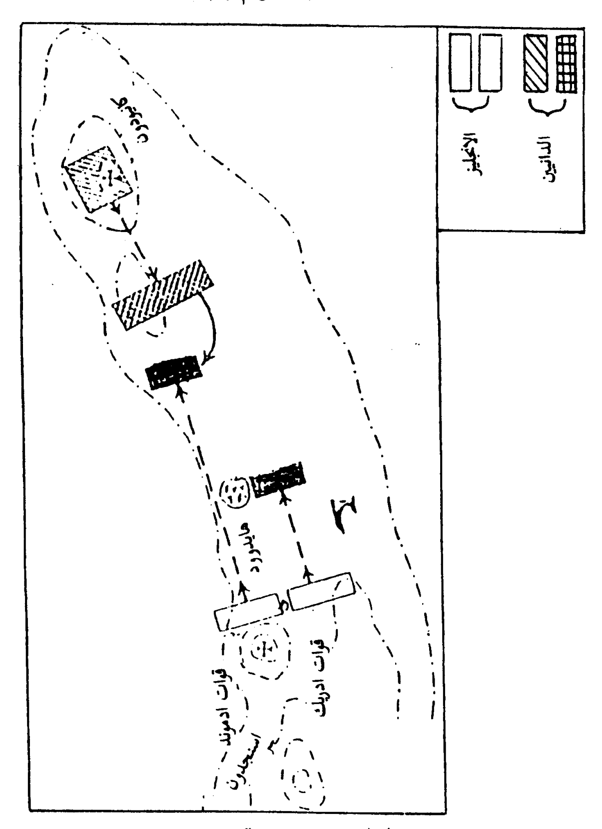
خريطة رقم (١)



خريطة توضح ميدان معركة مالدون عام ٩٩١ م نقلا عن

Laborde, the site of the battle of Maldon, cf. E.H.R., 1925, p. 163

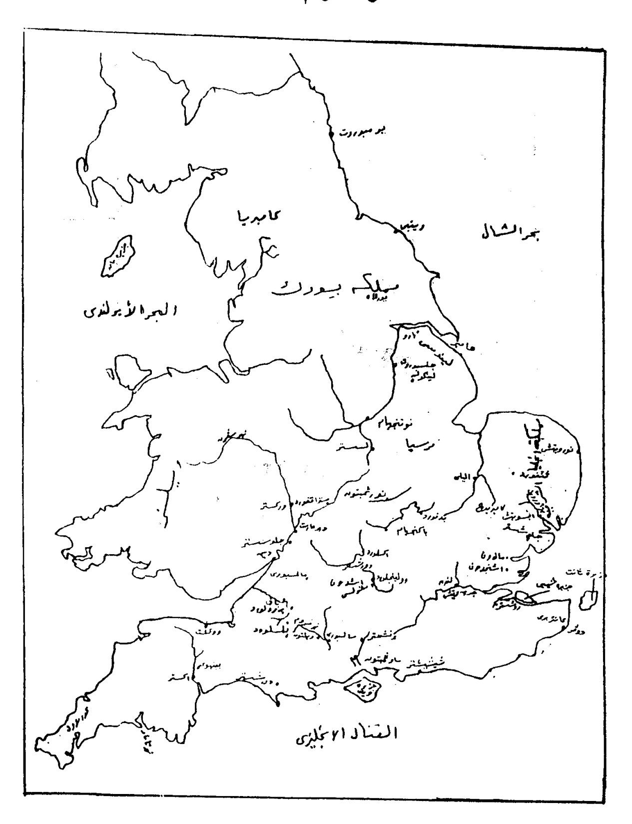
خريطة رقم (٢)



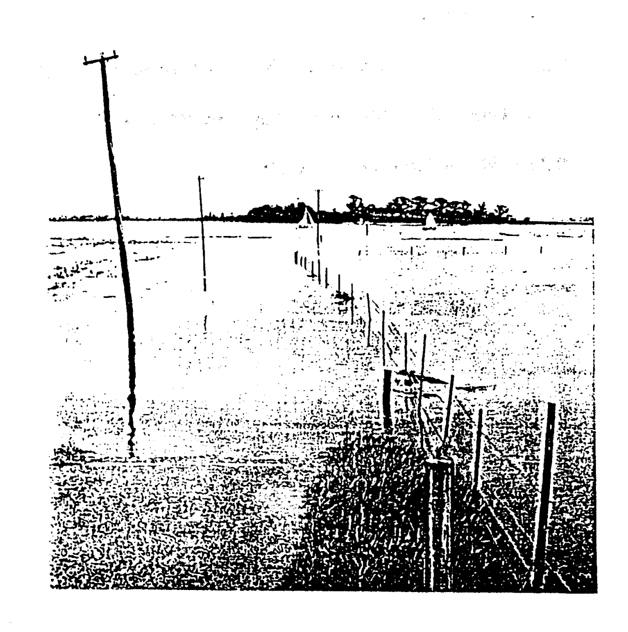
رسم تخطيطي يوضح معركة اشنجدون نقلا عن

Burne, More Battlefields of England, p. 74.

خريطة رقم (٣)



خريطة الجزيرة البريطانية توضح عليها المدن المشار إليها فى البحث



منظر مأخوذ من

Petty, G., Geology and the battle of Maldon cf. Speculum, 1, 1976, p. 445.

بيان بالمختصرات

- E.H.D. English historical Documents.

- E.H.R. English historical Review.

- Cam. Med. His. Cambridge Mediéval history.

- Mod. Lang. Rev. Modern Language Review.

- R.H.S. Royal historical society.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

The Anglo Saxon chronicle, cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 135-235).

Anonymous, Poem on the battle of Maldon, cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 293-297).

Anonymous, quadripartibus, cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 401-402).

Ethelred, King, Ethelred's Edict, cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 409-410)

Florence of wercester, The reigns of the Danish kings of England, cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 284-292).

John XV, (Pope), Letter to all the Faithful concerning the reconciliation of Ethelred King of England and Richard duke Normandy (991), cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 823-824).

Melrose, chronicle of Melrose from A.D. 731 to A.D. 1275, cf. the church historic original text by Joseph Stevenson, London, 1856, (pp. 77-243).

Roger of wendover, flowers of history, 2 vols, London, 1849.

Thietmar of Merseburg, the Chronicle of Thietmar of Merseburg, cf. E.H.D., t. I, London, 1968, (pp. 318-320).

ثانيا المراجع الأجنبية

Brook, ch.,

1- From Alfred to Henery 11 (871-1272), London, 1961.

2- The Saxon and Norman Kings, London, 1963.

3- Europe in the central Middle Ages, (962-1154), London, 1966.

Bryant, A.,

The thousand years of British Monarchy, London, 1975.

Burne, A.,

More Battlefields of England, London, 1974.

Campbell, J.,

1- The Anglo Saxon, Oxford, 1982.

2- Observations on English governement from the tenth to the twelfth century, cf. R.H.S., t. 25, London, 1975, (pp. 39-54).

Clarke, R.,

East Angelia, London, 1960.

Corbett, W.,

England from A.D. 954 tp the Death of Edward the confessor, cf. Cam. Med. Hist, lll, Cambridge 1922, (pp. 371-409).

Eric, J.,

Ware and society in the tenth century: The Maldon Campaign, cf. R.H.S., t, 27, London, 1977, (pp. 173-195).

Feiling, k.,

A History of England, London, 1959.

Gordon, E.,

1- The Date of Ethelred's treaty with Vikings, cf. Mod. Lag. Rev., XXXII, London, 1973, (pp. 24-32).

2- The Battle of Maldon, Manchester, 1973.

Haskins, ch.,

The Normans in European history, New York, 1966.

James, F.,

The Pageant of medieval England, London, 1975.

Kapelle, W.,

The Norman conquest of the north, London, 1979.

Laborde, E.,

The site of Maldon, cf. E.H.R., XL, 1925, (pp. 161-173).

Lawsn, M.,

The collection of Danegeld and Hergled in the Reigns of Ethelred 11 and Cnut, cf. E.H.R., 1984. (pp. 721-738).

Lyon, H.,

The Vikings in Britain, London, 1977.

Mawer, M.,

The Vikings, cf. Cam. Med. Hist, t. III, Cambridge, 1922, (pp. 309-338).

Marten, M.,

The Groundwork of British history, London, 1942.

Orton, p.,

Foundation of the Norman Kingdoms, cf. the shorter Cam. Med. Hit., t. I, Cambridge, 1971.

Petty, G.,

Geology and the Battle of Maldon, Cf. Speculum, 51, London, 1976. (pp. 435-445).

Robert, M.

A Concise history of Britain, London, 1951.

Thatcher and Schwill,

Europe in the Middle Ages, London, 1907.

Trease, G.,

London, A Concise history, London, 1975.

Trevelyan G.,

History of England, London, 1943.

ثالثا: المراجع العربية

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور):

تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٧.

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور):

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٢.

السيد البار العريني (الدكتور):

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦٨.

محمد محمد مرسى الشيخ (الدكتور):

الممالك الجرمانية فى أوروبا فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٧٥.

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٦/٢٨١٦
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-6093-55-8

دار المصطفى للنشر والتوزيع